

تأليف: هانا سبور الأريكية
أكبر مكتبة رقمية

١
وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

المصريون المحدثون

ترجمة
زهير الشايب

تأليف
علاء أحلمة الفرنسية

مكتبة مدبولي
القاهرة





وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

المصريون المحدثون

ترجمة
زمير الشاذلي

بالنسخ
على آلة الحلاقة الفرنسية

مكتبة مدبولي

مكتبة مدبولي : شفا مسور الأثرية
أكبر مكتبة وطنية



حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مندوبولي
الطبعة الثانية
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الناشر

مكتبة مندوبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٧٠٦٤٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

يسعدني أن أقدم هذه الطبعة الثانية من المجلد الأول من الترجمة العربية الكاملة لكتيب وصف مصر ، وهو المشروع الذي بدأ يرى النور لأول مرة منذ نحو ثلاث سنوات بصور هذا المجلد في طبعته الأولى .

وأرجو مع صدور الطبعة الثانية أن يكون قد بدأ يتخذ شكله النهائي أخراجا ومادة .

وقد وجدت من اللائق أن الحق بهذا المجلد دراستين لم يسبق نشرهما في الطبعة الأولى : وتناول الدراسة الأولى البنية الفيزيكية لمسكن مصر وهي من وضع البارون لاري أحد كبار أطباء الجيش الفرنسي ، أما الدراسة الثانية فهي عبارة عن مقدمة مطولة للطبعة الثانية الموسومة وصف مصر التي تعرف باسم طبعة بكتوك والتي صدرت بموجب مرسوم ملكي صادر من لويس الثامن عشر ، أوردت ترجمة له في صدر هذه المقدمة التي أدمعا موريبه سكرتير المجمع العلمي المصري . وهي نفس المقدمة التي نجدها في المجلد الخاص بشرح اللوحات ، في طبعته الأولى الفرنسية ، وقد ترتب على ذلك تغيير اسم هذا المجلد الأول من الطبعة العربية إلى اسمه الحالي « المصريون المحدثون » حيث أن الاسم الثاني أكثر تطابقا مع محتويات هذا المجلد ، من الاسم الأول الذي أصبح واحدة من دراسات هذا المجلد الحالي .

وقد انتفض الأمر لتسميم المجلد في كتابين :

الأول : ويشتمل على دراسة شاپرول التي كتبت بشكل وحدها كل المجلد في طبعته الأولى .

والثاني : ويشتمل على الغراستين اللتين رأيت اقسامتهما الى المجلد
في طبعتنا هذه .

ولا يدنى هذه المقضية السريعة ان اشيد بدور مكتبة الخانجي في
انجاز هذا العمل ، وتيسير السبيل له بما افاح سحور ثلاثة مجلدات منه
من الثاني الى الرابع في عام واحد ، الامر الذي اضل لمجهودنا دفعة
هائلة ، وسيقوج ذلك باذن الله بإصدار لوحات وصف مصر الشهيرة ،
وقد بدأت المكتبة تعد مجتها لذلك ، وقد استقر الرأي على سحور هذه
اللوحات مرفقة بالنصوص بحيث ترافق اللوحات النص العربي الذي
يتناولها ، ويتفق هذا المنهج في النشر مع المنهج الذي اتبع عند نشر النص
نفسه ، فتحية لكل من الحاج نجيب الخانجي والاستاذين محمد الخانجي
ونبيل خليل لما لهم من فضل على هذا العمل . كما سيظل العمل مدينا
على الدوام للدكتور عبد العزيز الفسوقي ولكل العاملين بمجلة الثقافة .

ولو اتنى ونيت كل انسان حقه لما اتسعت الصفحات لاسماء
الشكر لكل ذوي الفضل ، وهم كثيرون بحيث لا اجتنى مبالغاً ولا مجابلاً
ان قلت ان وصف العمل بانه جهد فردي امر يجلى الحقيقة ، وكما ان
ملا كهذا هو مقدم املا للناس غائه قد قام ايضاً بهم .

ومفتنا الله جميعاً لما فيه خير مصرنا الحبيبة وكل وطننا العربي ..

يناير ١٩٧٩

المترجم

تليجرام مكتبة غوامر في بحر الكتب

الكتاب الاول

دراسة في عادات وتقاليد
سكان مضيق المجرشين

ج. دى شابرول
تأليف

تحرير: شمس الدين الأزبكي

قديم

على الرغم من أن وراء هذه الجائزة لترجمة « كتاب وصف مصر » — ككل مبادرة فردية — دوافعها وأساليبها وظروفها الخاصة ، إلا أنها ينبغي أن توضع ضمن إطار أوسع والشمل من تلك الدوافع والأساليب الخاصة لترتبط بذلك الاهتمام الكبير الذي بدأ المفكرون المصريون يولونه لتاريخهم الحديث والمعاصر بعد صدمة يونية ١٩٦٧ .

منذ تلك الصدمة الهائلة ، بذلت الكتب — مؤلفة ومترجمة — نصير ناهما تتحدث عن تاريخ مصر وتؤرخ مصر .. وهكذا لم يصد التاريخ — وتاريخ مصر بالذات — مجرد دراسات أكاديمية لا يتولاها إلا المختصون ، وإنما أصبح ثقافة أصيلة لكل مثقف وطني تشغله أمور بلاده .

ومنذ ذلك الوقت بدأ بتشكيل ذلك الإطار الثقلي الواسع الذي اشهر اليه . ويسعدني أن أضع اليوم في داخل هذا الإطار كتابنا هذا الذي يشكل دراسة كاملة من ذلك السفر الضخم ، الذي لا يلقى شسهرته إلا طول إهمالنا له : كتاب « وصف مصر » أو مجموعة الملاحظات والأبحاث التي أجريت في مصر أثناء حملة الجيش الفرنسي ، وهذا هو عنوان ذلك السفر الضخم كاملا .

وقد طبع هذا السفر الذي اسمى بمق انسكلوبيديا مصرية مرتين :

الأولى : وقد استغرق العمل فيها من ١٨٠٩ الى ١٨٢٢ .

وقد ظهر المجلد الأول منها عام ١٨٠٩ ، وكتب على غلافه وكذلك على غلاف المجلد الثاني أنه قد طبع بأمر صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون الأكبر ، لكن بقية المجلدات التسعة قد ظهرت بعد سقوط نابليون ، لذا كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة .

لها هذه المجلدات التسعة فموزعة على النحو الآتي :

مجلدان : لدراسة التاريخ الطبيعي لمصر ويشتملان على دراسات
من طيور ونبات وحيوانات وأسماء وحشرات ... مصر .

أربعة مجلدات : لدراسة العصور القديمة ، اثنان منها للدراسات ،
واثنان آخران لوصف آثار العصور القديمة .

ثلاثة مجلدات : لدراسة الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر التي
بدا تقريبا منذ الفتح الاسلامي حتى مجيء الحملة الفرنسية لكنها علميا
تعالج أحوال مصر في العصر العثماني وحتى مجيء هذه الحملة .

وتشتمل هذه المجلدات على دراسات عن مختلف نواحي الحياة في
مصر كما شاعدها علماء الحملة ومهندسوها . وبعض هذه الدراسات
طويلة ، بحيث يمكن نشرها مستقلة في كتاب ، شأن الدراسة التي تنشرها
اليوم ، وبعضها متوسط الطول ، وبعضها مجرد ملاحظات لا تستغرق أربع
أو خمس صفحات .

ولقد ركزت مبلى على مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة ، وانبعث بشأن
الدراسات والفكرات القصيرة منهج تجميعها بشكل متكامل إلى بعضها
البعض ، فقد جمعت على سبيل المثال تلك الدراسات المتناثرة في المجلدات
الثلاثة عن أحوال العربان والجماعات والرحل في مصر إلى بعضها البعض
لتشكل في مجسومها كتابا كليا أرجو أن أتمكن من نشره قريبا ...
وهكذا الحال في دراسات أخرى تتناول موضوعات مختلفة .

لما الطبعة الثانية فقد صدرت في ٢٦ مجلدا بالإضافة إلى ١١ مجلدا
للوحات والخرائط الجغرافية . وهي نفس المجلدات التي صدرت مع الطبعة
الأولى وبيتها كما يلي : ٥ مجلدات للوحات العصور القديمة ، ومجلدان
في ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعي ، ومجلدان للحالة الحديثة لمصر بالإضافة
إلى مجلد واحد يشتمل على مقدمة لفورييه مع شرح للوحات ، ثم الأطلس
الجغرافي ويشتمل على خرائط مفصلة لحد والتأثير مصر .

وجدير بالذكر أن محتويات المجلدات الـ ٢٦ هي نفسها محتويات

المجلدات الـ ٩ في الطبعة الأولى للطبعة الثانية كما هو واضح قد وزعت على مجلدات أصغر حجماً من الأولى . والاختلافات بين الطبعتين طبعة يمكن اجمالها فيما يلي :

١ - كانت الطبعة الأولى مهداة الى « الإمبراطور نابليون » أما الثانية فهي مقدمة الى « صاحب الجلالة الملك » .

٢ - بدأت الطبعة الأولى بمجلدات الدولة الحديثة الثلاثة أما الطبعة الثانية فبدأت بوصف آثار العصور القديمة .

٣ - تشتمل الطبعة الثانية على مقدمة تتع في حوالي ١٨٠ صفحة من حجم هذه الطبعة من وضع غورييه ، وتجد هذه المقدمة نفسها في المجلد الأول من اللوحات .

٤ - تشتمل الطبعة الثانية على دراسة لم ترد في الطبعة الأولى وتتناول هذه الدراسة جانغ أحمد بن طولون وحياة منشئه .

وقد بدأ العمل في هذه الطبعة من عام ١٨٢١ وانتهى في عام ١٨٢٩ .



والكتاب الذي بين يدينا اليوم هو دراسة كاملة من دراسات المجلد الثاني من مجلدات الدول الحديثة الثلاثة .

ومؤلف هذه الدراسة هو : جلير جوزيف جاسبار كومت دي شامبول
Gilbert Joseph Gaspard Comte de Chabrol

ويشير اليه باسم شامبول دي فولفيك Chabrol de Volvic

وقد ولد في ريوم Riom سنة ١٧٧٢ ومات ١٨٤٢ (وهذا يعني انه عندما قدم الى مصر كان يبلغ الخامسة والعشرين من العمر) وكان مهندساً للطرق والكباري ، وعين بعد هويته من مصر مأثوراً لمدينة مونتنيوت Montanotte سنة ١٨٠٦ وتقسماً بها طريق الكورنيش . وفي عام ١٨١٢ قبله نابليون بشكل علني وكان شامبول يقضي اجازته في باريس ، ودار بينهما حديث فاجاب به نابليون وعينه مأثوراً للمصن تادار بريس كما ينبغي ان تدار مدينة كبرى وعاصمة لامبراطورية كبرى ، وقد نجح في ذلك

نجاحها كبيرا حتى ان لويس الثامن عشر قد اضطر لاستقباله في وثيلته
الجلدية ، على الرغم من انه قد عين في قبل نابليون .

وتدين له باريس بكثير من الاعمال الرائعة ذلك النفع العلم .

ولعل هذا التعريف الموجز يؤلف هذه الدراسة سيكون سببا قويا
لأمرين :

الأول : ما سوف ندينه من اعجاب حق بقدرة هذا المؤلف الشاب
على الرصد والدليل والفهم والاهلة في مجال بسيط ما يقال فيه انه
ليس مجال تخصصه .

الثاني : القلم المعزله في بعض الأمور التي القيس عليه مهبها ،
بل وفي بعض الاخطاء التي وقع فيها ، وبخاصة في مجال المعتقدات
والشرائع ، ولقد أثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصاً وروحاً لكل
ما ذكره المؤلف خلاصاً بنا ويمتقداتها ، وسوف يلاحظ القارئ انني قد أثرت
عدم التدخل الا في اضييق نطاق ممكن لاعتبارات عديدة لا بأس من طرح
بعضها :

١ — اتنا هنا بصدد اثر علمي هام ينبغي أن يعطى بالاحترام .

٢ — انه ليس كل ما يقال عنا صحيحا على اطلاقه ، وان كان ينبغي
علينا في كل الأحوال ألا نخشى لية فكرة صحيحة .

٣ — انه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة ما يقال عنا ، نتجاهل ذلك
أو الصبت منه ليس هو الوسيلة المثلى ، فذلك الموقف ان يعنى ألا تسليطنا
ولو بشكل مبالغ بصحة ، ومعرفة ما يقال عنا في افضل وسيلة لواجهته
بل ودحضه .

٤ — ان الاتوبياء لا يخافون معرفة ما يقال بشائهم ، ولا اظن احدا
يجادل في قوة مقياسنا .

واتنى فيما فعلت قبا كنت لسدر عن تقديس كبير للإسلام ولتنبه
الكريم ، كما اتنى ولفق اتنى فيما التزمت به من ليفة في النفل كنت تقرب

ما يكون الى روح الاسلام الذي ينبغي اول ما ينبغي على الانتفاع المطبق
والذي كانت اول آية في كتابه الكريم تدعو الى القراءة والفهم والذي
لا يستوى - بنص آياته - الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

بل ان المؤلف لم يكن دقيقا كذلك في حديثه عن بعض الطقوس
المسيحية ، وقد ذكرت ان ترك كل شيء على حاله : ذلك انه لا القارىء
المسلم ولا القارىء المسيحي سوف يلجآن لكتاب وصف مصر لدراسة
الشرائع والعبادات . فلهذه وتلك ، عند هذا وذاك ، المصدر الذي يمرغه
جهدا ..

ويرغم كل شيء على واجب الامانة يقتضى ان أعرف بها على :

١ - اثنى قد خلعت من الجزء الخامس بالاكبتل نصف جملة وجدت
ان اللبابة تقتضى حذفها .

٢ - اثنى خلعت هاشيا كليا اثر عند نشره بسجلة التتابة ودور
مصل لم لكن اتوقعها ، ولا يتجاوز هذا الهلش لريضة سطور .

٣ - اثنى خلعت آخر عبارة في الكتاب (حوالي سطر ونصف) اذ
وجدت من الانخل الا تترك هذه الجملة طمعا مريرا في خلق القارىء بعد
سحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده ان ينصفنا طيلة مؤلفه .

واننى اذ استبوح القراء عثرا فيما خلعت لود ان يشاركني الجبيع
عندما يتكون أثناء القراءة على بعض اخطاء المؤلف ، وظلته في احسن
كثرة بين بعض الطقوس الدخيلة بل وبعض الممارسات الشاذة ، والمعتقد
والمبادئ بشكلها الاثني . لود ان يشاركون في التماس الملز للرجل ، وان
نحاول بروح الاتصاف المعهودة فيها ان نحسب له محاولة فهنا وانصافنا ،
اكثر مما نحسب عليه ما وقع فيه من اخطاء لو سدد فهم لو تسرع في
الصكم ، ذلك ان معيدا من لهكلبه بدت في شكل افكر مسبقا لا تنهض
على اسس حقوقي ، كما لا ينبغي لنا ان نخاض كونه عضوا في حملة
غائرة ، والله مخالف لنا في عقائده ، بل وان كثيرا من فكره انما هو ترديد
لافكار كانت شائعة في القرن التاسع عشر ترى هو ، كسادوي -
وبرنسي بلذات - في كتابها .

ويذكرني الواجب في النهاية ان اتبع خالص تقديري وشكري لشيوخ المؤرخين الدكتور احمد عزت عبد الكريم الذي كان لتشجيعه لكبر الأثر في نفسي للتصدي لهذا العمل الكبير ، كما لوجه خالص تحياتي وموافاتي للاستاذ رينيه حورى مدرس اللغة الفرنسية بكلية الاقتصاد والطوبى السبئية والمغرب على مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وهو عالم فاضل وباحث مدقق ولا يفتقر علمه التقدير الا لانه الجرم مقد كان له فضل كبير على انجاز هذا العمل ، وفي نفس الوقت تانى لشكر أخى الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن استاذ التاريخ الحديث بكلية البنات الإسلامية ، لما قدمه لى من عون ، كما لا بد ان اشكر لى أن مؤلفه الهام « الريف المصرى فى القرنين العاشر » كان محبنا لى على تحقيق كثير من المسببات وايضاح كثير من المطويات .

ولن يغوتى أن لوجه شكرى للاخ الدكتور عبد العزيز دسوقي رئيس تحرير مجلة الثقافة وكذلك الأديب الفنان الاستاذ ثروت اياظة رئيس تحرير مجلة الأذاعة والطلوبون لما قبلنا به دعوى من تشجيع حين لثربنا صفحات مجلتهمما لنشر اجزاء كبيرة من وصف مصر مما أحبا الاحتسام بكتابى لى وقت كاد الكتاب ان يصبح فيه نسفا بتمسده .

كما لى حين لثدى شكرى للسيدة زوجتى مائى لا اتمنى ذلك من قبل اللبقة وانما هو مرتان حقيقى بها قدمت لى من عون كجبر برغم ظروفها الصعبة كاضحية اجتماعية وربة بيت وام . كما لا بد ان لوجه شكرى لعشرات من الاساقفة اولونى قدرا كبيرا من التشجيع مما كان له لى نفسى اثر جليل .

وفى النهاية استطيع التلوى عذرا ان وجد بالمثل بعض الفترات وانه لواجدها — وايكن حسبى من هذا العمل ان لتجو نقاط من اللوم ولن تكون قد قدمت على قدر طاعتى خدمة لوطنى، مصر ، ولواطنى المصريين .

زهر الشبيب

نبرابر ١٩٧٦

الفصل الأول

لمحة عامة عن الطقوس
وعن تقاليد وعادات الصيغ

١

عن الطقس

كانت الآثار المادية لمصر القديمة موضوعا لدراسات عدة وجسدت لنفسها مكانا في أجزاء أخرى من هذا الكتاب (١) ، وقد آتينا على أنفسنا هنا أن نقدم لوحة مختصرة لتقليد سكان مصر الحديثة . وسوف نجعلنا ما قد نجده من ملامح التشابه مع المبادئ القديمة على القيام ببعض المقارنات ، وذلك أمر يستحق منا بالمثل اهتماما كبيرا خاصة ونحن بصدد الحديث عن بلد فطلى به مخولته بالذكريات ، ويغفلونها الفيلسوف في اثر المؤرخ ، لذلك فانه من المناسب أن ندرس الأسباب المخططة التي تؤثر على الطقس وفعل هذا الطقس على الكائنات الحية : وهكذا سوف يكون البشر موضوعا لدراساتنا في نفس الوقت الذي تشكل فيه آثار المبنى القديم موضوعا لأبحاث دقيقة لعلماء الآثار .

تقع مصر في واحد من أكثر المواقع أهمية في الكرة الأرضية . وحيث أنها تقع على أحد طرفي التريقا فهي تربط هذه القارة بآسيا ، كما أن موانئها الواقعة على البحر المتوسط تجعلها — وبشكل ما — تلامس أوروبا . وهي تقع بين خط العرض ١ : ٢٤ وبين خط العرض ٣٧ : ٣١ شمال خط الاستواء ، أما عن خطوط الطول فهي تقع بين خطي ٢٧ و ٢٢ — وذلك إلى الشرق من باريس .

ويكفي هذا الموقع في حد ذاته لكي نضع مصر ضمن المناطق شديدة الحرارة ، لولا أن شدة بعض عوامل تساعد على التقليل من ارتفاع درجة الحرارة . فترموتر ريمور يقف بدرجة الحرارة في منزل مصر السطلي الرطبة ، وفي شهرى يوليية وانسطس عند درجة ٢٤ أو ٢٥ ، بينما تصل في شمال الصعيد في الظل ، إلى ٣٤ ككتبا ترتفع في المناطق

الربطية لتصل الى ١١)٥٤ (. ولا يحدث ذلك بسبب القرب من المنطقة الاستوائية فقط كما لاحظ تولي Volney — وهي منطقة لا بد ان نشوتع ان جوها شديد الحرارة — بل وايضا بسبب التربة نمد بها . وهي في المادة ترتفع قليلا فوق مستوى سطح البحر ، ومنطقة في جزء منها برمال محركة . وهذه الرمال تمتص وتتركز اشعة الشمس — وهي تكون شمس عمودية في نصل الصيف — ثم تعكسها ، انسلط من فوق جبال قليلة الارتفاع ، عارية من اية خضرة على سهول خلقة ليس فيها ما يمكنه ان يحد من لهيبها ، في منطقة تربية من التطفة الحارة . من هنا ، هذا الجفاف الشديد ، وتلك الثخرة في الأبطر التي يمكنها ان تطلب الجو .

وبرغم ذلك ، فهذا الجفاف لا يشمل بدرجة متساوية كل اتجاه مصر ، للمطر يسقط كثيرا في الاقاليم المجاورة للبحر المتوسط وكذا في الصحراوات الواقعة بين وادي النيل والبحر الاحمر ، وتشهد بعض الاقوار المحصورة في أماكن عدة من الهضبة الافريقية بأن هذه الأبطر تكون في بعض الأحيان بالغة القوة لحد تمسح بجمه سيولا . لكن ثمة أمرا بعد واحدا من الملامح المميزة للطقس في مصر . وهو تلك علم في كل المنطقة ، الا وهو تكون الندى بوفرة شديدة ، ولعل له بعض التأثير على خصوبة التربة وبخاصة في الفترة التي يكون فيها مستوى النيل أدنى من مستوى الأرض . ومن ثلوي خصائص هذا الندى ترطيب وثقبة الهواء والمساهمة في خفض درجة الحرارة مما يؤدي في أيام القبط الى وجود فروق هائلة بين درجة الحرارة بالنهار ودرجتها بالليل ، يمكن ان تبلغ ٣٠ درجة ، ويستمر ذلك لمدة سبع أو ثمان ساعات ، وهذا بعض ما يسبب كثرة انتشار امراض العيون على ضفاف النيل كما سنوضح ذلك في نهلية هذا الفصل . وتكاد الأبطر لا تسقط مطلقا في المنطقة الوسطى من مصر . وتشكل ميساه الليسان ، وكذلك الندى الذي يكون في الليل والذي يهبان ومرتته تدعا لاتجاه هبوب الرياح العوامل المختصة الواحدة للأرض . ويعود ذلك الجو الشديد الى حرارة التربة الممتعة وإلى اتجاه الرياح الذي يتحكم فيه شكل الوادي ، وتتكون المسحب بفعل أبخرة البحر التي تحد مصر من الشمال ومن الشرق . وتتفهمها تيارات الهواء ، وهي تيارات قوية لكنها ما أن

تقرب من الحال الى تحصر وادى النيل من الشرق ومن الغرب حتى يصبح نهرها اقل قوة . لذا يستطع هناك المطر في بعض الاحوال .

نزل الجيش الفرنسي ارض مصر في وقت الفيض الشديد ، وهي غمرة سود فيها على الدوام تقريباً رياح الشمال والشمال الغربي ويبدأ فيها النيل في استئصال موحد الفضل الاولى . لقد جاء الجيش في شهر بوليه حيث كانت الرياح التي تنفخ بشده تظلم الجو فوامت من الرمل الناعم الدقيق ؛ ويستطيع سكرى الماء فكذلك ان يحتوا من هذه النوامت داخل بيوتهم . وفي هذا الجو تصبح الاسفار شاقة وشبه مستحيلة ، لكن هذه النوامت تظل من وطأة الحر الذي يقل الاحساس به لدرجة كبيرة في الاسكندرية منه في داخل البلاد — كما ان هذه النوامت تعمل على طرد السحب المترامكة نحو النوبة والعشبة ، تلك السحب التي تصب امطارها فجأة في المناطق الحليية والمطاة بالفيضات . وهكذا فان هذه الرياح العاصفة غير المستحقة تساهم على نحو ما في ازدهار مصر حيث تجعل الفيضات اكثر وفرة .

ويبدأ النيل في الامتلاء في نحو نهلية شهر بوليه وبداية بوليه ، ولا يخضع حجم مياه الفيضان لقواعد محددة . وفي السنوات العادية يصل ارتفاع النيل في القاهرة الى ٨ أمتار (١٤ — ١٥ ذراعاً حسب مقياس جزيرة الروضة) ويصل أحياناً لأكثر من ذلك ، ولكن يكون الفيضان وغيراً ينسى ان يصل ارتفاع النيل الى ١٦ — ١٧ ذراعاً ، عندئذ يبدو وادي مصر — اي اراضيها المزروعة — في شكل بحيرة واسعة ، وتبدو القرى المتناثرة على تلال مناعية كما لو كانت جزراً صغيرة متناثرة فوق مسطح محيط ، وليس ثمة ما هو أروع من هذا المشهد . عليك حتى تصطلي بالاستمتاع به على نحو طيب ان تصعد الى قمة الهرم الأكبر في الجيزة كما يمكنك ان تحيط بجزء من هذه اللوحة الرائعة من أعلى القلعة في القاهرة . ولا تستطيع الأراضي المزروعة والتي تقع على مسافة بعيدة من شواطئ النهر ان تتمتع بفوائد الفيضان ؛ لكنها تحصل على ما يرونها من طريق الترعى او بواسطة ماكينات بسيطة الصنع (الموائى) .

وإبنة خاصية أخرى نجدها في قرية مصر ، هي اختلاطها ببواد بالحة تطفح كل صباح على سطحها ، وبلا جدال فإن هذا الملح الذي يوجد بوفرة في كل مكان يساهم في تنقيط الملح المخصب لطمى النيل .

وفصل الأمطار في مصر هو الشتاء ، وهي تهطل بكثرة في الإسكندرية ودرسيد وعلى كل الشواطئ لكنها لا تستمر طويلا ، ويشاهد عند الماطم المائل على القاهرة أنهار وحفرات لا بد أنها كانت مجارى لسيل تدبى .

٢

من السكان ، وطبقتهم المختلفة

كان تقدير تعداد سكان مصر على النوام عرضة لأخطاء خطيرة ، وقد وقع أغلب المؤرخين المحققين والقائمين في مبالغات كبيرة يمكن لأي توصيف بسيط للأمكن أن يحدسها . وإلى جانب الصعوبات التي تقدمتها الصلة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار في مصر ، فإنها قد هتت كذلك على استخدام الإحصاء في الأبحاث والدراسات التي تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة ، وهكذا لمكن التوصل ليس فقط إلى تحديد مساحة الأراضي المزروعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلى الموضوعية ، بل وكذلك إلى عدد القرى والكفور التي تغطي وادي النيل ، كما لمكن بالمثل تقدير تعداد السكان في مصر وكذا تعداد سكان مهنها الهامة ، وبخلاف ما جمعت أثناء وجودي في مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التي كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان في مصر الحديثة مقارنا بتعداد السكان في مصر القديمة . وحيث أن جومار قد أتم حساباته على محيطات أكثر دقة من تلك التي جمعت حتى الآن ، وحيث أنه أبان عدد الموتى ، وخسومية السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلى أمور أخرى هامة ذات طابع اقتصادي وسياسي ، فإنه قد توصل بذلك إلى نتائج تعبرها قرية من الحقيقة .

ويعد أن قام جومار بالتحقق من تعداد سكان المدن الهامة في مصر والذين في وثائق أصلية مثل سجلات الضرائب المقررة المسوكة بأيدي الإداريين الأقباط ، ويعد برهجة يياقت الوثائق التي جمعها المسيحيون

دى جيهنت Desginettes لتسام ثلاث سننولات هي عمر حملتنا وكذلك احصاءات المواليد التي جمعها المهندسون الفرنسيون . نقه — اى جومار — قد استخلص نتيجة شبيهة مؤكدة من تعداد الشعب في مجموعه . وسوف اكفى هذا بايراد فكرة من ملخصه قسم نتيجتين متقاربتين وصل اليهما من طريقتين مختلفتين : * ان تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة لم حصر عدد السكان في جزء محدد من مساحة البلاد يؤدي بعد تعميم هذه النسبة واضافة الناتج الاجمالي الى عدد سكان القاهرة الى نتيجة شبيهة مؤكدة وهي ان تعداد سكان مصر يبلغ ٢٤٤٢٠٠٠ نسمة . لما الطريقة الثانية لقد بينت ان عدد قري مصر يبلغ ٢٦٠٠ قرية وان متوسط سكانها هو ٢٤٠ شخص لكل قرية اى ان تعداد سكان القري يبلغ ٢٦٠.٢٤٠.٠٠ نسمة وبالمساحة سكان المدن الى ذلك الرقم فان تعداد مصر يبلغ ٢٤٦٧٠٠٠ نسمة » .

وحسب ما سبق فقد حدد تعداد سكان مصر بحوالى ٢ مليون من السكان ، ولا يدخل ضمن ذلك مطلقا عدد العريان الذين يعيشون الصحراوات والذين لا يمكن انضمامهم لتعداد دقيق ، لكن جوسيف جوبير Jeubert من جهة اخرى يقرر عدد العريان حسب الاحصاء الذي قام به بـ ٢٧٠.٠٠٠ فارس ، فاذا ما الفينا اليهم نفس العدد لاشخاص راجلين وعدد يتناسب مع ذلك من السيدات والاطفال فان مجموع تعداد لناء قبائل العريان سوف يرتفع الى ١٣٠.٠٠٠ نفس .

ولكى نقدم للقارئ فكرة من مختلف طبقات السكان في واحدة من مدن مصر ، سوف نفتح تحت نظره جدولاً من سكان القاهرة ، ولقد سجلت علينا اقلية الجيش الفرنسي في هذه المدينة الايام باحاطنا بشكل طيب لقد نستطيع معه ان نضبط تفكيرنا باننا — شخصياً — قد حصلنا في هذا الخصوص على معلومات شديدة القرب من الحقيقة .

كثرت القاهرة في عام ١٧٩٨ تقسم ما بين ٢٥٠ — ٢٦٠ ألفاً من الأشخاص بما في ذلك المالك والتجار الأجانب ، وقد قدر تعدادها بحسب احصاء تم قبل مجيء الحملة الفرنسية بـ ٢٠٠.٠٠٠ نسمة ، ويسكن تقسيم هذا العدد على هذا النحو :

— المالك بما فيهم جنود الأوجاكت وعلى وجه العموم كل الفرق
المسكينة المكونة من رقبى تم تحريرهم بعد ذلك مثل المالك ١٢٠٠٠ ر.

— المالك ٦٠٠٠ ر.

— التجار الذين تمت عملياتهم الى خارج البلاد ٤٠٠٠ ر.

ويتضمن هذا الحد التجار الأجانب الذين لا يستقرون في القاهرة الا
لوقت محدد مثل اولئك الذين يمتلكون محلات في خان الظهلى والذين
لا يستقر محلهم فيها ، وكذلك التجار القاهريين من لزمير والتسطنطينية
ويخداخ وحلب وجدة وينبع ... الخ ، وهم يملكون الى القاهرة مع البضائع
التي يبيعونها ويرحلون بعد ثلاثة او أربعة شهور محلين يبيعون أخرى
منه المودة .

— حرفيون يستقرون سواء كانوا اسطوانات او عمل
ماديين ٢٥٠٠ ر.

— صغار تجار القطعامى الذين يبيعون المكولات
واللبن والارز والخضروات ومواد أخرى ٥٠٠ ر.

ولا يملك هؤلاء على الإطلاق أى راسمال فهم يبيعون في النهار
ما يحصلون عليه في الليل استدانة من تجار الجملة ويضمون من نتاج
بيعاتهم كل اسبوع . ونادرا ما يكون هذا التجار ميسورا بل ان حاله
كثيرا ما تتدهور يوما بعد يوم حتى ينتهى به الامر بان يهجر هذه المهنة
ليحترف عملا آخر .

— القهوة : أى اصحاب تلك المحلات التي يقدمها الناس من
مطبخ الحسوف ليتناولوا القهوة والشربك ويدخنوا ويستمعوا الى
الموسيقىين والرواة .. ٢٠٠٠ ر.

وهؤلاء الناس يشربون كل يوم ما يرونه ضروريا لاستهلاك اليوم .

ويستلزم هذا النوع من الصناعة رأس مال قليل إذ تكفى . بـ بوطاقة (١)
(خردة) لاتشاهد معى جميل ولذبح ليحار المحل الذى يتخلله ولتجهيز الاتلات
والآنية اللازمة (٢) .

— خدم ذكور : تونس ، سلس ، سقاء ، لرائى ٢٠,٠٠٠

— سال ، صالون ، عبال يومية ١٥,٠٠٠

اجمالى الذكور البلقين = ٩٩,٠٠٠

ويمكن أن يصل عدد النساء البلقات الى : ١٢٩,٠٠٠

كما يمكن أن يصل عدد الاطفال من الجنسين الى ٧٥,٠٠٠

ويذا يبلغ اجمالى عدد سكان القاهرة الى : ٣٠٠,٠٠٠

ومن بين الـ ٩٩,٠٠٠ شخص من الذكور يمكن أن نحصى على الأقل ٢٦,٠٠٠ شخص ليست لهم بحكم سنهم زوجات (٣) . وليس ثمة اسرة
ميسورة ولو قليلا الا وتمتلك على الأقل بعض العبد المسود ، ويستطيع
الأوربيون المقيمون فى مصر أن يشتروا هم ايضا عبدا ليصلوا الى خدمتهم ،
وهذا أمر غير ممنوح به فى بقية ولايات الباب العالي .

(١) تسلاوى البوطاقة ٩٠ باره ، وقت اقليمنا فى مصر ، كانت البارة
تساوى تقريبا ٤ سنتيمات وكانت تسلاوى من قبل ٧ سنتيمات ، وقد
تلاصت بينها الآن كثيرا .

(٢) يوجد فى تركيا مثلبا يوجد فى مصر عدد قليل من مال هذه المحلات .
ويتكون القفا من مقدم طويل بلا مساند ، مستدير او مستطيل بحسب شكل
المحل ، وتوضع على هذه المقاعد مصر (حصيرة) ويتمد الأتراك على
هذه المقاعد ليدخنوا التارجيلة ولتفكروا ويشربوا القهوة بلا سكر . ولكن
التجمع هذه تسمى بالتركية كليئاي ويديرها عادة رؤساء الكولوك : اى
البريد العربى .

(٣) توصل المسير جومار بعد حساب لاسمه على النسبة القائمة بين
عدد الموتى وعدد المولودين وكذلك تعداد الأحياء الى تقدير عدد سكان
القاهرة بـ ٢٦٢,٧٠٠ نسمة .

وفي أثناء حرج على بك ، كان عدد دوله النقل في القاهرة مثل
الحمر والبغال يصل الى ٢٢,٠٠٠ لكن عدد البغال ضئيل لحد كبير ،
ويمكن ان يبلغ عدد الحمر المستخدمة في النقل داخل المدينة او ضواحيها
ولنقل المراكبة واحصاء المراكب بلا اثنى مائة حوالى ٢٠,٠٠٠ حمار .
ولا يعرف المصريون حيلة استخدام العربات لنقل بضائعهم وهذا
ما يشاهد لحد كبير من عدد الحيوانات التي تقوم بهذا الدور . ويستخدم
الجمال للمسافات الطويلة ، وحيث ان الحمار لا يتطلب نفرا من العناية مثلما
يطلب الحصان فانه يستخدم كدابة لغالبية السكان . وكان منسوبا على
الاوروبيين لوقت طويل ان يستعملوا دابة اخرى غير الحمار بل كان عليهم
اذا ما قليلوا اثناء جولتهم مملوكا يسبقها ان يفرلوا كلبه على الارض قليلا
على الاحترام . كذلك كان الامر بخصوص اليهود والاروام وبقية الرعايا
الاخرى . ويبلغ عدد سكان مصر القديمة من ١٠ - ١١ الف نسمة من
بينهم ٦٠٠ من المسيحيين النسطورية .

وقد حان الآن الوقت لكي نتحدث من الديانات التي تنقسم سكان
مصر . ونبدأ على حدة حيلة من ذلك .

٣

عن الاديان المختلفة

نبحث في مصر على وجه التقريب كل مبادئ ومذاهب الدين
الاسلامى (ﷺ) ويمكن ان نقسمها الى ما يلى :

١ - اتباع المذهب الحنفى ، ويعتق ملاط القسطنطينية هذا المذهب ،
لذا تحتم ان يكون تافى العسكر حنكيا على الدوام ، ولكن ذلك ليس بالامر
الحضى بالنسبة لفضاء الاقاليم . وكانت حكومة مصر السابقة (على مجيء
العبلة) تتبع بالمثل المذهب الحنفى .

(ﷺ) من الواضح ان المؤلف لم يكن ملما الا بالمذاهب الاسلامية السنية
فقط .

٢ — أتباع المذهب الفلسفي : وهذا المذهب هو أكثر المذاهب انتشارا في القاهرة وهو مذهب المشيخ والملة .

٣ — أتباع المذهب الملكي .

٤ — أتباع المذهب الحنبلي : وأتباع هذا المذهب يلقبون لحد كبير .

وسوف يندعش القارئ الذي تعود على النوم أن يقرأ في كتب التاريخ من المعارك الدامية التي تتبع حركات الانتشاق الدينية حين يحرف أن كل هذه المذاهب بتسلحها غلبة التسليح فيما بينها وليس ثمة أي عداوة أو تنافس . وليس ثمة أي اضطهاد من جانب أتواها ، كما لا يفكر أحدها على الإطلاق في الحصول على اتصال له من أبناء المذاهب الأخرى ، وهذا ما يدل على اعتدال شديد ، بل أن أتباع المذهب الحنبلي يتجهلون عن أتباع بقية المذاهب بأنهم أكثر ضلالتهم .

ويمكن أن نعد الطوائف الآتية بين المسيحيين :

الكنائس

١ — طائفة كاثوليكية وتبع البابا .

٢ — طائفة من البراطقة ونفخس لبطريرك . ويتبع هؤلاء آراء أوتريخوس وبسبيريوس ولكن مع اختلافات كبيرة . وهم يتكلمون الطيمية المزدوجة للمسيح .

الكنائس

١ — الكاثوليك : ويخضعون للبابا .

٢ — النسخون ويخضعون لـ : بطريرك : واحد في القسطنطينية ، وآخر في القاهرة ، وثالث في دمشق والرابع في القدس .

الأرضين

- ١ — الكاثوليك : ويخضعون للبابا .
- ٢ — الميثاقون : ويخضعون لحد البطركية .

المسارونيون

- وهم كاثوليك ويخضعون للبطريرك في لبنان .
وليس في مصر لا كاثوليك ولا لوثريون .

وينقسم اليهود في مصر ايضاً الى طائفتين أهمها طائفة القرائين .
وهيما بمساجدتان هما بنهيا . أما بقية طوائف هذه الديانة والتي نحدث
منها نيبور Niebuhr في كتابه Voyage de L'arabe لمجهولة تماماً في
مصر وإلى كل وادي التهل .



عن الأقباط بشكل خاص (١)

لعل أكثر الطوائف اثارة للاهتمام من بين كل مكنى مصر هي طائفة
الأقباط بلا جدال ، ذلك أنهم يحثرون النسم أحياناً للمصريين القدماء

(١) من ثلاثة الدول أن نذكر بقنا هنا بسدد اثر طمس يقتضى الواجب
نقله بأمانة نصاً وروحاً ، ومع ذلك فيجدر بالذكر بأن الصورة القائمة
هنا هي نموذج لحالة كل المصريين باختلاف طوائفهم في ذلك العهد حيث كان
كل أبناء مصر يمتعون وأن اختلفت الصعج والادعاءات بحسب مقتضى الحال
وبرغم ذلك فإن الصورة هنا تختلف في كلياتها ، بل يصل الاختلاف أحياناً
لحد الانفطس مع ما جاء في دراسات أخرى بوصف مصر نذكر منها على
سبيل المثال ما جاء بدراسة دى بوا — اييه في وصف مدينة سوف . وما
جاء بدراسة لانكزيه من تنظيم الضرائب على الأراضي الرعامية وكذلك
ما جاء بدراسة جيرار من الزراعة والتجارة والصناعة — كما أن بعض
ما جاء في هذا الفصل لا يمكن الصلح بوضعه بحال من الأحوال بل لا يمكن
تصور طرحه على الإطلاق فليس هناك ما هو ليس من خطفه (المترجم) .

كما يعرفون في لغتهم وفي المسلمات التي سبقتها الأحداث التاريخية بما يرحح
 كلمة مثل هذا الادعاء . ومما لا جدال فيه أن لهم بلحا غير قيا شديد القرب
 من بلح الاغريقين لحد يكفى لكى يصفيا على ان تنسب لهم اصلا يعود
 الى الدولة القديمة ، ولعل بمقدورنا ان نفترض ان جسمهم قد استطاع ان
 يظل نقيا ، بعيدا عن اى اختلاط بالاغريق اذ ليس ثمة بيدما اى ملمح من
 تضليه . وعندما استولى الاسكندر على مصر واستقر فيها الاغريق بشكل
 دائم تحت حكم البطالمة فلابد ان كان ثمة جنسان مميزان ، وبند ذلك
 الوقت أصبح المصريون ، الذين عرفوا بلسم الاتباط ، يتشكلون طائفة
 منزلة بالرغم من الغزوات المتتبعة من الرومان والعرب والعنصيين ،
 وما تزال هذه الطائفة بمنزلة تباها حتى اليوم من بقية الاجناس التي تشكل
 الان الجزء الأعظم من سكان مصر .

بند الايام الاولى للمسيحية ، ارسل بطرس الرسول الى المصريين
 القديس برقص كى يشرهم بالانجيل ، فاجتبت فسلحته وحماسه على
 النور المعلوم ، واصبح له جمهور من الاتباع . وهكذا تأسست كنيسة
 الاسكندرية التي أصبحت ذائعة الصيت في الشرق . ولكن ، بعد ذلك ،
 تفابت آراء اوتيفوس ونسطريوس ، وظلت هذه البذور الاولى للانقسام
 تصل صيلا حتى اليوم .

وللأباط منشآت دينية بالغة الروعة كما نرى في كثير من الكنائس
 والاديرة الخرية ، كما أنهم اشلوا في مصر العظما على وجه الخصوص
 كنائس رائعة . ويبدو الصعيد بمثابة مهد لهم ، فقد كانت اعدادهم هناك
 على الدوام كبيرة وما يزال الأمر كذلك حتى اليوم ، لكنهم بعد كثير من
 القتلوات والأزمات السياسية لقوا مصر سكان مصر الآخرين ، ذلك ان
 دياقتهم بعد ان فقدت جزءا من سطوتها التي اكتفتها سيطرة الابطارمة الرومان
 فقدت كذلك جزءا من عظمتها وازدهارها ، ورغم ذلك فقد ظل لهم ما يقرب
 من مائة دير من بينها خمسة اديرة خاصة بالنساء اللهن منها في القاهرة
 وواحد في مصر القديمة وآخر في مكان منعزل بالقرب من منفوط ، وهذا
 الدير الأخير مثال لحالة بالغة الندرة والشذوذ بشكل غير مستحب ، فهو
 ينقسم الى قسمين منفصلين : واحد للرجال وآخر للنساء ، يشبهما بما
 سر واحد فون ان يكون ثمة — رغم ذلك — اى اتصال بينهما ،

ولا يلعب الاصل في مصر الا دورا غنيا ، وبهارة شعبهم هي مصدر حياتهم ، وقد استطاعوا تحت حكم الاتراك أن يحتفظوا بجزء من المبدأ الإداري لم يخرج مطلقا عن أيديهم منذ المصور بلغة القدم هو مسك سجلات الضرائب والدخول والمكبات ، أي أنهم بالخضار المليون بمساحة مصر ، ويتمون بأنهم لم يكونوا على الدول في ملهم هذا على درجة كلية من الأمانة والنزاهة .

وهم يقومون بعملات تقسيم الفركتات الحضرية ، وهم كتبة مصر الحقيقيون كما أنهم أيضا مسلموها وقد انهك عليهم في دراسة لسون الصناعة . وتحشى الأديرة بفعل الهبات ومن طريق دخول متواضعة تأتي من بعض المكبات الضئيلة التي احتفظوا بحق استغلالها ، كما أنهم يقومون بمساعدة لقرائهم من طريق جمع تبرعات مسجلة ، ويقوم بجمع هذه التبرعات مغتصبون يختارهم البطريرك على الدول من أبناء الممتلكات الكبيرة ، وريعتهم بسطاء في ملابسهم وطعامهم كما أن الرزق - أي للفحول - المنووعة لهم لا تكفيهم الا مع الصرمان الشديد ، لذا فهم لا يكتفون في اليوم سوى مرة واحدة ، ويكون طعامهم من الخضر قليل من السمك ولا يسمح لهم بكل اللحوم الا في أيام الأعياد . وملابسهم مبشرة من رداء كثاني طويل ، والراحيات لمن يلمس من هؤلاء لبسا .

وهكذا أمكن للأتباط أن يمتدوا في شكل لمة متحدة داخل بلد منهم ، ويعطي مجتبعهم الصغير لمر بفضل بعض الانتظمة المكتسبة من الفهم التجيلية مظهرا من مظاهر الاتحاد والوفاق والآلفة ، وهو أمر نادر في تلك البلاد التي نكبت بالطين والاسياد .

ويرغم هذا لأن الأتباط لا يظنون من الميوب - وهذه الميوب إنما هي نتيجة حتمية لتلك الحالة من الاذلال التي لقنوا إليها تحت حكم الاتراك ، بحيث أنهم كفوا على الدول مضطرين للاستكفة والتظاهر بخلاف ما يظنون لقد أصبحت الخابية منهم لتصف بصفات الجشع وبخلاق الاجراء المرتفعين . وهذه بالتأكيد هي مسيرة كل للشعوب المظهرة على مدار التاريخ ، فالتعاس

والوحشية هما النتيجة الطبيعية للعسودية والأذلال (١) .

ومع ذلك فقد بقيت لهم على الأقل حرية العبادة ، ذلك أن محمدا الذي كان سياسيا محكما قد ترك للشعوب التي خضعت لسيطرته حرية ممارسة شعائهم الدينية كما ترك لهم الحق في أن يسبوا أمورهم بموجب قوانينهم الخاصة ولكن داخل إطار سيطرة النظم الإسلامية ، وقد سار على نهجه القويم الخلفاء من بعده ، ولعل الديانة الإسلامية تدعينا سلاحها السريع لهذا الاعتدال الحكيم أكثر مما تدعينا لقوة السلاح . وبهذا يكن الأمر كأن الأقباط — وعموما كل مسيحيي الشرق — قد لعبوا دورا في سياسة بلادهم بن أن الممالك أنفسهم لم يكن يفتنورهم أن ينهوا امتيازات كهذا بدعمه مبادئ دينهم أكثر مما تدعمه العبادة وعمل الرمن (٢) .

وتتخذ أمة الأقباط كرئيس أعلى لها وكرميم ديني وديوي جبرا هو الشخصية الأولى في الكنيسة وقلب البطريرك ، ولا تعرف لسلطته حدود إلا ما تفرضه العادات المستقرة وأرادة حكام البلاد . وهو يفصل في كل العلاقات التي تقع بين كل رعيته . لكن حكمه في ذلك ليس نهائيا إذ يمكن للأطراف المتنازعة ، باتفاق فيما بينها ، أن ترفع الأمر إلى القاضي ، الذي يقر عبادة حكم البطريرك ، أما الجناح والجرائم فتصالح بطريقة أخرى ، فبطريرك لا يفصل إلا في الجرائم الصميرة التي لا تتطلب إلا عقابا أصاحيا ، فعندما يتهم قبطي على سبيل الخلل بالسرقة من أحد المسلمين ، فإن المسلم يرجع شكواه إلى البطريرك . أما إذا كان المسلم — على عكس ذلك — هو

(١) مما يبين إلى أي حد كان الأقباط يحفظون من قبل المسلمين أن هماتهم ينبغي أن تكون من لون واحد مما يؤدي إلى التعرف عليهم من بعد ، ويمكن أن يقال ، إلى تعرضهم لفرية العلية ، ولا يسمح لهم مطلقا بأن تكون لهم حماية تمثل عملية المسلمين . فهي مبصرة من شريف ضيق يك حول طربوش يغطي الجبهة . ومع ذلك فإن الأقباط فعليا يتوجهون إلى الأقباط لتحصيل الشرائب منهم لا نقلهم أحداث من قبل المسلمين وليس هذا بفعل الاعتماد الطويل ، بقدر ما يعود إلى وجود قوة من الجنود معهم لحمايتهم .

(٢) لعل القارئ قد لاحظ هذا التناقض فيما يذكره المؤلف هنا وما سبق أن ذكره في بداية هذه الفترة . (المخرجم) .

المسروق فإن القبطى يرجع شكلته أمام القضاة أو يطلب العدالة من حاكم المدينة نفسه ويقوم الطرف القبطى بنفسه بتقدير حقوقه أمام المحاكم .

أما حوادث القتل والجرائم الكبرى ، فلمست من انفصال محكمة البطريرك ، فهم من انفصال الضباط المكلفين من قبل شرطة المدن بمطاردة ومراقبة كبار الخسعين . وفى بعض الأحيان يتمكن الخلب من التماس من القبط من طريق دفع مبلغ من النقود أن يمسكون بسوء العدالة — ويحدث هذا أيضا بالنسبة للمسلمين .

ويختار البطريرك على الدول من بين رهبان دير سان انطوان ويتم ذلك بالانتخاب ، وعندما يراد اختيار خليفة له على المطرنة وكبار القسس ينضمون الى كبار رجالات الأمة القبطية .

وتتكون الجمعية الصومية من ٤٠ — ٥٠ شخصا ، ثم يقرهون فى عملية الانتخاب ، ويعلن المراهب الذى يحصل على اكبر عدد من الأصوات فى منصب البطريرك .

ويشكل المطرنة المسك الثقل من هيكلرئيسية الكنيسة القبطية ، وليس لهؤلاء السلطة من دخل الا ما يحصلون عليه من هبات من اكلهم . ويبلغ ايراد كنيسة المعصية حوالي ١٠.٠٠٠ بوظقة (خردة) وهو ايراد بعض المنشآت الخيرية المخصصة لها وهذا الدخل البسيط هو اساس دخل البطريرك ، لكنه يستطيع على الدوام ان يعثر على الوسائل التى يزيد بها شخصياته الثرية ، وهى دخول مرضية (غير ثابتة) لكنها تمثل فى بعض الأحيان الى رقم كبير للخفية . والاستكفارية هى مقر البطريركية . لكن البطريرك يقيم فى القاهرة حتى يكون فى وضع يمكنه من رعاية مصالح شعبه والدفاع عن حقوقه أمام السلطة المسلية .

ويتبع رجال الدين من الدرجة الاكبر أيضا باهمية كبيرة ، لكنهم جهلة وفقراء ، وتسمح لهم قوتين كنهستهم بالزواج الذى ينفى أن يسبق رسالتهم . ولا يسمح لهم بالزواج طيلة حياتهم الا مرة واحدة . وعندما يموت أحد القسس الاقباط يتجمع كبار رعاياه كي يحددوا لطران قولاية رجل الدين الذى يبدو لهم اكثر جدارة بولاية المنسوف ويمين المطران على

النور القسيس الذي وقع عليه اختيارهم . وكل الكنائس ملوكة لهيئة رجال الدين ويصرف عليها من الهبلة والتبرعات .

ويقال القبطى لغة صهياء فى صلاوة طلقته ، ولؤلؤاء القسيس تلمح كبير على النفوس . ويقلوهم - بقليل من الحيلة - أن يسهروا استغلال ذلك التقديس الذى يحيطهم النفس به ليعودوا بالنفع على انفسهم . لكنهم فى غالب الاحيان جهلة مثل بقية أبناء الشعب ، وليس لمة بينهم الا عدد ضئيل للمعيا قد وصلوا الى درجة من العلم يستطيعون معها ان يقرأوا كتب اللغوس الدينية وهى الكتب الوحيدة التى ما تزال تستخدم اللغة القبطية حتى اليوم (١) .

ويفرغهم من هذا التقدير العميق لرجال الدين لأن القبطى لا يسبح لزوجه أن تسهر عن وجهها أمامهم (ونحن هنا نتحدث فقط عن الطبقة المتوسطة منهم) بل إن البطريرك لا يمكنه ان يرى سيدة ساهرة الا اذا كان زوجها هو الذى سبح بذلك ومن طيب خلطه .

ولؤلؤاء الأقباط أيام الصوم وإيام للأعياد الدينية هى على وجه التقريب نفس أوتاننا . وبمثل الاختلاف الوحيد فى طول المدة أو قصرها وكذلك فى طريقة إداها . وعدد مناسبات صياهم أربع مناسبات فى العام وهى تسبق الأسرار الكبرى لدمائتنا ، والصيام السابق على عيد الفصح (القيامة) هو أطولها حينما وهو كذلك أشدها مشقة . ويبلغ طوله ٥٠ يوما . ولا يمكن للمسيحى طيلة هذه المدة أن يتناول سوى وجبتين فى اليوم ، ويضع تياما من تناول اللحوم والأسماك وكل ما له روح على وجه الصوم . وتابر الكنيسة بأن يمتنع الناس عن إدخال أي شيء إلى أفواههم حتى ولو كان دخان التارجيلية قبل الطهيرة وهى موعد الوجبة الأولى . ويستمر الصيام السابق على عيد الميلاد ٤٢ يوما ويبلغ صيام الفراء ١٥ يوما ويتراوح صيام الرسل بين ١٥ - ٤٠ يوما حسب المسافة الموجودة بين عيد الميلاد والصوم الكبير . وهم طيلة أيام الامساك (الصوم) لا يتناولون سوى

(١) يمكن القول بأن اللغة القبطية كانت هى اللغية المحلية للمصريين القدماء وأن رموزها ليست سوى الحروف اليونانية مضافا إليها بعض الحروف لاستعجاب الأصوات التى ليس لها شبيهة فى اللغة اليونانية .

وجيبين : واحدة عند الظهر والأخرى في المساء ولا يمكن تناول السبك أو البيض أو الألبان دون الحصول على إذن من المطرنة وفي بعض الأحيان لا بد من اللجوء مباشرة إلى البطريرك ، وبخصوص مدة الصيام وممارسته ، فإن ثمة تشبيها كبيرا مع الكنيسة اليونانية في الشرق ، وغفلا عن ذلك فهناك عدد كبير من الروابط بين الطائفتين . وليس هذا مما يبعث على الدهشة ، فاصل الكنيستين واحد كما اتفهما بفهمان على وجه الترتيب نفس الجادى .

ويلزم الأقباط كذلك الاعتراف ، وهم يشتركون في هذا الطقس الدني مع المسيحيين عمومًا ، لكن ثمة عادة حاسمة بهم تبدو متناقضة نسبيًا أو على الأقل غريبة من مذهب المسيح تلك هي عادة العتال للجنسين (١) . وبالرغم من أن هذه العملية ليست فيها يلو الزامية بالنسبة لكل الأقباط ، فثمة مع ذلك يفسحون لها إما بفعل الإعتدال وإما بفعل الإنكار المسبقة . وتصر الأساقفة على ضرورة ختان الأطفال إذ يتصورون أن لبناءهم لن يكونوا يصلحين للتعجب ما لم يسروا بهذا الأمر المؤلم .

وفي الصعيد يختن كل الأقباط ، لكن عددا كبيرا منهم في القاهرة يرفض ذلك ، لكن عادة ختان الأطفال المستقر شائعة في كل مكان ، وهي تتم دون وساطة القسيس ، ويختن العتال في سن السابعة أو الثامنة . وينتهي يوم هذه العملية عادة بعيد عتلى . لكن ينبغي أن يسبق الصناد مياة الختان ويطلق الأطفال سر القربان المقدس في فترات تختلف بحسب الجنس ، فهو يتم بالنسبة للذكور بعد ٤٠ يوما من ولادتهم وبالنسبة للإناث بعد ٨٠ يوما .

ويسارع الأقباط تزويج أولادهم ما أن يروا أنهم قد طفوا بس البلوغ وكذلك يتم تزويج الفتيات في سن الثانية عشرة بينما يتزوج الأولاد في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . ولا ينبغي أن نلحش لمثل هذه الزيجات التي تتم هكذا قبل الأوان في منطقة كهذه يعمل فيها الطقس على سرعة نمو الجسم كما يعمل على إثارة الشهوات منذ سن مبكرة .

(١) يبدو أن هذه عادة قد انتقلت إليهم من قدماء المصريين الذين كانوا يمارسون هذه العادة . انظر هيرودت : الكتاب الثاني . فقرة ١٠٤ .
ترجمة لأرشيبه Larchet

ويرسل الأقباط أولادهم الى مدارس صغيرة ، حيث يتعلمون القراءة والكتابة الى جانب المبادئ الأولى للدين . ويمنح بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز ، لكن الفتيات لا يستطيعن الذهاب الى المدرسة الا بموافقة أمهاتهن اللاتي يعترضن على ذلك في بعض الأحيان . ولم نشاهد في القاهرة مائة واحدة تتردد على المدرسة وعلى العكس من ذلك في الصحراء حيث يذهبون الى المدارس هناك مثل الأولاد ولا ينقطعن عن الذهاب الى المدرسة حتى في سن الثامنة لو القسمة وهو السن الذي يدلن فيه في التثكل ولا يمتن لطفلا .

لقد اطلعنا بعض الشيء . لكننا رأينا من واجبنا أن نبدا أولا بالتوقف على بعض التفاصيل حول الأقباط . لأن معرفتنا بهذه الأمة لا تزال شديدة الضالة . وسوف نعود الى الموضوع نفسه في فصل آخر ، ونسوف نحاول أن نقدم فكرة كلية من عادات وتقاليد ولقمة ومؤسست وحرف هذه الأمة التي ظلت شبه مبنية حتى يومنا هذا من بقية المذاهب المسيحية .



عن العربان على وجه الخصوص .

تتكون الكتلة الكبرى من الشعب المصري من عرب استقروا وأرابطوا بشكل أساسي بالأرض ، ولا تحفظ عاداتهم في شيء من عادات من تنظيم باسم المصريين . لكن العربان الرحل ينقسمون إلى قبائل رحالة ، تنقل خيلها من صحراء أخرى ، ولا يخضع أبناؤها الا لأسيخهم ، ويتجاهلون سلطة البابا والبكوات . ويستحق العربان منا اهتماما خالصا ، إذ أن لهم عادات مختلفة ، وسوف نرسم سريعا تلك الملامح الأساسية التي تميزهم ، لأن هذه اللوحة سوف تساهم في تكوين فكرة عن المؤثرات التي تؤثر في سكان مصر على وجه الصوم .

يبلغ عدد العربان الرحل حسب احصاء قريب (١٠ ألفا . ويمكن لنا بالتقريب بمطابقة نسبة أن نحصل على العدد التقريبي لكل هؤلاء العربان ونسألمهم والفتاهم ... الخ . وهم يشغلون الصحراوات المحيطة بمصر من كلا الجانبين . ويتقرب عدد منهم في بعض الأحيان من سفك النهسر

ليزرعوا الرافى يستأجرونها من حكومة الأقليم . ويمكن اعتبارهم جميعا من اتباع عقيدة محمد بل انهم يتسمون باسم المسلمين ، ومع ذلك فان مبادئهم الدينية تبدو شديدة التباين كما يرى بعض الاوربيين الذين زاروهم ، ومن المؤكد ان معتقد هذه الشعوب وكذلك التقليد الراسخ الذى اعتنقوا بها عن اصولهم وكذلك انبارهم التاريخية لا بد ان تعطى باهتمام خاص من قبل الرحلة اذ يمكن لكل هذه الأمور ان تساهم فى توضيح نقاط كثيرة غامضة فى التاريخ الحديث . لكن مثل هذه الدراسات على وجه العموم قد أهملت لحد يفوق التصور على الرغم من ان العريان الرعاة قد نقلوا من جيل لجيل تاريخ آلاف من الوقائع التاريخية المجهولة من السهل ان توثق لنا هذا اللغاب الصليق الذى تظلم به خرافاتهم واساطيرهم . وباختصار ، ولا نبل من تكرار ذلك ، ننبئنى على كل من المؤرخ ورجل الآثار ان يحصلوا على معرفة صحيحة من عادات العريان وتقاليدهم .

وهنا يلزم اسماء القبائل التى تنقسم لهما بينها صحراوات مصر الشاسعة وكذا اسماء الأقليم التى تغلب هذه القبائل ان تستشرف حدودها:

ولاية القصور

١ - قبيلة فرنه : وهى قبيلة قوية وكبيرة الصعد ، لكن مرابى الضعف قد دبت لهما نتيجة للحرب الأخيرة التى شنها عليهم حكم الولاية . وقد صغررت حاليا هذه القبيلة .

٢ - قبيلة الموارشة : وهى تسكن القرى وتحترف الزراعة .

٣ - قبيلة حسن طوبل : وتشمل قرى عديدة بمنطقة المزالة .

ولاية البحيرة

طبعة أولى : الهنادى (H) طبعة ثانية : اولاد على

وتليم حائل التيلدان فى حيلم ، وهما اتوى قبائل مصر واكثرهما شراسة . وعلى الرغم مما بينهما من خصومات وما يسرق بينهما من

(H) وردت فى الأصل باسم نيمادى Nemedy ولعله خطأ مطبعي .

عداوات بفعل من إعتقاد وفسقان دينية إلا أنها يقتسمان فيما بينهما السيطرة على الولاية وتنتج واحدة منهما أفكار شينج يسمى : سعد ، أما الأخرى يعتقد في قداسة شينج يسمى : حرام . ومن هنا تولد هذا التسويع من الكراهية والثور الذي استمر لأزمة طويلة ذلك أن أحدا لم يستطيع أن يعثر على أصل لهذين المذهبين أو مؤسسيهما ، بل لقد حدث أن انتصبت نصر بأكملها بفعل هذا الخلاف نفسه ، الذي أدى إلى قيام العداوات والفتائن بين الفريقين وأخذ كل فريق يدين الفريق الآخر ، ويقوده بمقولات السدار الأخيرة ، حتى وضعت حكومة على بك الشهير حدا لهذه العداوات المتصعبة ، وميلت حكمة وحزم هذا الرجل — غير العادي الذي لم يكن ينقصه إلا نوع مختلف من التربية — وكذلك أن يلعب دوره على مسرح من الأحداث أكبر اسما لكي يهدئ الصلح — على تكثير المصريين بشعائر الاعتدال والتسابع التي اشتطوا في البعد عنها ، ومنذ ذلك الوقت ، فإن الناس يكادون يكونون قد نسوا كلا من سعد وحرام ، لكن أسس هذين المذهبين الروحانيين قد ظلا يثيران الشقاق بين الشعوب الطليقة في الصحراوات .

ولم تكن سوريا لتبعد عن روح التصعب هذه ، فهكذا خلعت في كل هذه البلاد أعزاب أميتها مثل هذه الأمور من الدجل والفتنات ، وبذلك أصبحت دينتهم الخاطئة التي يسيئون هم أنفسهم فهمها ، سببا للإعتاد والفتنات والحوادث الجالحة ، مما أدى بشعوب بأكملها إلى التطرف الأيمن ، باسم دينية يعملون هم أنفسهم على الإساءة إليها .

وتقوم القبيلتان اللتان تحدثنا عنهما للتو ، بغرض شرائب على سكان ولاية البحيرة لتحل تلك الشرائب التي تفرضها السلطات الحاكمة ، ويسمى نقص وسائل القمع التي في حوزة السلطات الحاكمة . فقد ظل مثل هذا الطغيان البغيض مسافرا .

ولاية الشرقية

| | |
|------------|-----------|
| طبقة ثانية | طبقة أولى |
| جميلة | بلى |
| بنى ايرب | رفاعات |
| جهيلات | سمداني |
| | اولاد على |
| | الهيون |

وهذه القبائل كلها من العربان الرحل ، وهم لا يعرفون الزراعة ولا الحجارة ، وحيث انهم قطاع طرق بالسليقة ، فقد أصبحوا قطة بمنع الطبع والجشع ولا تقرب عليهم الحكومة أية خرائب أو اتاوات لتقهم يكتفون بأن يربطوا كل عام الى شيخ القنطرة هدية تتكون من الخيول والجمال ، وبذلك يحصلون على حماية هذا الضابط ، بل يمكن القول على تفويض منه بالانقياس — دوننا اعتراض من جانب — في جرائمهم المعتادة .

القبائل المتوطنة

| | |
|-------------|------------|
| طبقة ثانية | طبقة أولى |
| أولاد زهيره | الشمسين |
| مخولي | السمكين |
| البوارضة | المصالحمة |
| ودرة | مهد |
| | الزبلى |
| | أولاد موسى |
| | لكام |

وهؤلاء يسكنون القرى ويلحقون الأرض ، ومع ذلك فإن لديهم في نفس الوقت — شأنهم شأن الأولين — ميلا لا يتلوم أنفسهم للقيام بأعمال السلب إذ تراهم في معظم الأحيان يتركون محراثهم ليمسكوا ببنايتهم ويسلبوا لينة المسافرين .

ولاية تقيوب

طبقة ثالثة
السيادة
طرابين

طبقة أولى
الصوالة وجهينة
الحويطة

وهم يقيمون في الحيام ويرومون سكان ضواحي القاهرة بفراشهم التي يقومون بها للسلب والنهب . وهم يشكلون الفلاحين في زراعة الأرض ، ولكن دائما وبلا جدال على حساب هؤلاء الآخرين (١) .

٦

من المالك ، وعن الأجانب

الذين استوطنوا مصر

عندما نقابل قوة المالك وتقديمه الذي تلوا يحتفظون به على الدوام على قوت الباب العالي لسوف نجد بما لا يدع مجالا للشك أن قوتهم العسكرية الرائعة تلك لا تعود إلى تعدادهم بقدر ما تعود إلى قدراتهم وكفاءاتهم ، فتعدادهم ليس شيئا مألوفاً إذ لا يكاد يصل مجموع عددهم — سواء الذين حاربوا منهم أو الذين ما زالوا أرقاء — إلى ثمانية أو تسعة آلاف رجل : ويرغم ذلك فقد تواصلوا بفضل جراتهم وشجاعتهم وبزاجهم العسكري الذي تشبه شجاعتهم العسكرية ، وكذلك بسبب من الذكريات الرائعة والطموح الذي لا يعرف لنفسه حدا ، تواصلوا إلى قيادة شعب كبير مع تقييده بسلاسل من خوف وسحقه تحت وطأة أسمهم : المالك ، وهو الذي يمكن أن يقال منه أصبح مثيرا للرهب بسبب كثرة ما أهرز من اقتصارات .

(١) لمزيد من التفاصيل ، أرجع إلى دراسات دي بوا لميه وجومار وإلى الجدول الذي وضعه أميديه جوير Amédée Jaubert وسوف نعود في الفصل الثالث إلى هذا الموضوع بالتفصيل .
(ونجد جدول جوير الخاص بالقبائل العربية التي تقيم ما بين مصر وفلسطين في بداية المجلد الثاني من الترجمة العربية) . (المترجم) .

ومن الممكن أن تنسب فئة عدد المملوك إلى ملتحقهم في الزواج من نساء اجنبيات مثلهم ، وغضلا عن ذلك فإن طمس مصر يحول دون تكاثر الاجانب عموما ، حتى عندما يتزوج هؤلاء من مصرية ، فالاطفال ، في الحالة الاولى ، يمتعون وهم لما يملعون من المهر بضع سنوات ، وحيث كان المالك - هكذا - محرومين من ترص التكاثر الطبيعي ، فقد بات عليهم أن يلجأوا إلى هؤلاء الذين ينحدرون من نفس اصولهم ، فكافوا يشترون الرقيق الشبان ويقومون بتفريتهم عسكريا ثم يعتقونهم بعد ذلك . وكان هؤلاء الرقيق اما شركسة ولها توتاريين ، وكافوا يحملون لولا إلى القسطنطينية ثم يرسلون من هناك إلى كل اتجاه الامبراطورية العثمانية حيث يشتريهم الافنياء . وتنسب زوجات المملوك إلى نفس هذين الاقليات ، ويصلن إلى تركيا بنسب الطريقة .

وفي بعض الاحيان ، وقبل مجيء الحملة الفرنسية ، كان يحدث أن يتزوج احد المملوك ، بعد أن يدركه اليأس من الوصول إلى الصفوف الاولى من درجات الدولة ، من زوجة مصرية ، وعندئذ يكون له الحظ في انجلب الاطفال لكن ثريته تتميز مع ذلك بالضعف .

ويمكن لنا أن ندرج العبيد السود من الجنسيتين الذين كانوا يجلبون من املاك افريقيا ضمن الشعوب الاجنبية التي استوطنت مصر . ففي كل علم كانت أسواق القاهرة تطلو بهؤلاء النساء ، اللين يتجاوز عدد النساء بينهم عدد الرجال ، وهذه التجارة المربولة هي واحدة من المن الرائجة في هذا الاتكلم . ومن أسواق القاهرة ، تذهب أفواج العبيد إلى المسكن الكبرى في آسيا مثل زنجبار والقسطنطينية وحلفا ... الخ ، ويبقى عدد كبير منهم في نفس الوقت في القاهرة حيث يستخدمون في مخطف الاعمال ، ويهمل المصريون إلى تفصيل النساء الزنجيبات ويشتري الرجل على هواه وحسب قدرته اثنيتين أو ثلاثا وحتى سقا منهن .

وكما سبق أن قلنا قبل للمسيحيين في مصر الحق في امتلاك العبيد ، بالرغم من أنهم لا يتمتعون بهذا الحق في بقية الولايات التركية ، ومع ذلك فإن هذا الحق محدد بشروط معينة ، فمن المحظور عليهم أن يمتلكوا ميودا من الذكور إذ هم في هذا الصدد لا يستطيعون على الاكثر الا شراء اطفال صغار يتخلصون منهم عندما يكبرون ، ومع ذلك فقد كان يسمح لهم باقتناء

أى عدد من التسماء الآماء يستطيعون الحصول عليه ، لذا كان لدى كل أسرة واحدة أو اثنتين على الأقل للقيام بأعمال البيت .

أما المملوكيون المقيمون في مصر فكانوا قليلي العدد . وكانت نريتهم تنفرض شتمهم في ذلك شأن المملوك ، ولنفس الأسف . ويوجد بالمثل عديد من المملكات المصرية التي استقرت في مصر بفرض التجارة ، ولكنها ليست بذات وزن كبير في أجناس هذا الشعب .

وتفضل قبائل النوبيين أو البرابرة بمناطق عديدة في ————مصر وبعض الجزر المجاورة لسهل أسوان ، وهي قبائل فقيرة وتكون من بعض المملكات .

وفي خضم الطاف تذكر الأرنج أو المسيحيين الأجانب . وهؤلاء لا يستقرون الا في مناطق التجارة الكبرى مثل : الإسكندرية ، رشيد ، سيهنا ، القاهرة ، وأهبة هذه الطائفة تعود الى ما تقوم به من مبيعات تجارية أكثر مما تعود الى تعدادها .

فك على وجه التعريب لوحة باللغة الإيجاز لاختلاف العناصر والأجناس التي تقطن مصر ، وقد اكتفينا هنا بمجرد ذكرها ، لكننا سنعود إليها فيما بعد وعندئذ سنحدث عنها بتفصيل أكبر .

٧

عن العادات والتقاليد بشكل عام

يوجد في مصر ، شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشرق ، خليط مضطرب من العادات والتقاليد تعود الى أصول متنوعة وفتتج من أسباب كثيرة . وهل كان يمكن للأمر أن يكون على نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأهم قد أخططت فيه ؟ فالمعادن إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان بمختلف أديانهم وأصولهم . نحن نجد في المدن مع سوء من الاختلاف نفس عادات الشعوب الشرقية ، ولقد كان هذا الاختلاف أمرا ضروريا بسبب طبيعة القرية وتغير الطقس . أما في الريف وفي

الصحراوات لم سوف تتعرف على رجل العصور الأولى ببساطة لذواته ، هذا اذا لم تكن العصور المتسمة قد تكلمت بآلاف لغته .

تحدث كل غائل هذا الشعب لغة مشتركة هي اللغة العربية . وقد جعل الانبساط كذلك هذه اللغة . واذا كان بعض العثمانيين قد احتفظوا بلعنتهم الام فقد كان ذلك يحدث فيها بينهم وفي ملاقاتهم مع شبياط الباشا الذين يحكمون مصر باسم السلطان . وقد نسبت اللغة اليونانية تلبا او قل انها قد انكشفت في دائرة مستيرة من جدار هذا الشعب (اليوناني) الذين يعيشون في القاهرة او الاسكندرية .

لا يمكنك ان تكتشف ما يعتل في نفس المصريين من طريق ملامحهم ، بصورة الوجه ليست جراحة لاكتراهم ، فشكلهم الخارجى في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه إذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحدة وعزم الفكر سواء حين تكلمهم اليوم او بعضهم النسم او كقولوا في نسوة من سمادة حربية ، وسواء كفت تحطمهم تغلبت غير ملقطة او كانت تنهضهم الفيرة والاحقاد او يظنون في داخلهم من الغضب او يهزغون للانقذام . وليس ثمة مطلقا لعل بلعكس : اصرار في الوجه او شعوب بلعجاء ، يستطيع ان يشي بصراع تلك العواطف المتعددة التي تهزم . ويمكننا ان نلتبس لسياسا عديدة لهذا الجود المذهل في الملاحج ، قد لا يكون الطقس بعيدا من هذه الحالة ، بحيث يدعو الطقس على الدوام بنفس الشكل ، فانه ينقل الى النفوس على نحو ما يثبته الدائم ، ومع ذلك فان الاسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتحديد في شكل التربية وفي الاعتقاد في القضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود في النهاية الى تعودهم ان يكونوا على الدوام عرضة لتزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ، في كل يوم تنشا اخطاء ويصاومات جديدة ، تصبح الخلفة يحما بالنسبة للمصريين — والشرقيين عموما — نوعا من العيلة لمواجهة هذا الصدف ، فعندما يهاجم الاتسار على حركة او بسبب نظرة او لحيوا مجرد الاستياء ، كما لو انه قد ارتكب جريمة ، فانه يصبح وقد اكتسب بقرة عميقة على الاستعجاب والتميل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات امتيادية . لذا فلا ينبغي علينا ان نبعث من مصدر آخر لاسباب هذا النوع من التسليم المستعبد للام الذي يميز الشرقيين على وجه العموم : فالمشكوى والصهيعة تدور لا فائدة منها ايام

إرادة الطغاة . ويعرف المصري كيف يمشى وقد أغضبه الألم ، وكيف يموت تحت عضا القواس دون أن يقول كلمة ، فهذه إرادة الله ، والله أكبر ، والله غفور وتلك فقط هي الكلمات التي تفتى على لسانه عندما يلفه نيا نجاح لم يكن يؤمل فيه ، وهي نفسها التي تلتك منه عندما يلفه نسا كلنة كبرى ألت به .

ويبدو قبول المصريين المتصقين ببعضهم أمرا بالغ الغلاف مع تقاليدنا حتى لنظنهم في البداية بلهاء أو محتويين ، فحركاتهم وأجسادهم وأبسط حركاتهم بل ومسيراتهم ، كل ذلك يشي بعدم تكرار مذهب ، فانت تراهم مجتدين لجزء طويل من النهار على لرائكهم أو على حصرهم حسب درجة ثرائهم حتى نقتن أن ليس ثمة في هذه الدنيا ما يشغلهم إلا أن يسألوا ويهرقوا على التوالي تاريخياتهم الطويلة ، ويبدو مخيلتهم وكثافتهم قد تفرقت مثل أجسادهم لحد تدخل معه — وهم في حالة التوهم الروحي تلك — أن سامعهم لحكم بالوت صادر عليهم أن يكون بظنوره أن يشر مجرد دهشتهم . ويرغم ذلك فحدث هذا الغناغ من السلبية البادية على ملامحهم يمكن خيال ملتصق . وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية ، فعادة الصيت تجعل أساسهم على العكس — وحيث يمكنهم بذلك تركيزها — أكثر حدة ، كما أنها تعطي لأرواحهم دفعة من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قلدين على الاتيان بأفعال بالغة الجراءة ، وفضلاً على ذلك فإن الفكر يكسب بعض ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح مقودة . . . أن ملكة الانتباه ، والقدرة على التفكير تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم خرافين في بلاد مملوكة .

وتتوافق أحاسيس هذا الشعب مع بقية عاداته ، فالمرء منهم يستمتع في العمل مثلاً بميزات مجيبة ، إذ لا بد أن تقوم واحدة من الضائقت على الدوام بتفليك قدمه أيا باليد ولما بقطعة من الطوب الأبلس ، كما أنه يمشى وقتاً طويلاً في تزيين لحيته . وهذه عادة قديمة جداً في الشرق حيث لا تترك القدم باليد إلا في المجتمعات الحبيبة من الأهل والاصفاء ، ذلك أن الآداب العلية لا يمكن أن تسمح بهذا الفعل الشهواني على الملأ . لها من حك الأقدام بقطعة ملابس من الطوب فهي لا تفرس إلا عند الخروج من العمل — وكلا الأمرين يعتان في وقت مما ضربا من الأمور الحسية والشهوانية وكذلك عملا من أعمال النظافة .

وقد تبدو ملذات من هذا النوع بالغة الطاعة في نظر الأروبي ، لكنها تكفى لتوفير جو من الرخاوة لذلك المصري خلى الليل ، فهو يتمتع بها وسط المطور وسحب الدخان والأبخرة المعطرة ، ويستطيع أن يوفرها لنفسه على الدوام ما دام الأمر يرضيهم بمشيقته . فلذا ما أضفنا إلى ذلك المشهد مسرات وبهاج العزيم والموسيقى والفناء ، وكذلك حبه قول أو سباح الحكايات ، ذلك الأمر الذي يستغرق جزءا كبيرا من سهرتهم ، لتكون لدينا فكرة شبة كاملة من مباحج الحياة عند المصريين وعن ملذاتهم .

أن كل شيء في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوربيين . وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ، ومن صنع الأنشطة المدنية والمعتقدات الدينية كذلك . كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ظروف الصناعة في الوقت الذي تكفل فيه الحرارة الشديدة بتقليل نشاط الفترات الجسمية ، ولنا أن نقاسي ، لماذا يكلف الفسلاح نفسه كبير عناء - في بلد كهذا ليست الملكية فيه سوى ضرب من الأوهام - كي يهتن من زراعته إذا كاد تنجوده تلك لن تؤدي بالضرورة إلا إلى إثراء مستغله وإلى انتزاع مخارم جديدة منه ؟ أن المصري يعرف حقيقة وقسمة ، ويسير نتيجة لذلك ، لبوره ، وبالي الخوف ليضيف لثره إلى فعل الطقس ليضيف من مقدرة جسمه بنفس القدر الذي تقيم به المعتقدات الدينية عقبة لا يمكن اجتيازها لتحول دون تقدم وتطوير أرضه ، وهكذا يظل الغنى ينتهب الذات بؤسا يظل الفقير يروى بحبات عرقه أرضا خصبة مضطهد لكنه لا يستطيع أن يحصل منها إلا على ما يقيم لوجهه .

ومن جهة أخرى يمكن القول بأن كل مروع الصناعة بلا استثناء مرسى للاستبداد . وفي نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة وليس ذلك لأنها تلقى تشجيعا من الحكومة ولكن لأن موقع مصر وإثراء منتجاتها يهيئان للتجارة محينا لا ينسب . وهذه الحرفة هي المجال الوحيد الذي يمكن أن يعد المصري مستقيل زاهر ، فهي تقوده إلى الثروة في بعض الأحيان ، وهي في هذا الصدد ، الصنعة الوحيدة التي بقيت لهم ، حيث أن مقدم مواطنين قد أغلقت عليهم طرق المجد والرائد الكبرى في وطنهم ، انظروا الآن ، إلى أي حد تضائل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المتروعة ؟ أن الكولوث التي تقل ملهم اليوم سوف

تظل تفتل عليهم طالما ظلت هذه العصا النظيفة لمستغلبهم غير الجديين تدور عليهم ، ونسوف يظل المصري عبدا ، بقسا ، سلبيا ، خبيلا ، تدور به دولاب الشك دون أن يفكر في وضعه المحزن . ولربما تكون بلادته تلك حبة من القدر ، إذ يفضلها أن يحطيه على الإطلاق ذلك الاحساس بالآلام والمخاطر التي تهدده بلا انقطاع .

وبرغم ذلك ، فإن للطبقات الشعبية تقاليد أقل تحفا ، بذلك الرجل البلباس الذي يتوقف بقائه على قيد الحياة على حيلة اليومى الدوب ، تشييط بالضرورة لحد لا يمكن معه أن ينال منه القصب . ويحصل الفلاح النيران التي تصبها عليه السماء الملتجة لكي يثخر الأرض التي تسده بضرورات أسرته ، وسوف يدهش الأوربي الذي سبق له أن رأى الاترياء المصريين يمددين على أرائكهم غير رخاوة ، بل يسكن القول بأنهم يخشون من أن ينال منهم القصب لو أنهم اتوا بالثيرة الى خدمهم ، سوف يدهش منكما يرى السامس أو خاتم الأسطبل ، أثناء تدريبات المالك العسكرية وهو يجرى أمام حصان سيده ويتابع كل حركته لساعات طوال دون أن تبدو عليه أقل إشارات التبرم أو الضجر في الوقت الذي تغطي الشمس الملتجة على جسمه الحارى شواطئ من رملنا ، ويؤخذ هؤلاء الضم من طبعة السلاطين علة .

وعلمنا يمدح أحد الأوربيين لأحد سكان القاهرة مجاهج التبرى وجمال الإمكة المخصصة لذلك في أوروبا ، فإن القاهري يجد صعوبة كبيرة في أن يفهم كيف يمكن أن تكون هذه الممارسة الملتجة واحدة من مجاهج الاترياء . فللقاهري عدو لكل حركة ، وهو يزحف بسحبوية من منزله الى مكانه . لذا فهو يذه بهالى هناك في محطم الأحيان على ظهر الحصان أو الحمار . وكل شيء مجهول في مصر الا الحدائق ، فكل المنازل التي تتفتح بظهر حسن الى حد ما قطعة من الأرض صغيرة ، تزرع بالاشجار والظفرواكن لكن الأشجار تزرع بلا أدنى تمشيق كما أنها تزرع لمجرد الزينة، وفي بعض الأحيان يذهب رب البيت الى هناك ليستششق الهواء تحت ظلها، لكنه هنا أيضا يتحدد بموق سجاليد ومخدرات ، كما أنه لا يقره في طرفاته حقيقته ولا بين أشغال لشجار البرتقال كما أدمى ذلك حديد من الرحالة ، إذ ليس لهذه الحدائق طرفاته كما أن أشغال البرتقال ليست بمنسقة بطريقة تحب

للزحافات ، ويلتصقون بالمرصين يزرعون هذه القطعة من الأرض بجوار
بنزلهم كي يحصلوا حيلة العلم على أنواع متعددة من المزروعات وليس
لكي يستمتعوا بمشهد الربيع الدائم .

ويبتاع الفلاحون عادة بصحة جيدة ، وعلامهم بشوشة ، بحيث
تتلفخ مع ذلك الهوان الذي تدر عليهم على الدوام أن يناموا منه . وهم
مجهل أشداء ، وهم يستطعمون تحمل كافة المتاعب ، فتراهم ثقيبين وقت
الظهيرة فوق أرض ملتهبة وينامون على هذا النحو ساهلت بقوالية ،
يتعرفين للوب الشمس ، وهو أمر يكفى لقتل الرجل الأوربي ، لكن تلك
هي قوة الاعتماد الذي يتوافق السلاح معها على الدوام . وهم لا يكادون
يحسون بالحرى إذ لا تبئك هذه الطبقة إلا قوتها الجسدية ، ولطها ونها
هذا هذه الميزة . تنسى طبقات مصر .

ولا يتبع الأغنياء وسكان المدن بمثل هذه البنية القوية ، إذ يبدو
عليهم منذ أمولهم الأولى الضعف والتبدل ، فالأطفال من الجنسيتين شديون
النحول لحد كبير ، ومنذ تقدم بهم السن فتم يحتفظون بهيئتهم التي كانوا
عليها وهم صغار ، حتى لظنهم المرء رجلاً سيوفيين ، وسوف نتحدث في
مكان آخر عن الأمراض الخطيرة التي تهددهم ، لكننا هنا سوف نكتفى
بالحديث من آلام الإنسان التي يبدو أن الإكراط في الإكل هو السبب في
حدوثها ، إذ يتعرض الأغنياء من المصريين كثيراً لهذه الآلام ، حتى أنه من
الناظر أن نرى واحداً منهم سليم الفم بالرغم من كلفة الاحتياطات التي
يخضعونها لمحتفظوا بأسنانهم سليمة ، فهم ينظفونها مرتين في اليوم بلوع
من مياصليونية ولا يلوثهم أن يكرروا نفس الشيء بعد تناول أقل طعام .
ويبدو أن سوء بعض ما يتناولون من لطمة هو السبب في هذه الآلام حيث
أن الفلاحين لا يصلحون مطلقاً بأفراض الأسنان تلك . ومع ذلك فاستحيل
حلبنا على سبيل المثال أن نتفق مع جان فيلد Jean Wild بأن أسنان
المصريين ثقيلة لأنهم يصون بكثرة قصب السكر ، ولو كان الأمر كذلك لكان
سكان الريف لول من يبالغهم هذا المرض ، كما أننا لا نستطيع كذلك أن
ننسب هذه الأمراض بشكل مطلق إلى مادة شرب المشروبات الساخنة
ويشكل أسفنى : القهوة ، ذلك أن آلام الأسنان كما لاحظ نيوبور Niebuhr

بحق في كتابه Description de l'Arabie قديمة جداً في مصر ، وهي تسبق

بوقت طويل اكتشف البن ، اذ يشير هيرودت عندما يتحدث عن الأطباء الى
علة بنهم مهنتها اسلما علاج النمل .

ويتميز المصريون باحترامهم لكبار السن ، كما ان حب الإنشاء هو أيضا
واحد من فضائلهم الاسلمية ، وينتظر الشبان لآبائهم بنوع من التقديس
الدينى ولا يجرؤون ان يدخلوا املمهم على الإطلاق ، ولا يسمحون لأنفسهم
بتلك الميزة الا بعد زواجهم ، وهنا فقط يعتبرون أنفسهم رجالا ومع ذلك
ينزل آباؤهم على الدوام أولى أمرهم ، وموضع حبهم وعاطفتهم . وفى بلاد
كهذه تدبى بوجودها للنبل فان كل شيء يرتبط بهذا النهر ، وما تزال توجد
حتى اليوم عادات كانت تحدث فى الأزمنة الماضية ، فالمسلمون على سبيل
المثال ينتظرون أولى بشرى الفيضان والاحتفالات التى يقوم بها الناس فى
هذه المناسبة لكى يحتفلوا بأعراسهم ويستمر ذلك حتى حلول شهر رمضان،
ومن النادر ان يتزوجوا قبل او بعد هذه الفترة التى يبدو ان العادة هى
التي حددتها .

وقد فرض محمد الوضوء لمرات عديدة فى اليوم ، وأصبح هذا التطيد
واحدا من الفرائض الاسلمية لذلك الفيلة التى أسسها هذا المشرع . ونحن
لا نستطيع ان نلوه فى هذا الخصوص حيث ان الوضوء فى كل البلدان
الحرة ضرورى للنظافة ، بل انه ضرورى للصحة . ويغسل المسلمون كل
جسمهم كلها استطاموا او يكتفون بغسل أجزاء منه ، ومن هذه الأجزاء
أعضائهم التناسلية ، ويستخفون فى هذه العملية بدهم اليسرى ، أما
اليمنى فتدعى لأمر أكثر نبلا . ثمى التى توزع الطعام وتحبى أو تقدم للكبار
أمارات الاحترام أو الخضوع بوضعها فوق الرأس .

والمسجد عبارة من تجمعت شيطقية ، اذ يتجمع هناك اناس منهمكون
فى أمور تتعارض ضلها مع قداسة المكان ، بل هم يندمجون أميلا فى
اهتمامات مجلدية للذوق ، فهناك ترى خليطا من المتعبدين يؤدون الصلاة ،
ويؤساء يتلون ويقتلون ما بلابسمهم ولجسمهم من قبل ويرافعت ،
وعاطلين نالين وحرفيين منهمكين فى ممارسة أعمالهم . وينظر لتلك الأمور
بصليح كبير ولهمست مصر هى البلد الاسلامى الوحيد التى تختار فيها بحكم
المادة تلك العادات السيئة .

ويقدس المسلمون هناك عديدا من الأولياء الموتى ، وهم لا يعظمونهم إلا لكي ينقلوا منهم الصحة لأنفسهم أو الضحية لزوجاتهم المقيمت . ويرون في أولياتهم كذلك القدرة على إبطال مفعول الجسد والسحر المؤذي ، ذلك أن الجهل والتعصب يحللتهم على أن ينسجوا مجرد نظرة سريعة من العين الكثير من التفكير الفشار على صحة البرء بل على حياتهم كلها . و جدير بالذكر أن اليهود وهم ليسوا أقل تمسبا ولا تطيرا من الحرب يقتسمون اعتبارهم لنفس النرض . ويخالف ذلك ، يلحأ العملية لوسائل أخرى كثيرة مستحدث منها فيها بعد لكي يحدوا العين « لردية » كما يقولون .

ويقوم المصريون بسلسة أخرى بشبكة ، تعود الى شعب نظابهم الروحي ، فيحرص المسلم منهم بعد أن يقص شعر رأسه أو لحينه على ألا يمس بها في الهواء ، بل يطويها بفتاية داخل ورقة ثم يضعها بحرص في أحد الشقوق . ويتبع الشعب كله على وجه التقريب هذه العادة المجيبة .

وقد قام الجيش الفرنسي بعد احتلال هذه البلاد بإقتفاء مستشفيات في كل المدن الكبرى ، وكان بعض المسلمين يترددون على هذه المستشفيات للتلامي بهمة دهن الموتى . وقد لاحظنا أنهم يضعون جثث المسيحيين بطريقة عكسية تماما لتلك التي يضعون بها جثث المسلمين . وسألناهم ذات يوم عن السبب في هذا التمييز فأجابونا بجسدية قليلة « أننا نحن أتباع محمد الذي ينبغي لأرواحنا أن تصعد الى السماء ، لذا فنحن نرقد جثث المسلمين على ظهورها ، أما أرواح الكفار فينبغي على العكس من ذلك أن تهبط الى الأرض لذا فنحن نرقد جثثهم على بطونها حتى تسهل من مهمة لأرواحها وتعتبر عليها المسافة » .

وللممالك عادات ترجع الى مزاجهم وتاريخهم ، فهم لا يُشاققون مطلقا بدون سلاح ، بل أنهم لا يتوجهون الى حفلة طعام دون أن يرتدوا كافة سلاحهم ، ذلك أن الضيفات المستجرة فيها بينهم تترض مثل هذا الحرس ، كلفت الموائد والاحتفالات الكبرى على الدول هي المناسبة والوسيلة لتنفيذ عمليات الإغتيال أو الانتقام ، أنهم يتسكون إذن بملابسهم باحتياطهم ضد هذه المكائد . ومن جهة أخرى ، فإن عادة أن يكون المسرد مسلحا هي عادة شائعة بين الشرقيين ، بل هي عندهم لبر من أمور الجاه وانزع ، ويشكل السلاح على نحو ما جزءا من ملابسهم . وسوف يكون

الامر في غير جملة لو ان الحزام لم يكن ملينا بالطينجفت الفخية والمخاض
الجبيلة . وتلك هذه الاداة الثقيلة مع نوع الحياة التي يحونها ومع ميلهم
الجسوح .

والمصريون بشكل طبيعي نحيلو الجسم ، ونحو امزجة سوداوية ،
ولا نجد من بينهم رجالا ضخام الجسم والقوياء الا عند الابطاط او المسيحيين
الشرقيين .

واكثر الناس هياء بين المصريين هم الاكباط ، ولا يمكن المراء ان
يصور الى اى حد بلغ جبنهم وتحاذلهم ، ومن السهل تفسير ذلك ، بحالة
المهودية التي انتهوا اليها منذ قرون كثيرة هي السبب الحقيقي لذلك .

واذا كان صحيحا ان مصر القديمة هي التي لوحت للشاعر ارونفوس
بالامكان الاولى لهلمونته الموسيقية ، فان مصر الحديثة قد غشلت في هذا
المجال كما غشلت في امور اخرى . فالموسيقى في هذا البلد ليست سوى
نوع من الانغام الخفيفة والرفيعة تفرغ خوضاها المنفرة والمثالية للذوق
المسلم في الاذان فتكاد تجرعها . ومع ذلك فان لهذه الموسيقى المثلية
بالمحبوب — كما نرى — قدرة مجيبة على اخذنا السعادة الى الجلس
اللطيف في مصر ، الذي يحترق في نفس الوقت ويشكل كبحر موسيقيا
الاوروبية . وقد شاهدنا امرأة يقضى عليها من فرب الانتشاء وهي تصيح
لصوت احسن لاحد المطربين العرب ، بينما كنا نحن الاجانب نحمد مسونا
عاجزا يبعث على القفر . وهم يصحبون انغامهم بالة موسيقية او الذين
هادتين ليس بينهما تانسق (١) . ومغشلت بمصر المضللات من العوالم
(عالة) . ومن يشكلن واحدة من بياض ومثلت المصريين . ومع ذلك فان
صوت هؤلاء العوالم منفرد وغير مقبول ويبتنى ان تكون مصريا حتى تجد في

(١) ينبغي ان نلاحظ ان الموسيقى العربية — بعيدا عن التونات وانصاف
التونات الموجودة في سلمنا الكروماتيكي — تتمتع هي ايضا بارتفاع التون .
وهذه السخية هي التي تلحظها اذن الاوربي كغميزات خاطئة . ولكن عندما
تدرس الاغنية العربية بشكل افضل لمسوف نرى على الفور ان ارباع
التونات هذه تشكل جزءا من السلم الموسيقي . انظر في هذا الموسم
دراسة المسيو فيوتو Villoteau حول موسيقى المصريين الحديثين .

صوتين بعض الطرب . وتنسب هؤلاء السيدات عادة الى الطبقات
الضخمة ، ومن مشهورات يكونن شاعرات مرتجلات .

ومن الأتباء التي ظلت نظر الأوربي أكثر من غيرها عند عبوره
شوارع القاهرة أن يرى بعض الشبان تغطي أجسامهم الهلاليل والأثربة
لكثرتهم يجادلون ، بما بينهم بكثير من الجدبة والأهبة . وليس أكثر مثارا
للدهشة من أن ترى بعضا من الطلبة يتسلجرون ، فهم يتبادلون المسبب
والمصحف العتيقة ، ويهدد بعضهم لبعض ، بل يصل الأمر لحد أن
يتلايموا بالمعنى ثم يترقبون دون أن يصل بهم الأمر لأبعد من ذلك ، ومن
الغادر أن تصل مشاجراتهم لتنتج أكثر خطورة .

وملاحظ في المصالح المهارة التي يستخدم بها العمال إيهام قديمهم لإنتاج
أعمالهم ، ولا تستطيع لديهم بكثير من الجهد أن تجاري أقدابهم في تنفيذ
نفس الحركات ببطل هذه الدقة والسرعة .

ويمكن لنا أن نذكر تحت بند المهارة ، مهارة الصلاطين المصريين ،
فلطعم أبرع زحلاء صنفهم في العالم كله ، ومع ذلك فمسلبيهم تبحث على
الضيق حين لا يكون المرء مقبوعا عليها . وهم يتفوقون على وجه الخصوص
في حلاقة شعر الرأس بالموسى .

ويشجع الشرقيون الذين يصلون بتجارة القشة عليه بشهرة سيئة
بخصوص أمثلتهم واستقلبتهم ، لكن هذا الاهتمام ظالم ذلك أن الوزائين
المصريين والصرايين والعلميين في تبديل الصلوات مشهود لهم في مصر
على العكس من ذلك بالزراعة والاستقلية ، ولعلنا لا نجد مثالا واحدا على
أن رجلا واحدا من العلميين في هذه المدن قد اتهم بغشاة استغلال هذه
الأمم العتيقة التي نهطت بهم . ويحوز الصرافون سمعة طيبة جدا في مجال
التجارة . ومع ذلك فمن الصحيح أن لديهم وسائل مشروعة كثيرة يصلون
بواسطتها الى تكوين ثروة كبيرة فوئما طليعة منهم الى الخس . وهم
يستطيعون أن يتركوا عملهم هذا في وضع سنووت ، لو يستبدون فيه
حسب مزاجهم — فلك أن هذا الوقت القصير يكفي عادة لكي يجعل منهم
تلمسا بالفي القراء .

٨

عن الأمراض الرئيسية

في ظل وجود حرارة مطلوية الدرجة — على وجه التقريب — طيلة العام ، وفي ظل سماء صافية تفسل الموجودات والاشياء كل صباح بما تكونه من الطل وندي ، فان مصر لا تتعرض الا لعدد قليل من الأمراض ، ومع ذلك فهذه الأمراض على قلتها ثقلة في معظمها لحد يثير الفزع . وبما لا جدال فيه ان نضع على رأس قائمة هذه الأمراض : الطاعون ، هذا الوباء — الكارثة الذي استطاع بسبب النشاط الذي لم يكن ادراكه حتى الآن للجسيمات العالقة له ان يلفت الى اليوم من بصوت علم الطب . ويبلغ الطاعون في مصر على غزوات تكثرت أو تباعد ، ويمكن القول بأنه نائرا ما ينقطع في القاهرة والاستكثارية بمسلة خاصة . فبعد ان ينكمش المرض بفعل الحرارة الشديدة أو برودة الشفاء القارسة ، فانه يعود ليتولد من جديد وتعود اليه تواء المهلكة في الفصل الذي تبيل الحرارة فيه الى الاعتدال . وفي بعض الأحيان يكون المرض طارئا وعارضا ، وعندئذ يكون قليل الخطورة ويختفي فجأة بعد مدة قصيرة ليمرود الظهور من جديد بعد بضعة اشهر . ويبدو توكل المسلمين وعدم حيلتهم وسذاجتهم الروحية بامتنانها الأسباب الرئيسية لتقاء هذه الكوارث . فبالإضافة الى الواجب ، يتصورون ، متمثلين بما ورد في بعض نصوص القرآن ، ان ليس ثمة ما يحدث دون ارادة من الخلق ، وان ليس ثمة ما يمكنه ان يرد قضاءه ومشيئته التي لا يحيس منها ، لذا ينتظرون الى الاحتياطات التي تم للجوم اليها لمنع انتشار الطاعون كأمر لا جدوى منها إذ اتهم ان يصيبوا مطلقا بلأى اذا كان مقدرا لهم أن يعيشوا ، كما ان شيئا لا يمكن له ان يصيبهم اذا ما كانت مشيئة الله قد أرادت لهم ان يموتوا .

ويذكر سكان القاهرة بفرع نوبة الطاعون التي حلت ايلهم على بك ، وطك التي حلت ايلهم اسماعيل بك ، ولقد أدت النوبة الأخيرة على وجه الخصوص ، وهي التي اندلعت في ربيع ١٢٩١ الى حدوث فظائع كبرى ، لقد كانت تحصد الأرواح في كل يوم ، وكان اسماعيل بك وكبار المليك من بينه من أوائل ضحاياها . وقد كلفت هذه النوبة بحياة القاهرة ثمة مكلفا ،

ولسنا هنا بسعد الدخول في تفاصيل حول مرض الطاعون ، فليسوف تذهب بما الظنون مذاهب شتى حول تحديد أسبابه دون أن نتمكن بطريقة كافية من أن نحدد طبيعة العوامل المتسببة في حدوثه . ذلك أننا لا نريد أن نضاعف من حجم عدد الافتراضات التي تحدث والتي سوف تقدم في هذا الخصوص ، بلطاعون ينتقل بفعل الاحتكاك والتلبس ، فإذا ما استطاع المرء أن يعزل نفسه ولن يمتنع عن ملامسة جسم مريض أو استنشاق هواء تنفسه فبإمكانه أن يكتسب أنه سوف يفلت منه . ويعتقدون هناك في الشرق أن المرض يمكن أن ينتقل أيضا عن طريق حاسة الشم ، وأن الزهور تتشرب بسهولة الأبخرة المفعنة الثقيلة للطاعون (١) .

وهرغم أن الدوسنتريا تكل بشاعة من الطاعون كثير ، فإن آثارها في مصر ليست ككل لدجرا ، وذلك بسبب طبيعة المصريين الرديئة وبسبب استعداد أجسامهم وبنيهم الدافئة ، وبسبب لهم هذا المرض دمارا مروما ، وهو يهاجم أطفالهم على وجه الخصوص ويستخدم طريقة تبعث على العرب .

وفي نفس الوقت قد قدر على المصريين المحليين بالصعراوات من كل جهته ، حيث تنتشر رجالها التامة والحادة بفعل الريح وحيث يتعرضون هناك للقلبات فجأة في درجات الحرارة ولرغلت الطل المتزايدة — قدر عليهم أن يتعرضوا لأمراض الميوس منذ زمان ضارب في القدم وهذا ما يؤكد هيرودت حين يشير — من بين الأطباء — إلى أولئك الذين يصلون منهم في علاج لمرض الميوس . وليس اليرد اليوم منتشر باقل مما كان عليه في الماضي . بل لعل انتشاره قد ازداد بسبب من أعمال الضمب وعدم

(١) أظهر السيدان فيجيهنت ولاري des Genettes & Lary كبيرا
 أطباء الجيش أثناء مدة الحملة ، شجاعة تطو على كل مدبح حتى يتعرضوا
 على العوامل المسببة لهذا المرض ، وقد أكدوا أن جسمنا مخطرين بذلك
 بعينها حسنا كبيرا من الملاحظات القيمة من أنساب العلاج الواجب
 اتباعها . ويذكر كل رجال الجيش الذين لا يزالون على قيد الحياة ، بكل
 الأسى فحسبهما للكرمة . أنتظر مؤلفاهما وانتظر كذلك مقابلة السيد
 الدكتور سافري Severoy من الطاعون الذي خسرهما إلى
 مذكراته ، وكذلك مقابلة السيد لاسيني Asselin

حيطته ، إذ ينالم الناس في الهواء الطلق ، حتى لتساعد الرطوبة وبرودة الجو في تكوين التقيحات التي تسبق عطل العيون أو فقدان البصر .

ولم يكن بدكتور جنودنا أن يفتنوا من هذا المرض ، وقد ظنوه في البداية معدية . ولم يكن التجار الأجانب ليقلقوا بنورهم منه ، حتى ليسدو وكفن المرض بفضل مسكني ميونهم ، ومع ذلك فهو لا يستلتي المواطنين ، لمن بين كل خمسة اشخاص ، ثمة واحد يشع مصابة على مهبه .

أما الجدري الذي كان يشع في بلادنا منذ زمن طويل ، فله بواصل تدبره في الشرق حيث يهيء له التمصب والضعافات — كما في حالة الطاعون عبرا طويلا (١) وهو مرض يشع في مصر ، ويظهر هناك بشكل مغزق ودرجة أشد خطورة مما كان يحدث في أوروبا . ونادرا ما يفلت الأطفال في سن مبكرة من مخاطره وخيفته ، وإذا ما كان بعض البالغين أو الرجال الناضجين يشعون منه فانه يترك على كل جسمهم ندوبا عميقة ، وهو ينتشر في فترة معينة من العام شكله في ذلك شأن الطاعون (٢) . لكن ما يجعله أبلغ ضررا منه في أي مكان آخر ، أن الأمراض الطفولية لا تشفى هناك بشكل جذري . لذا ينتقل ميكروبها المبالغ النشاط من جبل لجبل ويصيب الشعب كله وينتقل إلى دم الأطفال مع لبن الرضاعة ، ومنحما يكتي الجدري بعد ذلك ليهلج هذه الكائنات الضعيفة التي لطفت فيها بالدلل منابع الحياة نفسها ، فلا بد أن نستنتج بسهولة أنه سيجكون من الصعب على هؤلاء الأطفال الضعفاء أن يتلوموا شدة هذا المرض . لذا ، كانت هذه النسبة الكبيرة من الوفيات بين الأطفال في القاهرة وباقية المدن .

ومن الأمراض الشائعة في مصر كذلك الدنق والذملل . وكان يكر أن تصبح هذه الأمراض أكثر انتشارا لو لم تكن تلك البيئة الصحية من جانب الفلاحين إذ يضعطون أسفل البطن بواسطة حزام جلدي مريض وتهلج هذه الأمراض الحارضة الحيوان كما تهلج الإنسان . لكن الأتسان

(١) يعتقد كثير من الأطباء أن مرض الجدري قد نشأ أصلا في مصر .

(٢) أنظر ما كتبه المسيو جومار Jomard في دراسته عن الحضارة بين سكان مصر الحديثة وسكانها القديس .

لا يلقي لها في البداية الاهتمام الكافي ولذا يزيد المرض خطورة ويصبح في شكل تقيحات تستعصى على الشفاء ولما يكن المريض بعد قد شرع في العلاج وهكذا تلان القوم مع الأمراض الأخرى ، فالرقى والادوية الدينية هي العلاج الناجع لكل الأمراض عند ملية الشعب . أما عيادات الطب الشعبي التي أنشئت في المدن فهي تفتال حياة من يسلم اليها نفسه طائعا بخفارا من الاعتناء ، وفي الوقت نفسه فلن الخرافة تعمل من طقاء نفسها كعلاج ملجع فريد لهذا البلد ، الذي تسير اموره المعتقدات المسبقة والجهل والتعصب .

وتشكل كل الظروف التي رصدناها في الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٨ العناصر التي عملت على تشكيل أو تحديل تقاليد المصريين وعاداتهم ، ويعود بعض هذه الظروف الى كل المصور حيث انها ترتبط بالطقس وبالنسبة الطبيعية لمصر ، أما بعضها الآخر فهو ثمرة الديانة المسيطرة والانظمة المستقرة والقوانين التي تحكم البلاد بمقتضاها . وينبئ علينا كي نكون فكرة دقيقة عن بقية الأسباب التي تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على تقاليد الانظم ، ان ننتقل الى كل الوقائع ، وهذا ما سوف نفعله في الفصل القادمة .

الفصل الثاني

عَلَى الْإِنْسَانِ الْمَضْرِي فِي سِنُوَاتِهِ الْأُولَى
الطُّفُولَةُ وَالتَّرَبُّوة - الفنون والعلوم
والآداب



عن خصوبة المرأة ونظام الرضاعة

قد لا يكون خارجاً عن موضوعنا - قبل أن نتحدث عن خصوبة النساء في مصر - أن نخوض في بعض التفاصيل حول حياة المرأة المقلية وحول المكاة التي تشغلها في المجتمع . ملاحظت من هذا النوع يرتبط بالموضوع بشكل أساسي . وإذا كنت المرأة لا تحدث عند الشعوب الشرقية إلا ذكراً بالغ الفسافة على الرجل بالمقارنة بما يحدث عندنا في أوروبا ، فإن الأطفال في مصر مبرمج الأولى برغم ذلك يخضعون لتأثيرها ، ولا يمكن أن يكون أمر كهذا - بالنسبة للدارس الواعي - إلا واحداً من العوامل التي تؤثر في تقاليد الأمم ، إذ لا يمكن أن يكون مثل هذا الأمر خالياً من التأثير ، حتى وإن حد من تهيئ الأسباب غير المباشرة .

وتقيم الطبقة والثروة بين نساء مصر اختلافات وفروقا أكبر بكثير من تلك التي تحدث عند شعوب الغرب ، لكن هذه الفروق لا تتضح في مجال التربية التي يظفنها في طفولتهن ، وهي تكاد تكون معدومة بالنسبة لجنسهن كله ، بقدر ما تتضح في مجال الممارسات التي تنتشر في أوساطهن كنساء وفيما تعامل به السيدات من طلبة للتعليم من احتفال وأجتماع ومن هذه (الناحية) يمكن لنا القول بأنه لا توجد في مصر إلا طائفتان من السيدات : طبقة ترغل في التسراء ، ويؤدي الغنى إلى رخاوة نسائها فيفقدن حياتهن بأكملها داخل مباح وممرات الحرم ، وطبقة أخرى تدرت على نسائها حياة نشطة مليئة بالعمل . ولكن يوضح لك الفرق ، فما عليك إلا أن تنظر إلى واحدة من زوجات البكوات ، وأن تدرس أفعالها وسلوكها ومباحها وملذاتها واهتماماتها اليومية ، فهذا كقول بأن يقدم لك فكرة كاملة من كل السيدات الثريات ، ثم عليك بعد ذلك أن تنفذ إلى ما تحت سقف واحد من الحرمين أو إلى داخل كوخ لحد الفلاحين وسوف ترى أن الظروف المتشابهة التي تصاحبها كل هؤلاء النسوة هي التي تعدد لهن ملابسهن . . .

وهكذا يتحك أن ترى كل مباحج الرخاوة وترفها في جانب ، وفي جانبها آخر سوف ترى كل خشونة الصل ومقتضياته .

وبرغم ذلك كله غلبة ذلك الذوق الفطري عند كل النساء الذي يبدو وكأنه يعمل على التقريب بينهن في مختلف ظروفهن ، ذلك أن هذا الذوق يتعلق بالمرأة كإبرة بعدا عن الطنعة التي تقتس منها ، ويمكن القول بأن هذه هي نقطة الالتقاء الوحيدة التي تربط بين النساء على اختلاف طبقاتهن ، وحتى بذلك حب التثقي والتزين بالجل ، تكثير من السيدات في مصر يلبسن من تلك الحلى ما يفوق كل ثروة لأواجهن ، وليس من المألوف أن ترى هناك زوجة لحرعى بسيطة تكتزن بهجواهرات ثمينة لو أن تفتح لواحدة من ذريات النساء في أوروبا أن ترتديها لأمركتها كل إبلات الزهو والخلاء ، ومع ذلك فقد تكون زوجة هذا الحرعى ممن يحالفن في الحصول على ثروت يومها . وهذا الكلف من ملهية السيدات المصريات بهذا النوع من الزينة يرتبط بطريقة أحسن هؤلاء السيدات بكرامتهن حتى أن أبسط ثامر لا بد أن يوفرهن أزواجهن أراضاء لها ، ويؤدى ذلك في النهاية وبدرجة لم تكن متوقعة الى تضييق ملاءمة تعدد الزوجات ، لذا يكتفى المسلم الموائع الثراء بزوجة واحدة أو اثنتين ، ولن يكون مقبوحه أن يزيد عن ذلك والا سوف يصعب عليه أن يسأري بينهن . وهكذا ، فقد وضع خلاء النساء وغروهن حدودا لأفراط الرجال وشهواتهم .

ولقد سبق أن تحدثنا عن حياة سيدات الحرم ، وكيف اتبسنا فارقة ورتبية ، وكيف أن الواحدة منهن تقضى يومها راقدة فوق فراشها أو مقعدة على وسائل رخوة ، تصطب بها جمهرة من الإمام شحيدات الانتباه ، لحد يتثنى ، مع بسا قد يجول في لوانتها حتى ليوفرن عليها حركة الاكسار من أصمها ، لذا فإن مثل هذه السيدة تكتسب في وقت تصير مسمنة غير مستحبة ، لكن الأتراك يحضرون هذه المسمنة واحدة من أهم شروط الجمال ، ومع ذلك فعمل هذا العمل منهم يعود الى أن كل النساء هناك في العادة سيهنت ، وهذا طبيعي بالنسبة لنساء يتكفن هذا النوع من التفتاة المرفهة . وغضلا عن ذلك علون بشره هؤلاء السيدات ناصع البياض ، وميسون خالبيتين أية في الجبال وللملحمن على وجه الصوم متلشفة . لكن جهود الملامحن قد جعل وجوههن خالية من كل تعبير ، كما أن مسكونهن يشي

برخاوتين ، ومطلين فضلا عن ذلك خال من أية معرفة . ونساء هذه الطبقة يلجأن الى وسائل تبدو لنا بالغة الغرابة حتى يضلن رونقا على جباهن وحتى يتلون أكثر الزمن ونطق الطبيعة ، فحيت لهن يرون في كثافة الحواجب أمرا شائعا فلتن يستغنين المؤسى لكي يصبح هذا الحجاب الكث مجرد خيط رفيع فوق الجفون . وعن يعرفن كذلك المسليقي ويضعن على خنودهن الخال ويعرفن كافة الوسائل التي تستغنيها المرأة الأوروبية في التزين . وتلجأ الشابات المسيحيات وكذا الرومانيات اللاتي يطمعن أن يحصلن قبل الأوان على كل جاذبية الراحة الى وضع شهادات من لباب الفيز السلفن بين النهمين وتحدث هذه العملية بالفضل لثريا ، ولكن لئلا التديهن قد تضجأ بسرعة وقبل الأوان فلتن في نفس الوقت يفتقدان من برونتهما ولعلنا نستطيع أن نجد في ممارسة هذه الطريقة الغريبة سر للسرعة التي يذبل بها جمال المرأة الشرقية . وهكذا لنساء مصر كما رأينا لمن أقل من مثيلاتهن الأوروبيات خبرة على سطوة جباهن وذلك بالرغم من أنه ليس أبسهن من عرصة لاستعراض جباهن هذا إلا املن لزواجهن أو التزوين ، فهذا النوع من الانتصار يرضي كرامتهن بقدة .

وفي الطبقة الدنيا يتغير كل شيء ، فالتزيان مهومات بأجود البهت ، أما بهاج البطلانة فلم تخلق لهن ، فهذهن في القول يقتسمن مع أزواجهن العمل أو يساهمن على الأكل في جعل العمل على أزواجهن أقل مشقة ، لذا تراهن يمتعن بكل الخصائص الجسدية التي تنتج عن مثل هذا العمل المنتظم ، فاجسامهن قوية ، عارية من الشحوم ، وحركاتهن سهلة ، وخطوهن ميسور في حين أن خطوات السيدات الميسورات ثقيلة متثيرة ، وعلى الرغم من بساطة ملابسهن فإن لهن الرغبة في أن يمهزن وسط رفيعتهن ، وذلك بالتزين ببعض الطلى الخفيفة ، فيحصلن لسبحهن مخارم عريضة كما يدل السلس و يزين خصلات شعرهن ببعض قطع من التلود .

ويقيم في القاهرة وولايات جديد من الأسر من نسل سوري و نساء هذه الأسرات في العادة حيلات وتلبتن مخيدة ومهوتن سوداء واسمة بها شيء من الإغراء ، لكن ثلثهن الأكنى والطويل بعض الشيء ربما يعطى لشكلهن ملحا من شيوخ واضح ، ومع ذلك هن يدون بهذا المظهر المتصرف في مواجهة السيدات التركيات اللاتي يملكنهن في السرى والصلوات ،

وثمة عادة شائعة بين النساء — مسلمت ومسيحيات — وهى أن يسود خاتمة حنوتهم بلكحل ويحمرن أظفارهن بالحناء ، ويلاحظ المرء كيف يمكن لهذا اللون القاتم أن يضى شيئا من القفظة على الوجه ، لكننا برغم ذلك لا نستطيع أن نصغر حكما قاطعا فى هذا السند إلا إذا رأيناها من قرب ونرى ظروف جميلة وليس فى ظروف طفلة ناعى لتجعل مثل هذا الخسوف يمكن التمتع ، ذلك أن النساء فى كل الظروف لا يخرجن مطلقا سافرات الوجوه ، بل يغطين وجوههن بالبرقع وهو غطاء مكون من قطعة من الموشطن ، توضع فوق الأنف والوجه وتضيق الفتحة ولا بد أنه بسبب لون الكثير من الفسقى ، وزيادة على ذلك ، تغطى جبهة المتزوجات منهن بمصاصة من قماش أسود تترك بين البرقع والجبهة فراغا شبيهاً بشفة العين أن ترى من خلاله ، أما أولئك اللاتى لم يتزوجن بعد ، فيحيلن على جباههن مصاصة بيضاء ، أما لون البرقع فهو نفس اللون بالنسبة لهؤلاء ولأولئك .

ولا يدخل الرجال مطلقا فيما هذا بعض الأهل الأتريين الى مسكن السيدات ، وتنفرد ما ياكل الزوج معهن ، ويخصص لهن الجزء الطوى من المنزل ، وهذه عادة شائعة عند الأتراك وعند كل الأمم الإسلامية .

وعندما كان يتاح لأحد الأجانب — قبل قدوم الحملة الفرنسية — شرف أن يمثل فى حضرة زوجة أحد البكوات ، أو زوجة إحدى الشخصيات الكبيرة ، فإن هذه الزوجة لم تكن لتستقبله فى حجرتها ، بل فى حجرة طواشيها أول ، لكنها لا تظهر لظفره ، وتأمر بتقديم القهوة والشربات الى خديها . ونظرا لتصادف مع هذا الغريب من طريق طواشيها دون أن تخرج مطلقا من خدرها . وهكذا لم يستطع الرحالة السابقون على الفزو أن يتعرفوا على أحوال سيدات الطبقة المسيطرة ، وذهبت أدراج الرياح كل توصلاتهم للحوح ، فلم يكن عظماء مصر ليسمحوا لأحد بأن يطلع الى جمال زوجاتهم . ومع ذلك فقد كانوا يستطيعون أن يوقعوا على الدوام بين وأجيات ومكنسيات اللبقة وبين تقليد بلادهم . وتتزوج النساء كما سبق لنا القول فى سن الثامنة عشرة ، وس النادر أن تبقى واحدة منهن بلا زواج حتى سن السابعة عشرة ، بل يحدث أن يدعى آت من قد تضمن فى سن العاشرة أو الحادية عشرة ، ومع ذلك فعمل هذا الأمر أقل انتشارا رغم أن ثمة أمثلة

معدة في هذا المجال لا تدع مجالاً للشك فيها نقول ، لقد حدث أن تزوجت شبابت قد نضجن قبل الأوان ومن بعد في سن الخامسة أو السادسة ، إلا أن مشورة السيدات لئزمة في هذه الحالة ، ولم يكن زواج مثل هذا أبداً إلا بعد أن تعين النسوة أن الزوجة الشابة قد بلغت مرحلة النضوج .

ويمكن للزوجة المصرية أن تصبح أما في سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة ، وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة على خصوصيتها المذهلة ومن الممكن لها أن تصبح أما مرة كل خمسة أشهر ، ولكننا نستطيع القول لكي تقدم نسبة دقيقة بأن كل مصرية تزوجت يجب مثلاً كل ثلاثة أعوام ، ويقوم ذلك التقدير نوعاً من التحويل بالنسبة للسيدات اللاتي يرغبن أو لولئك اللاتي يسهلن بخسومة قليلة أو اللاتي يحملن بعض الأسباب الخاصة بجزات من الإنجاب . والعلم أن السيدات اللاتي في هذه البلاد ، بل أنه بعد بمثابة حارث المرأة ، لذا طبعاً السيدة العقيم إلى كل الوسائل التي تفرسها معتقدات النساء وخبراتهن لكي تستطيع الإنجاب . ويعوم العجائون والمحتلون من أهل البلاد أو من الغرباء باستغلال هذا النوع من النساء فيقومون اليهن بأمان كبيرة لشواء يقال أنها لا تعجب مطلقاً ، لكن الطبيعة والطريقان علمياً فوسايدان بذلك هذه الأشياء - الوهم .. التي يمكن القول بأنها عديمة الجدوى على الدوام .

لكن السيدات في نفس الوقت لا يقعن خصيكت لمن متأخرة كما يحدث في أوروبا ، لها أن يقررن من سن الثلاثين حتى تؤدي نوبات العمل المتكررة إلى جعل الولادة صعبة مما قد يكلف الطفل الذي كن سيحياهن به حياته . ومن الخامسة والثلاثين هي السن الطبيعية التي يتوقف عندها معظم السيدات من الإنجاب ، ويظل بعضهم يشتعن بنسبة أن يكن أمهات حتى سن الأربعين لكن تلك حلة شاذة ونادرة الحدوث . ومن غير المألوف أن ترى سيدة تعجب بعد هذه السن ، وتكون هذه فترة مزعجة بالنسبة للسيدات المصريات ، إذ يشعن في هذا الوقت ببعض الاستطرابات والتقلبات التي تؤدي صحتهم ، لكن السيدة التي تفلت من هذه الأزمة بعد هذا العمر في بعض الأحيان لمن مقدمة جداً .

وتتم الولادة عن طريق القابلات ، وهي على الدوام حوادث سعيدة بسبب تلك الحياة الرخوة الهانئة التي تصيها المصريات . وعندها لا تستطيع

لمرأة - بعد أن تكون قد استغفقت كل الوسائل التي يتيحها لها طلب الزكوة العاجز - أن تتحجج بحاجتها في أن تكون لها لو أن تحتفظ بالأبناء الذين انت بهم إلى هذا المقام ، فإن التبنّي يحولها عن ذلك الحرمان الذي عرسته عليها الطبيعة ، ولا يمكن لك أن تسمع مطلقاً من يقول بأن تلك السيدة عقيم أو أن ذلك الرجل ملجئ . ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية على وجه الخصوص ، فالماليك واليونانيون والاسيويون والعثمانيون والأوربيون وكافة لنساء الأجناس التي لا تنتمي لهذا الوطن يموتون في المدة دون ذرية تخلفهم وذلك إذا ما تاملوا فيها بينهم . لما عنقنا يتركوجون من سودات هذا البلد فإن مقتورهم أن يتمتحو معتذ ببهامج الأبوة دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يطلخوا إلى أن يتلوا نعمة أن يتركوا بعدم ذرية كبيرة المهد .

ولا يصبح للمرأة المصرية من شغل - وقد أصبحت لها - إلا أن تعنى بطفلها ، فتنفع به كل احتياجه وتوكل حوله عواطفها ، ولا تستطيع القوى الضعائف أن تدفعها لكي تتطمس من هذا الصبء الذي ينزل مغفورة به طيلة تسعة أشهر ، بل أن طفلها المرتقب ينسجها الأم الوضع ، فهذا الكائن الضعيف والعريض هو تعويض لها عن آلامها الطويلة ، وكم هو جليل بالنسبة لها أن تقوم بواجبات الطبيعة ، أنها لن تسلم مطلقاً هذا الطفل الذي يدين لها بوجوده وجسمه السليم لعناية سيدة أخرى غريبة منه ، فهي تشهده الفهم للاطفاله الأولى ، وهي كذلك مطمئنة من لبنها ولا تحشى مطلقاً ما يحدها به هذا المولود الجديد من مخاوف ، فلقد قررت أن تحصل ذلك بسرور ولنسوف تحصل في شجاعة أيقظها كبرى قد تهددها . لكنها لا يسكن أن تسبح له مطلقاً بل يخلع على أخرى ببساطة ذلك الاسم الذي يصنع لها سمعتها ومجدها، اسم الأم ، الذي تثار عليه وتضربه ، لذلك لا تعرف في ممر هذه الأمراض التي تثير أحزان الأمهات الضعيفات الثلاثي يضعن من أرضاع أطفالهن، أما عمليات سكب لبن صدر الأم وغيرها من الأمور التي تصنف صفة الأمهات لسوء لا يمرنها الشرق . فكل امرأة هناك هي مرضعة لسرتها ، أما إذا ما شامت الطبيعة ألا تعيب الكمية الكافية من اللبن لأرضاع مولودها الجديد فمما ستطلب مونة سيدة أخرى ، لكن هذه المرضعة لن تعد مطلقاً غريبة عن الأسرة . إذ يمكن القول بأن صفاتها كمرضعة سوف تنسبها إلى هذه الأسرة وسوف تمنحها حقوقاً أبدية في مواطن الأبوين وفي مواطن الرضخ . وهكذا يبدو أن الضحية الأبدية

تعليم نوما من التعويض بين الزايا التي توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصري الذي ليست له نفس مباحثنا ومذائقنا أو نفس ميزاننا الجسدية أو الروحية التي تبعده من أسرته ، يعرف أكثر منا معنى العواطف الطبيعية ، فإطلاقه هم كل شيء في حياته . وهم مصدر كل سروره وبغضه وآماله ، وربما كانت أحاسيسه أكثرا فبلدا وأقل فتوحا لكنها أكثر نفاداً وأكثر حقيقة ، وهو يدين بذلك إلى براوة عاداته وكذا إلى بساطة تقاليده . لقد وجدها كائنة في نفسه وفي ثراها أسرته ، غريبة ثمة من المراتة ولقدنم المثلثي ما يسم مباحثه .

وتولى النساء المسلمات لأطفالهن اهتمامات دقيقة كثيراً ما تأتي بعكس المرجو منها بالنسبة لهؤلاء الأطفال ، فهن يصرن في تخطيهم بالملابس الثقيلة ويؤلفن مديهم بلطمة غير مريحة ، يهزفن على سهل المثال في تدعيم السكرات والملفكة من كل نوع لهم وتكون النتيجة أن يملك عدد كبير من هؤلاء الأطفال في سن مبكرة ، ويأتي الجدرى ليساهم في الارتفاع بنسبة الوفيات بينهم كما سبق لنا القول . على القاهرة على وجه الخصوص يشعب الجدرى في حدوث لفرار هائلة ، إذ يهاجم الأطفال من الجنسين ولما تكن أمهاتهم قد تجاوزت الستين أو الثلاث ، ولا يمكن لكل هذه الأجسام الضعيفة التي لطفت الأظمية الضعيفة بنيتها أن تتألم بسهولة عنف المرض . وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه بينما يصيب على الأجفاس الأخرى أن تستمر على قيد الحياة في هذه البلاد ، وسوف تقدم الدليل على ذلك في الجدول الآتي من حالة أهم الأسر المملوكية :

اسماعيل بك : لم يترك إلا بنتاً واحدة .

ابراهيم بك : له طفلان على قيد الحياة .

قلبي أمنا : أنجب ١١ طفلاً ، بقى منهم ٤ على قيد الحياة .

مراد بك ، أيوب بك المستتر ، ويوب بك الكبير ، الثاني بك ، محمد

بك المتفوخ ، عثمان بك بنفس ، عثمان بك الشرقي ، عثمان بك الأتق ،

عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرقيسي ، عثمان بك الطمبورجي ، حسن بك

الجدوى ، صالح بك ، إبراهيم بك الوالى ، محمد بك الصبولى ... كل هؤلاء بلا طفلان .

محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة على قيد الحياة ؛
على بك الكفيا : له طفلة واحدة على قيد الحياة وكذلك سليمان بك .
أحمد بك التركى : لم ينجب طفلا على الإطلاق ، ونفس الشيء بالنسبة لعثمان بك حسن وكذلك سليم بك أبو حبيب وقاسم بك .
حسن الكاظم التركى : لم ينجب سوى طفل اسمى .
محمد آغا : أنجب ٢٢ طفلا لم يبق منهم على قيد الحياة سوى طفل واحد سميت البنية .

ومن هذا نرى كيف كان عدد أطفال المالك الذين يبقون على قيد الحياة ضئيلا . ويمكننا من جهة أخرى أن نعد لسرا اجنبية أخرى كقصة لم تكن بأسعد حظا من ذلك . وهذا دليل على أن الوطنيين وحدهم هم الذين لديهم غرسة البقاء من طريق التكاثر . ويبدو أن طبيعة الطقس تلطف بجناد الأجانب الغريبة .

وقد خصص محمد نصا عن الواجبات التي يلتزم على الأمهات القيام بها تجاه أطفالهن . يقول المشرع العربى :

« والولادات يرضعن أولادهن حولن كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك لمن أراد فصلا عن ترافس منهما وتطور فلا جناح عليهما وإن ارتدتم عن عثرتهما أو لادكم فلا جناح عليكم إذا سئتم ما كنتم بالمعروف » (١) لكن السماح البادئ فى هذا النص يظل بالنسبة للزوجات المصريات غير مطروق . إذا أن لمن صالها بزوجةا فى أن يتن بناتهن بالطفلة التي يطلبها

اطفالهم ، فمن مخفوعات لذلك بدلتهم من الحب الأموى أولا ، ومن مخفوعات لذلك تلقيا بفعل احتياجهم لأن يجتن لاتنمى احتياكيات وأعمالا تقطع الرقبة المعتادة في حيلهم ، ويتفق ذلك مع كثير من أساليبهم في السلوك ، هؤلاء السيدات اللاتي تظلو رعوسن من أنة مبررة واللاتي لا يعرفن عادة اللجوء الى الكتب لخدم نراهن ، يتسكن — بفرحة طافية — بأنة وسيلة يمكن لها أن تزجى بمعنى هذا الفراغ . من هنا فان ممارسة واجبات الأمومة الشاقة بالنسبة لهن نوع من دفع المال ، وإذا ما حدث أن حبلن ثقية أثناء الرضاعة ، وهذا أمر بالغوف ، فتهن يستمرون في ارضاع الطفل حتى القصر السليم أو الثامن من الحمل حيث يكون اللبن قد تناقص ، وعندئذ يتخذن لطفلهن مرسعة .

ويتصرف البدو بطريقة جد مختلفة ، إذ لا تقوم الأمهات عندهم برضاعة أطفالهم ، حيث يرفض الآباء ذلك بحجة أنهم يسهون في تدليل الأطفال ، لذا يعمدون بالأمر الى مرضعات .

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن العناية الفائقة التي توليها النساء المصريات المكتبات في المن لأطفالهن منذ نعومة أظفارهم وهي عناية تفر على الدوام بصحة أطفالهن ، ولكن زوجات الفلاحين — على العكس من ذلك — يكتفين بلف أطفالهن بقطعة من قماش خفيف ويحملهم معهم ويسمحون لهم بالزحف شبه مرأة على الأرض ، وينتج عن هذه القسوة أن يتعلم أطفال الفلاحين المشي في سن مبكرة ، كما أنهم يكتسبون قواما يسرعة ، ونجاة بعد قليل يصبحون ناقصين لآبائهم . وعادة أرقاء السروال الشائعة في أوروبا مجهولة قبالا في مصر وكذا في كل بلدان الشرق ، لذلك فننادرا ما نرى رجلا متصنعا يجتو حرجا من الاستجابة لقضاء ضرورات الجسم .

والأب في مصر هو الذى يقوم بتسمية طفله ، ويعوم لهذا الغرض بجميع أصحافه وأقاربه في اليوم السابع للولادة ، وعادة ما يختار لطفله اسم جده إذا كان المولود ذكرا ، أما إذا كان بنتا فليس ثمة قاعدة لأختيار اسمها ، ويختار لها عادة اسم زهرة أو اسم شيء من الإلهام الفجائية الموجودة في الطبيعة .

٢

الختان

بالرغم من أن الختان عادة إسلامية ، إلا أن المذاهب الإسلامية تنظر إليه بشكل مختلف ، فمناح المذهب الشافعي يرونه واجباً دينياً لا محوص عنه ، أما أتباع المذهب الحنفي فيرون أن الختان ليس سوى فعل يلقب بالبره عليه ويعتبرون بأن يملك المولى أن يكون ممسكاً ، حسن الإسلام ، بدون ختان ، ومع ذلك فما دام ينشئ على المسلم أن يأخذ به فليس ثمة من الأسباب ما يكلل له أن يرفضه .

وليس ثمة من محددة لإجراء عملية الختان هذه فهكفى أن يختتن الأطفال المكبر قبل البلوغ إذ عليهم في هذه السن أن يؤدوا الصلاة ، وهم لا يستطيعون أن يحصلوا على الطهارة التي يطلبها محمد كشرط لهذه الشريعة الدينية ما لم تكن غللتهم قد انتزعت .

وعندما يبرد أحد الآباء أن يقوم بختان ولده ، فإلى يقوده إلى المسجد وهناك يعطى الإمام على الشاب الصغير الذي يخرج بعد ذلك من المسجد ليجد جميعاً من الأهل والأصدقاء ، ويصحب هؤلاء في جولات طويلة على شجرة الآلات الموسيقية ومع كثير من الأبهة حتى منزل والده . وعندما يكون هذا الطفل أبناً لأسرة سرية أو ذات نفوذ فإنه يعطى حشداً جديلاً مزركشاً في بذخ ، وعندما يعود إلى منزله ، تقدم ولية يدمى إليها كل الأهل والأصدقاء ، وعند نهاية الوجبة يقوم الحلاق بقطع الخلفة بالموسى ويوقف تدفق الدم بواسطة دوا قبض ، وعندئذ يسارع كل المدعوين بتقديم الهدايا « للبطاهر » ، ولا تحضر النساء هذا الحفل ، وعند الطيبات الدنيا تقطع تقوم النسوة بمصافحة الطفل إلى المساجد ويمن به ، لكنهن لا يخطمن لعصابة الختان هذه ، ومع ذلك فإن الفلاحين والعربان يقومون بقطع بشر الفتيات ويحبب الأتراك وسكان المدن هذا السلوك ما دام طول العضو لا يتطلب مثل هذا البتر ، وهي حالة نادرة جداً .

وكما سبق لنا القول فإن الإكبات يمارسون الختان ، ويخضع له أطفالهم الذكور في سن الثالثة أو الخامسة ، أما الفتيات ففي نفس السن

تقريباً . وقد سبق أن أوضحنا أن هذه العادة تنبئة في مصر ونضيف إلى ذلك أن اليهود الذين نشأوا بين المصريين — قد نقلوا هذه العادة إلى فلسطين ، وهذا التشابه لاكت للتأثر ويستحق الاهتمام كما نرى ، وقد سبقنا زملائنا إلى المطالبة بذلك ، ونحن نكرر ذلك هنا حيث أن هذا هو المكان الطبيعي لقل هذا الطلب .

ويعتبر الاختلاف عند المسلمين بمثابة الخطوة الأولى في الحياة ، إذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الأخلاقية والروحية ، إذ يؤمر بحفظ باداء الصلاة ويلتزم الطوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة . لكن المصريين لم يكونوا قد ارضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالطفل الآن هو بمثابة نهاية مرحلة الطفولة بالنسبة للمصري بكل تراثها وطبقها ، ويمكن القول بأنه بهذه الصلابة يولد مرة أخرى ، لكنه في هذه المرة يولد رجلاً .

٣

التعليم الأولي

في القرآن — ذلك التشريع الديني والاجتماعي في الوقت نفسه — فلم نجد بتحديد السن التي ينبغي أن يكون الطفل قد بلغها لكي يبدأ تعليمه الروحي والأخلاقي فقال :

« رب ابلغ لسبع ، واخبره لسبع ، وآخه لسبع » (١) .

ومع ذلك ، نعتقد أن الأطباء يدعون أن ملكات الطفل العقلية تتشكل منذ سن الرابعة أو الخامسة ، وأن الذي يهيم تعليم طفله ، يحرص على أن يبدأ طفله تعليمه احيانا في هذه السن فيجعله يتردد على المدارس حتى

(١) هكذا في النص والمعروف أن هذا مضمون حديث نبوي شريف وليس آية قرآنية .

وتعود على الأكل على شكل الحروف ولكن يدركها دون مشقة كبيرة .
ويلتزم الآباء بأن يجعلوا لابنهم نوع التعليم الذي يتناسب مع درجة ثرائهم ،
أو يازمونهم حسب الحال بتعلم حرفة . وتعلم القراءة والكتابة يسبق كل
شيء ، لكن ذلك ليس الزاميا ولا حتى علما حيث أن العدد الأكبر من الفلاحين
ولبناء الطبقات الشعبية لا يعرفون القراءة والكتابة ، ويمكننا أن نقدر عدد
الذين يعرفون ذلك في القاهرة بثلث عدد سكانها الذكور ، بل ويمكننا أن
نهيض بهذا العدد إلى الربع فقط .

ومن النادر أن نرى مصرية يتحمل بنفسه مشقة تعليم طفله ، فمن
الطبعي أن تجتنب الناس التصدي لصالح بيئته هذه المقتضى ، لذا فهم
يرسلون أبنائهم إلى المدارس مدعين مكثف — إذا ما قولوا أمر تعليمهم
بكتبتهم — أن يقوموا بهذه المهمة بالحزم اللازم . ويرسل الأثرياء أطفالهم
بصحبة أحد الخدم ، أما الفقراء فيصبحونهم ، أو يتولى بمساعدة المدرس
تجميع هؤلاء الأطفال ليصحبهم جميعا . وتقوم الأمهات بإرسال وحيات
إلى أطفالهن الدارسين ، ويقتسم هؤلاء الأطفال تعليمهم مع زملائهم
المحولين ، وهذه العادة تنبع من معتقدات قديمة شائعة عند كل المسلمين ،
في هذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خبيرين وكيف تنمو
مع نموهم هذه الجوهل الضخمة التي تعطي عليها مبادئ الدين . من هنا هذه
المساواة المطلقة التي تسود بينهم فهم لا يعرفون ذلك التمايز الذي يعود إلى
الأصل والنفس ، بل أن الفروقات نفسها ليس لها في هذا الصدد الأهمية
طبيعية . ليعين علينا إذن أن ننظف وجود مثل هذه الأفكار الضخمة وسط
هذا الخلط من النظم الهسجة ؟ ولم لا ؟ علما أن فرض الضريبة الإلزامية
حواجز على حكمة البشر ؟

ولا يرسل الكبار أبنائهم أبدا إلى المدارس العالية ، أما الفتيات فلا
يتعلمن حتى مجرد القراءة ، وإذا حدث أن كان بعضهن يمتلك هذه القدرة
فلا بد أن هذا أمر بالغ النعرة ولا بد أنهن قد تعلمته في محفل الحريم ،
ويكون مدرسوهم في هذه الحلقة رجالا في سن متقدمة ومحرومين من نعمة
البصر ، ولا يستطيع مثل هؤلاء المدرسين أن يعلموهن أكثر من حفظ بعض
آيات من القرآن . وعند هذا الحد تقريبا توقف التربية الإلزامية للنساء
في مصر .

« وليس ثمة ما هو أكثر فتجبا من مدرسة عالية في مصر، حيث يتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات ، في نفس الوقت الذي يتدربون فيه على مطلقها . وهم عادة لا يتعلمون الا قراءة وكتابة وحفظ أحزاء من القرآن ، وفي هذا الحد البسيط ينحصر تعليمهم الأولي ويردد التلاميذ بصوت عال وهم متجمعون داخل نفس الفناء - الدروس التي سبق لهم أن تلقوها من هنا يمكننا ان نكون فكرة من الضجيج الذي يسمع في الليل، وعلى هذا فينبغي ان يكون المدرس متعودا على هذا الضجيج حتى يمكن له ان يتعلمه . وبالإضافة الى تلك المادة الشائعة لدى كل الأطفال - عادة أن يغنوا وهم يستذكرون دروسهم أو أثناء قراتهم - فان أطفال مصر معتادون على تحريك الجزء الأعلى من جسمهم بشكل مستمر أثناء ذلك . وهذه الحركة الدائمة ، بالإضافة الى الأصوات غير المتزامنة تجعل من المدرسة العربية مشهدا فريدا بالغ الغرابة بالنسبة للمشاهد الأوربي . ويمتلك الأطفال الذين يخلون بواجباتهم المدرسية او محلاتهم بمحيطهم بقسوة ، ويبتذل العقاب العادي في مدد غير محدود من الضربات بالجريدة - وهي فرع من شجرة نخيل - على باطن القدمين .

وعندما يحزر الأطفال تقدما في الكتابة والقراءة ، يبدأون التعلم بطريقة الإساءة . ولا يكلف المعلمون انفسهم مطلقا عناء تعليم أطفالهم لا الصلاة ولا القوانين التي ترضها النبي . ومع ذلك فان القرآن هو الكتاب الوحيد في مراحل الدراسة الأولى . ويلتزم الآباء بتعليم أبنائهم قواعد الشريعة ، فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الأب دروسه الأولى ولا يستطيع الطفل ان يشارك في صلاة الجماعة الا بعد الفتن ، وقد سبق ان اوضحنا في أي سن يتم ذلك .

وعليها الآن ان نتحدث عن المدارس الأولية وعن نشاطها، وعن الأمور الثلاثة للنظر ان المدارس الممومة لا تدين بوجودها الا لامثال البر . وهذه المدارس كبيرة العدد في اية مدينة تغطي بدرجة ما من الأهمية . ويقوم الرجل الذي عادة بتخصيص جزء من الميراث الذي سيتركه لاولاده لإنشاء مدرسة ممومة والصرف عليها . انظر ان كيف يقوم كرم وفضيحة الخاصة للذين لا جدال فيهم لفساد ثمرات الاهمال الاجرائي من جانب الحكومة ؟ ولولا حسنات هؤلاء الأغنياء لكثفت مصر وتركيا معا محرومتين تهلها من (م ٥ - وصف مصر)

معرفة المبادئ الأولية للتعليم . وفي معظم الأحيان يكون المبلغ المخصص للتعنية بالمدارس ولبعضها لحد يسمح بالمصرف على طعام وكساء وتعليم الأطفال الفقراء مهما كان عددهم .

ويدفع الآباء محدودو الثراء لتعينا غشيلة للمدارس تتراوح ما بين ٣ — ٢٠ مدينى فى الأسبوع . والمدارس العمومية كثيرة جدا فى القاهرة وفى المدن الرئيسية ، ولكن من النادر أن نرى مدرسة واحدة فى الريف . وعلى الآباء الذين يريدون هناك أن يطموا أبناءهم أن يرسلوهم إلى أمام المسجد .

والمسيحيين أيضا بمدارسهم . وهى تعيش ثلتها فى ذلك شأن الأديرة على الإعانات والعطايا الخيرية ، ويعيش المدرسون من الاتعاب المتواضعة التى يحصلونها من تلاميذهم ، وما أن يبدأ الأطفال فى معرفة القراءة حتى توضع بين أيديهم مزامير دلود .

وإدارة المدرسة ، بل يمكن القول ملكيتها ، من حق نجل مؤسسها أو أحد ورثته ، وبإمكان هذا الوريث أن يبيعها أو أن يتناول منها لصالح آخر . ومع ذلك فينبغى أن يكون المدرس الموكل إليه أمر التدريس قلدا على القيام بهام وتليفته وأن يكون حافظا للقرآن ، وإذا ما رأى القاضى أنه أقل كفاءة مما يقتضيه العمل فانه يستطيع أن يرغم القائم على أمر إدارة المدرسة أن يختار مدرسا آخر أكما ولكن مهنة التدريس لا تحظى بالعناية الكافية ، وسكنتها ملائنة الضعف . وإذا ما كثر المدرس كلنا لحد أبكته أن يجلب عددا كبيرا من التلاميذ فله منعد أن يأبل بحض النفع والا فعليه أن يعيش خالدا الذكر وفى حال تقرب من العوز وليس له أن ينتظر نفعا .

وللقاضى حق التفويض على المدارس الابتدائية ، وعندما يتبين هذا الموظف الكبير أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المنشآت وتلاميذها قد صرفت فى غير أغراضها ، فان له الحق فى أن يرغم القاضى على إدارتها على الامتثال لرغبة مؤسسها .



العلوم والفنون

عندما يرغب الشباب بعد انتهاء دراستهم الأولية في مواصلة دروسهم فإنهم يطلعون لفترة في تلك الكتب التي لها صلة بدراساتهم المقبلة ، ثم يتوجهون إلى الأزهر للاستماع إلى دروس وشروح المشايخ . والجامع الأزهر — على نحو ما — هو الجامعة الوحيدة في مصر . وهيئة التدريس به تضم من ٤٠ — ٥٠ محرمًا من بينهم خمسة أو ستة ذائع الصيت .

وقدما يدرس هناك سوى القرآن وتقاليد السلف الأول ، والمقالات والشريعة والسلافة والحج وبقية الشرائع الدينية التي فرضها محمد . ولكل مذهب أساتذته الكلاسيكيون الذين لا يخطئون مطلقًا فيما بينهم حول المبادئ الأساسية للمعتقد الإسلامية .

كان النبي العربي يدرك أن القوانين تكتسب قوة دائمة جديدة إذا ما تأسست على العقيدة الدينية نفسها . لذا فقد كان بعيد النظر حين ربط بين الأنظمة والمؤسسات وبين الدين وحين جعل من الواجبات التي تفرضها الحياة الاجتماعية على النفس فروضًا يؤمنها الإنسان تجاه ربه وبذلك أصبح في تشريع واحد كلا من المبادئ الدينية والقوانين الخفية . . ويحرص المحرسون أصلاً على عدم الفصل بين الأمرين في دروسهم . وهم يشرحون في أسهل كل ما جاء في أجزاء القرآن مع الاهتمام بتوضيح المعاني الحقيقية للكلمات ، وكذلك يدرسون القواعد أو النحو — أي تلك اللغة التي كان يتحدثها العلماء الأوائل . ويقوم أعم الأساتذة في الأزهر بتدريس المنطق والمخاطبة أو البيان ، وهم يعرفون البيان بأنه فن التعبير عن أفكار كثيرة في أقل عدد من الكلمات وكذا فن استغلال كلمات كثيرة للتعبير عن أفكار قليلة أي فن توسيع الفكرة أو تركيزها حسب مقتضى حال السامع .

وكان محمود ، وإلى مصر وأبن هارون الرشيد ، قد جلب إلى مصر مؤلفات الفلاسفة الأفرقي وأمر بترجمتها إلى العربية ، لكن هذه الترجمات لم تعد موجودة بمصر ولا يعرف الآن في المدارس إلا مجرد أسماء هؤلاء الفلاسفة وبعض مقتطفات من مؤلفاتهم .

ويتنقسم المحرمون والطلاب الى ست هجرات (لروحة) أى تروع
كبيرة : السوربون ، البربر ، الأفريق ، مسكن الريف ، الصمغية ،
الصبيان ، ويخصص الرواق السابع لبعض طلاب الأقاليم .

وتتقدم الحكومة كل عام حوالى ١٠٠٠٠ لرتب من العيوب يؤمها
شيخ الأزهر أو وكيله بين هذه الفروع وليس لأغلبية القائلين من الفري
وسيلة أخرى للعيش إلا ذلك الخبز الذى يحصلون عليه من شيخ رواتهم .

وليس ثمة من نفوذ لوظائف التدريس ، ولا ينشغل مدرسو الأزهر
بالأمر العامة إلا لى يعوزوا لأنفسهم شهرة وروادا حبيدين ولكى يأخذوا
نصيبا من تبرعات المسلمين المتحمسين لمحصلون بذلك على دخل
بسيط يخصص لهم بالإضافة الى بعض الهدايا ، وإلى ما يحصلون عليه فى
مقابل الفتوى التى يمدونها فى الأمور المدنية والجنائية التى تعرض عليهم
لإبداء الراى لأنهم فى نفس الوقت رجال قضاء .

والطلاب ليسوا ببساطة مجرد مستمعين سالبين ، بإمكانهم إقناع
المدرس عند نقطة لم يتفهموا معانيها ، وإن يمارفوا رايه برأى شيخ آخر
مقبولوا بذلك نوعا من الجدل حتى يستخلصوا الحقيقة بشكل أفضل ، ومن
جهة أخرى فإن الشيخ بدوره يسأل طلابه لى يعرف ما أن كانوا قد فهموا
وتقدموا .

وعندما ينتهى شب من تجميع دروسه ، ويتس فى نفسه الكفاءة
والعلم اللذين يؤهلانه لى يأخذ وظيفة فى الجامع الكبير ، فانه يطلب الى
شيوخه شهادات تكافئه ، ويتقدم الى شيخ الأزهر لمحصل منه على اذن
القيام بالتدريس هناك بدوره ، ويدعو الشاب الى الدرس الأول الذى سيقامه
كل استغلقه وكل العلماء (١) ، فيتستحبون فى البداية اليه وبعد ذلك يسأله

(١) أن الأول أن نعين هنا المعنى الذى يقصده العرب من مختلف هذه
المسميات : عالم ، شيخ ، امام . . الخ . العلماء هم اساتذة الشريعة
المسلمين فى ذلك . وكل مسلم لديه علم يبلغه ويتخذ من ذلك حرفة له
يسمى عالما .

أما الشيوخ فهم المحرمون ورجال الدين . وشيخ المصالح الأزهر هو فى
نفس الوقت رئيس هيئة التدريس فيه ، ويعين عن طريق ثيام المحرمين

الطباء ويجادلونه ويعارضون آراءه . ويحاولون إحراجهم فلماذا ما أمكنه أن يجيب على كل الأسئلة ويرد على كل الاعتراضات فكانت شهرته ويهرع إلى دروسه الطلاب والسامعون وعلى العكس من ذلك إذا ما تردد أو ارتبك ولم يستطع أن يفوز بقدر كبير من الثقة ، لكنهم مع ذلك يحفظون عليه كرامته ويتحاشون اهتقته . لكنه يكون بذلك قد قدم عن نفسه فكرة سيئة بحيث لا يستطيع أن يأمل في المستقبل إلا في نجاح متواضع .

ومن المستطاع ممارسة التعليم في مسجد آخر بخلاف الجامع الأزهر ؟
ويكنى الطالب في هذه الحالة الحصول على موافقة شيخ الأزهر الذي يحدد له المكان الذي ينبغي أن يدرس فيه .

وعندما يتقدم عديد من المرشحين للحصول على مقعد في الجامع الكبير وعندما لم يكن ثمة إلا مقعد واحد يسافر فمن حق شيخ الأزهر أن يعطيه للشخص الذي يراه صالحا ، لهذا المركز ليس عرضة للقبول ، ومن ناحية أخرى فليس للبرفس من لقب آخر سوى للشيخ أو المعلم وليس ثمة أي تمييز طبقي أو تفضيل مسبق بينهم . فعمق معرفتهم ، وسنهم وفضائلهم هي التي تحدد أوليائهم . ويحمل الفضيل تقديرًا كبيرًا لأولئك الذين علموهم

القدالي بأخياره ، وهم يراعون أن يختاروا رجلا نفعها مشهودا له بالعلم ويحظى برضاء الحكومة . والمرشح الذي يفوز بأكبر عدد من الأصوات يتقدم أولا إلى الشيخ البكري وهو زعيم أحماد محمد فيخلق عليه جبة ويعينه في وظيفته الجديدة ثم يقدم بعد ذلك إلى شيخ البلد وإلى الناسا اللذين يخلعان عليه جبة كذلك . وليس هناك راتب مخصص لهذه الوظيفة ، لكنه منسوب بالغ الجاه والأشرف ، ويعطى صاحبه حق الاتراف على كل المدرسين . فلذا ما جرى أحدهم على الإعلان عن مبادئ مخالفة لآراء محمد ، فإن مقتدر شيخ الأزهر أن ينحيه عن العمل بالفتوى في الجامع الكبير ، لكن الاحترام الذي يكنه الأطباء تطبيقيا لسلك ما تعلموه نادرا ما يرمسهم لئلا هذا الموت . أما المفتي فهو الشخص الذي يصدر الفتوى أي الرأي المكتوب حول الأمور التي تعرض عليه ، ولكل مذهب ملت ؟ ومفتي الجامع الأزهر هو رئيس كل المذتين ويمكنه أن يناقش فتاواه ، وهذه الفتاوى ليست في الواقع سوى آراء استشارية يحق للفتاوى أن يخذ بها أو يحررها جتبا حسب قوة الحجج التي تأسست عليها وحسب مكنة المفتي الذي أصدرها وعندما يموت مفتي أحد المذاهب يتجعب علماء المذاهب الأخرى ليعينوا خلفا له ، ولكل مدينة من مدن مصر الرئيسية مفتوها الخاص بها .

وكلوهم فيصمون اليهم باحترام ويتلقون آراءهم بل وتانيبهم أحيانا بكثير من الادعائ .

ويهمل المصريون المحدثون العلوم المقتنة بعكس أسلافهم ، فالرياضيات لا تكاد تكون معروفة عندهم ، ويكتفى الملكى هناك بتسجيل بعض الملاحظات من طريق آلات ضخمة وعلى تحرير التقييم السئوى ، وفى نفس الوقت لمعد من يمتلكون مثل هذه المعارف ضئيل ، وليس ثمة ملكى شهير فى هذه الآونة إلا شيخ واحد ، هو واضح التكوين الجالى وله بعض التلاميذ .

وإن نتحدث هنا لا من النحت ولا من الرسم ، فهما - فى مصر - لا يستحقان هنا أدنى اهتمام ، لكن العمارة أكثر تطورا ، ومتأثرة المنازل الحديثة بالمنازل القديمة توضع تقديما مخصوصا فى أساليب البنائين أحرزوه منذ عدة سنوات ، بالتوزيعات تتم بشكل جيد تسمح بمرور الهواء والمحافظة على رطوبة المبنى ، لكن الذوق والأذاقة فى حكم النادر .

ويمكننا أن نحبب على المصريين المحدثين نفس ما يحبه الأفرقي على أحفادهم . فهم يظنون كل شيء ولا يصلحون شيئا ، وهم يعيشون فى حالة من عدم الانتظام والغبين ، لكن هذه العيوب لا تصدبهم مطلقا . ولقد تطبوا من العمال الفرنسيين من صيانة الأحنبة وأدوات المائدة الفضية والمجوهرات والمهاييز ، لكنهم لا يفتور بالا لا لجمال الشكل ولا لتناسقه ، وتطريزهم جيد لكنهم يبرعون على وجه الخصوص فى النجار ، وكثير من الزهريات التى يصنعونها تحفظ بالشكل القديم ، ويستعجبون فى المصانع والورش وسائل بالغة البساطة والاقتصاد : سوف نتحدث عنها فى الفصل الأخير من هذا المؤلف .



الأدب والفن

معرفة أوروبا بالأدب العربى معرفة بالغة الضالة لدرجة لا تسمح بتكوين فكرة دقيقة من ذلك المصدر الكبير من الكتائب المشهورين الذين برعوا فى مختلف ضروب المعرفة . ويستثناء بعض العلماء المتخصصين فى اللغويات

(المستشرقون) الذين نبين لجهوداتهم بمعرفتنا لعديد من المؤلفات هذه الشعوب ، فإن عدد الأشخاص الذين هم في حالة تسبب لهم بالحكم على التراث الفكري العربي ضئيل للغاية ، ومع ذلك فإن العرب قد أقرأوا انفسهم على الدوام ، وهو الفن الذي برعوا فيه أما النحو والبلاغة فقد قبلوا في دراستهما بأبحاث حبيطة (١) وكما هو الحال في علوم اللغة والأخلاق ، أما مؤلفاتهم في الطب والتاريخ والجغرافيا فتحتل اليوم بشهرة هي جديرة بها (٢) . ولا ينبغي لنا أن ندهش من أن الشعراء العرب قد أهرزوا هذا القدر من التبحر والتفوق لغراء اللغة العربية ونقمتها وجعلها يؤدي إلى تفوقها على كافة اللغات الشرقية ، ولكن بحيث أن مجال دراستنا هنا لا يسمح لنا بأن نوسع كثيرا في دراسة الأدب وسوف نكتفي بدراسة اللغة من حيث علاقتها بتقاليد وعادات المصريين .

يتناول هذه اللغة ، في مختلف البلدان التي تستخدم فيها ، بعض الاختلافات البسيطة سواء في تركيبها الدارجة أو في نطق بعض الحروف الهجائية ، ويعدل سكان القاهرة ، المشهود لهم بأنهم يتحدثون العربية بكثير من النبرة من نطق كثير من الحروف السليكة ليجعلوها مخالفة للشكل الذي نلتفت به في سوريا والجزيرة العربية . ويمثل هذا الاختلاف على وجه الخصوص في الحروف : ح ، ق ، ج ، ف حرف ج يلفظ في كل مكان كما يلفظ الـ *g* اللاتينية في كلمة *genou* لكنها تلفظ في مصر كما تلفظ الـ *g* الفرنسية في كلمات *gaie, gaze, garçon* أما حرف في التي تابل عنفنا *K* الحلقية فلا نكاد نراها تلفظ على لسان المصريين ولا نكاد نحن نحس باستخدامهم لها إلا من طريق نوع من التوقيف أو من الهوة

(١) يمكنك الرجوع في هذا الصدد إلى المؤلفات المعينة المكتوبة باللغة العربية والتي تمتلك المكتبة الملكية منها مجموعة ثينة . وسوف تبين أن العرب كانوا مشغولين على وجه الخصوص بنظرية اللغة وأن القواعد أصبحت عندهم علما يتطلب دراسة متخصصة .

(٢) أولئك الذين هازوا أكبر قدر من الشهرة في أوروبا من الأطباء العرب هم : الحريري ، الجوهري ، الفيروزبدي ، ابن سينا الذي يعرف باسم Avicenna ، المكي المعروف باسم Elmacin ، ابن خلدون ، ابن الفارض ، المتنبى ، ومن علماء الجغرافيا ، ابن حوقل ، أبو الفداء ، المقدسي ، الإدريسي . الخ .

النتيجة من تتبع حرفي على يشكل كل منهما مقطعا صوتيا مستقلا : أولهما هو المقطع الصوتي السابق على الـ في وثانيهما هو المقطع الذي تشكل الـ في جزءا منه ، أما مكان الصيغ فيلفظونها بنفس الطريقة التي يلفظها البربر أي كما نلفظ نحن حرف الـ 9 في كلمة gain (١) .

سبق لنا أن قلنا بأن العرب قد برعوا على الدوام في الشعر ، ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم عند كل طبقات المجتمع ، إذ نجد رجال الطبقات الشعبية في مصر ، بل وحتى الأتلسال لديهم حساسية دقيقة لهامونية الإيقاع ، وتكرار نغم الحروف السلكة (السجع) .

ولصالح الذين اغتياها خاصة تساعد على إنتاج أعمالهم ، ومن خاصية هذه الأغنيات ضبط حركات الحبال والتنظيل من مشقة الجهود الذي يبذلونه . ومع ذلك فمما سوف نعطيه لو أننا تصورنا أن هذه الأغنيات الشعبية تراعى تلك القواعد الصارمة التي تحكم الشعر العربي (٢) ومن بين تلك

(١) بهذا يكون علينا أن يواجه ثلاث طرق لنطق هذا الحرف في كلمة واحدة ، نكلمة بكرة على سبيل المثال يلفظها السوريون بكرة ، ويلفظها سكان مصر السفلى بأرة ، أما سكان الصعيد والبربر فيلفظونها : بجرة .

(٢) نضع موازين للشعر لقواعد بالغة التعقيد إذا ما قارناها بترك التي تحكم كل أنواع الشعر المعروف ، إذ هي لا تحتم فقط نفس القافية والإيقاع وانقسام البيت إلى شطرين مثل الشعر الفرنسي ، بل هي تحتم كذلك عددا من التفصيلات بشكل يمثل العروض اللاتيني على وجه التقريب .

ويوجد في اللغة العربية ١٦ نبطا أو مقاييسا . ويحصل كل واحد من هذه المقاييس اسم بحر ، تصريفاته مأخوذة — شئنا شأن كل الصيغ النحوية الأخرى — من الفعل العربي : فعل ، وعلينا أن نفهم الآليات التي تؤمنها على هذه التصريفات . والشطر يسمى مصراعا وكل مصراعين يشكلان بيتا ، ويقطع البيت إلى أجزاء . ونقدم هنا تصريفات الـ ١٦ بحرا للشعر العربي مع بيان الأسماء الخاصة التي تطلق عليها وبعضها أكثر انتشارا من غيرها كما أنها تختلف فيما بينها من ناحية شدة أو قلة السرعة .

- ١ — بحر الطويل : فعولن فعولن فعولن فعولن .
- ٢ — بحر المديد : فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن .
- ٣ — بحر السبيط : مستقطن مستقطن مستقطن مستقطن .
- ٤ — بحر الخواصر : مفاعلاتن (ست مرات) .

التكوينات البالغة الجمال في اللغة العربية تشير إلى الموال ، وهي الأغنية

- ٥ - بحر الكليل : متفاعلن (ست مرات) .
- ٦ - بحر الهزج : متاعلن (ست مرات) .
- ٧ - بحر الرجز : مستعلن (ست مرات) .
- ٨ - بحر الرمل : فاعلان (ست مرات) .
- ٩ - بحر السريع : مستعلن مستعلن مفعولات (مرتين) .
- ١٠ - بحر المنسرح (أو المسترسل) : مستعلن مفعولات مستعلن (مرتين) .
- ١١ - بحر الخفيف : فاعلان مستعلن فاعلان (مرتين) .
- ١٢ - بحر المنسرح : ويسمى هكذا بسبب تشابه أوزانه مع بحر المنسرح : متاعلن فاعلان متاعلن (مرتين) .
- ١٣ - بحر المتقضب : مفعولات مستعلن مستعلن (مرتين) .
- ١٤ - بحر المحدث : مستعلن فاعلان فاعلان .

ويرى النقاد أن هذا البحر قد يسمى هكذا إما لأن الشعراء لا يستخدمونه إلا مع حذف فاعلان الأخيرة من كل مصراع . وإما لأنه بعد اختصاره على هذا البحر يبدو كما لو كان مشتقاً من بحر الخفيف إذا ما حذفنا فاعلان الأولى من كل من مصراعيه . ونفس الشيء بالنسبة لبحر المتقضب ، فاسمه هذا يعود إلى أن كل واحدة من مصراعيه عادة تفقد مستعلن الأخيرة فيها فيبدو عندئذ وكأنه من بحر المنسرح بعد أن شطرننا مستعلن الأولى في مصراعيه .

٢٥ - بحر المتقارب ، ويسمى هكذا بسبب تقاربه واختصار الزواجر التي تكونه : لمعلن (٨ مرات) .

١٦ - بحر المتدارك ، أي الذي يلي البحور الأخرى ، ويسمى هكذا لأنه البحر الأخير في النظام الذي أخذ به العرب ' فاعلان (٨ مرات) .

ولا يحظى البحر الأخير بقبول معظم القويين الذين لا يهتمون إلا بـ ١٥ بحراً .

تلك هي البحور الـ ١٦ التي تنظم الشعر العربي . وإذا كثرت هذه الأنماط المنفية قد طبقت بصرامة في البداية ، فل كل واحد من هذه البحور البدائية قد تناوله عدد كبير من التحديلات كل ينظر إليها في البداية كتوع من الاستثناءات الشعرية لكن كثرة اللجوء إليها قد أدت إلى تفتيتها حتى أصبح عدد هذه الاستثناءات الشعرية المباحة يمثل عدد البحور المنتظمة بل لقد شملت مكان عدة بحور لم يستعمل قبلها الأول على الإطلاق في كامل تلمحه .

المخلفة لدى الجنس اللطيف في مصر والذي يقتربه الـ Romance
 عتقنا . والموال لها تميز وأما طويل وموضوعاته على الدوام هي مباح
 الحب ، والشكوى من الحبيب الذي خان أو الذي هجر ، وتصوير جمال
 المحبوب ، ورسالة حب بين عاشقين ولواعج القلب .. وعندما يقضى هذا
 الشعر بنقبة خفيفة متهذبة مثيرة للمخلفة فالأمر يستدعي نوعاً من المد
 والاسترسال . لذا تمثل هذه الأغنيات من أحبل مباح ومسررات الحريم ،
 وما إن يؤلف موال جديد حتى تتكفل الموالم والآلات على الفور بإدائه ،
 ليستتر بين النساء المصريات أذ يتسابقن على حفظه والدفن به .

== وتسمى كلمات الذخريف اللطيف التي تشكل مختلف البحور ، وهي :
 ماعلتن ، ماعلن ، ماعيلن ، فحولن ، مفعولات ، مفاعلن ، مفاعلتن ،
 مستطعلن ، تسمى هذه الكلمات أجزاء البحر ، والمفرد جزء .

كما ينسب إلى المجموعات المخلفة من الحروف والحركات التي يتكون
 منها كل جزء باسم أساليب (حبال) ولوناد، ومنما يوجد حرفان أولهما متحرك
 والثاني ساكن مثل : هل ، لا ، أم ، فلهما يشكلان سبباً خفيفاً ، أما إذا
 كان الحرفان متحركين ، وينقسمان نتيجة لذلك إلى مقطعين صوتيين مثل :
 هو ، لك ، فلهما يشكلان سبباً ثقيلاً . والأوناد الأركان هي أيضاً من
 نوعين : وقد مجموع ، وهو مجموعة تتكون من حرفين متحركين بملحهما حرف
 ساكن ، مثل : لها ، لقد . وقد مفروق ، وهو عبارة عن مجموعة مكونة من حرف
 ساكن يقع بين حرفين متحركين مثل : قلت ، صار . والجزء الأخير من المصراع
 الأول يشار إليه باسم عروض أيضاً يشار إلى الجزء الأخير من البيت باسم :
 ضرب ويسمى حضوا كل الأجزاء الأخرى من البحر . ويطلق اسم صدر على
 الجزء الأول من البيت ، وابتداء على الجزء الأول من المصراع الثاني . إذن فكلية
 حشو تشير إلى أجزاء البيت التي ليست لا العروض ولا الضرب ولا الصدر ولا
 الابتداء .

وبما للتصديقات المخلفة التي أبلعها العرب وادخلوها على القياس
 وسموها باسم زحاف أو حال ، يمكننا أن نعد بالنسبة للبحور السبعة
 عشر ٣٦ عروضاً و ٦٧ ضرباً مختلفة .

ويعني علم العروض بمعرفة هذه الأنماط الأولية والتفرع بينها ، ولكي
 نعرض الأمر كما ينبغي فإن ذلك يتطلب مؤلفاً كاملاً ، لكن حدود هذا
 العمل البسيط لا تسمح لنا يقول المزيد .

{ هذا العمل من الشعر العربي قدمه لنا السيد عجوب } = (وهو
 جوزيف عجوب وكان مترجماً للحيلة ووضع أول قاموس فرنسي - عربي) .

ويضم الموال ثلاثة واحدة تتكون من خمسة أبيات أو أربعة في حالات كثيرة . وتتراوح أوزان هذه البيوت من ٨ - ١٢ مقطعا أو ١٤ مقطعا في بعض الأحيان ، ويتيفى أن يكون لكل أبيات الموال نفس الوزن ونفس الثانية فيما عدا البيت الرابع في الموال الذي يتكون من أربعة أبيات .

ويكاد يكون هذا البيت قبل الآخر بلا فاصلة ، وثلثا ما يكون بعره هو نفس بصور البيوت الأخرى للموال ، فلذا ما حدث لحبسنا وكثرت له نفس الفاصلة من ذلك لا يتم إلا في حالة الموال الذي يتكون من أربعة أبيات .

ويحدث أحيانا أن نستخدم نفس الكلمة كتابية في كل أبيات الموال ، لكن ينبغي أن يكون لها معنى مختلف في كل واحد من هذه الأبيات ، ولدينا عند بعض شعرائنا أمثلة لهذه القوافي ذات الجنس الواحد والمعنى المخطئ . وتكفي بأن نورد هنا هذين البيتين للشاعر بوالو :

Prends-moi le bon Parti : Laisse - Là tous tes livres.

Cent francs au dernier Cinq. Combien Font-ils ? Vingt livres? (*)

ومن المعروف أن اللغة العربية تضم عددا كبيرا من مثل هذه التباسات في المعنى ولكن حيث أن الموال بعيد من أن يفسح لصرامة القواعد التي تحكم الشعر العربي الفصح ، فإن الشعراء لا يكفلون أنفسهم مناه تحمل هذه الصرامة . فيستخدمون نفس الكلمة المأخوذة على نفس المعنى ، مدة مرات كتابية . وينظر لهذا الاستثناء الشعري باعتباره كسرا لقواعد الشعر .

وفيما يلي مثال لموال من خمسة أبيات :

(*) في البيت الأول كلمة livres بمعنى : كتب وفي الثاني معنى جنهات .

(المترجم) .

الاهيف اللى تمناء القلب ودعاه
 فى موقف الفل خلا الماتقين ودعاه
 كمن ثلث للعين كفى من حواء ودعاه
 كمن له قلب قاسى لم رهم علقق
 ولا يخلف من اتينه فى الحجى ودعاه

والأبيات الآتية مثال على بوال مكون من أربعة أبيات :

يا حريتى فى بلاد التماس فلتنى
 يا كلمة النذل فسلتنى وحطتنى
 يا ديمتى نزلت على خدى حرقتنى
 يا حصرتى راحت رفائى وغلتنى

وفىما يلى ترجمة لأبيات بوال الف خصيصا لامتناع بولس جزيرة
 الروضة كما تقدمنا لنا السيد محبوب :

« اصحبوا لجمال المتجسس ، ويلعن الذى بنى به . لا يوجد فى أبنائنا
 هذه با يسكنه أن يسارع هذا البناء ، ولا تستطيع القرون الآتية أن تقدم
 شيئا يماثله . لقد بناه مهندس نابى فكى ، شديد العلم ، وأظهر فيه كل
 روعة فنه ، وسوف يسهج لهر الفئتين ولتهم مدى لو حاولوا تعليده جماله .
 انه مائيس معبد ، كان مقيدا وسيظل مقيدا على محار التسنين ، طوله ٢١
 ذراعا ، وعندما تبلغ المياه الذراع الـ ١٦ تغرق مياه الفيضان فى أرض
 الرولة » (١) .

(١) لكثيقت بالترجمة لعدم امكن للوصول الى النص الأسمى .
 (الترجم)

الفصل الثالث

عَيْنُ الْإِنْسَانِ الْفَصْرَى فِي طَوَارِجِ الرُّجُلَةِ
الْعَامَاتِ الْمَذْنِيَةِ وَالْأَبْرَةِ

١

عن الزواج

الزواج في مصر هو عقد اتفاق خلص لا يحتاج الى تصديق جهتي أو قانوني . إذ يمثل عقد في الإرادة التي يبرر عنها الطرفين المتعقدان، وتكفي موافقتهما المتبادلة ليكون هذا الزواج مشروعا . وتعطي المرأة موافقتها بنفسها أو من خلال وكيل وفي هذه الحالة يذهب الشكس الذي يمثلها الى الزوج المقبل ليضلم المهر ويقول له في حضور شاهدين : زوجتك ويجابه الآخر : قبلت . ويتم الزواج هكذا بدون أية إجراءات رسمية أخرى .

ولا تقدم الزوجة الجديدة مهرا (دونة) لزوجها ، وفي بعض الأحيان تطلق هي هدية من والدها ، ولكن هذه الهدية تطوع منه وليس من حقها أن تفرضها عليه ، ويحدث في أحيان أخرى ألا يكون للزوجة من مهر إلا ما يقدمه الزوج ، فالمشرية تعلم على الزوج تقديم مهر لزوجته ، وتخطئه هبته باختلاف المذهب ، فيحتم لهما ألا يتصل المهر من عشرة دراهم إلى حوالي ١٨٠ بارة . ويكتفى بذهب آخر بمجرد أن يكون ثمة مهر حتى ولو كان المهر لا يتجاوز حبة من الحديد . ومع ذلك فلا يغوت أهالي الزوجة أن يقدمها إليها هدايا تتناسب مع ثروتهم فتصل في مجوهرات ومائيس ، لكنها لا تعطى مطلقا عقارات زراعية . وفي حالة ما إذا كان المهر لم يتم تحصيله قبل اليوم المحدد للزواج — وهذا شيء نلخر الحديث — فيحدد المهر طبقا لمهر أم العروس أو واحدة من اقرب قريباتها . والمهر الذي يقدم للزوجة عن طريق أزواجهن ميلاد أسفى من عهد الزواج ، وهو حق مطلق لمن ، وسوف تنفخ لنا فيها بعد أهيبته .

ويحرص الكبار وأفراد الطبقة الثرية على أن يتخذوا شعوبا على زواجهم من بين رجال الشرع الذين يكتبون عقد الزواج ويودعونه عند الكاهن العمومي . أما الفلاحون فيكتبون بتسجيل زواجهم عند لطفى الولاية ، أما

مساكن المدن فيهبون كل أشكال الرسميات وتتم الزيجات بينهم دون
العقالات مكتوبة .

ولا يستطيع المسلم بن يتزوج لا ابنته ولا أخته ولا بنت أخيه أو بنت
أخيه ولا بنت زوجته ولا أخته في الرضاة بل ولا تحت زوجته إلا إذا كتبت
زوجه قد ماتت أو كان قد انفصل عنها . وبخلاف ذلك يسمح لـ بالزواج
من بقية درجات القريب الأخرى .

ولا يعترض الدين على ارتباط المسلم بزوجة من ديانة أخرى : مسيحية
أو يهودية ، وقد سمح محمد بهذه الزيجات لأنه يعترف بموسى والمسيح نبين
ورسلين من عند الله ، لكنه لم يسمح مطلقا بأخذ زوجات من عقائد
أخرى خلاف ذلك ، بل ليس سوى لثلة محدودة لمسلمين قد استفادوا
من هذا التلويح من جانب الشرع . وينشأ الأطفال الذين يولدون من
زيجات كهذه على دين محمد ولا تراث الزوجة في هذه الحالة من زوجها ما لم
تكن لثة وصية ، ويمكن للزوج أن يقدم لها جزءا من ثروته كعكة اختيارية .

وتزوج الإبناء قبل سن البلوغ حتى مطلق يتبع به أرباب العقالات
بل إن موافقة الأنساء أنفسهم لا ضرورة لها وليس بإمكانهم أن يمسكوا —
عن طريق الطلاق — وثاقا مقد على هذا النحو ، ولكن إذا كان الإبناء بالغين
فإن موافقتهم لا غنى عنها ، لكنهم يفرزون اختيار أهليهم في معظم الأحيان
ذلك أن الجنسين على الدوام — حيث لا وسيلة للاتصال بينهما — إن
يستطيعا إقامة زواج على أساس من الاختيار أو العاطفة المتبادلة ، وفي
نفس الوقت غلبت مسموحها للزوج بأن يقرب زوجته إلا بعد بلوغها السن الذي
حدده الطبيعة للبلوغ حيث تصبح قادرة على الإنجاب ، فيبقي الأب ابنته
لديه حتى تبلغ سن الخامسة عشرة لكن حقوقه هذه تتوقف منذ بلوغها
هذه السن ، ويحظى الأب بالتقدير عادة إذا ما اعترض على إتمام زواج لم
يحن بعد أوانه . وينبغي أن نلاحظ أن والد الزوج لا يقيم اعتراضات
من هذا النوع إذا ما وافق والد الزوجة على أن تذهب على الفور إلى أحضان
زوجها ، ولا يقيم أسرة الزوج أية مشكلات تحول دون اتصال الزوجين
ولكن يندر أن نجد في أوساط الطبقة الدنيا زيجات تتم قبل الوقت المناسب .

ويحدث كثيرا ألا يكون الزوج الشاب قد رأى من قبل المرأة التي

زواجها ، ولم تكن لديه فكرة من جمالها وكفائتها الا عن طريق واحدة من تربيته أو صديقات أسرته لذلك فلن الليلة الأولى للزفاف لا يكون لها من نتيجة الا الطليعة الدالة لتذهب الزوجة غاضبة الى بيت لبيها . ومع ذلك ، نراه اذا ما ألح رجل في أن يرى تلك التي يعرضون عليه الزواج منها فان الشريعة تبيح أن تكشف الفتاة من وجهها ويديها أقدامه . ولا يمكن أن يتم هذا الا في حضور أهلها وفي الفترة التي قارب الزواج فيها مرحلة النكاح . وعلى الرغم من هذا فنادرا ما يلج أحدهم في ذلك بطلا حيث أن العادات المتبعة تمارسه . ومن بين الأسباب التي تؤدي الى زواج مبسر كهذا خوف الآباء من استسلام أبنائهم الى ملاد مهلكة للصحة تحت غفوط من شهواتهم .

ويمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات بالامساق لاي عدد من الآباء يستطيع إلماعه ، ومع ذلك نبحث أن عليه كما سبق القول أن يوفر لهن جميعا حياة طيبة ، بالامساق الى ما ينشده المرء من مسادة وهناك عقلي ، فان المسلمين من كافة الطبقات يحرصون على ألا يفتدوا من هذه الرخصة التي أباحتها الشريعة الا باعتدال بالغ . وليس لكبار الشفصيات في العادة الا زوجة شرعية واحدة ، وقد تدفع أحدهم الرغبة في انجاب الأطفال أو في الحصول على مصاهرة مثمرة الى الحصول على زوجة ثانية . وعلى الشخص المتزوج من أكثر من زوجة أن ينسجم في سكن كل واحدة من زوجاته بالتبادل ، أما اذا تصرف بطريقة مخالفة فسوف يلام على سلوكه ملنا فتتفصل زوجة على الأخريات ينظر اليه كابر ظالم لا يسمح به لأنفسهم أولئك الحريصون على هتافهم العقلي والذين تسيروهم مشاعرهم الرقيقة . وعندما لا تكون الزوجات في حالة وفاق فيما بينهما — وهذا هو الأمر الشائع — فان الزوج ملزم بتخصيص منزل لاية واحدة ممن تطلب ذلك ولا يستطيع الرحل أن يتنجح في الاحتفاظ بعدة زوجات في منزل واحد الا بقوة الإرادة والقميص والكرم أو بطريق العنف والاستبداد .

وتعتمد الزوجات أكثر شيوعا بين الديانات الشعبية . وهم يسيئون كذلك استغلال سهولة إيقاع الطلاق بزواجهن حيث أن الأمر لن يكلفهم الا مجهرا بالغ الضالة ، وحيث أنهم — بسبب تلك الخلطة في طباعهم — ينظرون للمرأة كمخلوق ناقص غير جدير بالاحترام . (م ٦ — وصف مصر)

ويتم الاحتفال الذي مسح به محمد لإعلان حدث بهذه الأهمية في منزل والد الزوجة ، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد كي يستطيع الزوج أن يرى زوجته إلا إذا كلى الأثنان قد ملقا سن الرشد ، وتبقى الأيام التي تسبق الارتباط في أفراح عصف الأسرتين غيدمي الرجال إلى منزل والد الزوج وتدعى النساء إلى منزل والد الزوجة ، وتبقى الزوجة يوما في الحمام ، وتذهب إلى هناك في صحبة تربيته وصديقها ، يغطيها تماما قفاز كبير وزين رأسها تاج وتسير تحت هودج تسبقه حاملة وعرفة من الموسيقيين . وتجعل أصوات الآلات الموسيقية وأغنية المرس وصيحات الفرح التي تطلقها السيدات (الزغاريد) الثلاثي يشكلان الموكب — كل ذلك يجعل من ذلك الموكب مسيرة صاخبة مليئة بالحياة ، وعندما يصل الموكب إلى نهاية المطاف إلى الحمام ، فإن العروس تستعرض على صاحباتها عليها ، فضلا المهاجر بالبخور الطيب الرائحة ، وقران المطور العالية بمسغفاد ويذبح وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتهن ، وينفخ البوم في مرج بهيج وتقدم الأباء أو خدامات الحمام القهوة والشربات والمطائر والطوى ثم يعود موكب العروس إلى بيت أبيها بنفس الطريقة التي ذهب بها إلى الحمام (١) .

(١) حيث أن غلبة وأبهة حفلات الزفاف تخطلان تبعا لدرجة ثراء الزوج فقد اكتسبنا في المتن بأن تقدم فكرة ملة لكننا في هذا الباب سوف ندخل في بعض التفاصيل الدقيقة حتى لا نهمل شيئا يمكنه أن يحدد خاصية عادات مختلف الطبقات الإسلامية في مصر .

في أثناء التوجه إلى الحمام تتحجب كل السيدات في الموكب وكذا العروس ، وتصل العروس في بعض الأحيان على رأسها وعاء مصلى مشال من الكشمير يغطي من كل الجهات ويغطي الوجه تماما ويكون الشال مزدانا بالكثير من الجواهرات والأحجار الكريمة التي استعارتها الزوجة أن لم تكن تملكها هي نفسها . وحتى يكون الشال أكثر بريقا فإنه يغطي من الأمام بورقة طويلة من الذهب . ويرغم أن الشال يتدلى حتى القدمين تقريبا فاننا نستطيع أن نلمح من خلال الفتحات التي يكشف عنها من ملابس الزوجة البالغة الدخ والطرفة بخيوط الفضة والذهب . وترتدي الزوجة خفين من جلد الماعز الأصفر ونعلا مطرزا وهي لا تكشف مطلقا عن يديها . ويسمح شكل ملابسها بأن تكون فكرة من غابتها ودرجة سميتها . وهي تسير تحت هودج نطليه بنوسية من الكريشة المصبوغة باللونين الأخضر والأحمر ويحميه الأصحاء أو الأتارب من لركته الأربعة . وعندما يحتفل أحد المالك

ولا يذبح الزوج بتورته أن يذهب إلى الحمام الصالح - وهذه عادة يتبعها الأترياء على الدولام حتى عندما يكون لديهم في منازلهم حماماتهم

بلواجه على هذا النحو فإن المالك هم الذين يحملون أركان اليهودج ويسير مع العروس تحت اليهودج التفتان من خيرة صديقاتها من بيتان بأعلى المحلى وتسير خلفها أمها ، ويتقدم المسيرة رجال يحملون الدفوف ويعددهم خاتم يسير أمام اليهودج حبلًا على رأسه طبقًا من الفضة أو النحاس المحلى بالذهب مغطى بقطعة من الحرير المطرود . ويحتوى هذا الوعاء على زبيب من الأحنية الخشبية (القيقب) المزدان بشرط من الفضة ، ويحتوى كذلك على بصل من الناج مغطى بالفضة كذلك ، وقميص صنوبر من السكر ناصع البياض وشمعتين بيضاويتين ومنديلين من الموشلين المطرز بالفضة ، وأخيرًا على رطابين (الرطل) = ١٨٠ درهم ويساوى تقريبًا نصف كيلو جرام ونصف الحرام ، ١٠٠ رطل = ٥٥ كيلو جرام) من البن أحدهما مغلف بشكل مختلف عن الآخر ويضم الموكب لفيت ومدعوات يصل عددهن إلى ٢٠ ، ٣٠ ، أو ٦٠ سيدة .

ويلاحظ في حفلات زفاف الطبقة الدنيا وجود نفس العادات مع تعديلات طفيفة . فبدلاً من المجوهرات والأحجار الكريمة التي تزين الفساتيل التي يقضى حول العروس ، يرصع الشال بكمية كبيرة من النقود الفضية ، ويحمل رجل من العامة أطراف اليهودج الذي يسقه بعض العبيد يرتدون ملابس على نمط القسطنطينية وبموسيقيون يركبون الصبر ويقوم رجل يسير بالقرب من العروس مرافقها من أن لاخر بماء الحطر ينهنا ثقيل المسيرة جبهة من النساء ينشدن الأغاني التي تنشد عادة في مناسبات العرس .

وخارج مدينة الإسكندرية شاعداً مروسا ندوية كانوا يتحولون بها ، وكانت تركب فوق جبل ، وتصحبها الماشية والأغنام وكل الأشياء التي تلتحقها كبحر ، وكان الموكب مطينا ، بل كان أحياناً يتوقد وتشتت مسيرة . وكان البدو يطلقون الأميرة النارية من بنادقهم كما كانوا يمزقون الموسيقى بينما يواصل النساء غناءهن بلا انقطاع .

وجدير بالذكر أن هذه الاحتفالات التي تتم خارج البيت والتي مرصنا للتو تناسلها لا يمارسها البكوات وكثير الشخصيات بالقاهرة ، ذلك أن احتفالات العرس عند هؤلاء تتم داخل البيوت ، كما أن الماشية وبقية المسلمين الذين حصلوا على قدر كبير من التطعيم قد هجروا بالمثل عادة تقديم الدليل على مكررة زوجاتهم للأقرب والاصحقاء باعقب ذلك شينا يفضش الحشمة .

أما عامة الشعب والأقباط فاتهم وحدهم الذين ما يزالون يمارسون هذا السلوك .

الخاصة . وهو يقوم ببلاغ رغبته في ذلك الى اسطى الحمام عشية اليوم الذي يرغب أن يذهب فيه الى هناك ، فيسارع السعال بتحيز الحمام بطريقة لافتة ويؤنونه بالورود في حالة السيدات لما في حلة الرجال فيكتفي بأوراق البخور فيه وفي نفس الوقت يكون العريس قد دعا ١٥ - ٢٠ من اصديقه ليصحبوه ، وبعد أن يحضروا صلاة الحمام لا يقبل دخول اشخاص آخرين . وهم في الغالب يحضرون معهم يبللهم وأعطيتهم وغوطهم ، كما يجلبون معهم عارفين للتربية منهم . ويأتى مخير الحمام نفسه لاستقبال الجميع ويتود العريس الى الحمام وينسحب ليأتى بعد قليل حاملا الأرجيلة وعندما ينتهي العريس من حمله يقوده مخير الحمام مرة أخرى الى الحجرة الاولى . وفي اليوم الأول الذى يضييه هؤلاء في الحمام لا ياكلون شيئا ، ويحصل مخير الحمام من العريس على ٦٠٠ - ١٠٠٠ ، وأحيانا الفين من الببرات حسب درجة لرائه .

ويؤدى الاثرياء حفلة الحمام هذه مرتين .

وأخيرا يحل اليوم الكبير حيث ينمى أن تذهب الزوجية الى بيت زوجها ، ويأتى الأب أو واحد من اصديقه ليأخذها من بيتها ويسير خلفها موكب لا يقل روعة من موكبها الى الحمام ، وتسير العروس تحت هودج وتغطى طيلة الطريق بغطاء لا يكشف شيئا ويسير أمامها العبيد حاملين مجوهراتها وملابسها في سلال مزدانة ، لكنها لا تتوجه مباشرة الى منزل زوجها ، بل تقوم بجولة طويلة زيادة في الالهة ، وعندما تصل الى بيت الزوجية ، يحتفل بقديومها بغامة وجبة بالخة في مسكن النساء ولا يكون الزوج من بين المدعوين إذ هو يتوجه في المساء الى المسجد للصلاة ، يصحبه اقاربه واصدقاؤه وتسبقه جوقة من الموسيقيين ، وعند عودته الى بيته تقدم القهوة والشربات ثم يدخل حجرة العروس وتنسحب بقية السيدات لما عدا العذبة والفلانة ويقرب الزوج من زوجته المغطاة بغطائها ويسمى باسم الله ، اله محمد ، بينما قلته يدق خوفا وأملا وعندئذ تنسحب بتورهما السيدتان الغريبتان وعندما تصبح الزوجة بمفردها مع زوجها فلها تقدم له المسسل والبطائر وماكولات أخرى على هذه الشكلة رزا معرا من الماطفة والودة التي هي حق لكل منهما على الآخر والتي هي الغلبة الأكثر وثوقا لكثالة حياة عائلية هائسة .

وتتلقى الزوجة ثلثي مهرها عند دخولها إلى منزل الزوجية ، ويكون هذا المبلغ ملكاً خالصاً بها وهي تستطيع أن تصرف فيه على النحو الذي يمجبه ولا يمكن للزوج أن يحاسبها عليه مطلقاً ، بل ليس له مجرد الحق في بثلاثتها في أمره .

ويحسن بنا هنا أن نلاحظ بأننا سوف نكون قد لفظنا على نحو كبير إذا ما اعتدنا أن المسلمات — برغم حشوعهن لنفوذ أزواجهن — يمكن أن يحالين مذهباً وطبعاً من قبل أزواجهن فإن وضعهن على العكس من ذلك طيب لحد كبير ، كما اتفق في نفس الوقت الذي تنقص فيه التقاليد والقوانين عليهن بنوع من الانسحاب والتفوق الدائم — يتوصلن لامتلاك نفوذ لا شك فيه على نفوذ أزواجهن كما أن هؤلاء لا يستطعن مطلقاً أن يسيئوا محالتهن بل ولا حتى أن ينهوهن بحدّة إذ للزوجة في هذه الحالة لو تلك أن تطلب الانفصال وتعود إلى بيت أبيها .

ويشكل الأهل بتعليم الزوجة واجباتها وحقوقها الزوجية ، ولا يتدخل لأزواج مطلقاً في الأمر ، ويتم ذلك عادة قبل الزواج . وهكذا تعمل عادات وأصول اللياقة على الخفيف لحد ما من ترمت تلك المولوية المسجدة التي تعطيها الثريمة للرجال على زوجاتهم . ومع ذلك فالمشاهير سيميدات بقدرهن ، ولا يمكن لهن أن يتصورن مجرد تصور ، كيف يمكن أن تكون نساء الغرب ، في حالة أكثر لحيلاً مما هن عليه .

٢

الانفصال والطلاق

جمعت الشريعة الإسلامية من الطلاق أمراً بالغ السهولة إذ يكفي أن يقول الرجل لزوجته : أنت طالق — حتى يكون الطلاق قد وقع دون أن يكون الغاشي في حاجة لأن يتدخل في الأمر أو أن يخاف على دوائج هذا الطلاق . وهنا تتسلم الزوجة الباقي من مهرها وتحمل معها مجوهراتها وبقية ممتلكاتها وتذهب من بيت الزوجية . وقد حدد محمد الأمر على النحو التالي في القرآن : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيها لحنن في أنفسهن

بالمعروف^(١) ولا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المفتقر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين . وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفو أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم^(٢) . وحسب أوامر المشرع هذه ، فإن الزوج إذا ما طلق زوجته في اليوم الأول لزواجها دون أن يبائرها — وهذا أمر يحدث في بعض الأحيان — فليس يبغى عليه أن يدفع لها إلا نصف مهرها ، أما إذا ما حدث لزوج طلاق زوجته أن استملأها مرة أخرى وكرر الزواج والاتصال ليلبلغ عدد مرات ذلك ثلاثا مع نفس المرأة ، فإنه لا يستطيع أن يأخذ منها بعد ذلك زوجة شرعية ، إلا إذا برت قبل ذلك بأحسان رجل آخر . وقد يبدو هذا التشدد من جانب المشرع للوهلة الأولى هجبا أو باعنا على الضحك ومع ذلك فإنا نجد فيه نكرا عميقا وبحرمة عظيمة بنفوس البشر ، فهو يمنع الزوج هكذا عرفة لمواضع الضرة — وهي عاطفة بالغة الحنف عند الشرقيين — فسوف يكون عليه أن يتروى ولا يستجيب ببساطة لأبسط مشاعر الغضب فيقرر هكذا ببساطة ويسأل هذه المرأة طلاقا ظالما في معظم الأحيان ، وسوف يتحمل هو قبل غيره مواربه النفسية إذا ما عاد به الندم والمخالطة ذات يوم إلى مشاعر لرق . ولهذا السبب فقد حدث أكثر من مرة أن قام الزوج المطلق — وهو يتحسر على جمال وفضل زوجته في الوقت الذي يريد فيه أن يذعن لأحكام الشرع — بدعوة أحد أصدقائه إلى انخراط طليقته — هو — زوجة له ، ويتفق مع هذا الصديق على أن يقوم بتطويقها دون أن يقر بها في فترة هذا الزواج القصير المدى ، ومع ذلك فينبغي أن يظل هذا الانساق سرا على الناس جميعا بخلاف الأطراف الثلاثة المعنية ، ويتحتم على وجه الخصوص أن يكون لمة ثقة تلية في الزوجة لائمها هي التي سوف تلعب الدور الرئيسي في مثل هذا التواطؤ الغريب . ومع ذلك فقد حدث في بعض الأحيان أن نسي مثل هذا الصديق — بعد أن أخذ جمال عروسه تلك — نفسه لفرحة يحوم معها ما بينه وبين صديقه الخور من لمة وصدافة بل ويحتفظ بملك الزوجة التي كان عليه فقط أن يتظاهر بالزواج منها .

وحيث أن حبسا قد تشبا بأن الطلاق يمكن أن يقع بسبب نكاح كمجرد لغو طارئ ، فقد نصح الزوج المطلق — حتى يتجنب بقدر الإمكان

(١) القرآن الكريم آية ٢٣٤ البقرة. (المترجم).

(٢) القرآن الكريم. ٢٣٦ - ٢٣٧ البقرة. (المترجم).

مثل هذه المسألة المثالية — بأن يبيتها في بيته مدة ثلاثة أشهر على أمل أن يؤدي إعمال الفكر أو تؤدي بعض المحادثات المتبادلة إلى إعادة الود بينهما قبل انقضاء هذه المهلة ، ويرغم الحكمة الباقية في مثل هذا الأمر مائة نادرا ما يحدث ، إذ من المعتاد في القاهرة أن فخرج المرأة من بيت زوجها بمجرد أن يتم ثلاثتها منه . ويمكن للمطلقة أن تتزوج بعد مضي ثلاثة أشهر من انفصالها أي بعد أن تلتقيها مدة النساء الشهرية ثلاث مرات ، ويعتبر إعلانها هي للأمر كافيا ، فإذا ما حدثت ووجدت نفسها حاملا في هذه الفترة فإن الأب المطلق لا يمكنه أن يطلب طفله إلى حضنته إلا بعد أن يبلغ من العمر ٧ سنوات بالنسبة للذكور ، أما بالنسبة للإناث فإنه لا يستطيع أن يطلبها إلى حضنته إلا بعد أن تصل إلى سن البلوغ ، وفي نفس الوقت ، فإنه — الأب المطلق — ملزم بأن يدفع مصاريف رعاية وإطعام وتعليم الوليد مهما كان جنسه .

وقد يحدث أن تنتقل الأم إلى بيت زوج جديد ، وفي هذه الحالة تمهد بولدها إلى رعاية جدته أو واحدة من أقرب قريباتها متاة كانت أو أرملة ولا يمكن للأب أن يسترد طفله إلا في حالة ما إذا لم يكن لزوجته أسرة ، ونادرا ما يحدث ذلك (١) .

والزنا هو اختلاس انهم يمكن أن يوجهه زوج إلى زوجته ، لكن

(١) نصيب إلى هذا العرض لقواعد الطلاق أن الرجل إذا ما طلق زوجته قبل أن يحتل بها فإنه ليس ملزما نحوها إلا بنصف المهر ولكن لو حدثت حوة بينهما ولو مرة واحدة فهو ملزم قبلها بدفع المهر كله . وتمثل البنت أو المرأة المطلقة معها إلى بيت أبيها كل ما خرج منه بالأصل إلى حقوقها هي قبل طليقتها وهي عبارة من الثلث الأخير من المهر ، وهي تسلمه منذ خروجها من بيت زوجها ويكون ذلك دليلا على القطيعة وكما سبق القول فليس لمة إمرأتان قضائية أو عقود مكتوبة للتصديق على الزواج أو لتسجيل الطلاق ، ومنع هنا من الإدلاء بأرائنا حول غرابة وشذوذ هذه الممارسات كما قد يراها من تخطف أنظمتهم من هذه النظم ، ومع ذلك فقد يكون المشرع العربي قد استهدف من وراء ذلك التشريعات أن يتنادى بفشل أكبر خطورة ، فكل الشعوب طباع خاصة بها كالأجواء التي يعيشون فيها ، وعلى أولئك الذين يريدون الحكم على أنظمة وممارسات الآخرين أن يراعوا هذه الحقيقة التي لا مفر منها ولن يقرروا نتيجة لذلك . وهذا هو العنصر الوحيد الذي يمكن التمسك به .

المشرع جعل هذا الاتهام حسرا على الاتيعة لدرجة لا يمكن معها أن ننكر إلا محدا يقع الصالة لسيدلت لمن أو موقين على مثل هذه التهمة . ومع ذلك فإذا ما انقسم شخص ما حبس مرات أمام القاضي أن زوجته تد حائله ، ثم أقسمته هي خمس مرات على مكس ذلك فإن القاضي يحكم بطلانها ويصبح انفصالها إيجابا . ولنا معالجة للقول بأن أبناء الطبقة العليا أو حتى الطبقات البسيطة يتفادون على الدولام الفضيحة التي تنجم من حكم كهذا ، إذ لا يعرض نفسه وعرضه لمثل هذه المهانة الا ضلوف السفوس وتلبولوا الحياء ، لكي يشبعوا شهوة الانتكلم والرغبة في التشهير التي تشبذ بهم .

ولا يمكن للمرأة بمطلق حريتها أن تفاد بيت الزوجية . وإذا ما بدا نور أو كراهية أو كمال هو يهلها أو يسوء معالمتها فاتها تستطيع أن تحيله من طريق عروض سخية تقديما له أن يقبل الانفصال بينهما ، فإذا ما رفض وظل سادرا في أساليبه للسيئة فاتها تتوجه إلى القاضي ويخص الأخير شكواها ويحكم بالطلاق إذا ما اقتنع بالأسباب التي قضتها له ، وفي هذه الحالة لا تفقد المرأة أي حق من حقوقها وتحفظ بكل مهرها وكل امتيازاتها ، أما إذا قبل الزوج الطلاق الذي مرضته عليه زوجته فلا يمكنه أن يردها إلى معيسته إلا بعد أن يعقد عليها عقد زواج جديد .

وكنتيجة حتمية ، فلا بد أن يكون الطلاق في بلاد ليس للمرأة فيها في غالب الأحيان حق اختيار زوجها ، أكثر انتشارا منه في البلاد التي تتم فيها الزوجات نتيجة لعواطف ويول متفائلة ، كما أنه أكثر شيوعا من جهة أخرى بسبب السهولة التي منحتها القوانين للأزواج ، وهذا ما يحدث في تركيا ومصر . وبالرغم من الحقوق التي رتبها مصد للنساء قبل أزواجهن ، وبالرغم مما عرضه على الأزواج بضرورة إبقاء زوجاتهم في البيت ثلاثة أشهر بعد الانفصال الأول فإن الطلاق بالغ الشيع . ومع ذلك فلا بد أن نقر بأن ليس ثمة ما يشجع امرأة مطلقة ، فهي تستطيع العثور على زوج آخر بسهولة ، لكن حياة النفس تتأثر على الدولام من مثل هذه الحرية المعيبة وإن كان الأمر المؤكد . نقول هذا باسم الحقيقة — في التقدم الحضاري قد جعل من مثل هذا الفعل المعيب أقل انتشارا بين الطبقة العليا في المجتمع ، بل يكاد ينظر إليه كآمر مفس بالشر . ومعبدة هي تلك الأمم التي يمكن للعقل والأخلاق عندها أن تنزع السموات من جفورها ويخلصه مند هؤلاء الذين

يعانون من جروح عولتهم وشبهاتهم : وتلك هي طباع المصريين . ونحن في وضع يسمح لنا بتكوين هذا الرأي عنهم بعد تلك الفترة التي لقيناها في وطنهم ولطه ليس بعيد ذلك اليوم الذي ستبذل فيه الجهود لاعادتهم الى حظيرة الطوم والننون ومختلف بنلى الحضارة ، بل ويمكننا ان نجاسر بالقول بان جهودنا هذه لن تلقى اية مسوية ، لانتجاح في هذا الامر يتجاوز بكثير مرحلة الابل .

ولا بد قبل ان ننهى هذا الفصل ان نتحدث من بعض الاعتبار العامة حول حياة وعود النساء في مصر وحول الطريقة التي تمضى عليها حياتهن ، لهذا الجنس الذي كان موضوعا لاهلنا وعنايتنا هو أبعد ما يكون — كما سبق ان لاحظنا — عن ان يحصل على نفس الابتذالات التي يحصل عليها المسلمون الرجال ، المرأة — وقد تمزلت عن المجتمع — محكوم عليها بالمعصم المطلق والمار ، ويضعها المسلمون في عداد الكائنات التي لا تعطى بقدر كاف من اللكاء ونعمة العقل . ويحود هذا التمييز من شأن المرأة الى الخليفة مصر وذلك حين ملهم من الاسلام في ممارسة الواجبات الدينية ، تلقد سك بذلك امرا لا راد له بالمعص من شأن النساء ، وان كان يحدد نفسه ليس بعيد عن مشركته في ذلك ، فمنهجه الدينى مجحف بالجنس اللطيف ، ويهتك بلا جدال ان تهتم الدعائم التي تنهض عليها جنته الوعودة ، نسا عليك لكي تعمل ذلك الا ان تستبعد منها اولئك النسوة اللقيات . ولكن ، او لم يكن بمقدوره ان يحتر على وسيلة اكثر اتصلا كي يربط احلامه الرائعة بالحق والاصل ؟

وحيث ان الرجال يفسون النساء في مرتبة ادنى منهم فانهم يكون نعوهم نوعا من الاستخفاف والاحتقار تتعرض معه النساء على الدوام لاهتالهم بل ولضروب من قسوتهم الرهية ، لكن اساءة محليتهم تلك — كما سبق لنا القول — لا تلقى من جانب الزوج بل تتعرض النسوة لذلك من جانب اهلين قبل الزواج ، ثم يتعرضن لنفس المخاطر بمجرد ان يصبحن مطلقات ، وليس بمقدورهن ان يؤمن أنفسهن ضد هذا العنف الا في حياية زوج . ومن لحظة القول ان نلقت النظر الى اتنا نلقى بالقوم هنا على الطبقات الدنيا من سكان المدن ، وعلى اولئك الذين تكاد لم تسمهم الحضارة في الريف . اما الرجل التركى ، او ذلك الرجل الذي ينتمى الى اميلان المصريين فقه ينظر الى غرب زوجته باعتباره عبلا لجرانيا يمثل ما هو باعث على

المرء . لكن هذه النظرة الانسانية والعاطفة ليست للأسف هي للشائعة ولا يدعمها القانون بسطوته . وسوف تجعلنا الحكمة التي سنقصها هنا نتف على رأى المسلمين في النساء — ومن الممكن ان نفس آلاف الأمثلة — لكننا نكتفى هنا بتلك الحكمة التي كنا نحن بانفسنا طرفا فيها .

كنا في قرية الرحمانية ، عندما لجأت امرأة وعديد من الرجال الى منزل واحد من زميلاتنا ، وركبت وركع الجميع على ركبهم ملابهن العنل او بالأحرى الانتعاش ، حيث يغسل للشرقيين استخدام تلك الكتلة الأخيرة ، وكنت المرأة ملطخة بدم . ملين زميلنا من روعها واكتشف انها مضروبة فوق رأسها ، واراد ان يخلع الخنثب الذي يغلى وجها ، لكنها قلوبت ، تكرر المحسولة وانترع الخنثب لكن الباقية — التي كانت تملكك وهي في آلامها تلك ، بلواحيبت التي تعرضها على جنبها عادت وتكافد بلاذها — سقطت وجهها بينيها ، واحتراما من زميلنا لاحتدات كهذه فقد قس الشعر المحيط بالجرح وغسده بنفسه ، حيث لم يكن ثمة طبيب ، وربط الخشادة بقطعة من قميص مزقه لهذا الغرض ، وعندما شاهد بعض المسلمين والأتباط يقوم بهذا العمل ، اظهروا بالغ دهشتهم علنا ، بل وعبروا عن استنكارهم لقيام رجل يشغل منصباً عاليا مظه بالانحدار لدرجة مضهد معها كاتنا حقرا ، وتلك رؤيتهم للمرأة . وعندما سمعته سمجيتهم تلك لراد ان يطردهم ، لكنهم ظلوا يقولون له انه بذلك يسوء الى كرامته .

ويضيف زميلنا : « توجهت على الفور الى حاكم الولاية ومرغت عليه الأمر ، فخوانى كابل السلطة في عقب الخنثب الذي كنت قد أمرت بإلقاء القبض عليه . وعندما عدت الى منزلى وجدت هذا الرجل .

— هو انت ايها المهجى الذى عامل هذه المسكينة بهذه الوحشية ؟
ماجلبنى عسلكا :

— ماذا ؟ اتظنها وحشية ان تضرب امرأة ؟

— وذلك الغم الذى تسلكه ؟

فاجاب — لا يهوى دم الرجل الا الدم ، لكن ليس هذا هو الأمر بالنسبة للنساء .

واستغزنى الهدوء الذى يصطنعه فى ردوده فطنت له :

— نحن تضامك . وذلك التمسوة التى أبديتها جريمة كبرى فى نظرنا
وسماعتك .

— وهل ستمتصوننى لو أتلتى جرحت بقرة ؟

— بلا جدال . إذا لم تكن ملكا لك .

— ادن فاستمعوا لأميالى ، وسوف ترون أنه كان على أن أسلك
هذا السلوك . لقد انتزع المالك بنى حقلى لكى يعطوه لابن عمى . ثم جاء
الفرنسيون لمصلحوا من مطلق المالك : فلما حق لى الذن أن اسرد لملاكى
السابقة ؟ لكن ابن عمى وأخته وابنه أعتزوا على ذلك لغريتهم ، وسأئل
أغريهم حتى يهدوا إلى أرضى . اتنى لا أطلب إلا يسا هو حق لى ، بل
أتنى الجأ لهذا المفرض إلى عدالة القوانين الفرنسية .

— حسن ، ما دمت تتحدث عن القوانين الفرنسية ، فاصرف لى أنى
تطالب المسلمين والذين يسمعون لأنفسهم بارتكاب أعمال العنف ضد
الآخرين .

واستدعيت لى بيتى أميان وضيوخ القرية .

— ما هو العقاب الذى توتصونه على الذين يضربون أو يجرهون ملحدين
لحد الرجال ؟

فاجابوا فى وقت واحد :

— عصا فى مقابل كل عصا وليس ثمة أكثر من ذلك . أما العقوبات
التي نطالب بها ميوما لى : الخرابات ، الضرب بالعصا ، الموت .

— يكتى ، والرجل الذى ملأ ليلنا الآن قد جرح هذه البقرة ، وهو
يطلب أن يعامل حسب القوانين الفرنسية . فليعلم إذن أن الإنسان حسب
هذه القوانين لا يستطيع أن يحصل على حقوقه بنفسه ، ولأن الليرة نفس
الحقوق التى للرجل ، وأن دمها ليس أقل قيمة من دمه . ونتيجة لذلك
سوف يضرب على الفور ؟ عصا .

— ٢٥ عصا ؟ (صلحوا جميعا بلهجة تنم عن دهشة شديدة) ليس هذا مدلا ، بهذا اتصى ما كنا سنوقعه عليه من عقاب لو أنه قتلها .
— نعم ٢٥ عصا ولتقفذ لولبرى على الفور ، وإذا ملكت المرأة سنقفذ لجرامات أخرى .

وعندما حل وقت تطبيق العقاب لم يشأ أى منهم أن يتحمل مسؤولية تنفيذها ، غارسلت في استخدام القواصي لكنه ملرس واجبه برخاوة وهرص ، حتى أن خاضا مغطيا كفن يشاركنى الشعور بالمعصية ، انتزع منه العصا واكمل هو العقاب بالقسوة التى يقتضيهما الحال .

وهذه الحكاية نسور — دون حاجة منا الى تعليق — تقاليد الطبقة الدنيا من الشعب ، وتعطى فكرة دقيقة عن رأى ائمتها في النساء في مصر ، ويكاد الأمر يكون على هذا النحو في كل بلدان الشرق .

٣

الطعام

للغنامة لفهولة مصرية ، وإذا كنا نجد أثرياء المدن الكبرى يتصلون بالشراسة ويمنعون الطعام بسيطة الامداد ليتناولوها مكهيات كبيرة جدا (ويوجه هذا القوم الى الميسليك بصفة خاصة) ، فإن الطبقة المملنة وكذلك الفلاحين شديدا الغنامة بشكل لاقت للنظر ، فهم لا يتناولون من الطعام الا ما يكفى كى يفهم قودهم ، وغضلا عن ذلك نفذاؤهم هذا بالغ السوء والفقر لدرجة ان المرء لا يكاد يتصور كيف يمكن ان يكتيهم هذا الطعام وكيف يحكمهم والجمالة هذه ان يقوموا بأعمالهم الشاقة .

ويحب المصريون تبل كل شيء لحم الضأن ، ولكن الطبقات الشعبية لا يمكنها ان تستمتع بمثل هذا الترف الا ليلم المتاصفات الهابة ايا بقية العام فهي تعيش على الخضروات الطازجة والسمك المملح ودرنات النباتات ويقول من نوع الحمص والفول والترمس .. وهباغ الاطعمة الأخيرة مطبوخة وشكل بالاضافة الى بعض الفلكهة الغذاء الرئيسى لسكان المدن .

وبالرغم من أن تربة مصر تنتج القمح بكميات وفيرة ، وإن لبدور القمح هنا حاصلية ممتازة ، وإن سعرها لكل بكتر من سعرها في لوريا إلا أن القمح لا يشكل الغذاء الأساسي لملاية السكان ، كما يحدث في كل مكان ، إذ يترك الفلاح ويخار الناس يدافع عطري بل ربما يكون الأمر بدافع للتصايد — للأغنياء عادة أكل الخبز الذي ينظرون إليه كأمر من أمور اللزب ، لينفخوا هم بوجه خاص على الخضروات التي تزرع في كل الفصول تباكون بدلا من الخبز — على سبيل المثال : درنات القلقس ، جندور الجزر ، ثمار البلية ، والبالنجان ، والخيار ، والشملم والبطيخ والعدس اللاوي (المجرى) وأنواع أخرى من الشملم تزرع بمصر ، وأوراق الفبازي واللوخية والعلبة ، وهذه الثبايفات مرطمة ومخلطة — وبالإضافة إلى ذلك يباكون حبوب الفرة ، والذرة المويجة والقميس والحمص . كما يتبعون بشار النخل (البلح) والمنمك المالح والبن الرائب واللجين والصل الأسود . وكما سبق أن قلنا فإن اللحم لبع من أن يكون طمبا يوما لظك للطبقات .

وربما حاز لنا أن نجد في كسل المصريين الفطري وفي ندرة الوجود في بلادهم بعض أسباب هذا الصيام المستمر الذي حكوا به على أنفسهم حتى يتخلصوا من حيرة المطبخ ، ولعلها هي نفس الأسباب التي دفعتهم إلى تفضيل استخدام الأطعمة التي يمكن أن تؤكل نيئة وبلا أعداد أو تلك التي يمكن طهيها بكميات كبيرة على يد الناس يحترمون ذلك كهيئة لهم ، وبغلا من ذلك علو أننا قلنا طريقهم في الغذاء هذه وتلك التي كانت لدى قداماء المصريين لوجدنا تماثلا كبيرا سواء في المأكولات أو في بساطة أعدادها (١) .

(١) يقول هيرودت من غذاء المصريين ببشرا هو يتحدث من بعض عاداتهم :

« أما عن الطعام . فقد تفتق ذهنهم من وسائل دعوية للحصول عليه بسهولة ، فعندما يكون فيضال النيل في أوجه ويصبح الريف اثبته بليحر ، تظهر في المياه كميات هائلة من الزنابق يسميها المصريون البشنين (الونس) ، فيقومون بجمعها وتحنيها في الشمس ثم يأخذون بخورها التي تشبه بخور الأشخاص ويصحنونها ليصنعوا منها الخبز الذي يقومون بنضاجه على النار ، كما يباكون كذلك جذور هذا الثبايف ومذاقها طيب لذيق ، وهي مستديرة وفي حجم التفاحة . ولما نوع آخر من الزنابق تشبه الورد وتسمى

والتمامحارة للصيف الشديد ياكل الناس يشقف : البنجر والخيار
والبصل القنوع في الخل ، وهذا النوع من الطعام رخيص الناس ويمد
عليه الباعة في الشوارع ويعرضونه في الميادين حيث يتجمع العامة ايام
الامبياد ، وفي هذا الفصل ايضا ياكل الناس اوراق اللطبة ، ويصنع المصري
لنفسه وجبة شهية مكونة من الخس والخيار والبطيخ او الشمش دون ان
يقوم بتطهير الصنفين الاولين ، وهو ياكل السلطة بشهية عظيمة ولا يكلف
نفسه مئاة ترويعها بالزيت او الخل ، وياكل كحلوى ، كيزان الذرة المشوية
قليل في الفرن والتي قطعت قبل ان تبلغ مرحلة النضوج .

بكرة أيضا في مياه النيل ، ويقوم المصريون بجمع ثمارها التي توجد بها كمية
من حبوب حسنة المذاق ولي حجم نواة الزيتون وهي تؤكل خضرًا أو حارة.
أما البردي فهو محصول سنوي ، وعندما يؤخذ من المستقعات يقطع
الجزء العلوي منه ويستخدم استخداً عدة . أما جزؤه السفلي وما ينقي
من التراب - ويبلغ طوله حوالي اربعة - ثمانية يؤكل فيها أما الذين يريدون
له مذاقاً أفضل فيأخذون منه كمية في قنينة يملأها ، وبعض المصريين لا يمتنع
إلا على السمك ، وهم ينزعون أحشاءه ويغسلونه في الشمس ويأكلونه بعد
ذلك (عرفت ، الكتاب الثاني ، الفقرة ٦ ، ص ٧١ ترجمة : لارسيه)
ويضيف المؤرخ في مكان آخر من كتابه « يصنع المصريون حبه من الشعير
ويصنعون على السمك التبريد الجفيف في الشمس والمثل في ماء مالح ويأكلون
كذلك السمك والبطة وبعض الطيور الصغيرة ، وهم يأكلون هذه الأصناف
نيرة بعد طبخها » .

ويحدثني دكتور الصقلي في نفس الموضوع فيقول :

« يقال ان المصريين في بادئ أمرهم كانوا يمشون على الأعشاب فكانوا
يأكلون الكرنب وحذور النبال التي يطرون عليها في المستقعات دون
أساس للعاشلة بينها إلا المذاق ، وكانوا يأكلون على وجه الخصوص
العشب المسمى المرجة *agrostis* ومذاقه طيب للغاية وكان غذاء
كثيراً للأناس ، ومن المؤكد أنه كان مفيداً على وجه الخصوص لتطعيمهم
فقد كان يؤدي إلى تسهيلها بشكل واضح ولا يزال المصريون حتى اليوم -
حرفياً بما أدهاء هذا النبات من فائدة لأنهم - يحملون هذا النبات في
أيديهم وهم ذاهبون إلى المساجد لتلاوة الصلاة لألوتهم ، والطعام الثاني
للمصريين هو السمك ويهيئه لهم النهر كميات هائلة منه ، وتظل كميات
كبيرة منه على سطح الأرض بعد انقضاء المياه ، كما أنهم يأكلون كذلك لحم
ماشيتهم ويستخدمون جلودها في صنع ملابسهم ، وقد تطبقوا مؤخراً أكل
الفلكة وأحماها البشع (اللوس) الذي يستخدمونه في صنع الخبز .

وعندما تنتفضى مواسم الفلكية والخضروات . يصبح الطهاة الذين يقومون بطهو كميات كبيرة من الفول والحمص ... الخ المستر الوحيد لطعام الطبقة الدنيا من الشعب . ولعل هذه المناسبة التي ينبغي أن نقول فيها كلمة عن طريقتهم في طهو هذه الأطعمة ، وهي طريقة اقتصادية للغاية وبالعلة البسيطة لطهاة الشعب — أن كل من يصح أن نسميهم بهذا الاسم — لديهم كنوز من الفخار كبيرة الحجم ، يقومون بملئها حتى ثلاثة أرباعها بالماء المصفى ، وتسمى هذه : قدر الطبخ بلغة أهل البلاد وبعد أن تملأ القدر بهذه الطريقة يغلط حلقها تلياً باليوسون النيلي وطبخ الطفل ثم تدفن في رماد الحماض المبلل الملتصق وتترك هكذا لمدة ٥ - ٦ ساعات وبعد ذلك يصبح الطعام مطبواً تلياً وصالحاً للبيع ويشتريه الجمهور بكميات قليلة مع قليل من الملح ويزين أحياناً بالخس وقليل من التوابل . ويسمى الطبق من هذا الطعام — إذا كان مزوداً بالتوابل : فلفل أسود . فلفل أخضر ، زنجبيل — بكرة واحدة لها إذا لم يكن مزوداً بالتوابل فلا يزيد ثمنه من ٦ أجاداد (١) . أما أولئك الذين يبيعون نوعاً أكبر يهتكم أن يكتفوا بكميات من التمرس . ويطهى التمرس بنفس الطريقة السابقة ولكن يفقد التمرس مرارته فانه يستحب قبل أمداده ثم يغسل وذلك بوضعه في سلال قفلى وسط التل وعندما يتم كل ذلك يطهى التمرس . ولا تسامى كمية كبيرة من هذا الفلفل — تكرر من ٢ - ٣ أجاداد وغضلاً من ذلك ، فهذه الكمية — مع فنامة المصريين الشديدة — تكفى وجبة لرجل .

والبلح الطازج أو المجفف هو أيضاً ذو نفع كبير للطبقات الشعبية وبخاصة سكان الريف . ويكاد لا يكون للبدو من طعام سواه . وفي الصعيد توجد نرى بأكملها لا تمض إلا على البلح وحده لمدة تزيد على عشرة أشهر في العام ، وتؤكل هذه الفلكة في حالات مختلفة من الفسوج وتستهلك منها القاهرة والمدن الأخرى كميات كبيرة ، ويأتى جزء كبير من البلح الذى يأكله سكان الدلتا من الصعيد ، وهو يصل الى هناك طازجاً أو مجففاً ، ويصل النوع الآخر إما بكامل هيئته وإما منزوع للتوى في هيئة كتلة مضغوطة (عجوة) وهذا ما يجعله قليلاً لأن يبقى فترة طويلة دون أن يثلف . وعندما تقطع منه قطعة فائها تشبه اللحم المروم الذى يسميه الجزار في باريس

(١) الجديد عملة من النحاس . وللبرارة تسامى ١٢ أجاداد .

Fromage de cochon والجبن المجفف سواء كان بكليل هيئته أو مصدا بالشكل الذي يناء للتو على القطن لأنه ينقل من مكان بعيد ، ويسبب غلو سعره فإن الطبقات الدنيا لا تستطيع التزود به ، لذا فهي تكتفى بالبلج الطازج الذي يجمع في مناطق مجاورة ، ولهذا فهو يؤكل قبل أن يصل إلى تمام نضجه .

وتزود التجارة مصر بأنواع عديدة من المواكح المجلفة مثل العنب والمشمش والخوخ واللسق واللوز ، ويرى في البلاد التي والزيتون أما عنب كورنينة المحلف فهو يدخل كثيرا في أعداد وجبت الأثرياء .

وبخلاف تجلر البقول المطهية ، يشاهد في القاهرة أعداد من الفوائين الذين يبيعون السمك المملح واللحم المفروم المعد على هيئة كرات صغيرة بشوية ومخلطة بأوراق العنب على هيئة كرات كبيرة في حجم الحمصطور موضوعة في لسانخ صغيرة من الخشب .

وينظر الفلاحون إلى شحوم الحيوانات باعتبارها الطعام الأمثل لكن فقرهم لا يسمح لهم بالحصول على ما يشبع حاجتهم منها على الدوام ، ويستهلك الأباط كميته كبيرة من زيت الزيتون ويخلطونه في كل شيء حتى أنهم يرشون به خبزهم ، وهذه العادة السيئة سبب لكثير من الأمراض التي تصيبهم هم بشكل خلس ، لكن المصريين على وجه العموم يتكلمون بنهم بظور الخشخاش ويلبوا أخرى يستطبونها ، ومشروباتهم هي الشرابات ويسفل آخر يدخل في تركيبه الأفيون بشكل رئيسي ، ولجأ الأثرياء لهذا الخمر الأخر للسكر لكن الفقراء في غالب الأحيان لا يشربون إلا المساء القراح وأنواعا من الشراب الرديء وتحرم الشريعة الإسلامية الخمر كما يعرف الناس جميعا حتى تمنع السكر ، ويرامى المسلمون المتسكون بعضهم ذلك ، أما الكبار والتجار والجنود فيرتكبون هذه المعصية في الضفاء .

ويصنع المصريون عديدا من المخلوقات الروحية واحسنها واجودها هو المخلوق المصنوع من الخشب المجفف لما ما يستخرج من القطن والجميز والبلج وفشار القطن الشوكي فهي لغنى قيمة ، ويعرف الأباط في تناول هذه

الخبور^(١) فيشربون منها زججلات بأكملها وهو ما يؤدي بهم إلى الاصابة بالذبل ، أما الذين يشربون من مياه النيل طيلة العام دون مراعاة للفصول ودون التباين بتقديتها لحقهم يتعرضون لجدى حى تهم ببقيتهم بشكل غير محسوس .

لذلك إن مياه النيل يصيبها العطش كل عام قرب نهاية أبريل . أما البيرة لدى مجهولة تلبا في مصر اليوم بالرغم من أن هيرودت قد تحدث عنها بكثروب عند لقائه المصريين^(٢) .

٤

اللبس

لا تتأثر ملابس المصريين على الإطلاق بأهواء الموضة وتقليباتها مثلب يحدث عندنا ، فمشكلها ثابت لا يتغير أبدا . والألوان الزاهية هى أكثر الألوان التي تعطى بالقبول . والإتساع ميزة واضحة في ملابس المصريين وهم يشتركون في هذا مع كل الشرقيين حيث لا تستطيع هذه الشعوب جعل الملابس الضيقة مطلقا : « فاللبس » والقبس والبش والجببة والتطنطن . . فصل كلها على نفس الوتيرة ، ومن الطريف أن نذكر هنا ما كان يقوله

(١) يستهلك المسيحيون في سوريا والاكباط في مصر المشروبات الروحية المستخلصة من العنب المجفف بكميات كبيرة ويشرب منه الآخرون على وجه الخصوص زججيات بأكملها بعد عشائهم وكنت قد انتهت من نقل إلى ذلك بالبالغة ولكنه قدم لى الأدلة على صحة ذلك ومع ذلك فقد ظلت علم دهشتى من أن مثل هذا الإفراط في الشراب لا يؤدي إلى قتل الشارب أو حتى على الأقل إلى بلوغه ذروة السكر .

(٢) هيرودت ، المرجع السابق ، من ٧٧ ويصنع المسيحيون كميات قليلة من الخبور في النجوم ولكنهم لا يعرفون كيف يصنعونها بشكل طيب ، ولم تكن الخبر مجهولة لقضاء المصريين كما تصور البعض حسب نص لهرودت ترجم على نحو غير دقيق فقد رأينا في آثارهم رسوما لحصاد العنب وصنع الخبر والآنية التي كانت تقدم فيها . انظر دراسة المسيو كوستاز Costaz عن وصف مخارات محبة طيبة . وقد حاول الفرنسيون صنع الخبر في القاهرة ولكن الحروب لوقفت تجارتهم .

(م ٧ - وصف مصر)

الرجل المصرى عندما يرى أحدا يمر أمامه وهو يرتدى بنطلونا يصنع حسب الموضة ، أحضره معه من فرنسا — وهو لذلك بالغ الضيق — : « ماذا ! هل الأقمشة قليلة جدا لديكم حتى تصنعوه بهذا الشكل ؟ » .

ولكن نتعرف جيدا على الملابس المصرية ، سنتقدم فيما يلى بيثا مفصلا لاختلاف اجزاء هذه الملابس ، وسنبدا بملابس الرجال .

اللباس : سروال الصيف ، وهو عادة من القطن .

القشقرير : سروال الشتاء وهو من الجوخ .

السروال : سروال الملوك ولونه لحرير ويصنع من حرير وارد من الهندية .

القميص : وذراعا غير مشقوقين ، ويتلى حتى العقبين ويلبس فوق السروال واكمامه واسعة وبخفة الطول .

البك : مديري خاص بالملوك وهو واسع وقصير واكمامه طويلة جدا وبخفة الامساح .

القطنان : رداء مفتوح من الامام بكتفين كبيرين جدا ويلبس فوق المديري .

الجبة : رداء مفتوح هو الآخر وتلبس فوق القطنان ، واكمامها ليست قصيرة بالمقارنة بكتف القطنان ، ويضاف اليها الفراء في الشتاء .

البنيش : رداء واسع جدا واكمامه بخفة الطول تتجاوز طول الذراع واليد وهي مشقوقة عند اطرافها .

الحزام : وهو من الموشين او الصوف او الحرير ويلبس فوق القطنان .

الطربوش : وهو من الابلاد ويغطى الرأس حتى الاذنين .

الشال : وهو قطعة طويلة من الموشين او من قماش صوفى ويلب حول الطربوش عدة مرات . ويصنع شال الاكبرياء من الكتير .

المصري : وهو مستدير ويحيط بكلم .

الصبة : ويطلق الاسم على غطاء الرأس بجزيته (الطربوش + الشال)

التلويق : غطاء الرأس منذ الأتراك والبيكوت وهو مستدير الشكل شديد الارتفاع وأكثر اتساعاً عند القمة منه عند القاعدة ، ويغطي جزؤه الأسفل بشال ملفوف حوله بطيئة بالنة .

الطرحة : قطعة قماش من المولدين أو جزء من الشال يغطي خلف الرأس بعد أن يلف عدة مرات حول الطربوش ويستقر على الكتفين وله تاج جميل وطرز حوالته أحياناً بالذهب .

ولا يقل الحذاء تعديداً عن بقية أجزاء الملابس ، وهو يتكون من الممتد وهو من جلد الماعز يغطي كل القدم ثم البلبوش والصرمة وهما أيضا من جلد الماعز وتوضع فيها القدم مغطاة بالمست وعند الدخول إلى مسكن مزروش بالسجاد يخلع البلبوش والصرمة حينها يغطي اللوح ، ويحمل الناس عند ركوب الخيل أو حتى عند التزييم بجولات في شوارع المدينة — الخف وهو من جلد المسكخنين الأحمر أو الأصفر ، وهذا يشترك بين الرجال والنساء .

ويحب الرجال أن يحملوا في حزامهم خنجر تبينة محلاة بالأحجار الكريمة ، وتغطي إبهة المالك في لفظة طينجلكم ، ويهوى الأثرياء اقتناء الأرجيلات الرائعة . وتحب كل الطبقات بلا استثناء أن تغطي أسنبتها بالبصر بالخرام التي تتفاوت قيمتها حسب الطبقة والثراء . وهذه الخواتم تجلبها لمصوض الأحجار الكريمة وهي من الفضة بالنسبة للرجال ومن الذهب بالنسبة للنساء .

ومن لفظة القول أن ظلت انتباه المصري إلى أن الزي الكامل الذي بينا تفاصيل كل أجزائه إنما هو زي الكبار والأثرياء . أما الطبقات الشعبية فلا تكلف نفسها كل هذا العناء ، فخرينة ملابسهم لا تحتوي على أكثر من ثلاث أو أربع قطع من الملابس لا تتغير إلا عندما تصبح مهلهلة الأطراف فالفلاحون رجالاً ونساء يذهبون إلى حقولهم شبه عارين . أما عيال الطبقات

الغنىسا وكذلك جهرة سكان المدن يصترون لابسهم بالسكاد يملئ
البلابل (١) .

(١) يفكر أحد رملانا أن المصريين من كل الطبقات يميلون إلى الأبهة في
ملابسهم ، وقد شغلت متحرى هذه الملاحظة مع واحد من خدما . كانت
خزائنة ملابس لا تكد تساوى نصف ثوبك عندما تدخل في خدمتها ، ويكنى ذلك
للتفرك أن خلفنا هذا كان شبه ملر . وكان الأجر الذى يحصل عليه من
محتولا لحد كبير ، كما أنه كان يحصل على بعض المنافع من ألمان
المشتريات التى كتبت أكله بها . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يحصل في
الخفاء على هدايا واتلاوات ممن يترددون على في العمل . وقد أدى ذلك
كله إلى ثرائه شيئا فشيئا ، حتى أنه في خلال سنة واحدة — وقد بدأ يخل
في طور الرجولة — لم يعد ذلك الشبح الذى كلفه في البداية ، فقد نما لحد
أننى تعرفت عليه بصحوبة . وقد بدأ بأن لشرى لنفسه ما يلي :

١ — قميص من القطن الأزرق له كمان طويلان وهو يعتبر في الصيف
الرداء الوحيد عند السكان .

٢ — طربوش جديد وله شال من القطن .

٣ — مركوب أحمر اللون .

٤ — حزام من الصوف .

٥ — سروال من القطن .

٦ — خاتم ، والخاتم يملئ أهمية للأبهة .

— ملية وهي قطعة من نسيج قطنى من اللونين الأبيض والأزرق طولها

٨ أقدام وعرضها ٤ أقدام وتستخدم في شكل باللو .

٨ — ثنية وهي قميص كبير من البوريكان الأسود وتستخدمها كبلر
شخصيات الثرية .

٩ — صديري من القطن .

١٠ — جبة وهي نوع من الروب دى شامير من الحرير أو القطن .

١١ — قطران من الجوخ على شكل روب قصير .

١٢ — بنيش وهو روب كبير من الجوخ .

ولم يعد يتقصه سوى شال من الكتشمر ومطبخ ليصبح شبيها بكبار
القوم في ملده .

وكان في البداية يسير على قدميه ثم أخذ يرتدى مشاويره على ظهر هبلر
ثم على ظهر حصان جلس به ، وكان نشيطا في البداية ، وعندما أصبح
ميسورا حصل هناك من يملونه . ثم لجأ إلى خادم يخدمه كتبت أفع له
أخره أيضا ، وفي النهاية أخذ الخادم الأول هذا لنفسه خلافا خلافا .
وأنى لذلك أننى — عندما تركنا مصر — كتبت على وشك أن أرى الخادم
الجديد يتخذ لنفسه بدوره خلفا له .

وعلى مفوال بقية المسلمين . يخلق المصري رأسه بالموسى ولا يترك فوق جبينه الا خصلة من الشعر . هذه العادة تسبب العديد من الأمراض ، وتؤدي بسبب خلسة الى اصابة العين بالالتهابات والربد ، لذا لا يمكن لاحدهم ان يخلع العمامة الثقيلة التي تغطي رأسه دون ان يتعرض للاصابة بالبرد ، وهى الاصابة التي تؤدي الى تكس الاورام الصخرية فى العين ولتجنب ذلك تغطي الرأس بادية ثقيلة جدا مما يجعل هذا الجزء من الجسم اكثر حساسية لأقل برودة ، ومع ذلك فربما كانت طريقة المصريين هذه فى حلاقة الرأس هى التى تقللهم الاصابة بالآلام الرأس من حيث انها تسهل حدوث العرق — إذ نلاحظ ما تصيهم هذه الآلام ، وينبش أن نقول كذلك ان المصريين لا يسمون برؤوسهم عارية مطلقا مقلدا لفعل نحن فى أوروبا .

ويستدل على فراء المرأة المصرية من زينتها — إذ على الرغم من انها لا تستطيع ان تتكلى بزيئها وحليها الا لاسم زوجها ولها وأخواتها وصديقاتها ، فهى ليست أقل ميلا للأبهة ولا أقل استمدا للثائق . وهى تغطي جسدها بأعلى الملابس التى تشر فوقها ببذخ وبدون أى اختيار أو تفلس عليها وجوهراتها وكل ما لديها من أحجار كريمة . وهى تغطي جدها بالمعقود التى يمكن أن تسيبها سلاسل من ذهب ، وتغطي هذه السلاسل حتى السهل الصدر وتغطي من هذه السلاسل عادة صندوقان صغيران يضم احدهما أية تراكية ويضم الآخر بحفا من المطور . وتغطي السيدة من الطبقة العليا الجزء الأعلى من ذراعيها بأساور من ذهب يتراوح عرضها بين ٤ — ٥ بوصة وتكون مقدار سمكها ، وترتدى فى قديها أساور مبخللة ، ولكن تلك ليست عادة عامة ، وأصلبها مقلدة بالخواتم التى ترصعها الأحجار الكريمة . ومع ذلك فعندما تنزل الى الشارع معها تقبى كل مظاهر الثراء هذه تحت البرقع والسبلة وهى تمسك كبير من التاندر يغطي كل ملابسها وينزل حتى عقيبها . وتترين للتماء على هذا النحو عند ذهابهن الى الحليم أو عند قيلبهن بزائرة أو عسما يستقبلن فى بيوتهن قريباتهن وصديقاتهن .

وحيث أننا قدما يبقا بملابس الرجال، فإن من المناسب أن نضع هنا الملابس التى نضعها خزانة النساء وهى كما يلى :

الأناس : كلفسون أو كملوت صيفي (١) من الكتان أو القطن .

الشتيان : لباس الشتاء .

الحكة : حزام يربط به السروال حول البطن .

القميص :

البوك : روب يرتدى فوق القميص ، وهو مفتوح من الأمام وأكبله طويلة وخفيفة .

الفسان : روب يحل محل البوك وهو غير مفتوح . وقد أعملت المسيدات الأوريبات المقيسات في مصر على ارتدائه تظهداً لمسيدات القسطنطينية اللاتي يرتدينه في بعض الأحيان .

الجبّة : روب يرتدى فوق الفسان وأكبله قصيرة جداً ، ويصنف اليه الثراء في الشتاء ، ويطلق عليه عندئذ اسم : وش مروة .

الحزام : وهو في الصيف من الموشلين أو الحرير ، وفي الشتاء من الصوف أو الكشمير .

وعندما يحقد من الخلف يتدلى على هيئة مظك .

الطاقية : غطاء يغطي الرأس مباشرة ويستعمل غالباً .

الطربوش : غطاء رأس يرتدى فوق الطاقية .

القبضة : قطعة من الموشلين تلف عدة مرات حول الطربوش ، وهي جزءان ، والجزء الذي يدور حول الرأس نفسها أحمر اللون أو من لون آخر زاه جداً ، ويشكل النطاء كله حول الرأس شريطاً اسطوانياً بارزاً يرصع باللؤلؤ والأحجار الكريمة .

(١) من المعروف أن النساء الشرقيات قد اكتسبن عادة لبس السراويل، وليس هناك غرق في هذه الفلحة بين المسيحيات أو اليهوديات أو المسلمين.

الربطة : وتطلق على غطاء الرأس في مجموعه .

المعدة : معد من اللؤلؤ .

المسواطة : مسبحة من اللؤلؤ يربط كل طرف من طرفيها بأحد جانبي
الربطة .

الفسفاير : خصلات من الحرير تزيد من طول خصلات الشعر .

البرق : قطع ذهبية صغيرة تربط بالفسفاير ويتدلى من طرف تطع
البرق هذه قطع نقدية صغيرة (سكين) Sequins *

السبلة : قميص واسع من القطن يغطي كل الملابس ويتدلى حتى
يلامس الأرض وترتديه النساء عند خروجهن ومنه ذهابهن إلى الحمام أو
للزيارة ولا يخلطه إلا إذا أحلت ملابهن من هن لي ليلتها وخاصة إذا كانت
الأخيرة تنس إلى الطبقة العليا .

البرقع : قناع الوجه ابتداء من أسفل الأنف . ويتصل بالربطة من
فوق الجبهة من الجانبين . وهو قماش الموشن أو الكتان الأبيض الناعم
ويغطي حتى الركبتين ، ولا غلى عنه لميدة تريد أن تخرج خارج بيتها .

الحبرة : قطعة كبيرة من قماش القطن الأسود توضع فوق الرأس
وتغطي به الربطة والملابس والبسدين ، وتغلف المرأة عند دخولها أحد
البيوت .

الحرير : وهي مجموع السبلة والبرقع والحبرة .

الخلخال : أسورة في القدم .

ولا تختلف أحذية النساء من أحذية الرجال التي سبق أن تحدثنا عنها
إلا أنها يخصص بالأحذية الحشوية التي تستخدمها النساء داخل البيوت ،
وتمسى هذه الأحذية : القعقل .

ونساء الطبقات الشعبية أبعد ما يكن عن الاكتراب من هذه الأبهة في

ملابسهن ، فمن لا يرتدين في القاهرة أو الريف إلا سروالا من فوقه قميص أزرق اللون واسع جدا . اكمله طويلة وواسعة تنزل حتى الركبتين . ومن في نفس الوقت محجبات وتضع شعورهن على طريقة سيدات الطبقة الراقية ، لكنهن يملتن في اطراف هذه الضعائر اجراسا صغيرة او اشياء اخرى يتخذنها كزينة وتقتلى بطول الظهر . وتضع اللصقات في بعض الأحيان اجراسا صغيرة في اذانهم ، ويغطي قطاء رأس الأطفال بصف من القطع الفضية او قطع من النقود تحيط بالرأس (١) . لكن شيئا من هذه الابهة لا يظهر للمعج خارج البيوت ، فكل شيء يخفى تحت الملابس حتى بداية الوجه ، ولا يرى من النساء عادة الا عيونهن بل يخفى جزء من هذه العيون ، ويمكن القول أن الأطفال يدثرون هكذا حتى يتقلدوا نظرات الحسد التي ترمقهم بها المعج الحاسدة التي يعتبرها المصريون المخطرون بالغة الاذى ، وتقتلى من اذان نساء العامة اقراط ، وتقتلى الاقراط احيانا من الاتوب لكن هذه الحالة نادرة . وتحيط النساء انهم من واذابهن كذلك بلطواني من المعجن ، كما يرسمن فوق شفاههن ونقودهن وصورهن رسوما للزينة لرقاء او سوداء (الوشم) وهي رسوم تماثل تلك التي ترى المسيحيات اثناء فترة الحج يرسمنها فوق انهمن دلالة على التقوى والولاء .

وتنظر السيدات من الطبقة المسورة — شائهن في ذلك شأن نساء الطبقات الفقيرة — الى مختلف التشويهات التي تحدثنا عنها فيما سبق ، باعتبارها نوعا من الجلبية او على الاقل نوعا من التزين ، وبخاصة عادة التقليل من سمك الحواجب ، كما يمتحن ايضا بصبغ اليدين والقدمين بالاصفر والازهار بالاحمر وذلك باستعمال الحناء . وهذه المادة اكثر انتشارا بين الطبقات الشعبية وهي ترويض لسلسا بالتقليد وبمحالة التحفظ التي ينبغي

(١) اخبرنا احد أبناء طرابلس أن المسلمين يحيطون رءوس اطفالهم بنقود ذهبية عليها كتمويذ بعض آيات من القرآن ، ولهذا السبب بهم يحتفظون — بما يرالون — بكثير من قطع النقود الكوفية وهذا ما يسهل على الأوربيين الراغبين في اقتناء تذكير أو عملات تعود لعصر الخلفاء أن يحثروا في حلقات الفتيات المسلمات على رؤسهن . وغضلا عن ذلك فلا تستخدم النقود الكوفية الا كزينة ، ولولا هذه المادة لكنت قد انقضت منذ وقت طويل .

أن تكون عليها التمسك باسم الرجال ، فالغرض من هذه العادة منع العين الفسولية من استجلاء درجة بياض الجسم عن طريق النظر إلى بشرة اليد إذا ظلت في لونها الطبيعي .



التقاليد والعادات المختلفة

ترتبط تقاليد المصريين بتنظيمهم ، لذا يمكن القول بأن هذه التقاليد أنها هي وليدة هذه النظم . وما لا جدال فيه أن معظم قوانينهم تقوم على معرفة دقيقة بالطقس وأنها تبدو متطابقة تماماً لطبائع الناس وكذلك لمواقع الجغرافيا للبلاد . ويمكن القول كذلك بأن المشرع المصري قد حسب مدى سرعة ونجاح انتشار مذهب السهلي والدين الجديد وذلك بتقليسه لطقول والذواق موطنيه فتجنب تلك المعركة — الخطرة على الدوام — التي يدخلها المجددون ضد عواطف وأهواء أولئك الذين يريدون إصلاحهم ، لذا فقد أملى من شأن اجتماعه في نظر أنفسهم بفعل قيمة اسمها بشكل باهر واستطاع أن يتوصل إلى أن يبرهن على مطبقها لأتاس جهلاء سذج ، ولقد أحترم تقاليدهم العائلية ، وكان متسلحاً مع هفواتهم ونقاط ضعفهم ، وعندما شاء أن يقدم بكلمة لأولئك الذين يتخللون بسائده السهلة ، تعلق عواطفهم الجسور حين وعدهم بأنهم سيكونون خير أم الأرض وعندما رأى نفسه والفا من أن مذهبه يقدم بشرهم بمباهج سماوية مثالية ، ولقد توج النجاح أكمله ، وحصل محمد على نفس النجاح الذي حازه ليكوج (Lycourge) دون أن يؤسس أنظيমে الفكرية على قوة من الأخلاق أو على إنارة السبيل أمام أخته ، ولنسوف تظل عقيدته هذه في لوج عمليتها في الشرق طالما ظلت شعوب هذا الشرق بحاجة من مدارج التقدم والحضارة الحديثة . ومغفلاً من ذلك كله يبدو أن طبيعة عقلية الشرقيين تظل مثل هذه العقيدة طول البقاء .

(Lycourge) مشرع إسبانية ، عاش في القرن التاسع قبل الميلاد . وجدير بالذكر أننا نقدم هنا ترجمة للأصل نصا وروحاً وأن كانت لنا تحفظات هامة على كثير مما ورد في هذه الفقرة — ومع ذلك فقد آن لنا أن نلم بكل ما يقال هنا ، فليس كل ما يقال صحيحاً على إطلاقه ، بالأسف إلى أن هذه الأفكار قد تجاوزها حتى الفكر الأوروبي نفسه اليوم . (المترجم)

ائن غليس المجتمع هو الذى ينظم التقاليد في مصر ، كما ان « الموضة » لا تفر من هذا المجتمع بحسب أهوائها وتقليداتها ، فكل شيء فيه يستند الى انظمام الروحى والدينى ويثقل — مثله — في حلقه من الثبات لا تقبل التغيير ، فكل ما كتبه الرحالة للقدماء الموثوق بهم من الحرب ما يزال على حاله حتى اليوم ، ولو انهم عادوا الى الحياة اليوم ليخوضوا في نفس الامر لوجدوا انه لا ينبغى عليهم أن يغيروا اليوم شيئا مما تفلوه في ذلك الملقى البعيد ، والى ان يحين ذلك الوقت الذى تتجر فيه ثورة يبدو اننا ما تزال شديدة البعد ، فليسوف نظل عادات الغريبيين الأسرية هي . وعلى كل لسوف نكتفى بأن تقدم هنا لمحة سريعة من حياة المصريين الخاصة ، فمن طريق مثل هذا النقص نقول يستطيع المراقب أن يكون حكمه بل أن المراقب لا يمكنه أن يعرف مدى مدى الروح القومية الحقيقية لشعب ما الا اذا فحصه باهتمام من هذا المنظور .

ان المجتمع الذى تستمد فيه نسائه لا يقدم مطلقا هذا المزيج من الرقة والتهافة اللذين يميزان الأمم الأوروبية على وجه الخصوص ، وحيث اننا لا نكاد نصى باثر للنساء على العادات الاجتماعية في مصر فمن الممكن أن نلهم بسهولة لماذا تتميز التقاليد في مصر بوجه عام بهذه الغلظة التهجية التي هي بالذاتكيد غلظة تقاليد العرب العزاة . وتلك في الواقع هي المعوطة التي تتفح لأول وهلة ، فرياضة الشصب والصلابة ومسرانه ذات طابع خلقي ، مخور ووحشي في وقت ما ، ، وسوف يكون الأمر بالذاتكيد على نحو مختلف لو كان للنساء نصيب في صنع هذه التقاليد ، فالاعتبارات التي يتولى لبن — من حيث جنسهن — سوف تؤدي غريزيا الى تولد بشاعر التهافة . وعندها سوف تكون الآمة هي الصائمة لشكل مجتمعها .

وتتوزع حياة المصري من أبناء الطبقة الميسورة ما بين الصلاة والعباد والمذاذات العسية والكسل وتدخين النارجيلة وشرب القهوة . وقد يجوز لنا أن نقول بأن الشصب كله يقضى جل وقته في التدخين ، ولا يستخدم الاغنياء الا بئج اللاذقية (١) الذى تصنعه منه كبيات بحيرة في مصر ، أما الفقراء

(١) اللاذقية هي * لادوسيا Ladocchia اللدنية وقد سماها سيلوكيس Sélouous وسماها على اسم أمه ، وتقع على السهل السسوري ويذرع البئج على التلال المحيطة بها .

فيتمتعون بالفتح الحلو الذي لا يتأثر بنفس المذاق اللذيذ الذي لتبغ اللالقية لكن سحره منقلب ، وتغرب القهوة في فناجين جد قصيرة ويذوق سكر ، وهناك بعض من الناس يشرب ما يزيد على العشرين فناجيا من القهوة في اليوم الواحد .

ويكون أبناء الطبقة الشعبية من خلاصة نوع من القنب الذي يسمونه الحشيش مستحضرا مخفرا يتملونه بأذة شديدة ويؤدي هذا المستحضر الى السكر أو بالأحرى الى أحداث نوع من الخدر ، وفي هذه الحالة من الخدر الجسماني والروحي يحصل التواء على هيئة من التواء ومضايقتهم . أما الانهاء فيحدثون من هذا الخدر من طريق خلاصة أو عصارة الخشخاش المطبوح . ومن خلاصة هذا المشروب انه يسبب نوعا من الأذى للصبي ويصبح الجسم والظل بعد تناوله أكثر تماثلا عما كانوا من قبل .

ويمكن الحرمان مكن له حرمة والأزواج وحدهم هم الذين يستطيعون التردد عليه بحرية ولا يمكن لأبواب هذا المكان المحرم أن تفتح مطلقا لرجل آخر بخلاف الطبيب أو الكاتب أي ذلك النوع من موظفي السكرتارية الذين تستخدمهم عادة نساء الطبقة العليا . ولا يستدعي الأطباء إلا في الحالات العاجلة والمحة وغسلا عن ذلك فليس بلكثرتهم أن يروا مريضاتهم إلا في حضرة الأماء أو الأغوات (١) بل إن النساء - حتى في هذه الحالة - لا يخلعن ثيابهن . أما الكاتب ، فلا يسمح له مطلقا بالدخول إلى الحجرة التي تشغلها سيدته فيبقى في الحجرة المجاورة ويفتح باب اتصال بين الحجرتين ويكتب هو حسب الأوامر التي تأتي عليه ، وفي كثير من البيوت يكون للكاتب حجرة تقع أسفل مسكن الحرمان ، وتبلى عليه المبالغة (الكهنة) - وهي سيدة تعمل في خدمة ربة البيت ولكنها ليست من الأماء - أوامر سيدة البيت .

وتراعى هذه التقاليد بشدة عند كل الأسر المتميزة والتي تتباهى بشيئها العالي ، بل إن السؤال عن حال السيدات يحظر لمرأ محبا مهما كان الدافع الذي يبله ، فالرجل على سبيل المثال لا يسمح لنفسه بأن يسأل رجلا آخر عن أخبار زوجته ما لم تكن ثمة روابط حميمة بينهما بل أنه في هذه الحالة أيضا يستخدم تعبيرا يصلح لئلا هذه المناجيات مثل : كيف حال العائلة ؟

(١) بدأ البكوات (المباليك) يتناولون الأغوات في الفترة الأخيرة

أو كيف حال (النفس التي فوق) ؟ وكذلك لا تصح آداب اللياقة بادخال
العوالم في بيوت المقاتلات المتبسكة بالاصول والتقاليد ، إذ لا يمكن لهؤلاء
العوالم أن يخفن مثل هذه البيوت إلا ليلم الاحتفالات والمناسبات الكبرى ،
ولا يكون لمة من شكوى إلا أن في الخفيهن أو رقصاتهن شيئاً من الخلاعة
لا يليق . أما رقص الفوازى الذى يرى في شوارع القاهرة ، لمثل هؤلاء
الضيوف على التتاليذ يستبعدونه بقلطة .

ومع ذلك ممنهين للقول بأنه ليست كل المقاتلات على هذه الدرجة من
الصنعة ، بل أن هناك الكثيرين ممن تصح تقاليدهم المخراخية لزواجهن بأن
يكن المعتقد الغربية في داخل الحرم نفسه أو في خارجه بمعونة من
أمتهن ، فيتظاهرن على سهيل الخال بأنهن ذاهبات إلى الحمام أو للتعليم
بزيارة ويذهبن بدلاً من ذلك إلى لقاء غرابى ، ولابد أن نستنتج أن البطالة
التي يحبون فيها وكذا حرارة الطقس المذهبة هي التي تهيئ شهواتهن
وتحملهن بلا انقطاع على الاستجابة للذات العواص ، فما أن تطلب خيالهن
رهبت أو احتججت جديدة حتى يطرقن كل وسيلة لاشباعها ، ولكن الذى
يضع حداً لذلك كله هو خوف المرأة من أن يطلقها زوجها بل ولن تلتى الموت
على يديه .

ويشكل السقاميون نوعاً من رسل الخراف ، ولهم دور رئيسي في
مكائد الحب ، ولسيدات الطبقة الراقية عبيد من نفس جنسهن (أماء) يهود
اليهن بالمحبة بالمورهن ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً الخزانة وهي التي تمنى
بالمجوهرات والنقود وخزينة الملابس ، وهي أول من تنوز بالحق ، ويلبسا
في التزيين والأهبة — من حيث الوظائف — تلك التي تأثر بأعداد النقود
والشريات : أى تلك المكلفة برعاية واجبات الضيفة ، ويلبسا تلك الألبسة
المكلفة بالافتش على المطبخ ولها السطوة على كل الإماء ، وتتفاوت درجة
تقسيم هذه الأعمال بحسب طبقة وفرة ربة البيت ، بل أن بعض هذه
الأعمال توكل إلى عائلات حرة مثل أعمال الخياطة أو الرقابة . ولا يحق
للسيدات أن يستخدمن خدماً إلا من نفس جنسهن أو من الأفولت ، وللمة
شيوخ مهيمنات يتولن لتعليم العبيد الصلاة . ويشغل الأغا (الطواشى) حجرة
في الطابق الأرضي ويلبسا أن يدخل إلى حرة إلى جناح الحرم وهو
يقوم بنقل أوامر رب البيت إلى ربة البيت ، ويمكن القول بأنه يستغنى
كاملة اتصال بين الاثنين .

ولقد رأينا ما تخرج الممرات الى خارج بيوتهم ، وإذا حدث ذلك فلتنهم
 يفهمان ساعة تقوم الليل لقضاء مشاويرهم الصغيرة . لما عند سفرهم
 فيوشمن دخل هودج عرشه فثمان وعقده ثلاثة أقدم وتعلوه ثمة منضرة
 على هيئة قوس ، ويحمل الجبل اللتين من هذه الهودج بعد دخها الى
 جنبه ، كذلك لا تتجول السيدات في حدائق بيوتهم وهي حدائق تنقسمها
 الممرات ، ويسفن ليلها بأكملها على أرائكهن ويتسلى بعضهن بنزل حبيب
 أو طفل الهند ، ويوم من تستمنع التمرير منهن بقطرير المنديل التي
 تستخدم كغطاء للرأس أو الشيلان (الشال) التي يصنع منها حزام لزواجهن
 بكشكشات صغيرة .

ومن السهل التعرف على الاماء من حيث أن شعرهن يرتفع فوق
 رؤوسهن ، ويستلقن بقل وتغطي رؤوسهن واكتفين بدلا من الضاع
 الكبر أو الطرحة قطعة من قماش الضيل أو القطن ، كما يتطين بها
 وجوههن في حفرة الرجال .

ومع ذلك فإن ثناء الطبقات الشعبية لا يستشعرن مثل هذه
 المصيفات إذ يقدّر عليهن على الدوام الاتيك في أعمال خارج بيوتهن ،
 لكن ثيلة الوقت متجهبات بالبرقع وبخاصة إذا ما لحن رجلا ، وأكسر
 ما يفسنهن هو أحسن معلم لزواجهن ، والذهب لجلب الماء في جرار
 يميلنها على رأسهن بمهارة (١) ، وفي نفس الوقت لكثير اللامحات لا يعرفن
 الحيلة ، لذا يتركن ملابسهن الضخمة — التي تغطيهن وقد تعدت مرقها ،
 إما لأنهن لا يستطيعن ارتقاها ، وإما لأنهن لا يجدن ضرورة في تكليف أنفسهن
 هذا المناء ، ويجدن سعادة معلقة في ألا يملن شيئا ثم إن في يقعن على
 حصيرة أو حتى على الرمال . وهذه البليدة التي نلاحظها في كل بلدان
 الشرق ، ينبغي أن تجد لنفسها في مصر بالذات معنى العذر ، إذ أن حرارة
 الجو المرتفعة تحتم الاسترخاء . وتحب الممرات عموما تكفين النارجيلة،

(١) عندما لا يكون حجم هذه الجرار كبيرا فتلحن يميلنها على أكتفهن
 ويتكن برقعوس على الجنب ويرفعن اليد الأخرى إلى أعلى، وتتفق هذه
 الطريقة تلحا مع طريقة الممرات القدامى ويكفي الانتفاع بذلك أن نلقى
 نظرة على الرسوم الختولة عن تلك الرسوم الموجودة في كهوف كثيرة في
 صعيد مصر .

لكن هذا المزاج نادر الشبوع عند نساء الطبقة الراقية ، وهؤلاء لا يدخلن مطلقا في حفرة أزواجهن ولا يحصلن على مثل هذه المتعة الاخفية .

وكما سبق لنا القول ، فإن الحمام هو أحد المنع الرئيسية منسد المصريين من كلا الجنسين على قدم المساواة ، وللمسيدات من الطبقة الميسورة حمامات في بيوتهن يحتنين بتزويدها على الدوام بالمياه المسلوخة والبخر ، ويبدلن فيها بينهن الزيارات الى حمام كل منهن كما لو كانت زيارات الى مكان بهيج ، وهناك يستعرضن مجوهراتهن وأجمل ملابسهن وكل أبهتlen ويستخدمن ببذخ صابن ماء الورد والمطرور ، ويقضين يومهن هناك يتناولن القهوة والشربات والقطر ويلبسن في كل أنواع التسليحة والترفيه (١) .

وتراعى المسيدات فيما بينهن — شأنهن في ذلك شأن الرجال — وبكل الاهتمام والتعظيم هذه الطقوس والاعتبارات التي لبن بحكم الطبقة والثروة والصمت والاحترام ملازمين العظيمة ، وإذا ما كان فية سيدتل قد نشأنا معا وحاشا معا في مودة منذ طفولتها ، لم تزوجت احداها من لرى (٢) ، أو ذى مكفة مرموقة فان لهجة الحديث بينهما تتغير على الفور ، وللرجال احتفال خفس براماة ولجبت الذوق واللباقة فيما بينهم وبأن يقدموا من طقاء أنفسهم دلائل الاحترام والتقدير غالائى يقبل يد الأعلى بل ويقبل احيانا طرف رداقه إذا كان فية غلى كبير بينهما أو يكتفى احيانا برقع اليد اليمنى الى الصدر لتكهد ندبة الصداقة التي بينهما ، أما عندما توسع اليد على الرأس فالحا تعبير بالخشوع من المروم الى رؤسائه الكبير .

(١) عندما تقوم سيدة بزيارة لخرى تكن لها بعض الود لو الصداقة فالحا تدومها لأخذ حمام وكذا التوم عندها ، وينتج عن ذلك أن تستمر الزيارة احيانا لمدة أيام .

(٢) هذه الطريقة لدى الشرقيين في نهلس لهجتهم وحركاتهم بحسب الثروة والجاه ، تلاجل على وجه الخصوص عند المليك ، هؤلاء الرجال الذين كثرأ — كلهم على وجه التقريب — أبناء لراماة أو لفلانين يحرصون على الحصول على قدر من الثروة والتكريم يتفصب مع ملتبتهم الجديدة التي أبكمهم الارتقاء إليها .

لكن احترام الإنشاء لإيادهم ولهماتهم يذهب لإبعد من ذلك ، فهم لا يخرجون من كنف الحرم قبل من البلوغ ويضخح الذكور منهم لهذه القاعدة ، ومع ذلك فهم لا يستقون نفس الحجرة التي تنتمي إليها الأم ، ويأتون كل صباح لتقبيل يديها ويظلون للحظات واثنين أمليها وأذرعهم مضمومة على صدورهم ، ثم ينزلون بعد ذلك إلى والدهم ويقدمون له نفس تبارات الاحترام ، ومع ذلك المأرب لا يقبل وجودهم على مائدة إلا إذا كان ذلك في يوم يعد من أعياد الأسرة . وهو — كذلك — لا يصر في تغليلهم ويحتفظ معهم باستمرار بقليلة الواجبة ، وهذه عادة علية عند كل الطبقات وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة ، وليست المرأة أكثر احتراماً من جانب زوجها من النادر أن تدعى للطعام معه وتظل سيدات الطبقات الشعبية واقفات بينما يتناول الأزواج الطعام ، ولا يجلسن لتناول طعامهن إلا إذا قرع من ذلك الأزواج .

ويخصص اليوم السابع لولد الطفل لأفراح كبرى تجري داخل الأسرة ، وفي هذا اليوم تأتي كل السيدات اللاتي كن من قبل أماء عند أم الولود لزيارتها ، فيستقبلن المباشرة في أول حجرة وتلبس بتقديم القهوة والشربات لهن ، وبعد ربع ساعة تقبل ربة البيت التي كانت قد انسحبت منذ قدومهن إلى حجرة أخرى ، عندئذ يهرع نحوها الجميع حتى يحظين بنوال شرف السباح لهن بتقبيل يديها ، ثم تجلس السيدة وتقبل محتوياتها وأكلات إمامها ، وبعد ما يقرب من نصف ساعة من الحفل ، تنسحب السيدة وتمضي لمشارتها الأمر في أن تبقى من محتوياتها ، أولئك اللاتي تريد هي الاحتفاظ بهن وتخرج الأخرى على الفور .

وعندما يسمد زوج إلى حجرة زوجته معه يطن ذلك بمسباً من طريق أحد الطواشي أو واحد من العبيد ، لكنه لا يظهر مطلقاً إذا كان بالحرم غريباً . . وتراعى الزوجة أن تبعد عن ناظره الأماء اللاتي يمكن لحملهن أن يتوهم ، معه ذلك ، معه إذا ما لح واحدة منهن وتلك أمهليه وإبدى الرغبة في أن يبقى وحده معها ، فإن زوجته تبتدى الكثير من اللطف لحد تنسحب معه من الحجرة . ولكن تحتفظ زوجات البكوات بالسلطنة التي لهن على أزواجهن فتهن يقدمن لهم على الدولم تنضيفت من هذا النوع ، بل ويذهبن إلى حد تقديم الأماء الجيلات كهدايا لأزواجهن

ويزينون بالجوهرات والملايس الفاخرة . وكانت زوجة مراد بك تقسم له مثل هذه الرمالية ، لكن هؤلاء المعطيات الثلاثى يقمن بامتاع الزوج مسورة لرفقات سيحبتن يحتفظن لها على الدوام بالارات الاحترام والتبجيل ويحرصن على الدوام على مراعاة مصالحها .

ولم يكن من النادر - وخاصة فى الأزمنة الأخيرة - أن ترى أرملة واحد من البكوات أو الكشاف تزوج واحدا من ممالك زوجها ، وفى هذه الحالة يظل هذا الملوك يحتفظ لها بكبر قدر من التقدير والرعاية ، مهما كانت المكنته التى سيصل إليها غيبا بعد ، وإذا ما كانت هذه الزوجة محقة فى مثل هذه الأمور ، فله لا يجرؤ أن يسمح لنفسه بالتصرف بحرية مع الإماء ، ولكنه فى نفس الوقت يجاهد كى يطفى عنها مظهراته التى يمكن له أن يمارسها خارج نطاق الحريم . ويحكى أن إبراهيم بك الذى كان من قبل ملوكا لحيد بك ثم تزوج من أرملة بعد وفاته ، قد غسطنه زوجته هذه ذات يوم مع واحدة من إماءها فقلبت - وقد طعننت فى كرامتها - بضربه بقسوة وهى تصب عليه شتاقيها ، لكن الخوف من مثل ذلك لم يستطع أن يكبح جماح شهوات هذا الملك ، ويقال أن زوجته تلك ، الفهور والمعبرة فى وقت واحد كانت تلبر بأفراقى - أو دس السم - لأى واحدة من إماءها تشك هى فى أن لها ملائكة بزوجه .

وفى مصر ، لا ينلم الرجال بجوار زوجاتهم ، وهذه عادة عملة عند كل الطبقات ، وللأغنياء حجرات مستظة ، أما الفقراء فيختارون الركنين المتقابلين من حجرتهم التى هى عبارة عن خى أو كوخ فقير ، ويوضع الفراش وسط حجرة كبيرة ، وهو مائتسة للرجل الميسور سجادة مسوطة على الواح خشبية ، وتميط بالمسجادة أربع مخدات فضة ، اثنتان منها على اليهين والاثنتان على اليسار ليحصر بذلك الفراغ الذى ينبغى أن يشغله الفرد ويوضع أعلى ذلك غطاء أو ناموسية من الحرير أو المولىين(١) ، وقد

(١) لا تخفى من الناموسية فى مصر حيث تغطى الحجرات بحشرات الفراش . ويدون هذا الاحتياط لا يكاد المرء يستطيع النوم ، أما أثناء الطبقات الشعبية ينامون وحدهم - بحكم القعود الطويل - الذين يستطيعون تحمل لزجاج هذه الحشرات .

فأحدنا بعضا منها مطرزا بالذهب والفضة . ولا يكلف الفقراء أنفسهم
مطل هذا الصناء فهم يتحدون على حصيرة مصنوعة من سنف النخل
وينامون بكامل ملابسهم .

ولما يخور الشمس من كلتا الطفتين من ملابسهم الداخلية أثناء النوم ،
ويساهم ذلك في وجود الحشرات الضارة بملابسهم كالفيل والبراغيث ،
كما يؤدي الى تكاثرها .

ويلجأ الناس لمادة بلغة الغرابية لايلبث الشخص النائم ، فلا يتم ذلك
بإحداث صوت أو حركة حتى ينهض من نومه ، لكن واحدة من الإساءة تكمن
محددة بعضى السخب وقددغ له بيدها بلطن قدمه ، وبدا تتزعمه هذه
الدفدغة برفق من نومه . وهذا الاحتياط للنام يشي برخاوة من يلجأون
اليه ، فهو دليل على الحياة المخللة التي يعيشها هؤلاء ، وهو احتياط
يكن القول بأنه لم يكن بمقدور أهلى سيوليس(§) القداس أن يخترعو
لبرا بلقوه رقة وقعة .

ول ختام فصلنا هذا نعلم جدولا مغرنا بين المواثيق الفرنسية
والمواثيق التي قبلها عند المسلمين ، ويحتاج هذا الجدول الى شرح
تفهيلي :

يقسم المسلمون فترة اليوم ابتداء من غروب الشمس ، ويحسبون ٢٤
ساعة في الساعة التي تتصل بين الغروبين ، ولكن بعد أن يصل العدد
الى رقم ١٢ يحدون نقية مطلقا للعدد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، فلذا حسبنا
مثلا أن الغروب قد تم في الساعة ١٢ ، فله تكفى بعد ذلك المساعة
الواحدة ثم الساعة الثانية ، وهكذا .. الخ .

وعند معرفة الوقت الفرنسي ، فإن من الممكن تحديد الساعات
عند المسلمين وذلك بعد اضافة العدد ٥ ، وعلى هذا فلذا كتبت الساعة
لدينا في فرنسا الرابعة صباحا فتكون عند الأتراك التاسعة وعندنا
تكون مئذنا ٥ ، ٦ ، ٧ ، فهي عند الأتراك ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، وعندنا
تكون لدينا ٨ ، ٩ ، ١٠ ، فهي لدى الأتراك ليست ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، وإنما
١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

(§) سيوليس ٢ مدينة أفريقية قديمة اشتهرت بفقرائها والترف .
(الترجمة)
(م - وصف مصر)

وهكذا نلحق يمكننا أن نضمن تكافؤ نسبة المسلمين للفرنسيين :

- ١ - بفرضة ه إلى رقم الساعة الفرنسية فإن حاصل الرقمين يوضح لنا الساعة عند المسلمين إذا لم يكن الحاصل يتجاوز الرقم ١٢ .
- ٢ - أما إذا ما تجاوز الحاصل الرقم ١٢ فإن الزائد يؤخذ منفصلا ليكون هو الوقت عند المسلمين . فمثلا ما افترضنا أن الساعة هي الثالثة عند الفرنسيين بفرضة ه تصبح الساعة الثالثة لدى المسلمين، أما إذا افترضنا أنها ٩ لدى الفرنسيين لنقنا نجد أننا بفرضة ه سنحصل على رقم ١٤ وهو ما تجاوز ١٢ وي طرح ١٢ منه يتبقى لدينا ٢ ويكون هذا الرقم هو الوقت عند المسلمين .

ونظرة سريعة إلى الجدول التالي تبين لنا مثل ذلك الارتباط في كل ساعات الليل والنهار .

جدول ارتباط التوقيت

| الساعة في فرنسا | الساعة عند المسلمين | الساعة في فرنسا | الساعة عند المسلمين |
|--------------------|------------------------|--------------------|------------------------|
| منتصف الليل | ٥ ليلا | الواحد قبيل الظهر | ٦ نهارا |
| الواحدة صباحا | ٦ » | الثانية » | ٧ » |
| الثانية » | ٧ » | الثالثة » | ٨ » |
| الثالثة » | ٨ » | الرابعة » | ٩ » |
| الرابعة » | ٩ » | الخامسة » | ١٠ » |
| الخامسة » | ١٠ » | السادسة » | ١١ » |
| السادسة » | ١١ صباحا | السابعة » | ١٢ المغرب |
| السابعة » | ١٢ » | الثامنة » | ١ ليلا |
| الثامنة » | ١ نهارا | التاسعة » | ٢ » |
| التاسعة » | ٢ » | العاشر » | ٣ » |
| العاشر » | ٣ » | الحادية عشرة » | ٤ » |
| الحادية عشرة » | ٤ » | منتصف الليل | ٥ وهكذا |
| الظهر | ٥ » | — | — |

النجاع

المصري خجول بطبعه ، وهو يتفانى الخطر بلقر ما يستطيع . لكنه ما أن يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من حيطة — يبدى همة ما كتبت ظن في البداية أنها لغية ، وليس همة ما يسوى رباطة جأشه ولي نفس الوقت نواكته ، ولقد وأتت الفرصة لتسجيل هذه الملاحظة مدة مرات انشاء حملتنا ، وهذا ما برهن على ما سبق أن قلناه من أن اصلاح بمسوى نظام الحكم سوف يؤدي بسهولة فاقية ، الى أن يرد لهذا الشعب كل الفضل التي قددها ، بل التي لا يظنها هو نفسه كائنة فيه . كما أن ذلك سوف يوفى فيه كل مشاعر النيل والهبة وعظمة الروح التي خفعتها الى حين تلك الأنظمة السيطارية التي يزرع تحت ثمرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة على تبخير أخلاقيات الأفراد (١) بشكل محزن ، من هنا ، ذلك الفصح الواسع الذي يلاحظ عند إنشاء الطبقة الدنيا من المجتمع وذلك الزياء الذي لجده لدى كل أفراد المجتمع . نعوذ أن المصري يلقى الهوان في طاعة الكبار ، الذين يعرفون تماما معنى تلك السلطة التي في حوزتهم والتي لا حدود لها والذين يتحكم بهم خيالهم القرس ، فانه — أي المصري — يحمل بين جوانحه روحا منكسرة تضي عن نفسها في كل حركاته وإيماءاته ليقتل ويتحسس كلباته مع كل من يخشى قوتهم وتغذهم ، وعندما يتاح له أن يدرج في مصاف الأثرياء ، فانه يعمل على اشعار الرؤساء الذين ياتهمون بأمره بوطاة استعماله وتعبه ، وذلك نتيجة طبيعية للتربية التي تلقاها وللابظة التي رآها في حياته والتي أن أولان أن يحظى بها .

ولا يستحي الفلاح أو الحرثي — بهما كانت مهنته — من أن يستعدي حيث لا يهمه كثيرا ما سوف يقاتل منهم وعن حالهم . بل أنهم يلعنون كل

(١) لا نقصد بحدوثنا هذا النظم الاسمية ، ولكننا نقصد تلك القواعد والقوانين المبهمة والامتداعية للبكوات المملوك ، والتي شوهت لحد كبير لشكل ونظم الإدارة التي وضعها سليم وسليمان الثاني .

ما نرى وسعهم ليظهروا أمام الناس بظهر الهؤوس والعوز بقدر الإمكان . وفي النساء حين يترك الملبس الورشة التي يعمل بها . فانه يلج في الحصول على أجره من ذلك اليوم ، ويظل يطبخ حتى تدفع له ، وقد يكون هذا الإلحاح العلق تمهيرا من حيلة حثيثة عند البسفي ، لكنه عند البعض الآخر مجرد تمير من تخوف الملبس من أن لا يحصل على ثمرة عمله وجهده ، فضلا من ذلك فإن الكثيرين منهم لا يتدون مثل هذا الطيف في الحصول على أجورهم الا لكي يقدموا للفقيرين على شئون الأجور والمال ، الفلول على موزعهم وبهذه الطريقة يتفادون تلك المظالم والمغرم التي تهدد على الدوام أولئك الذين يبدو عليهم أنهم يحسنون في محبوبحة من الموش .

وعندما نعلمي للمصري مالا ، نقدا أو مينا ، فانه يحرم على الدوام أن يحرك أيهم يده اليمنى قتلا — كمن واحد ، ويذكرنا هذا بفصلة كانت للشيوخ بريك (وربما جوسيا أو مصبح) شيخ أحدى قبائل بدو الأفراد . لقد جاء ذات يوم يشكو إلى حاكم ولاية البحيرة من أن بدو بني مـون شنوا عليه الحرب وانه يحتاج إلى دعم لصدهم ، وطلب لذلك فصيلة من خمسين رجلا . ووعده القائد بالاستجابة لذلك ، ثم بذات المعاملة نفوس في أمور مينة ، وعندما آن له أن يفيى فقد عاد يلكر القائد من جديد بالدعم الذي وعده به ، وسأله عما ستكون عليه هذه المصونة ، فأجابه القائد بأنها ستكون عبارة من خمسين جنديا ويدفع لهدف الشيخ في حدة : خمسين جنديا ؟ لقط خمسين زودها واحدا ، أجعلهم واحدا وخمسين ، واحدا وخمسين : وفي أثناء ذلك كان يحرك ابهام يده اليمنى بطريقة استجداء بشبكة ، حتى أننا لم ننبال ذلك أنفسنا من الضحك ، ومع ذلك فقد استوجب الأمر أن نفرضه بأن نجعل الفصيلة تتكون من ١٥ رجلا بدلا من ٥٥ .

ومن الصعب أن نوافق بين عادة حب المال لدى المصريين وبين خمولهم وبلادتهم التي يمكن القول بأنها قاعدة لطباع المصريين ، بل بين ذلك وبين سلوك الحذر والاهتراس الذي يسيطر على أثناء البلاد . فلم نسمع على الإطلاق أية شكوى من سرقات المنازل ، أو قل أن هذه حالة نادرة تساءل بل أننا سوف نعيش أكثر من ذلك إذا ما علمنا أن البيوت والمخلات التي تشم بضائع غالية لا يتفل معظمها إلا بضببات (ضبة) من الخشب غير جيدة الصنع . ويستأثراء العربان والبدو ، يتميز المصريون بالاستقلبة التي تعود

فى جانب كبير منها الى تسوة العقول التى توقع على النصوص ، فكثيرا ما نلقى بالاث البضائع الخفية التى لا يام علة على الرصيف او فى الطريق العالية فى حراسة ذمة الاهلين ، ولم نسمح ان يملكوا قد فسكا من نتائج مثل هذه الثقة .

ذات يوم قام أحد الدلائل الأتراك لنا بحملة تجلوية عرفت عليه بريح قدره ٨٠ فرنكا ، وبعد فترة من الوقت ذهبنا لتحدثه فى أمر صفقة أخرى لا تقل من الأولى عطاه بالنسبة له ، وكان جالسا على المقهى ونحن نأرجعته بحضرة ، وبصعوبة شديدة أصاح السبع للمروض التى قدمت له ، ولأننا الصفا فى الطلب فقد رد : لست أحتاج شيئا ، اذهبوا الى فلان فهو باتس بغير وسيعمل لكم ما تطلبونه منى ومضى تاليا . . لقد فكرنا هذه الواقعة ذات الدلالة لى نقدم مثلا على ذلك التناقض الذى يسطر دائما والذى يعم بين الطبايع وبين السلوك . ومع ذلك فليس قلة ما هو أكثر كرما ولا أكثر عظمة من ذلك بل ولا أكثر حكمة بما يتضح فى هذا السلوك . آلمت على حق اذن حين آمل بقه سيكون فى الامكان ان ندخل عند أبدال هؤلاء القوم انكارا أكثر عدالة اذا ما اتحت عليهم لفواء الحضارة الأوروبية (١) . ولست ابل على الاطلاق من تكرار مثل هذه الحقيقة التى لا جدال فى صحتها .

(١) ولكن على الرغم من هذا المثال الطيب لمن الشعب فى مجموعه لا يتصف بالكرم ، وذلك ناتج من الحاجة أكثر منه من الطبع ذلك ان الكرم يفترض البيرة واذا ما ظهر المصرى بذلك فسوف يتعرض لنظام الحكم ولتتهباتهم .

أهكذا ينبغي ان يقتل الخوف والطمع لاجل الفضل ؟ وما يدل على أن المصريين استحياء بطبعهم — بل مجبولون على فعل الخير — أن أولئك الذين استطاعوا منهم أفضل مكائهم ونفوذهم وثروتهم الا تنالهم مظالم وانتهاكات حكام الطماعة ، يعيشون فى بيوتهم فى أبهة وقرف ويعلمون عمدة مرات فى العلم بتوزيع الهبات والصلوات .

٧

عن المثلية والخيول وكلفة دواب الحمل

لا يمكن للمصريين أن يكون لديهم ذلك العدد من العظماء الكبيرة من الحيوانات التي لدينا ، والسبب في ذلك يبلغ الوضوح ، فالرأى عندهم ليست مثل ومرتبة عندنا . فإذا ما استقينا مصر السلي وشطآن وادي النيل بعرض ١ — ٢ فراسخ ، سوف نجد أن أراضي مصر قليلة تليها ، بحيث يستحيل اطماع المثلية ، ومع ذلك يمكن الريف يتكون جميعا بعض الأبقار والجلوس وبعض الماعز وبغلة في الدلتا ، لكن الجبال والخيول والمير توجد بأعداد كبير ، لأن مهمة اطماع هذه الحيوانات أقل صعوبة ، إذ لا يقدم للخيول سوى التبن (قش مدروس تحت التورج الذي يقوم بدرس القمح والشعير) والبرسيم . ويطعمون في الربيع بالشعير بمشبه وهو يزرع لهذا الغرض ولا ينبغي أن يترك في الأرض حتى يبلغ مرحلة النضج ، ويقوم زراعي الشعير بتشكيل حزم صغيرة منه ويهونها في المدن : كل حزمة بواقع ١ ، ٢ مدني . أما المالك وغيرهم من الأثرياء الذين يحرصون أن تكون خيولهم قوية جبيلة المظهر ، فيطعمونها بالشعير الصب (١) .

ولا تلي الجبال مثل هذه العناية الكبيرة إذ لا يقدم لها سوى القش والذول المطحون بفرجي ، وبالإضافة لذلك فإن الجبال تقصر أوراق وبراعم الأشواك التي تنمو على حواف الترع وشواطئ النهر ، وتقدم لها في الربيع أوراق الأشجار ، وهو طعام مفضل لديها ، وعندما تصبح حرارة الصيف ملتهبة يجمع الفلاحون أوراق الأشجار ليستخدوها شفاء في اطماع الثيران والماعز .

(١) يطعم العربان خيولهم بأشياء قليلة جدا . وهذه الخيول نحيلة وقوية وتعمل المتساق والحرمان لدرجة أكبر من الخيول الجبيلة المظهر ، وهي لا تشرب سوى مرة واحدة في اليوم ، ويريد العرب دائما هذه الحكمة : يا بخت الخيل عند الخنز ، يا بخت العرب مع الخيل ، وذلك تعبيرا عن أن العربي يحصل على منافع كبيرة من حصانه بأقل التكاليف في الوقت الذي يحصل فيه حصان المملوك من سيده على نحو ما على أكبر النفع .

والجمال هو دابة الركوب المتعادية لأبناء الشعب ، وقد تصموه الفرنسيون على تلك الدابة بسهولة ، ومن الحفيدة لمن الحمار في مصر لا يميز بهذا البطم ولا بالمظهر الدنيء الذين لتظيره في أوروبا . فبصرته مناسبة وخطوه جميل ويخب بسرعة طيبة ، وهو شديد التحمل ، وقد راينا في الصحراء حبيرا صغيرة الجسم لكنها تحمل فوق ظهرانها ما يقارب من نصف حمولة الجبل ، ومع ذلك فإن الحمار يقاوم التعب بأحسن مما تستطيع الجمال .

وتوجد في القاهرة أنواع عديدة من هذا الميوان ، والأنوع الكبير منه جميل الشكل ، ويستحق بالفعل الأضواء الذي ابتدعه به بوفون Buffon . ويبلغ طوله من ٣ - ٣ ١/٢ أقدام دون أن تدخل في ذلك ارتفاع الرأس ، ورفته مريضة قصيرة ورأسه مرتفع جميل ، وقلبة جسمه متوسطة ، وله ملمح نبيل وميناء ملينتان بالحيوية . أنه حيوان قوى ، جميل الخطو ، ويناسب الفرسان لكنه غالى اللون ويفضل في معظم الأحيان على الحصان إذ يباع بحوالى ٦٠ - ٧٠ قرشا سابقا ، ومن نافذة القول أن نؤكد بأن هذا النوع جميل جدا ويستحق بالفعل تلهف الناس على استئجاره للسهر به في شوارع المدينة ، وهو مملوك لأفراد يستطيعون شراءه .

أما ذلك النوع من الحمار الذى يقودها المكاريون فهو أصغر بكثير لكنها بالمثل بلفنة الجودة . وينفع في الجولة التي تمتد من أول القاهرة الى آخرها بحوالى ٩ - ١٠ بارات . ويكلف أيجار انصار ليوم بأكمله ٣٠ - ٤٠ بارة وكان الصحر أقل من ذلك بكثير قبل هجرتنا الى مصر . وسببه ارتفاع السعر بالغ الوشوح ، فمع مجيء الفرنسيين تضاعف عدد الجولات في شوارع المدينة . ويتبع المكارى حماره جريا على الأقدام ، ويحمل في يده قضيبا صغيرا من الحديد تتدلى منه الجلاجل ، وضرب هذه الأجراس الصغيرة تجعل الحمار يخف ، فلذا لم يجر بالسرعة المطلوبة بنفسه المكارى بهذا التفريب ، فهو محبب من أحد طرفيه .

ويوجد في القاهرة عدد كبير من البنات يستخدمنها رجال الدين وكبار التجار ، وثمنها في الأخرى مرتفع . وفيل مجرى الفرنسيين الى القاهرة

لم يكن يحق لأحد سوى المالك أن يمتطي ظهور الخيل (١) . وكان من عادة المالك أن يحدوا بخيولهم عدوا ولاحظ لهم لا يسبرون بخيولهم هذه وهي تلفز ، وكثراً يدربون هذه الخيول بأن يندفعوا الواحد ضد الآخر ، وأن يلامسوا بطن الاقتراب ثم يتجاوز الواحد منهما الآخر ثم ينوثن من بعضهما البعض بالسيف وكنت أحدى تدريباتهم المفضلة أن يوقفوا حصانهم فجأة وهو في أقصى سرعة ، وكنت هذه الحركات المفاجئة والمنهدة والصعبة تعرض الحصان لآثار خطيرة مما يحطم له ساقه . لذلك فإن أغلب الخيول التي تربت على هذا النمط المبطوكي كانت تعاني من هذا الصيب ، فقد كنت سيقها خشيعة لحد كبير ، وقد لاحظنا أكثر من ذلك أن معظمها يقهر بشيء من الصلابة والقسوة ، كما أنها تعاني من ضيق في حركاتها ، وذلك ناتج بلا جدال عن القيود التي وضعت في أقدامها لأوقات طويلة .

ومن التادر أن نرى في مصر حصاناً خصباً ، فهم يركبون الخيل في سن الثالثة ، وعندما يتجاوز عمر الخيول المفسدة يكف استخدامها ، وثمة خيول مصرية بالغة الجمال لكنها مع ذلك ليست من نوع واحد ، وخيول الصعيد أكثرها جدارة ، فصاحبها — شاكها في ذلك شأن كافة الخيول العربية — دقيقة رهيمة ، وعينها يثقة ورأسها مستقيمة . لها كظها فاقه أكل بدانة ما نحيولنا العربية وحركاتها الثبة وخطوها مناسبه ، خاصة إذا لم تكن قد اكتسبت طريقة المالك في التدريب، ومع ذلك فربما لم يكن فيها جيباً تفس ما تسمى خيولنا العربية من نيل وعزم ، وإن يجد الفرنسيون مثيلاً لهذه الخيول المصرية في قازخا وليونتها ، لكنها أقل من خيولنا ناعمة بقوتها ، كما أنها أقل منها احتمالاً للضيق ، ويقال أنها بالغة الخفة وأنها

(١) يؤكد بعضهم أن المسيو روزي Rossetي قنصل النمسا قد أراه ذلك يوم أن يمتح بهذا الحق لكن الناس اتزله من فوق ظهر الحصان .

تتفوق على خيولنا في سرعتها ولكن شاعنت مرما فرستها تتبع حصانا
حربيا قويا بمسافة كبيرة (١) .

والخيول في مجموعها ليست في مثل صف خيولنا ، فالأمر يفتي غاية
في الهوع في حقل الخيول ، ومن السهل أن نضعها بالقرب من الفرس
دون أن تضطرب الأمور .

وفي أثناء اتليتنا في بحر كان سعر الحصان يبلغ من ١٢ - ٢٠ لويي
ويبقى أن نلاحظ أن المالك كانوا قد رفعوا سعره في هذه الفترة .

ولا يركب العربيان مطلقا إلا الفرس ويطلقون أسماء كبيرة على
الاحتفاظ بتسلها الطيبة نقية بحدود من أي اختلاط ، بل ولديهم خبراء
في علم الهندسة ، والفرس المسمى كويت هو لكفرها ابتهازا ولا تقدر بدفن ،
ويبلغ ثمنها من ٥ - ٦ آلاف ليرة ، وقد رأينا منها اثنين أو ثلاثة رائعة
الجمال .

والخيول العربية صغيرة الحجم والتي قد لا تلت الإكتهاد بلغة فصلا
ميزات فوعها عن مظهرها المتواضع هذا ، لا هي في العادة لكبر سرعة
من الخيول الأخرى كما أنها لكبر منها بكثير متفومة للتعب .

(١) تتطلب الخيول في مصر منبهة لثقة ، وبعد أقل جولة تقوم بها
ينبغي أن يقوم أحد الخدم بجعلها تفتي حتى يجب مراقبها ، وبدون هذا
الاحتياط يمكن أن تنوت على الدور ، وهي في العادة جهولة ولقراض كثيرا
لرأس الرثين ، ويستخدم الفريزون ركبا للسر ، عرصة كبير ويستخدمونه
في نفس الوقت كجسر ، وتكفي سرعة قوة تلك بقدر المسكن ، ولجلبها
تكون وجاف والطريقة التي يستخدم بها هناك تؤدي سرعة إلى تعظم تلك
الخيول فلا يمكن إتقانها بعد ذلك - لذا جا لظفت تعمر - إلا من طريقا
هذا اللجل .



تقليد عربان البحيرة

يمكننا أن نحصى في ولاية البحيرة الواقعة ما بين الاسكندرية والقاهرة والفرع الأهمر للنيل سبع قبائل سلسية من العربان ، استقر عديد منها هناك منذ زمان بعيد .

واكبر هذه القبائل عددا قبيلتا الهنادي والجوابي ، ويمكن أن يبلغ تعداد الأولى ٢٠.٠٠٠ شخص رجالا ونساء بيننا. تكون الذئبية على نحو ما لبة صغيرة من الرماة ، يحكمها شيخ كبير ورث المشيخة من أجداده . وحيث أن مقلته هي اتوى مقلات القبيلة فله يلمس سلطته المطلقة بحق الوراثة ، حيث لا توجد هناك لبة ثواتين وضعية . وتنقسم القبيلة الى ثلاث طبقات تنقسم كل منها بدورها الى مقلات ، لها مكان الإكلمة كواحد بالنسبة للجميع ، ولكل واحد تطويعه من حول خيمته وهذه القطعان تتكون من جمال وبشيرة صغيرة ، ويمكن للعربي المواقف الثراء أن يمتلك ، أو ٦ أو ٨ ثلث الجبال واثنين من تكورها ، بخلاف المكسة الصغيرة التي يمتلك منها عددا كبيرا .

وتنير القبائل أسلحتها في غارات منتظمة الى حد ما ، ويحدد مناطق تجوالها الأمل في العثور على المراسم اللازمة لإعداد قطعها بالغذاء ، ولهذا فذهب الجوابي كل عام من مريوط الى الصعيد ، وهكذا فذهب يبرون بواقي بحيرات المنطرون ويحملون معهم كميات من الملح ويحصلون في مقابل ذلك على ثمن تعدده المادة ، وفي نفس الوقت يذهب هؤلاء العربان أنفسهم الى الواحات لشراء الملح الطازج أو المجلف ليبيعه بعد ذلك لصغار التجار في مصر .

وتعتمد هؤلاء العربان بسيطة ورعوية وتثاى بهم من التعليل بالسلطان والذهب ، إذ لا يمكن أن يوجه مثل هذا الاتهام إلا لعدد جد ضئيل من أبنهم الصغيرة تلك ، ولا يحدث بينهم إلا قدر ضئيل من السرقات التي يلقي مرتكبوها عقابا رادعا من الشيوخ .

وعلى انتهاء جولاتهم تلك ، والتي تتم ببطء شديد ، يسعى الكثيرون من الرجال صفار السن على اقتناصهم بينما يركب الصيوخ والأطفال على ظهور الجمال ، وتسهل النسوة على سنون النمل مع أزواجهن ، وهن لا يخطين وجوههن إلا بألم الأعراب ، ويبتدىء الجمال المسيرة عليها قطعان العقلات المختلفة ، وهذه القطعان منفصلة فيما بينها . ويبلغ تعداد حيوانات القطيع ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٥٠٠ وأكثر .

وملبس أفراد هذه القبيلة هي نفس ملابس بقية العربان ، فالرجال يرتدون قميصا خشنا ومغطا من الصوف الأبيض أو العليق ويلبونه بسوق رؤوسهم لينقوا حرارة الشمس ، كما يستعملونه قطاء في الليل ، وللصيوخ مغط من الصوف الأبيض . لكنه لكثير نعومة ، ولا ترتدى النساء إلا جلبابا خفيفا ويلب خصلات شعرهن بلونك متعددة .

ويرى قليل من الخيل لدى الجوابي حيث لا يتجاوز عدد فرسانها الأربعين ، بينما يبلغ تعداد فرسان الهنادي أكثر من ثمانمائة .

ولمنا قبيلة الجوابي شديدا للدين ، وهم يهتدون الدبالة الإسلامية بشكلها الأتقي ولا تعرف عقلايتها الكبيرة عادة التدخين ، فهذه العادة لم تدخل القبيلة مطلقا ، كما أنهم يمتنعون عنها أيا احترايا لمخاطبتهم القديمة وأيا بدافع ديني غالبا حيث لم نجد في هذه الأمة الصغيرة إلا مجورا واحدا يهوى تدخين التبغ ويتصيب هذا الشيخ إلى عائلة قديمة ويقابل فعله هذا الذي يتمازج مع المعدات المتهبة بصلح اعتبارا لسنه ، ولا تنفع الجوابي شرائب مطلقا ويكتفون بأن يرسلوا كل عام إلى تقليم بمنهوج مدينة تكلف من بعض الجمال .

وتعيش الجوابي في قفامة شديدة ، وهي عادة شائعة -- كما رأينا -- عند كل العربان ، ويكتفى المرء هناك بوجبتين ، ولحدة عند الظهر والأخرى عند غروب الشمس ، وتتكون الوجبة من التين أو ثلاث بلحفت مع شيء من الخبز مخبوس بالزبد الذائب على النار . ويكاد المرء لا يتصور كيف يمكن لأجسام نخفت على هذا النحو ، أن تتحمل تلك المشاق التي لم نسمع عنها ، وقعت سباء ملتزمة لهذا الحد . ولا يكاد يبلغ لجمالي كمية الطعام التي يتناولها المرء في اليوم ٦ أو ٧ لوتيات ، ورغم ذلك فالعربان بوجه عام

حسنو الصحة ، وإذا ما استثنينا لأمراض العيون — وهي الأمراض المتوطنة — منهم أقل من غيرهم مرضة للأمراض من كافة شعوب أوروبا (١) ، ومغضلا من ذلك فهم لا يتناولون المشروبات الروحية ويكتفون بشرب البان النقي والماء الفراح ، وتصنع آتية الشرب التي يستفيدونها من الخشب ، أما تلك الآتية الطينية المعروفة باسم الفلة فليست شائعة عندهم ، وشرب القهوة يعد ولحدا من المنع التي نادرا ما يسمحون بها لأنفسهم ، وليس بينهم من يعتاد عليها سوى المشيوخ ، ولا يقدم هذا المشروب في الخيمات الأخرى إلا عند الترحيب بزائر غريب .

والجوابي مضطربون بالخو الكرم ، ويمنعون حملتهم لكل الناس بلا تمييز ، بل لثمن يخلطون في حياهم حتى المجرمين المطاردين ، ويقدم الغريب في خيمة مضيله الذي يبذل كل جهده لكي يكرم وغافقه ، وتغطي النساء وجوههن لئلا تدل على الاحترام . وتتولى مودة العربان وكرامهم خاصة في الوجبات التي تقدم للمسافرين الذين يلجأون اليهم طلبا للشفقة ، وهذه بالذات بالنسبة لطبوف المشيدين ، وتتكون من الأرز والخبز والبصل المشوي وخروف مسلوكة يقدم في طبق كبير أنتزعت منه فقط بعض أجزاء لفصيرها وتقدم في الأخرى على المقددة ، وزيادة في تكريم الضيوف يحرس الخيف على أن يختار لهم بنفسه أحسن قطع اللحم ، وقد يدهش المرء من عواطف وأحاسيس هؤلاء الناس الذين هم بالكاد في أول أطوار الحضارة ، ومن انخلاصهم وحسنهم حين يتحدثون عن دباحج حياتهم .

ويتكون ذلك الخيمة من سجادة خشنة ويصنع الأوتى الخشبية أو الخضرية ولسلعة من أنواع مختلفة وأحيانا بعض أدوات من الحديد وأذاك من نوع خاص . وليس في خيمة شيوخ القبيلة ما هو أكثر من ذلك ، وربما يكون الكواء الوحيد الذي يميزها عن بقية الخيام هو مظلة السجادة المرفوشة فيها . والتي ليس فيها برغم ذلك شيء غير عادي وقد يصل ثمنها إلى ٢٠ — ٤٠ قرشا سيعقيا .

(١) انظر : Voiney, Etat politique de la Syrie, p. 361 et s. وكل ما قاله هذا المؤلف عن بدو سوريا ينطبق على بدو مصر .

ويقوم العربون بجولات طويلة لليلة في الصحراء . ويتولون فيها
 نهارا لمدة تبلغ العشرين يوما وكثر ، ويجعلهم تعودهم الطويل يتعمرون
 على السهول الرملية ، فهم يعرفون الأماكن التي توجد بها المياه وليس فيه من
 صحراء معها كانت قاحلة لا تحتوي على مصادر للمياه أو على الأقل لا تحتوي
 على أيار للمياه الصالحة للشرب ولو كانت ملحة بعض الشيء ، فضلا
 عن ذلك فهم يحملون على جملهم الماء والخبز الضرورية ، ويحتفظ المسافر
 بالماء في آنية كبيرة من الجلد يثقلها بمسادة خضبية ويحطرها بالمسكة .

لها البدو الذين يعيشون على السلب والذين يستمدون علمهم بعد قليل
 منهم يجمعون كل ما سلبوه ليقسموه فيما بينهم حسب قواعد متفق عليها
 حتى يتجنبوا الاقتتال فيما بينهم ، ولغاية هي الحالات التي يستوجب فيها
 أن تعود الضيف أو الأمتعة المسلوقة على واحد دون الآخر ، ونفرا كلكت
 ما يلوهم أن يخصصوا جزءا من هذه الأسلاب لشيوخ القبيلة حتى ولو كان
 غائبا .

والنساء عند هذه الشعوب الجارية لسن متعطلات ، بل يعملن
 ثياب الخيل وينسجن بالنسج السجاجة لتكثف هذه الثياب ، وعن
 يستلطن صبغة هذه السجاجة بألوان زاهية ومقنعة وتكاد هذه الألوان
 أن تكون أكثر بياضا من ألوان أجمل سجاجة الكافور . وعندما يذهب بعض
 العربان إلى المدن ، فاقم يملكون على عاتقهم الثياب بالأعمال التجارية
 الخاصة بالقبيلة كما يحضرون الأسواق اللازمة لعمل النساء .

ومن حق العرب أن يتخذ لنفسه عدة زوجات ، ولكنه نادرا ما يفعل
 هذا الحق ، فلكل عربي زوجة واحدة ، ويشتري الأتنياء منهم لئلا إنجابات
 وعبيدا سودا في بعض الأحيان . وتسمح لهم الفريضة بالطلاق شأن بقية
 المسلمين ، لكن عادة الطلاق ليست منتشرة بينهم بنفس درجة انتشارها
 عند سكان المدن المصرية . بل أن من يطلق زوجته منهم يجر على نفسه
 نوما من الاحتقار ويعرض نفسه للرفض العام . وقد شوهدت بنت أحد
 الصيوخ الكبير وهي ترفض أن تعيش مع أبيها لأنه طلق لها ، كما لم
 يستطع ابنه الشاب الذي كان يلعب شؤون عائلته بذلك كبير أن يمنع
 نفسه من أن ينظر لهذا السلوك من جانب أبيه باعتباره شجود .

ويبتلع نساء هذه القبيلة مهر كما يسمح لهن بامتلاك القطعان .

والحرية هي كثر العربان الثمين . فهم ينفرون من أي نوع من الخضوع وهم يفضلون أن يقتدر عليهم البقاء في عزلتهم الواسعة تلك في الصحراء من أن يتحولوا خضوعا من أي نوع . ولا يريد الجوابي أن يرتبطوا بشكل مطلق بزراعة الأراضي إما لأنهم يخشون إبدال طبيعتهم وإما لأنهم ينفرون غريزيا من الزراعة وإما تمسكا منهم بعاداتهم القديمة . ولما بعض الأحيان يذرون قطعة من الأرض روثها الأمطر ، ومع ذلك فإن توقع حصولهم على محصول وغير في العالم التالي لا يحريهم مطلقا على البقاء ، بل أنهم يكتفون بما حصلوا ويصلون خيانتهم إلى مكان آخر .

ونحن نرى من هذه التفاصيل كيف أننا هنا في أوروبا نسوف نكون نجعلين تجاه العرب لو أننا نظرنا إليهم ككائنات معج ليس لديهم شفقة ولا رحمة ، لقد ترددنا عليهم كثيرا وكنا شهودا على مودتهم ولطيفتهم البسيطة ومضائلهم الرموية ، وإذا كان ثمة من بينهم قبائل تستحق لوم الأوربيين لشحن لا نستطيع أن نسم هذا اللوم دون أن نهكم على أنفسنا بالجهل وعدم الاتصاف ، لتعاقب الجوابي وكذا تعاقب مدد كبير من قبائل أخرى لا نستطيع أن نقلوبها بالحديث هنا ، ليست نكفل جدارة بأن نتفقا لنولجا يعلّو من تعاليد أية أمة متحضرة .

وتوجد على مشارف ولاية البحيرة بخلاف قبيلتي الهنادي والجوابي :
القبائل الأتية :

١ - قبيلة الأفراد ، ويسكن القول بلتها ليست سوى فرع من الهنادي وتكون من حوالي ٣٠٠ فارس .

٢ - قبيلة الجوبلي ، وتضم أكثر من ٤٠٠ فارس .

٣ - قبيلة بني عون ، وتبلغ قوتها ٣٥٠ رجل يركبون الخيل .

٤ - قبيلة أولاد علي ، وتبلغ قوتها ٣٠٠ رجل يركبون الخيل .

والقبائل الثلاث الأخيرة متحالفة فيما بينها ، وهي في حالة حرب مستمرة مع القبائل الأولى . وهذه القبائل المختلفة قد اتحدت على نحو

ما السلطة المطلقة على الولاية ، ونفروا بمسانعتهم وحيلتهم على بعض القرى عند مشارق أخرى من البدو في مقابل فتوة سنوية . وعندما ترفض واحدة من هذه القرى أن تصنع المبلغ المتفق عليه أو إذا لم تستطع ذلك فإن العميان المحعين يسمعون من نفوذهم ، ويقتطعون حتى يصل الفلاحون معهم بالسيوف إلى الحقول ، ولذلك تفتق منهم الأرض فجأة ، ويتزعمون كل ما يستطيعون ، ولا يردون ما سلبوه إلا إذا حصلوا على ضعف الفتوة التي سبق الاتفاق عليها . ويتم هذا الصلح بالاشتراك بين الطرفين . لكن الخرم يقع على الدوام على الفلاحين الذين لا يمكنهم أن يعرضوا أنفسهم لكل هذا الإضرار البشع دون فوائد توفية . لذا ما اتفق الفلاحون فيما بينهم ، فإن القبيلة الحلبية تقوم بمصارفهم حتى يدفعوا الفتوة مع الخمر التي يخلو للآخرى أن يرفضها . ولكن إذا ما حدث — صفة — أن حبلت القرية السلاح لتضع المحتدين بقوة غلويل للفلاح الذي يقتل بهوها أو حتى يحدث فيه جرعا ولو بسيطا ، والويل لأسرته ولزوجه ، فإلهم لا يعوضه إلا الدم ، ولسوف يقتل الجريح وأهله أو حلفاءه لأمه الآن أو في المستقبل . . . وعند موت أحد البدو يهود إلى ابنه أو إلى أقربائه الآخرين بسببه النار وهذا أرض مقدس ذلك أن تكون الدم عند البدو هو أهم الوثائق التي تطبق ملذهم . وقد حدث مرات كثيرة أن طلب ثلر واحد من الأهل أو الأجداد بعد أن كانت قد انقضت فترة كبرية من الزمن منذ موته . وعندما تستج لرسلة الانتقام فإن المخضر أو من يقصر بلسه لا ينوته أن يسك بها ، ولذلك لا يعرف تخفيبه حدود ، ومع ذلك فيمكن شراء الدم بجعل مالي ، لكن مثل هذا الاتفاق ينبغي أن يصدق عليه كل أفراد العائلة والا اعتبر كأن لم يكن . وبخصوص الجرح البسيط يمكن الاكتفاء ببليغ يتلوه قدره بحسب الجرح ، ويضع هذا المبلغ نقدا أو عينا ، أما بخصوص الموت فيفضل الانتقام ولسوف تجل أسرة المتوفى نفسها بالعار الشديد إذا هي قبلت في مقابل دم القاتل فدية بها كبرت ، فزكة بذلك روح قتلها هائلة (١) .

(١) يدخل Votney في بعض التفاصيل المتصلة بهذه المادة الهجرية ، لكننا نكتفي بأن نحول قراضا إلى مؤلفه :

وتقدم هنا أمثلة على تطبيق قانون الدم كيما تبين كيف أن الحرب تصاب
في هذه النقطة .

ذات يوم تغلب اثنان من الأعراب : أحدهما من الكتراد والآخر من
الهندي بالقرب من بيمتلواي ، وهي قرية تقع على بعد ١٢ فرسًا جنوب
شرق الإسكندرية . وكان الأعرابي يقود خمسة أو عشرة فهران تملكها هذه
القرية بمسألة الهندي :

— هل مسح أنكم في سلم مع الفرنسيين ؟

— مسح .

— اليس من الأحسن أن تتحالفوا معنا بدلًا من أن تتحالفوا معهم ؟

— ماذا تريد ؟ هكذا أراد الشيخ مريك .

فجاء الهندي :

— هؤلاء الفهران ، هل تقودها إلى معسكر الفرنسيين .

— لا ..

— لكني أملك من ذلك وسأخذها منك

— لا تقدر على ذلك ..

وهنا هوجم البدوي المتحالف معن ، وبعد معركة خفيفة ، خدش أثناءها
الهندي خدشًا بسيطًا في يده فصاح : « يا ربي : اتحالفني بدلًا من أن نقاتل
الفرنسيين ؟ » .

فأجابته الآخر بخواربها لحرزه من كسب :

— لا عليك إلا أن تتشد السلام . ايتحد .

— السلام : سلمتكم بارادتي ، ولكن (وانزل إلى يده) .. الدم !

— حسن ، لا عليك ، اطلب ما تريد .

— أعطني ثورًا من الفهران التي تقودها فينتهي الأمر .

واقعت المعركة بالفعل بهذه الطريقة . ومع ذلك دفعت القرية الأجر
المقدر لحارس ثورتهم هذا بالرغم من أن الثورين قد نقصت واحدا بسبب
الحيلة منه هو .

وعرف الملاحون معرفة ذلك الطبع الطغود الذي للبجوى ، حتى
انهم يحمسون أن يجرحوه لو أن يقطوه بهما كان حجم الضرر الذي وقع
بمنه عليهم .

ذات يوم لح أحد البدو بينا هو يمر على حصانه في سوق فينهور
بقرة أمجبتة ملأى على عنقه حبلا به مقدة بتمركة وجذبها إليه وسار بها ،
ويعد أن انطلق الملاحون من دهشتهم جروا خلف السارق ولذكروه في اللحظة
التي كان فيها على وشك أن يجتاز معه غايته ذرعة بلولة بالياه ، فلقوه ،
وبعد أن استمالوا منه يقرعهم لجعوا حصانه أليم عينيه ، ثم أرقوه هو
نفسه على بطنه وفربوه بالمصا ٢٥ غيرة ، وبعد ذلك أنهضوه وأطلقوا
سراحه . ووصلت في هذه اللحظة إلى المكان دالورية فرنسية قد أرسلت في
الر البجوى ، ودمش القند وسريته الصغيرة من أن الملاحين قد قتلوا
الحصان ولم يقطوا اللص وسلكوا سبب هذا الأمر المجهب ، وعلند أجنب
أكبر الفلاحين منا من طريق مترحم بأنهم قتلوا الحصان مقبا لبجوى ،
ويأنهم استبتوا البجوى حتى لا يعرضوا أنفسهم لحق لا يسكنهم الأزمات منه
وهو حق تحويض الألم .

وإذا قلقت الخرامة والضاد اللذان يدوان في طباع الدج العقود ،
يكتبان لتقديم فكرة سيئة عن أخلاقيات هؤلاء القوم ، فإن من الصعب أن
يكون حكمنا عليهم بالفضل من ذلك إذا ما نظرنا إلى أخلاقياتهم بمسجل
الصعات الصبيدة واللمطرة المسلية ، ولقد قدموا لنا أثناء مدة الحملة
أكثر من دليل على ما يمكن للمرء أن ينتظره وأن يفتناه منهم لكننا تكلمنا هنا
بأن نروى الحكاية التقليدية لأنها تقدم لنا أثرا من أكثر ليوهم غريبة .

بعد عدة أيام من محمية ١٤ فلوريال (١) التي هزم فيها ٤٠٠ من الفرنسيين وردوا خضعة وعشرين ألفا من البدو والمغاربة والمسلمانيين المتبرعين ، جاعا الشيخ مريك شيخ الأفراد لزيارتها وسلكناه أين كل وقت الأحداث ، فاجلب ببساطة ٥ كت على بعد ١/٢ فرسخ من ميدان المعركة مع كل أبناء القبيلة على خيولنا ومسلحين — أه ٤ ومذا كلهم فاعلمين بسلحكم! — كنا سنبتك الاضطراب في صفوفكم بإعمال السيف نيكم واكمل هزيمكم لو دارت الدائرة عليكم ٥ . وقد ادهشنا هذه الاجلبة لكنا نملكنا أنفسنا وسلكناه : — ولكن ، لقسنا في سلم محكم ؟

— هذا صحيح ، لكن لا ينبغي ان يدهشكم سلوكنا بطريقة البدو دائما هي الانطفاش على الضعف ولكن نحن ؟ نحن الذين سادتناكم ا هذا صحيح ، لكن السداقة بيننا لا تستمر الا طالما انتم اقوياء . ولقد اتج لحدنا الشيخ مريك هذا ان يطبق بقلبه بعد علم قليل ، فقد كان البدو قسبل معركة هلوبوليس على استعداد للعمل لصالح المحبطين ، بل ان يقاتل عدة كانت قد انتحزت بالفعل الى صفوفهم ، ولكن ما ان تقهر الجيش العثماني حتى انقضى هؤلاء الحلفاء الفطرون عليه وتجهوا مؤنه وابعدوا عددا كبيرا من جنوده حتى كانوا ان يأسروا الصدر الاعظم نفسه (١) .

(١) الشهر الثامن من التقويم الرسمي لفرنسا ، ابتداء من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ ، وقسمت بمقتضاء السنة الى ١٢ شهرا ، بواقع ٣٠ يوما للشهر . لها الأيام الخمسة الباقية من السنة فقد عرفت بالعلم الشعب وجعلت كلها أمهادا ، ويعرف اليوم السادس — في السنوات الكبيسة — بيوم الثورة ، وقد قسمت الشهور الى ثلاث عشرينات ، ويجعل اليوم العاشر من كل منها يوم عطلة . والاشهر الاتي عشر هي : فنفيبير ، برومير ، فرمير ، نيمور ، بليوز ، فنسوز ، جرمينال ، فلوريال ، بريال ، مسينور ، ترمينور ، فريكتيدور . (المترجم)

(١) ونحكى كذلك الحكاية التالية وهي ان كانت لا تضيف شيئا الى ما فكرنا الا ان لها جعبا مكاميا لحد ما . في لثناء معركة دارت بين البدو الحاصين لجنهور مع بدو آخرين حياة لقرية سرتباي ، ذهب الاولون للاستيلاء على مائسة القرية الاخيرة ، ورد الآخرون على الشر بالشر فقتلهموا بدمهور ، وبرغم قصر مدة المعركة فقاما قد تركتا البلدتين بلا مائية على الإطلاق .

وعندما دبح العدو . والملاحون المتحلقون معهم ، الحامية الفرنسية في
المصورة وكانت تدرس ١٢٠ رجلاً ؛ أتاح الحظ لجنديين من الفاسمين
للواء الثالث أن يندحوا بحيلهما . واسطجبهما اليهو اسيرين ، وكان هذان
اليكسان بالاضلمة الى ثالث امكنه الهرب هم كل من يقرب من افراد الحامية
على قيد الحياة بعد الكثرة التي حلت . ويرغم كل شيء ونحن مدنيون لهما
بالطوبى التي ستقديها هما — رغم القصر البكدي فيها — حول يخطف
مادامات هؤلاء العدو .

كان معسكر القنبلة يقع على بعد ثلاثة فراسخ من التصورة . وقد
اشاع الاسيران في البداية اكبر قدر من الدهشة بين سيدات واطفال
هذي القرى حيث توقف الذين كانوا يقتلونهما ليحصلوا لهما على بعض
الطعام . وعندما وصل الاسيران الى خيمة المربان ، ايلفا بان ليس ثمة
ما ينبغي ان يخشاه على حيلهما . ويرغم ذلك عن قدام هؤلاء الهيج بفتح
اسير فرنسي آخر وفي برود تام ليلهما لم يوح لهما بكثير من المتعة في مثل
هذه الوعود . لم يفرغ على الاسيرين القيام باى عمل . بل لقد قضيت
لهما بعض طليقتهما .

وقد لاحظ الاسيران ان طعام القنبلة شديد البساطة ، فكيف من العسل
وبعض البقلاوة تقدم في طبق يشبه القلاة ، او بعض الصب الجروش المخل
وعليه شيء من الزبد بكفي وجة لرحل ، ولغلا من ذلك فهذه الاسنكف
تقدم بكيفية قليلة للغاية ، وقد تبين للاسيرين ان اهم انفساس القنبلة ، برغم
بكتته وثروته وهو يرتدى قميصا من الحرير ويتمد على حشوية ويغير
باستمرار من ملبسه — لم تكن تقدم له اية طقوس تدل على الاحترام
كما انه ياكل مع الجميع دون تمييز . وكان هذا الرجل يتناول القهوة مع عدد
صغير من لبناء القنبلة ، كما شاهد الاسيران عددا كبيرا من العربان يدخنون
البارجينة . وكثفت ملابس هؤلاء لا تختلف في شيء عن ملابس البهو الآخرين
الذين سبق ان تحدثنا عنهم .

وفي انتهاء الفترة التي اتتوها الاسيران في معسكر هؤلاء العربان ، لاحظنا
ان هؤلاء يخبرون من امكانهم باستمرار ولكن دون ان يتسبحوا كثيرا عن
المكل الذي تركوه ، وكثفوا يمدون بتظلم هذا الحصول على الراعى
اللازمة لطعامهم الكثيرة .

كانت القبيلة في مجموعها تمتلك حوالي المائة من الضيول ومثلها من الجمال واعداداً هائلة من المصم والماعز والمخسية كبيرة الحجم . تلك كانت كل ثروتها ، وكانت نفس الخيمة حسب لتوال الأسيرين تضم الأسرة بأكملها بلا تمييز بين سن أو جنس ، فكان الأب والأم والأطفال يقضون النهار والليل معا دون أن يكون ثمة فاصل بين هذا أو ذاك من أفراد الأسرة ، ولم يكن النساء متحجبات وكان يلبسن في أذانهم اقراطا من المعدن وأساور ، وكان الأزواج يحملونهم برقة ، وعفصا كان يلحقن الممرسان مائدين من تيجالهم ، كانت كل واحدة من أولئك الثلاث يشارك أزواجهن في هذا التجوال ، تهرع للقتل : وتدعى له اكبر امارات الإبتهاج والفرحة اذا كان يصل معه أسلأ ، اما اذا كلى قد عاد خالي الوفاض عنها فقاء في صمت . وكانت الأسلاب توزع بين أولئك الذين شاركوا في القارة .

وكانت النساء والرجال — وبخاصة الرجال — يؤدون صلوات مديدة ، ودين القبيلة هو نفس دين محمد ولكن مع شيء من الخلط برغم أنه لم يكن بمقدور الأسيرين أن يلاحظوا ذلك .

ويبدو أن النساء أكبر عددا من الرجال وهن يشتغلن في عمل تماش الخيام . والأطفال كثيرو العدد وترغمهم أمهاتهم حتى سن السنتين أو ثلاث سنوات ، ويظلون امرأة تاليا حتى سن السادسة أو الثامنة ، وفي هذه السن ترتدى البنات قطعة من القماش — أو تبيضا — حول خصرها . والرقص هو اللعبة المفضلة عند هؤلاء الأطفال ، وهو عبارة عن التكر بشكل دائري مع تحريك الخصرين وكل منتصف الجسم بطريقة خفيفة ، وهم يرقصون معا ينثبا يقومون في نفس الوقت بالقضاء .

وهؤلاء العربان ، وبخاصة نسلاؤهم ، كثيرو الكلام ، وتطور بين النساء مثلجات عديدة تنهى على الدوام بالمصالح بينهن بعد حلقة وسيلحت كثيرة . واحترام المسيح هو أحد الفضائل الأساسية لهذه القبيلة ويشعر الأولاد نحو والديهم بتقديس كبير ، وأمراض العيون هي على وجه التقريب المرض الوحيد الذي يصيب هؤلاء العربان ، فلم تر من بينهم لا مقعدا ولا كسحا ، والأنوية التي يستعملونها بالغة البساطة . وهم يجبرون الأطراف المكسورة بربطها بثمرة وخشنة . وهم يعمرون حتى يبلغوا سن

المنحوخة الطاعة وبغوا ما يفتنون من الأراضى التى تهاجمنا مع تقدم
المن .

ولما لم يشعر بالأسف لأن الأسيرين لم يستطعا ملاحظة الاحتلالات
الجنائزية للقبيلة وكذا بعض المعدات الأخرى المثيرة للفضول ، عذا كل
ما أمكنهما أن يخبرانا به . ونضيف إليه هنا بعض الأمور التى تتصل بالمرس
بوجه عام حتى نفرغ مما يسمى أن نقوله بشأن هذه الشعوب .

نقد لوحظ أن عربان الصحراء العربية وبخاصة في ضواحي الاسكندرية
كانوا أحسن تسليحا وأكثر شراسة من عربان الصحراء الشرقية ، ويعود
هذا الاختلاف بشكل اكيد الى السهولة التى يجدها عربان العرب في التزود
بالأسلحة والدخائر من الاسكندرية . كما أن فرصتهم في التزود بالسلاح
أكبر حيث أن الأنواء التى يحصلونها من الحجاج الذين ينزلون من البحر
الى الاسكندرية تبيع بحير من تلك الأنواء التى يحصلها العربان الآخرون ،
ذلك لأنهم هم أول من ينبى أن يخضع لهم . فضلا عن ذلك فإن ما يؤدي
الى حطهم أكثر انزعاجا عن غيرهم من العربان هو أن ولاية البحيرة لا تجلب
انتباه الحكومة بشكل كاف . إذ أنها تكتل خصوبة وبالقوى التل انتاجها من
بلاى الولايات .

ويقسم العربان فيما بينهم من حيث طريقة السكنى - الى عربان
يتيمون في خيام وعربان يتيمون في منازل - وقد يبدو هذا القول من قبيل
تعميل الحاصل ، لكننا هنا نلفت النظر الى أنه ثمة من بين البدو - حتى
هؤلاء الذين يتميرون بالشراسة وحب الحرب - مراعون طبيون
بؤساء يتيمون في قرى فقيرة ويذرعون على التفوق بعض مساهمت من
الأرض القليلة للزراعة ، وتسكن بقية القبيلة تحت الخيام حيث تشعب
هذه الطريقة بشكل أفضل تقاليدهم العسكرية وحيث أنها كذلك تسهل
غاراتهم وتسمح لهم بأن يفسروا مكانهم بحرية حتى يعثروا على الأراضى
الضرورية لأطعمتهم قطعهم .

ويشكل العربان الرأبطين طبقة أخرى من العربان الطلقاء ، وهم
يمشون على زراعة بعض الأراضى المهجورة وعلى تجارة الماشية . وهم في
لوقت الحصاد ، يساهمون الفلاحين في أعمالهم في مقابل أجر ، كما أنهم

يعلمون أيضا بنقل البضائع ويؤجرون جمالهم للفلحين ومنعبدى المراكب ،
ويجلبون الى المدن منتجات كثيرة من داخل البلاد . ويسمى هؤلاء بالعربين
المسلمين وهم بالتأكيد يستحقون هذه التسمية اذ ليس ثمة ما هو أبسط
ولا أكثر براءة ونظرة من طريقتهم في الحياة .

ويستوطن مناطق من ولايتي الشرقية وقلوب أهداد كبيرة من قبائل
البدو ، ويسكن هذه القبائل رحل ويعيشها يمكن القول بأنه متوطن .
ولا تحفظ عليهم في شيء من تقاليد الآخرين لذا فإن تدخلهم بشئهم في
تفاصيلهم نادر من قبيل الحشو . وقد قمنا في الفصل الأول أسماء القبائل
وبقدر القوة الحربية لكل منها .

٩

العمليات الصليبية

يمكن أن نسمى أكثر من مائة حيل بالقاهرة ، يواظب السكان على
الذهاب إليها وبخاصة في الشتاء حتى يتفروا مع أحكام شريعتهم ،
اذ يسمح الصنف للطبقة العليا منهم بالتطهر والافتساح في النهر حيث تكون
مياهه شبه ممتلئة ، أما الشتاء فيبرده معه يحرمهم من هذه الوسيلة
الاقتصادية ، وهنا يتوجه الى العمليات حوالي مرة كل اسبوع اولئك
القادرين منهم لمحصلوا بمصروف زهيدة على مائة يملح اليها الفقراء
والافتساح بها .

أما رجال الطبقة المتدنية ، أو بالأحرى اولئك الذين يحوزون ثروة
كبيرة — حيث ان السلطة في مصر أكثر منها في البلدان الأخرى ترتبط
بدرجة الثراء — فانهم يمتلكون في بيوتهم حيل خاصة . ويرغم ذلك
فإن هذا لا يمنعهم من أن يلتفتوا بين العين والحين في العمليات الصليبية
ليروحوها من أنفسهم فيما بينهم ، كما يذهب الى العمليات الصليبية كثير
رجال السلطة ، ولتفلس للفرس ، وفي هذه الحالة ، يخطر بغير الحيل
لهلك من استئصال أي والد ، ويقوم باستخدام فرقة موسيقية وأعداد وجبة
شجية ، ويظل هؤلاء هناك يروحون عن أنفسهم حتى حلول المساء ، ويحصل
بغير الحيل دوما على ما يكتفيه لحد الرضا من كرم هؤلاء السادة القهار

اد يملعون له عند خروجهم الى مقابل كل بارة يحصل عليها من ابناء الجليقات
التي تطلع من الذهب .

ويذهب الى هناك ايضا ، المليك الذين لم يصلوا بعد لرتبة الحكم ،
ويتوجه الى هناك الحزنة دار ، وتقدم لهم في بعض الاحيان وجبة حائلة
ويروجون كفاك عن انفسهم .

ويوجد بكل هياك مخطس ملء بمياه شديدة السخونة وبعد ان ينهي
المرء من استحمامه يغطس فيه للحلثات ، وطريقة الاستحمام التي تتبع
هناك تختلف عن طريقنا نحن في ذلك . فبعد ان يدخل المرء ، يستقبله
الخدم في الحجره الاولى حيث يودع ملابسه ، ويحقد حول جسمه فوطه
بسيطة ثم يناد الى بحر يحسن وهو سائر فيه يوجه الحرارة يشتد شيئا
فشيئا لتصبح قوية منذ اقترابه من الحجره النقية ، وهناك يجد نفسه وسط
سحابة من بخار ساخن معطر يخترق بمسام كل جسمه ويرتد على قطعة
من تاشي صوفى ، فيقول منه على الفور خادم يلبس في يده ثيابا ، لو
يسك بفوطه من صوف ناعم ، وعندما يتأكد ان البخر قد اخرج كل
المسام بشكل كاف واحد بالاطراف نوحا من النوبة ، يبدأ بان يطلق
كل مفصل الواصل ، وتكاد هذه العملية لا تسبب سوى ألم خفيف تمرغه
تلك النوبة التي تحنثها بعد ذلك في حركة الجسم ، ويستطيع الاوربيون
الذين لم يتقاعوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها - ان يرفضوها بطلاق
حريتهم .

وبعد ذلك يترك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التي بيده .
ويكون التعذيب ثوبا لحد يظن منه المرء ان جلده سينفصل من جسمه ،
ويتوالى مستوط خيوط سوداء اذا يغطس الجسم من كل اللواصط التي
كتت ملقة به ، بل ان المسام نفسها تتخلص من اكل شيء يمكن ان
يسدها ، وفي اثناء هذه العملية يكون النزول الصبور غارقا في مرعه ، ثم
يتقدم بعد ذلك الى حجره مجاورة ليبقى وحده ويتخلص بمياه تلى من عيني
مياه ، لاحدها سائفة ومياه الاخرى ملوثة ، ثم يرتدى قميصا ليمود في
التهيئة الى الحجره الاولى حيث يقدم له الخادم وهو جالس على اريكته
النارجيلة وفنجانا من القهوة ، وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد
معطرت بخشب الصبر وترش رائحة وكل جسمه يرغوى مسجون

بمطر ، أما النساء فيستخدمن في نهاية حبلهن حجة تنزع كل القصر
الزائد من جسمهن (١) .

ويقوم مدير الحمام بتمطير الحجرات واعداد ماء الورد ، ويحصل
عادة مقابل كل هذه الخدمات على ما يكفيه إذا كان رواحه من الأثرباء ، وإذا
ما يكون مكان الاستحمام واحدا بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبنى الى
قسمين لكل منهما بمفصل مستقل ، وفي هذه الحالة الأولى يحصل لكل من
الجنسين موعد خاص . وتذهب النساء عادة الى الحمام في وقت مقرر ،
وما ان يدخلن حتى تطلق قطعة قماش مطرزة او سجادة لثينة الجصور الى
حضورهن ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لأي رجل ان يدخل ، ويستبدل بكفة
الخشم الذكور على الفور ويتون استثناء خفيفة ، وإذا دخل رجل برعونة
الى حمام وقت وجود النساء فسيولد تحدث شجة شديدة ولا يمكن له الا ان
يذهب حين رمونه .

ومن جهة أخرى ، على الرغم من ان عادات الشرق وتلك القسوة
التي يبدوها المشرع ضد النساء ، تنهض على الشك وعدم الثقة في المرأة ،
فان هذه القسوة تخف حداثتها شيئا ما من طريق الحرية التي منحت للنساء
في التمتع بالمحبات ، لهذا الذبح هو على نحو ما عهد تستقدم فيه
النساء كل زينتتين وثلاثتين ، حيث لا ابل لهن في جذب انتباه الرجال وسماح
المحبات التي تطري جملهن — فلك الأبل الجميل لجنسهن كله — ما فتن
لا يظهرن في محل عام فون أن يكون رأسهن ووجههن بل وجزء من نصلهن
الأملي مغطى بالطرحة ، ومع ذلك فهذه البهجة التي تحملن على التباهي
والفتاخر بغلبة ملابسهن وروعة زينتهن هي واحدة من الانتصارات التي
ترخص ضرور كبريائتهن ، لما أن يخلن الحمام حتى يسارعن باستقاط تلك
الانتعة المزعجة ليستعرضن تحت نظر رغبائهن بريق حلين ، وغاية كل
منهن بل ومطمعها أن تصف بجانب جمالها جمال الأخريات ، بعدد قطع
النقد الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبروعة المسبب والظي التي
لنزين بها ويلامستين الخلفية التي ترتديها . ومع ذلك فهذا الاتباع البسيط

(١) ينتمي على المرأة المسلمة الاستحمام سوى شعر الحاجبين والوشاح،
وهي عادة شبه دينية تجب عليها طهرن الفطرس من بقية شعر الجسم .

للكرامة والكبرياء الأثوى تحرزه لية واحدة منهن يحدد طمح النفوذ الذهبية
الدلاة من حملات شعرها وبذلك الرومة التي تكفى لكى تقتل من الخيط
اثنين لو ثلاثا من منفساتها ، فإلمن من سوف تنهى بتفوقها ذلك (١) ؟

ولا تختلف الخدمة التي تحصل عليها المرأة ولا طريقة استعمالها عما
تلناه بضموص للرجال فيما عدا أن قطعة الصوف التي يملك بها الجسم
تكون أكثر نعومة لحد طيب وفيما اتين يستهلك قدرًا كبيرًا من الصابون .
وتسرف سيدات الطبقة الراقية في استهلاك الصلطور وماء الورد ، وهو
نرف لا تقدر عليه الأخريات حتى أيام المرسى والأفراح (٢) .

(١) لا يسمح للرجال كما سبق القول بدخول الحمامات التي بها نساء ،
والرجال الوحيدون الذين يتمتعون بهذه الميزة هم الموسيقيون ويختارون من
بين الميهان المستن ، ويمكن القول أنهم يملكون المرأة تلك الفرصة الفريدة
للاستماع الى اصوات الأفكور .

(٢) يمكن أن يكلف أبحار الحمام بنون ثلاث بن أى نوع يتمهده في اليوم
الواحد من ٦٠ الى ١٨٠ بارة حسب موقع وجيل ونفخلة المني ، ويلزم
١٠٠ خرقة لأكثر الحمامات تواضعا ، ولتلكيت حمام بشكل لائق أى ليكون
في مستوى معظم حمامات المدينة فلن ٢٠٠ — ٣٠٠ خرقة تعتبر مبلغا كافيا ،
ويبلغ مصاريب الحمام المزدج جيدا من ٨٠٠ — ١٠٠٠ خرقة ، وتتكلف صيانة
الأثاث في اليوم الواحد ١٠ — ٤٠ مدينى ، وتتكلف اطعمم الحيوانات
المستخدمة ٢٠ مدينى (ويدخل لمن شراء هذه الحيوانات ضمن المبلغ المتدر
للتأثيث) ، وتجهيز الحمام ونفق أجور المبلين به يلزم مبلغ ١٢٠ — ١٨٠
مدينى يوميا يحصل منها الحارس وحده على ٣٠ بارة . ولا يحصل خفم
الحجرة الأولى على دخل ثابت ، فهم لا يتلقون أجرا الا ما يحصلونه من
هبات الرواد ، أما القائمون بالخدمة في الداخل فيحصلون على ٢/٣ أو
١/٢ أو ١/٣ ما يلمحه الرواد ، ويبلغ عدد حمام الواحد ١٢ — ١٣
خاندما .

وفي منشأة من هذا النوع يبلغ عدد الوائدين ٥٠ — ٦٠ شخصا في اليوم
الواحد وأحيانا يزيد العدد عن ذلك . ويدفع عن الحمام لكليل كحد أقصى
٢٠ — ٣٠ بارة ، ويحصل المبلية على حمامهم بسعر اقل ، فلا يدفعون
أكثر من ٨ — ١٠ أو ١٥ بارة على الأكثر . وما يحوش المتعهد من ذلك
رباربات الكبار وهم يدفعون بمسءاء كما سبق القول . ويمكن أن نسب
ما قلناه على كل الحمامات في مصر إذ هي لا تختلف الا من حيث درجة محبة
المنى ، لكن طقوس الحمام وتكاليفه تكاد تكون هي هي .

المقهى

تضم مدينة القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق ، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى أما بولاق فيبلغ عددها بمقاهيها المسقة . ولهمت لهذه المبنى اية علاقة بالمبنى الذى تحمل نفس الاسم فى فرنسا الا من حيث استهلاك البن على الرغم من ان هذا المشروب يعد ويشرب بطريقة مختلفة ، فليس فى هذه المباني ثلاث على الاطلاق وليس ثمة مرابا او ديكورات ملطبة او خارجية ، فقط ثمة منصات (دكة) خشبية تشكل نوما من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض المحصر من سقف النخول ، او ايسطة خشبة الدوق فى المقاهى الاكثر فخمة بالاضافة الى بنك خشبي عاى بالغ البساطة . تلك فقط هى النكات المتى المسرية ، وهناك يسطجع المترددون على المحصر الذى تغطى تلك المنصات الخشبية وتقدم القهوة مغلية فى فناجين يبلغ حجمها ثلث حجم ما نستخدمه نحن من فناجين ، ولا تشرب القهوة الا ملاطبة فكمهم يرشفونها ، وتلك مادة شائعة فى الشرق لتطلب نوما من العودة ، وتوضع الفناجين فى صحنون صغيرة من النحاس ، تشبه الآنية المصنوعة من الخزف والى تعرفها باسم ظرف الأبيض ويسمىها العرب باسم : ظرف ، أما الفناجين فهى أحيانا من البورسلين وتستورد من ألمانيا ، او هى فى الغالب من الخزف وتزينها عدة نقوش وهى تستورد كذلك من ألمانيا ، ويكاد يكون استخدام السكر فى صنع القهوة غير معروف . وعندما وصل الفرنسيون الى مصر ظل الأهليون لفترة طويلة يسخرون من عاقبتهم وضع السكر فى البن . وفى نفس الوقت ، يحتفظ مدير كل مقهى بعدد كبير من النارجيلات ميسمها من العظم أو من الرخام او الالبستر (الرخام الضعيف) مدلا من ان يكون من الكهرمان الأصفر ويعددها للزمن الذى يطلبونها ، ويسقى على كل مرتاد ان يجلس معه تبعة ، بل ان المحتادين على التدخين نافرا ما يسرون دون نارجيلاتهم .

وتخضع مقاهى القاهرة للإشراف المباشر لرئيس يشترى لنفسه حق التزامها وتدفع له كل مقهى رسما صغيرا فى بداية السنة التركية «الهجرية» (اول المحرم) ويبلغ هذا الرسم ١٠ - ٤٠ مدينى وتعفى من دفعه المقاهى

الفترة . ويستطيع كل من يريد أن يبنى معه أن يفعل ذلك بطلاق حريته لكنه لا يستطيع مباشرة العمل فيها قبل الحصول على تفويض من المشرف على الحرفة ، إذ هو على نحو ما ملكف عادة بالإدارة الداخلية والاشتراك على هذه المنشآت ، كما أنه ملزم بتقديم مرتكبي المخالفات من أبناء هذه الحرفة إلى العدالة ، وتوكل مهمة الاشتراك هذه عادة إلى أبا الإتكشارية (الكفيا المتولى) الذى يدفع حق هذا الالتزام إلى السلطة .

ويتردد على المقهى القضم ما بين مائتين إلى مئتين وخمسين فردا في اليوم الواحد ، ويتناول الفرد عادة ٢ - ٣ فناجين من القهوة في مقابل ١١/٢ بارة للفنان ، وثمة أتاس - فتراه مع ذلك - يبلغ استهلاكهم في اليوم الواحد ٢٠ فناجنا ، لكن الاستهلاك المعتد يبلغ من ٦ - ٧ فناجين ، ويكسب مدير المقهى كثيرا إذا كان ريقته من الأثرياء .

وثمة كثير من المقاهى يباع فيها الأفيون وهو نوع من المعجون المخلوط بالأمشاب ، وتتخذ الطبقة الدنيا من الشعب من هذه المقتلعة وسيلة للسكر والانشاء ، ويعتاد عليه لذا عند الحرثيين وكذا الأمر بالنسبة للفنانات الأخرى من السكان ، كما أنهم يسكرون داخل بيوتهم بالرغم من أن الدين يحرم ذلك ، ويمتثل البوليس ويملاب السكراري الذين يكون هذيتهم بالغ الصغب . وربما عدا ذلك لا يضلعتهم احد ويكونون بمثابة تسليية بهيجة للنفس بسبب هذيتهم وهركتهم المجنونة (١) .

ويوجد في كل مقهى عدد من الرواة والمنشجين يحكون لويغنون حكاية

(١) لا يشبه السكر الفناج من الأفيون ذلك السكر الذى تحبته الخصور ، فعندما تغدو حواس رجل ما بفعل الأفيون فانه يبدو في حالة شديدة من النبهة ويفضح بصوت عال ويكون هذيتة عادة مرها ، وفي بعض الأحيان يفرق في أحلامه السعيدة وفي أحبال أخرى يشرك معه النفس في أحلامه وسعادته . وقد يتخيل نفسه سلطانا أو شيخ بلد ، كما قد يظن نفسه أحيانا مجتاعا صهوة حصان ويطلب من الآخرين أن يعلنوه في وضع قدمه على الأرض .

وأذا ما مررته أحد فانه لا يتحذب مطلقا وإنما يصبح جبنا يقرعه أثل صوت . وزراء ينتقل من أشد حالات الإبتهاج والمرح إلى أشد حالات اليأس والحزن ليكني ويعمل ويستقط في غيبوبة .

صحيفة أو وحمية عن شخصية خارقة ورد اسمها في التصوص الدينية أو التاريخ الاسلامي ،ويكون الالفاء عادة حيا ملونا بالقوة والحيوية ، كما ان الافنيك تظلمه يحق السر ووجهه ، وتكون نغمة الحكي مرتفعة لما نغمة الحوار متوسطه ، وينتفج الراوى في معظم الأحيان ليسأل مستمعيه ما ان كانوا يشكون في صحة حكاية لو ما ان كانت الحكاية (في مجملها) جميلة أو خيرة ، ويزيد منقذو المقامى هؤلاء حكاياتهم حيوية عن طريق حركات بالغة التعبير ، ويصحبونها أو يقونها بموسيقى غريبة تصدر عن آلة موسيقية وغريبة . وهى مصنوعة من الجلد ويحك العازف بتروسه الضمرات المشدودة بالآلة والتي تستخدم كلوتر فتصدر نغمات خفيفة مساء ، ويطلع مدير المقامى ويحكي الأحيان لهؤلاء المنشدون ، لكنهم في العادة لا يحصلون من اجر الا ما يدفعه الجمهور عن طيب خاطر . وتلويح الاستغفارية وجنكز خان هو الموضوع الذى يستوحى منه هؤلاء المنشدون الحرب مادة اغنياتهم ويوصلون الى ذلك الوف الحكايات الرائعة بالاضافة الى قصص المعارك البطولية التى يخترعونها من لحدث بلادهم .

ويستخدم المالك من الطبقة الحاكمة والمعهود لهم بالشجاعة هؤلاء المنشدون الى منازلهم ويكفونهم بسفاه .

وفي المقامى الغضة تسبح احيانا الحان من تلك الاعلن الشائعة في بحر ، يؤديها بعض الفنانين الذين يحصلون على اهورهم من اصحاب المقامى ومن يتطوع من الزبائن . وفى هذه الحالة يستبح المرواد في صمت ، بحيث لا تسبح صحيفة ولا ضجة ، ويبدو الفنان وهو يؤدى اغنية خارقة في حلم عيبى وهذا واحد من الملاح الميزة للطبع الشرقى . وفى بعض الأحيان يتنافس شخصان أو مدد اكبر على نور شطرنج ويخيل اليك وانت تشاهدهم منبجحين في اللعب أنهم بكم قد حرموا من نعمة الكلام ، ويتطلع المتفرجون دون ان ينبسوا بكلمة أو يهيموا بفكرة ، ويمضى الامر في شكل تبايل صابت (باتتوميم) الا اذا جاء الى المقامى مضورا أو غلقد وعيه ليحكر صلو هذا الهدوء ، وليدخل على اللاميين ومشاهديهم البهجة بأفانين مديانه (١) .

(١) قدمنا في فترة سابقة فكرة تقريبية عن المصاريف اللازمة لإدارة وتأثيث حبلهم علم ، ونفعل الآن نفس الشيء بالنسبة للمقامى علميا بلقنا قلنا

الرياضة والألعاب

تتلق الصلح الشرقيين مع حدة طباعهم ، وتستطيع أن تعرف منها على ذوق شعب مولع بالتفكير بحجبه أن يتأمل حتى وهو يلعب شروب اللهب التي يهواها : فالطولة والنبابة والشطرنج هي الألعاب التي يفضلها المصريون وهي كذلك الألعاب التي ينتمس فيها أبناء الطبقات الراقية على وجه الخصوص ، والتي يفضلها الشعب بصفة عامة على بقية الألعاب ، ويتمتع الشطرنج بشكل خاص بتفضيل الجميع . والناس هناك شديديو الولع بهذه اللعبة ، وليس من النادر أن ترى لاعبين متنافسين يتضيان في الدور الواحد أياها بأكملها . ورقة الشطرنج شقتها شئ القس شديدة البساطة ، ولا يعود ذلك إلى أن المسلمين ينشرون من الصور والرسوم فحسب ، بل لأن صناعمهم في نفس الوقت ليسوا شديدي المهارة كما أنهم لا يحصلون في مقابلها على أجر يتناسب مع ما يبذلونه في صنعها من جهد إذا ما عونا بتجويد مثلهم (١) . ورقة الشطرنج والصلابة المتنوعة من الخشب الذين لا يستخدمها إلا الأثرياء وكبار القوم ، أما أبناء الطبقة

كلمة موجزة عنها في الفصل الأول . يبلغ شئ اثلاث أجبل مقيم بالقاهرة مندبا لا يكون قد سبق استصاليه . خردة بينما لا يتجاوز لمن ذلك المقيم المتواضعة ١ - ١٢ خردة = ٧ - ٨ حصيرة ، ٥ ختكة قهوة ، ٥ غنجانا من الخرف ، مدد من الفناجين الصغيرة والظروف النحاسية التي يوضع فوقها الفناجان ، تلك هي كل الأتية التي يبغى شرائها ، ويلزم زيادة على ذلك ٢٥ - ٣٠ مارة يوميا شئنا للخشب ، ورطل من الدن يبلغ ثمنه ٢٠ مارة وبنقة خاتين وبدير المقي . وهذا كله شئ بالغ المسألة ، لذا فإن حالة القهوجي ثلثة جدا في مصر ، وقد رأينا مقيم بكليل أثاثه توجر في اليوم الواحد بمبلغ ٦ - ٧ مارات . ويتعهد المستأجر بمسيلة الأثاث .

(١) ومع ذلك فقد رأينا في مصر رقع شطرنج بالمة الفخيلة وبمجموعة شكل جيد لحد لا يمكن أن تصنع مثيلاتها في أوروبا بسهولة . وهي مصنوعة من العاج وخشب الأكسبيا ، وكل ما فيها منقذ بشكل بديع ، ورسوماتها بالغة الجمال حتى ليندهش المرء كيف لا يلقى مثل هذا الثمن ما يستحقه من رعاية ، ولا يملك مثل هذه الرقع الجبيلة إلا الأثرياء وكبار القوم .

الشعبية يستخدمون قطعة تماثيل خيطت فوقها مريمات من تماثيل الجوع من ألوان مختلفة ، وتستخدم قطعة التماثيل هذه كرمية للعب ثم كملبة توضع فيها الدمى بعد انتهاء اللعب .

وثمة ألعاب مهكرة أخرى تتطلب شيئا من التبليل ، وتنتشر هناك لعبة المنقلة ، ويلعبها اثنان مع كل منهما لوحان حثرت فيهما ستة ثقوب ، ويضع اللاعبان في كل ثقب من هذه الثقوب ست قطع من الحجارة أو مظهرها من الزلط ، ثم هناك تلك اللعبة التي يطلق عليها العرب اسم طاب والتي تحدث عنها كثيرا العلامة Th. Hyde وهي بدورها منتشرة بين الشرقيين . وتلعب بواسطة خمس مختلفة الألوان عددها في سوريا ٢١ وفي مصر ١٩ أو ١٧ لكن عددها على الدوام فردى ، وتوضع في الصف الخارجي عند بدء الدور . وقد شاهدها هذه اللعبة عند بعض المرونيين في القاهرة . كان ثمة رقعة بها أربعة صفوف في كل صف ٢١ مريحا ، ويسلك كل لاعب بأربع من العصي الصغيرة والمسطحة : سوداء من جانب ويضاء من الجانب الآخر . وعندما تتم اللعبة في الهواء الطلق تلعب هذه العصي على سطح مخروسة في الأرض ، وعلى مسلة مرتفعة في قبة عندما يلعبها تاجران داخل متجرهما ، وعند بدء اللعب يختار أحدهما اللعب من اليمين ويختار الآخر اللعب من اليسار بهدف أن تتقابل الدمى . وعندما يحصل الأول على طاب أو ثلاثة أبيض وواحد أسود (١) يترك قطعة من قطعه الموجودة بالربع الأول من صفه إلى الربع الأول من الصف الثاني من جهته . فلما لم يحصل على طاب يحل الدور على الثاني وهكذا حتى يحصل أحدهما على طاب ، ولا يمكن تحريك أية قطعة من الصف الخارجي لأول مرة إلا بعد حصول صاحبه على طاب . وهذا بيان بالقوانين الأخرى : دق التين : أي اثنان أبيض واثنان أسود ، وفي هذه المرة تحرك القطعة التي سبق تحريكها في الطاب الأول لمرتين ، دق ثلاثة أي ثلاثة أسود وواحد أبيض وفي هذه المرة يسكن تحريك الدمية الثلاثة مريمات ، أربعة أسود وبمدها تتحرك الدمية أربعة مريمات ، ستة أو أربعة أبيض وتكسب ستة مريمات ، والألعاب الذي يحصل على

(١) يقول Th. Hyde ثلاثة أسود وواحد أبيض ، إذن فأحدنا تدغم الأمر على نحو خاطيء أو لعل قواعد اللعبة هي التي تتغير تبعها للبلدان التي تنتشر فيها .

طلب أربعة أو ستة يستمر في اللعب ويحرك دماه ، والملاعب الذي يتدرب دماه كلها في الصف الثاني بترتيبها في الصف الثالث ، وهكذا بالتبادل بين هذا وذلك حتى يتخلص أحدهما من دماه .

ويلعب الأتراك والعرب أيضا لعبة بالزوج والفردي . وقد شاهدنا في القاهرة بعض المسيحيين من أهل البلاد يثبنون على الأرض قطعة من القفص ويحاولون لمسها بكرة صمغية ، ولعبة قاعدة تنظم الحالات التي تتقبل فيها كرات اللامعين ، لكنا للأسف قد أهملنا تكوين القواعد التي تنظم هذه الألعاب ولعل الكثير من قرائنا سوف يعرفون لنا من طبيب جابر هذا التتبع من جانبنا .

ويركوب الحبل هو الرياضة المفضلة عند العمليتين وكبار الأتراك . وهم في هذه اللعبة ينمون بالدرجة الأولى مهارتهم الحرة ، إذ يجتمع كبار الشخصيات في القاهرة مرتين في الأسبوع في ميدان واسع يسمى المصطبة . ويصبحون معهم أعدادا كبيرة من المييد والخدم ، وكلهم يركبون الخيل مثل سلاتهم ويتدربون على الجريد ، فينتسبون إلى فريقين يحصل كل منهما على الآخر بالقص سرعة ، وكل واحد يحمل حصا من الجريد طولها أربعة أقدام ومتوسطة السمك ، ويقلب بها بنفسه ليقا ويقوة جديدة ، ولعبة ترمسان ينمون في تدريبهم هذا من القوة والحيوية جدا يمكن معه لتدريبهم تلك أن تكسر — فيها لو أصابت — عظم فريه ، والمهارة هنا هي أن يتفادى الفريه عصا فريه أو أن يتلقاها باليد ، وقد مررت واحدا من الكبار انكسرت ساقه في ضربه بهذه الطريقة . أما أولئك الذين يفضلون التدريب على إطلاق النار فيضمون أصيضا (برك) فوق كومة من الرمل ، ويسويون عليها بالبنادق وهم يجرون فوق خيولهم بالقص سرعة . وهم يستخدمون في هذا التدريب السهم بالرغم من أنه لا تقتصرهم البنادق ، ولا يلعبا الرماية تلك الوسيلة إلا لاحادة التصويب ، ذلك أن الهواء الذي يجذبهم بشدة عندما يجرون بالقص سرعتهم سوف يمنع ومسول للشرارة على الرماصة فلا تطلق ، بينما لا يوجد مثل هذا العيب عند التحريب بالسهم . ويسهل الملاحظة أيضا بجلب الأكواس ، وشاهد في الميادين عند صغيرة نصبت تكريما لأولئك الذين تظهروا في التدريب قدرة خارقة للمادة .

وعندما يبلغ ارتفاع النيل حداً معيناً يتنزّه الكبار في قواربهم الفضية ، ويمارسون الاحتفاد في بركة النيل والأريكة ، وهناك يطفون بنادق الرش ويصحبون معهم موسيقيين ليسروا عنهم أثناء نزهاتهم النيلية .

ويتدرب عامة الناس أيضاً ، وهم في هذا يطلون الكبار ، فيطعون على نطق ضيق ما يفعله هؤلاء على نطق واسع ، فقد شاهدنا على سهل المثال عدم الشخصيات الكبيرة في القاهرة يتدربون على تدف عصا طولها ٥ - ٦ أقدام في اتجاه أفقي ، وهم بهذا يهيئون أنفسهم لتدريب الجريد الذي سبق أن تحدثنا عنه ، وكثروا يمارسون تدريبهم وهم يحرون على أقدامهم حتى يكونوا أكثر مهارة عندما يحين وقت الرمي من فوق ظهر الحصان . ويتبارز أهالي المدن وكذا الفلاحون بمضى كبيرة مع مراعاة قواعد معينة ، وقد جرت المادة أن يقوم المتبارز في بداية اللعب بحركات معينة هي بالتأكيد نوع من اللعبة ، يحاول بعدها كل من المتبارزين أن يضرب غريمه في رأسه ، وهي العضو الوحيد في الجسم الذي ينهى استبداله . وتتجلى المهارة في تفادي الضربة ، وهذه الممارسة تشبه من لاعبي الصا المشهورين في نورمانديا وبريتاني . وفي مصر موصوفون بمصريين يمكنهم بضاً في يدهم اليمنى وحشية سميرة في يدهم اليسرى ، ويوجهون الضربات إلى الذراعين فقط ، ويسمى هذا التدريب « لعب الكب » . وقد شاهدنا كذلك في شوارع القاهرة مصارعين لا يرتدون من الملابس سوى سروال بالغ الضيق وكل جسمهم مدهون بالزيت ، ويملك هؤلاء المتصارعون ويحاولون أن يطرحوا بعضهم البعض أرضاً ، لكن حركاتهم تقتصر على القوة والحيوية والمهارة . وبعد دقائق طويلة يحدثون فيها بعض حركات نسيبها تجلوزا مجهودات ، يدع أحد المتصارعين نفسه ليستقر وتنتهي بذلك المصارعة . ولبثال هؤلاء المصارعين لا يمكن لهم أن يتجلسروا على مرض مهارتهم تلك في فارس ، حيث يبرع المصارعون هناك في مثل هذه التدريبات الجسدية ، لكنهم يلقون النظر ، في مصر ، ويرغم كل شيء ، فليس ثمة في بقية ولايت السلطان من هم أكثر من هؤلاء مهارة .

الأيام الدينية ، المجازىء الرئيسية للطبعة الإسلامية

ترتبط أيام المسلمين بمناسبات دينية : وفي مصر ، يحرص الناس .. على الاحتفال بعيد لا يتصل بالاحتفالات الدينية هو عيد فتح الخليج في القاهرة ، أو عيد وفاء النيل ، وهو عيد وطني ، يعود إلى أزمة ضارية في القديم . أما بقية الأعياد فتتوالى بالقرب القلى :

- شهر محرم : عودة المحمل من مكة .
- شرح (كذا) : عيد مولد النبي .
- الشهور التي تلى ذلك : احتفالات متوالية بمولد الأولياء .
- آخر أيام شعبان : ليلة أول رمضان ويعلن في هذا العيد بدأ الصوم لمدة شهر يمرى له نفس الاسم (رمضان) .
- آخر أيام رمضان : عيد كبير يستمر ثلاثة أيام .
- ٢٧ شوال : صفر المحمل .
- ١ ذو الحجة : العيد الكبير ويتفق مع وصول الحجاج إلى مكة .

ويصنف احتفال عيد الخليج البابا وكبار شخصيات الحكومة ، مثل شيخ البلد والقلى والنفردار أو مستشار الحكومة وكها للجويفية ، ورمزة الانتكارية والكشف وكل كبار الشخصيات ، وعند الصباح يصل البابا مع أهل بيته إلى مع شبطه ورجله ، ويميل البكوات مع مطيكم ، ويصحبهم جمهور كبير من الموسيقيين ويحطون جزأ من الميدان ، بينما تكون القوارب تغلى سطح الترمه ، وتتناق قوارب السيدات مغالبتها ويهوداجها التي تغلق عليهن بدافع الخيرة ، ويخلع البابا جبة على كل من الأنا ويقبة كبار الضباط ثم يعطى الإشارة ، وعندئذ يقوم ممل محدون لهذا الغرض برى تمثال أو عمود طينى في النيل وسط ضجيج الهتافات والآلات الموسيقية، ثم يتطلع المد ويتدفق مياه النيل على الفور في شوارع المدينة لتصبح أشبه (م ١٠ - وصف مصر)

بالبحيرات وتبل ان ينسحب البلبا يلقى في النهر بتفوضة من العمالات الذهبية والتفوضة يتصلق الى الفوز بها فوالصون مهرة ، وينفلى ما يتلقى من الفهل في افراح ومسررات تستمر حتى الليلة التالية . ولهذا الاستعجال والابتهاج العام ما يبرره ، حيث ان الفيضان هو ضمن الازدهار للجميع . فعندما يحل الفيضان يبدأ الناس يأكلون في محصول وغير بل يمكن القول بانهم قد بدأوا يطمون بما يمدهم به من ملقح (١) .

وفي ايام العيد يقوم المثلون المهرجون الذى يعرفون باسم البهلواتات بالابتاع الجماهير بحركاتهم ودعبلاتهم . ويمكن القول بأن ضروب اللهو لهذا الشعب تتجلى في العروض الهزلية بل والمرتجة الى حد ما والتي يعرضها في الشوارع مهرجون متجولون كما انها تتجلى في المقلب التى يعرضها بعض الحواة المهرة الى حد ما في منهم . وقد شاهدنا في شوارع القاهرة عدة مرات رجالا يلعبون العرائس . ويلقى هذا العرض الصغير اثبالا كبيرا ، والمسرح الذى يستخدم لذلك العرض بالغ البساطة ويبلغ الصغر . ويستطيع شخص واحد بمفرده ان يعمله بسهولة . ويقت المثل في المربع الخشبي الذى يده بطريقة تمكنه من رؤية خشبة العرض والمفرجون من خلال فتحات صنعت لهذا الغرض دون ان يراه احد ، ويمر دماء من طريق فتحات اخرى ليحطها تؤدي الحركات التى يريدونها من طريق خيوط يجرها على هواه ، وحيث انه ليس من المنسب ان تصدر هذه النمس أصواتا تماثل قوة صوته هو ، لانه يجعل صوته الطبيعي حادا ، ويقم ذلك بواسطة اداة صغيرة يضعها في فمه ويجعله بالغ الرقة ومسحوبا بفمهم التاي وقت الحسوار الذى يديره على السنة هذه النمس الصغيرة ، ويمسح الأمر على ما يرام اذا لم تكن التمثيلية محيية ، وتبدأ النمس عادة بتهنئة بعضها البعض ثم يتسلحجان بعد ذلك وتنتهى تلك التمثيلية الهزلية عادة بالشجار ولى الواقع فان معددا كبيرا من المشاهدين يهوى هذا النوع من ضروب الترفيه ، ويضطر البهلوان لأن يجاريهم في ذلك .

(١) تسمى النمس التى تلقى في النهر هروسة اى الزوجة الجديدة . ويعتقد ان هذه العادة تعود الى حقيقة قديم المصريين الذين كانوا يخصصون فيها يقال عذراء شابة ليلقوا بها في النهر ، حسبما يقول كثير من مؤرخى مصر القديمة .

وتد رأينا واحدا من الحواة يجوب شوارع القاهرة وسعه مستبور
بمطلع اى تسيل المياه منه ثم تقطع فجأة لتسيل لبعض لحظات . ويطلب
العاوى من مستبوره ... حسب حالته الميكانيكية التى يعرفها جيدا ... ان
يتدفق بالمياه او ان يتوقف ، لكن الناس تطلى عليهم الفضة ويستمعون لتلك
المهارة الزمومة ويكفلونه بامطلقه قطع النقصود ، ويلقى آخر بحفنة من
التراب فى الماء ملء بالماء ثم يسترد التراب جافا من الاتاء .

وبمسك ثالث بكس له تاعان يخلعها فطاهان ، وبعد ان يتحدث
الى جمهوره طويلا وبعد كثير من المدايعات والتبريج ينفخ فى قوقعة كبيرة ،
ثم يرفع قطاه ثحد القاهين ليظهر بوشة ، ثم يرسل مدايعاته وهزلاته ثم
يكثف من القاع الاخر للكس ليظهر ككوتان يظنها الجمهور بدلا من
البهضة التى راوها فى البداية ، ويلقى مشمود رابع بقطر مخلق فى وجه طفل
يفتح القفل وبمسك بخد الطفل من الداخل والخارج . وهؤلاء المشمولون
يرهبون من المسكب ويدفع لهم جمهورهم مبالغ شديدة التواضع ، وهم
لا يطلبون من جمهورهم الفصح مقفيا ، وغنما تلتهم اللعبة يدفع من يشاء
على قدر ما يشاء .

وفى شهر رمضان ، وهو فى وقت مما وقت سفر المحبل ووقت منهل
الانراك (السليح) يبرى أهلى القاهرة كثيرا من تنسهم وبخاصة فى
الليل . وينلم الاغنياء نهرا حيث لا يسمح الفين بالاكل طاملا لا تزال
الشمس فى الأفق ، ويقتولون ظلمهم عند قدم الليل . ومع ذلك فانه يرى
بالملايين أثناء النهار ، وبخاصة فى ميدان الرماية ، فى سطح القطعة لا جمهور
من الحواة يشبهون اولئك الذين تحدثنا عنهم .

وبشاهد فى مصر كذلك الشخص ليسث لهم من مهنة او وسيلة لكسب
المعيش الا معرض القرد والحيوانات التى تتأذى بالذكاء ونفعا لتقديم المعب
لنفسية العامة . وقلة آخرون ، أكثر حيلة ، يحرضون الثعابين ويجعلونها
ترقص على لفحات تمزق على آلة ما (١) وقد يبدو هذا الأمر بلغ الغرابة

(١) كتبنا فى مكان آخر من هذا المؤلف غرة عن سحرة الأكامى المحدثين
وهم ابتداء للسحرة القدماء ، وانتار كذلك نبذة من حيلة رشيد ، تاليف
جولوا ، ص ٢٥٤ . (المجلد الثالث من الطبعة العربية - المترجم) .

لأن لا يعرف حب الزواحف بشكل عام للموسيقى بحيث يرفعون رأسهم والجزء الأيسر من جسمهم عند سماع صوت الزمار ، وهذه الحركات هي التي تشكل رقصة المعلمين ، ومن السهل كذلك دفع القروء للترنس لهم من نوع في اليمن ويطلبها العرب من هناك حيث هي أكثر وداعة من بقية أصناف القروء ويقومون بتربيتها .

ولابد في النهاية من كلمة من الممثلين الهولنديين وعن بعض العروض التمثيلية في مصر ، ونحن لا نخالفنا الشك في وجود ممثلين حقيقيين في مصر مع وجود تمثيليات تتبع كلفة قواعد التمثيليات . وقد شهادنا مرة من الممثلين الهولنديين في القاهرة تتألف من مسلمين ويهود ومسيحيين ، ويدل مظهرهم على أنهم لا يصادفون حظههم في هذه البلاد ، وهم يستسلمون فناء بينهم كسرح وثمة سائر يجب ظلمه ملائسمهم ، ويذهب لشاهدة هذه الفرقة كثير من الأوروبيين الذين اقبلوا في مصر منذ عدة سنوات دون أن يشاهدوا أية عروض مسرحية ، كما تستدعي هذه الفرقة إلى بيوت القجار الإيطاليين وتقدم مرغسها في حجرة أمنت لهذا الغرض ، ومع ذلك فلم نجد في هذا العرض ما يرضينا : لا الموسيقى ولا أداء الممثلين ، بالإضافة إلى أننا لا نعرف من العربية ما يكفي لكي نفهم جيدا ، كما أننا وجدنا أن ليس ثمة ما يدعو لعناء أن يترجم لنا معنى التمثيلية ، لقد كان كل شيء رديئا وحاربا من الذوق كما كان الأداء متكلفا ، وكان الأمر يدور حول امرأة عربية تستدرج المسافرين إلى خيمتها لتسرقتهم وهيء مصيبتهم ثم تطلق سراهم ، وعندما كتبت المرأة قد تمكنت من سرقة كثيرين وتبنيات لتفعل الشيء نفسه مع آخرين ... عبر أحد التجار ... من النظرة بصوت عال من القرفة الذي يسببه له العرض ، وحتى لا يبدو الآخرون أقل رهافة حس منه فقد سارعوا بإيقاف العرض ، بينما لم يكن الممثلون قد وصلوا بعد إلى نصف التمثيلية .

كل من ينبغي أن نتكلم هنا كذلك عن العوالم الثلاثي سبق لنا أن تحدثنا عنهم ، ولكن حيث أن هؤلاء التسوة كثيرات في القاهرة ، وحيث أنهم يشككون على نحو ما طائفة حرفية فسوف نتحدث عنهم في الفصل المخصص للحرف .

الفصل الرابع

الإنسان الضري في طور الشيخوخة الموت
والمحنانات

١

عن احترام الشيفوخة

قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن مبررة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المحضرة حيث تتوافق الأتقية والمصالح ، أبناء الحضارة الشرعيين ، مع أضواء المعرفة إذا صح القول . فلك أن تلقى الجحافل عند الشعوب كلها اتساع كلما انتهكت هذه الشعوب من حياة الطبيعة ، ولا ينبغي أن ينفي بهذه الفكرة أحد أبعد من ذلك ، ومع أننا لا ننوئ حسنا أن نحدد مقارنة متصفة ، إلا أنه ينبغي علينا القول بأن الشرقيين وأن كانوا قد أمثلوا تعلم العلوم والآداب ، إلا أنهم قد استطاعوا على الأقل أن يحتفظوا ببعض أكثر من المواد والفضائل البدائية . والا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المدح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذي يكونه نحو الشيفوخة ؟ ويميز المصري على وجه الخصوص بهذا الشعور التتبع ، ولقد حذى عليه حميد في تحليبه أحد وجد من الضروري أن يجعل من ذلك مهذا حينها وحينها في وقت مما ، وحتى اليوم ، فإن شيئا لم يستطع أن ينال من قوة هذا المطلب الذي حتمه المشرع ، كما أن الوضع الحالي للتقديس سوف يهيئ لهذا الأمر فرصة لمقاء أطول . وفي مقابل ذلك ، فإن الفكر يستطيع أن ينفي على الشعوب الأوروبية — التي تطورت صناعاتها وممارستها أحد مذهب — هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيفوخة ، في الوقت الذي تميل في مجتمعاتهم فواتين تطلق بالحكمة وتشهد بالمعبرة والأحاسس أنجليهم لوانصمها ، وكذا ينك الدرجة الكبيرة من التحضر التي وصل إليها أولئك الذين شرعت من أجلم هذه القوانين ، لكن المرء ليندعش حقا عندما لا يجد في مجموعة القوانين هذه فصلا مخصصا للواجبات التي ينبغي مراعاتها نحو كبار السن . ونستمر هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الأفكار التي وردت على لسان مؤلف كتاب رسائل عن مصر : Lettres sur l'Egypte الذي أنشدنا برارة ولحقنا بتجليل صرخ ، ورسوم

لتواله بقعة ذلك الدوق الكائن بين أفكار ومبادئ شعوب الشرق ، وبين
مقاييلها عند شعوب الغرب بخصوص الشيخوخة :

« أن الشيخوخة عند كل للشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان
وسط عقلته فترة أقل ، لا تفلح من الاحترام نفس ما تلقاه في مصر ، بل
أنها تكاد تكون في معظم الأحيان تنهيه ، حيث ينهى على الملأ دي
الشعيرات البيضاء لن يصمت أبداً غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب
نور طفل حتى يمكن تعبته في داخل نطق العائلة ، كما أن يحس الإنسان
عندما بان سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، وكأن مباحح حياته تتضائل ،
حتى يرى نفسه وقد أصبح مبثاً لتقلا على أولئك الذين ينبغي بوجودهم له .
وعندما يصبح في حاجة إلى المواساة والسلوى يرى نفسه وقد أنكر عليه
حق الرعاية واغلقت نونه اللطوب ، عندئذ ترحف إلى جسده برودة قاتلة
وترتجف من برودة الوحدة ووجهه دون أن يجد من حب لوجهه وحضنها
ما يبعث بالحنن إليه ، في مثل هذه الأمم يموت المعجول — وهو الذي كان
من قبل والداً مطوماً — قبل وقت طويل من نزوله إلى ظلمات القبر .

تخلطع الذن القلب من وضع ليس ملباً لحسن الحظ ، فظك المشاهد
المؤثرة التي كانت أراها كل يوم في هذا البلد (مصر) قد اضطررتي أن أقسم
لنكم هذا الانعكاس المتقلب ، هنا (في مصر) ، ينقسم المعجول الذي تلاصق
لصيقه صدره وهو يلقي الاحترام ، ينقسم — برغم وطأة وضبط هذه
للشيخوخة — لاحتداه وهم يكون لداعبته ، وينشرح صدره وهو يرى أربعة
لجبال تهرع إليه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فينطق بذلك
بهجة الحياة حتى آخر لحظة من لحظات عمره (١) .

ولي واقع الأمر أن الأوروبيين لا يتكلمون أن يرضوا عن أنفسهم بصفة
واعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذي يبلغ مرتبة التقديس والذي توليه
الأمم الإسلامية لكبر السن ، هؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك التمتع
المتكزز المرعب : الموحشون والبرابرة ، يقدمون لنا في هذا الخصوص مثالا
يجدر بالاحترام ، على لجبل الفضائل في حين أنها قل أن تقل اعطينا مع
أنها تستحق كل اجلال . لها هنا في مصر نكم يحرف الشيخوخ ما سوف يلقون

من محبة الشباب ومواظبتهم ! لذا نكفهم هناك لا يجلون لظك الحول التي لا جدوى منها لتفادى ما تعده لهم الأيام — حيث هم شيوخ — من أهنت ، لهم على العكس من ذلك يقامون بخطوط السن التي تفضن وجوههم ، ولحمهم البهيشاء سببا للاحترام الجليل ، ولايسهم تصق مع كرامة ووقار مبرهم ، وكل شيء فيهم ينصح عن المهلبة والاصمية ، فلذا تكلبوا تمت الجميع لسا يقولون في احترام شديد ، وليست لقوالهم بالأقوال الباطلة للثقة ، ولا هم يستشعرون مطلقا تلك المارة التي تقطر بها حادة سنوات المجر والشيخوخة . انهم يتركون الحصة بلا لهم ، بل انهم لا يكونون يشعرون بذلك على الإطلاق ، فيقدر ما يزيد فريهم من تلك النهاية المحتومة بقدر ما تضاعف منية نويهم بهم ، فلا يمتون من الألم الذي تسببه رؤية أبناء حلالين يتسولون لسانهم الأخيرة حتى يقتسموا « اسلاب » تركاتهم . مثل هذا انهم البشع لا تعرفه مطلقا لم الشرق . ومما كان هؤلاء الأولاد ماسدين نكفهم على الدوام يجدون الدبوع التي يترغولها بفزارة على مقبرة ابيهم ، بل انهم ليقبلون عن طبيب خطر القيام بلية تصفحت موصا عظمت لو كان في ذلك ما يد ليلنا ثينة في عمر آباءهم . ولهذا السبب ، جريمة قتل الوالدين ، تلك الجريمة البشعة التي يثير مجرد نسيها الهلع في الطوبى ، والتي لم يقرر بشكها المشرعون القدامى أى جزاء ، كما لو كان من المستحيل عليهم أن ينفيلوا أن تقدم كائنات وهيها الله نعمة العتل أن تركبها على الإطلاق (١) ، مثل هذه الجريمة البشعة ، لم تعرفها مصر ، بل كل الولايات التركية ، على الإطلاق .

والشيخ المعجز هو الحكم الطبيعى الذى يصل في المتارعات الصغيرة التى تقا بين أفراد أسرته ، وما يقضى به ، حكم تلقى به كافة الأطراف بلا تردد ، كما لو انها حكمة مقدسة تلك التى جاءت على لسانه .

ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن — عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوهى بمعنى التثريف والمهابة (٢) ، فالمشايخ هم الذين

(١) نذكر في هذا الصدد أن سولون قد أهمل من قالون بخصوس قتل الوالدين إذ كان ينظر لهذه الجريمة باعتبارها أمرا مستحيلا . انظر : Plutarque

(٢) بل أن كلمة Seigneur « سيد — شريف » تطلق من الكلمة اللاتينية Senor وهي تساوى كلمة شيخ . وفي كل النصوص نجد أن فكرة الشيخوخة تحمل معها فكرة الاحترام والسيطرة .

يحكمون القبائل ويحكمون على التتوس سطوة لئلا تسلط الحكام ،
والكلية الأولى في كل المقالات المصرية للكبر سنًا ، وهو الذي يتقدم
الاحتفالات العامة ، وله مركز الصدارة في المجالس ، ويقف الناس جميعا
عند قدومه ، وتوجه إليه على الدوام علامات الاحترام والتقدير ، وإليه
يقف الشهاب وينضبط وهو الجيوش يطعمه ، وينسب بشرف إلى ما
يقصونه من حكايات ويجد في أحاديثهم ما يرضيه ، بل أننا نكاد نصل لحد
الاعتقاد بأن هذا التواصل الحر غير المكلف للتجربة ، يساهم أكثر من أي
شئ آخر في إفساد الوفاق على طابع الرجل الشرقي منذ نعومة أظفاره ،
وهو الوفاق الذي لا يتكون عند أبناء الشعوب الأخرى إلا في سن متأخرة ،
ولعل تقدم العمر .

وبغلا من ذلك فإن الشرق - الذي نلتقي على أنه مهد الحضارات -
كان مسرحا للتقاليد الأبوية القديمة ، ففي هذه المنطقة من العالم تسير
التقاليد وقتا أطول من غيرها ، حتى أننا لما وجدناهم يحشون بكل
بساطتهم التي كانت لهم وهم يحشون تحت الخوف ، وثمة تقاليد مديدة
تعود إلى عصور متأخرة للغاية ، لكنها ما تزال مستمرة داخل المقالات ،
وعندما استولى العرب على آسيا نشروا فيها مع معتقداتهم الدينية تلك
العادات الاجتماعية التي لا يزالون . وحيث أن احترام الشيخوخة بالغ القدم
بالفعل في مصر كما تفعل بذلك نصوص مديدة من الكتابات ، المقدمة ، فإن
هذا التقليد قد ازداد صرامة بفعل سطوة التقاليد العربية ، حيث الصولجان
محمود للسلطة الأبوية التي يبدو أن طبيعة الحياة نفسها تعينه لها ، وهو
نفس ما كان يحدث في مصر القديمة عندما كانت ما تزال مزدخرة (١) .
أما السبب الذي ظلت يفصله هذه القضية الصعبة بعيدة عن أي تغيير ،
فهو أن الشعوب التي تبارسها لا تلتقي من ذلك الفساد الروحي والأخلاقي
الذي تلتقي منه عادة المجتمعات الكبيرة ، وتجد سماتها في المباحث الطبيعية ،
ونادرا ما تبصت من هذه المباحث بعيدا عن واقع حياتها الداخلية . ولأن

(١) لم يكن يتفق مع المصريين من الإغريق بخصوص احترام المسنن
كبير السن إلا أهالي لاسيديونيا ، فإذا ما قابل شاب عجوزا فله يدع
المجوز يسبقه وإذا ما قدم إلى مكان به بعض الشبان فأنهم ينهضون .
أنظر هيرودوت ج ٧ ، الفقرة ٨ ، ترجمة Lefevre طبعة ١٧٨٦

أبناء هذه الشعوب كذلك سعاد في جهنم حيث هم محرومون من الميزات التي تهيئها الحياة عادة ، غافهم كذلك بعيدون عن المسلوى التي تجربها الدنيا معها . ولذا كلفت أوروبا هي وطن اللعن ومصرح ملذات الشيبب ومخامراته ، فان الشرق — ومصر بوجه خاص — هو على نحو ما ، جنة للشر .

٢

الجنائز

يكن المصريون المحتلون — شاكهم في ذلك شأن اسلامهم القديم — احتراميا خاصا للموت ، وتصحب الجنائز باحتفال كبير وان كان الأمر يتم بشكل مخامر لما كان يحدث في الماضي ، اذ لم تعد تحفظ اجسام الموتى ، لكنها — على الأقل — تودع في احترام كبير في القبر ، مشواها الأخير . ويبدى أهل الموتى واستغافه ابارات على عزيمهم ، ويجهز الموتى بشيء من الأبهة ، كما ان احترام المأبر واحد من الميسديء الاسلحية التي لا يمكن خرقها (١) .

وليس لمة ما يستطيع ان يصور ألم أسرة حرما الموت من عضو عزيز منها . على الأيام الأولى بعد الموت ، يكون ياس يرمب ثم يلفظ شسوا عشينا بلبحا اقل جزعا . وتصلم السهيات لطقها لأحزانهم الفسحيدة ليملان الجور بالحويل ويتركن البيت الذي اختطف منه الموت واحدا من الأهل ، او الإين أو الزوج ليعلم للجيران والمسلرة عن طريق صرخاتهن الدوية ، الميرة للأزن الشديد ، يلقهن قد لسنن بخسارة لا تحوس . ويهرع الناس نحو المرأة المكومة ويحاولون تهدئة لفسرابها ، بينما هي في أحزاتها وجزعها . تزع تسمرها وتضرب بقوة صخرها بمصبرونها الى القتل الذي حصل به الموت ويحاولون معها ، وتتجمع كثيرات حول الميت : تحرك بعضهم ساقيه أو ذراعيه ، وتضع أخريات أيديهن فوق قلبه ليتككن أنه ليست هناك

(١) يقسم المصريون عادة بتبر آبلهم ومن القبح هناك ان تسلمهم بقولون : بتربة الوالد ، بتربة لبي .

علامة أو نبضة تدل على الحياة ، وبعد ذلك يذهب لإبلاغ شيخ الجليل الذي
يعد على الفور بعض الفلجحت المجورات (البدائل) ، وهؤلاء النسوة
مخبرات على الأجهزة بالكوابل والحويل وعلى الغاء المرائى المؤثرة ، وعلى
إطلاق سبيل لها ليقاع حزين ، ويستدعين في رثاؤون أهل المتوفى وأصدقائه ،
وينشدن أنشيد تقال في هذه المناسبات بنمة بكائية ، وقد يكون ما يقال
كلمات عادية شائعة مما يؤدي لحدوث مفارقة بين ما يقال وبين النغمة
التي يلفظ بها ، وإذا كان المتوفى ثريا ، تقيم الندابات وسط عائلته فترة طويلة
أما إذا كان غير ذلك فليكن يرخص بعد عدة أيام ، بل وفي بعض الأحيان
ينصرهن مباشرة بعد التمسك الدفن .

والرجال عادة أكثر شجاعة في هذه الظروف المؤسفة ، فإلهم صلبت ،
يسلمون خلاله تحليا للنفس تكاد تظنهم يستعذبونه ، ومهما كانت المراتة
التي تلمع قلوبهم ، فهم يجاهدون أن يكتبوه ، ويساهم جهود بلانهم
بالإضافة إلى إيمانهم المبني بالقضاء والقدر ، في جعل هذه المراتة راحة ،
ومع ذلك لهم بهجرون لعدة أيام يجتبع أصدقائهم ، فلوست أحزانهم برغم
وعارها أقل حدة . وهناك عادة أن يقوم الناس من أممات الأسرة المكتوبة
— في بعض الأحيان — بصنع أيديهم بالنيلة كما يمتعون من الانفصال
المتد طالما ظلت الصباحة في أيديهم ، كما لا تكف النساء بالمثل عن البكاء
إلا إذا اختلعت هذه الصبيحة قبلها .

ويتم الدفن بعد فترة قصيرة من اسلام المتوفى للروح إذا انتقل إلى
الآخرة في ظرف ٥ — ٦ ساعات من موته إلا إذا كان ثمة دوائع تبحث على
الشك في أثناء مسند حالة استغراق في النوم نتيجة لمقدان شديد للموى ،
لهذه العادة — عادة الدفن السريع — التي تنقصها الصبغة تتسبب في بعض
الحالات في حدوث جرائم غير مقصودة ، فمن الممكن لنا أن نفرس في بلد
كهذا لا يزال فيه الدواء شبه مجهول ، بأنهم قد يحتبسون موتا حقيقيا ما هو
ليس بكثير من غيبوبة حدثت بسبب هبوط في بعض وظائف الجسم . ولهذا
فمن الممكن أن تقع بعض المساوئ نتيجة لهذه المعلقة الشديدة في إجراءات
الدفن . لما أن يموت أحدهم حتى يرسل في أحضان الرجال أو النساء ،
حسب الجنس ، الذين يحضرون غسل الموى ، ويقوم هؤلاء بغسل بيت
المال ، ويطلبون الآن بالانتقال إلى البيت الذي به الجنة ، ويسجونها على
طولة وينظفونها في منية معلقة ، ويضطون في حفرة لترب الأهل الأعظام

الجنسية المتوفى ، ويلفونه بعد ذلك بقماش أبيض غير مخيط ، وإذا كان الميت واحدا من قلبية فله يكن باحسن ملابس حالاً ، لكن المسلمين المتوفين يدينون هذه المادة باعتبارها عادة مضيعة ومضحكة . وتوضع الجثة في تابوت مسمى لا غطاء له ويغطى بقماش مطرز ، وتكون رأس الجثة دائما الى الأمام ، كما يحرمون على وضع عملية لوقتها إذا كان الميت رجلا أو زهورا إذا كانت الجثة لامرأة .

بعد هذه التجهيزات تبدأ الجثث في مسيرتها نحو المسجد ، ويغسل في ذلك الجامع الأزهر باعتباره لنفس بمسجد القاهرة ، ويتقدم الجثث عدد من الصبيان بيدهم عصي ، ويسيرون في ثلاثة صفوف من ستة أشخاص وهم متشابكون الأيدي ، وينشدون بنغمة وقورة وهيئة صيغة المعقودة الإسلامية . لا إله الا الله ، محمد رسول الله ، ويكررون ذلك حتى القبر ، وعلى هؤلاء مبالغة خدم المتوفى وهم يرتدون ملابس قلبية ، وبعد هؤلاء تأتي الندابات مرتديات ثيابا زرقاء طويلة وحجابا أبيض ، لهيئتين مبالغة الجثة المحبولة على كتف رجل أرملة ، والموضوعة داخل التابوت ، وخلف النعش سفير المائلة يسحبها عادة شيخ الجامع ، وفي النهاية لا يختتم الجثثة أناس من القلبية وسفير الجثث في سرعة وتلقف .

ويوضع الجثمان للحظة في المسجد ، ويؤدي الابن الصلاة على أبيه أو يؤديها خلف واحد من رجال الشرع ، وعند الخروج من المسجد ينسحب جزء من الوكب ، ويصحب المشايخ الجثمان حتى مكان المقبرة ويتبع هؤلاء عادة بعض أطفال المدارس ، ويحصل رجال المسجد على أجرهم عند المقبرة نفسها ، وذلك عادة عملية .

وبعد الوصول الى المقبرة ، يؤخذ الجثمان من النعش ، وينزل رجل في المعبرة ليأخذ الجثمان ليودعه القبر بحيث تكون رأسه متجهة الى الشرق ، وبعد ذلك يلقى القرب أهل الميت بيده تقيلا من التراب على الجثمان ويغطيها العفاريون على النور . وبعد ذلك يجلس الأعراب الذين صاحبوا الجثث

ويكتلون حول الحفرة ، ويحود الأهل مع القنابات ليقيم عندهم لآيلم حدة
مما يسبب مضايقات للجيران (١) .

ولا تدفن للتعويض مطلقا ، فالجثتان — كما سبق القول — يودع في
الحفرة التي أعدها الحفلون الذين أرسلهم الشيخ لهذا الغرض في مقابر
الأسرة التي بنيت من قبل ، وهي في المقام الأول مبرة من قبر من الحجارة
تصف تحتها الأجساد بجوار بعضها البعض ، وطالما لم يبل لحم الجثة
علا ينهى ازواج الميت ، ولكن عندما يبلى ما يغطي المتكلم فإن المتكلم
تجميع في لحد واحد ، وينظر إلى الاحتفاظ بأي جزء من الجثة باعتباره
جريمة ، إذ ينبغي أن تدفن الجثة بأكملها ، وعندما يموت أحد بعد قدوم الليل
يتحتم انتظار شروق الشمس ليتم نقله إلى المقبرة ، ويعتبر المسلمون أن من
مبادئ دينهم ألا يدفن الميت إلا والشمس في الأفق ، بل ويطلقون على
مراعاة لو خرق هذه العادة أهمية كبيرة حيث لها صلة بالسعادة أو الشقاء
في دار الخلود . ويقوم الأقنياء بدفع نفقات مقابر الفقراء ، ومقابر هؤلاء
في الواقع بسيطة لكن أهلهم ولزوجاتهم يزينونها بزرع الورود بدافع من
العاطفة .

وتوجد مقابر المسيحيين في القاهرة بمصر القديمة ، ولا يسمح لهم
بالدفن في مكان آخر ، ولألمن مدفن خلس بهم وهذه الطائفة من المسيحيين
ليست كبيرة العدد إذ لا يكاد يبلغ تعدادها ٤٠٠ — ٥٠٠ شخص مستقرين
بالدينونة .

(١) في مصر عادات كثيرة تشترك فيها مع كل ولايات الدولة العثمانية ،
لكن ثمة عادات خاصة بمصر وحدها ، قد يكون من الطريف أن نعرض لها
ومن هذه العادات الخاصة بمصر بكاء الندابات أثناء الحنيزة ، ولا يحدث
هذا عادة في القسطنطينية ولا في سوريا بل يمكن القول بأنهم غير معروفات
في القسطنطينية أصلا . وفي مصر تنزل زوجات المتوفى يطلقن المرحلات
تسحبه إلهن موالية ويستعلن صغيتن اللالي يأتين للبكاء سمعن أو
يظاهرن بالبكاء . ومع ذلك فالمسلمين من الطبقات العليا وكذا العلماء
ينظرون إلى هذا العويل باعتباره مخالفا لدين محمد ، ذلك أن الميت لم
يفارق هذا العالم — في رأيهم — إلا للذهاب إلى مكان اسمه (الجنة) ،
لكن الجموع ينظر إليها بتسلح لأنها تصغر عن عطفة محبوبة ، وعندما
يموت رجل ميسورون يهتمون باحترام كبير ، لا تحدث أية دلالة على
الفتوة أو البأس ، بل يحدث العكس أحيانا فتطلق زغاريد الفرح .

ويتمسك بعض المسيحيين في مصر القديمة بمادة قديمة ، هي أن تكون لهم مخبر صغيرة في بيوتهم يحتفظون فيها ببقايا جثث ذويهم ، وربما لا تكون هذه المادة سوى أثر من ديانة القدماء المصريين ، لكنها محزنة بشدة في القاهرة لها بدائع صحن وأما بسبب عدم التصالح من قلب المسلمين ، ويلاحظ هذا الميل نحو المظاهر المنزلية بين كبار الأقباط بوجه خاص ، لذا فقد شيدوا بيوتاً لهم في حى منزلي في مصر القديمة ليقيموا هناك مدافن لأقاربهم ، ويتوجهون إلى هناك من القاهرة حيث يقيمون — على فترات من العام ، كما يحتفلون هناك بالأعياد الكبرى لطائفتهم مع الأهل والأصدقاء ولا يوجد في أى مكان آخر أثر لهذه العادة القديمة .

وأي نفس الوقت كان التداينات وكذا الاشارات الخارجية الدالة على الحزن عند موت واحد من الأهل ، جزء أساسي بالدرجة الأولى من الطقوس الجنائزية القبطية ، بل أنهم يذهبون في اشارات الحزن تلك لأبعد مما يذهب المسلمون ، فهم يملأون الشوارع المجاورة ببيعاتهم التي تطبقها على الفور صبهات التداينات ويستمر هذا العويل أحياناً عدة أسابيع ، بل يمكننا الافتراض بأن الأقباط هم الذين نقلوا هذه العادات إلى المسلمين ، حيث من الثابت أن المسلمين في الأجزاء الأخرى من آسيا لا يراعون هذه العادات على الإطلاق ، وثمة نص عند هيرودت ننقله هنا ، يؤكد بالمثل أن السكان — مصطلحنا كنز أو صحيا — والذي يستسلم له الناس عند نص قريب ، له أصل في مصر بالغ القدم . يقول المؤرخ الإغريقي : « عندما يموت رجل هام يغطى كل شئ منزله روسهم بل ووجوههم بالطين ويتركون الميت في المنزل ويحزن وسط جسمين ويكتسبن عن صدورهن ويصبن الحنية وهن يدفن على صدورهن وتصحين في ذلك تريبانين (١) » السنا نجد في هذه العادات التي تبارسها هتان الأيتن (المسلمون والمسيحيون) تماثلاً كبيراً مع تلك التي ننقلها هيرودت الموجز على الدولم والذي يبدو لنا عند قراءته أنه قد تحدث بتفصيل أكبر مما يفعل عادة ؟ أن هؤلاء الأهل المتكلمين في الماضي قد تركوا مكانهم بلا جدال لتداينات اليوم . ويقدم لنا بقية وصفه نفس التطبيق مع اختلافات طينية للثقافة (٢) .

(١) هيرودت : ج ٢ ، الفقرة ٨٥ ، ترجمة Larchet طبعة ١٧٨٦ .

(٢) يقدم لنا هيرودور المسالي نفس التفصيل فيقول : « ما إن يموت

وعندما يشعر رجل ما بخطو أجله تخله ينظم شسئونه ، وإذا ما كلن
 حذرا فانه يجمع عددا صغيرا من اصنفاته ليشركهم في رغبته الأخيرة ،
 وتحتم للشرعية فصل توزيع الميركة أن تجنب أولا المبالغ اللالمة لتسديد
 الديون ، وكذا الهبات الحرية التي يكون المتوفى قد التزم بها . وللأبناء
 الشرعيين حق الارث ، لها غير الشرعيين فلا يحق لهم الارث دون نص
 صريح من الموصى . وهذه القريبات خاصة بالذكور وحدهم لها البتات
 والزوجات فليس لهن حق الارث في الملكية العقارية . وسوف نتحدث
 بتفصيل اكبر عن هذه القوانين المجارة في الفصل القادم من مؤلفنا (الفترة
 الخالصة) والخاصة بالانظمة والمؤسسات .

ويمكن للأرملة أن تتزوج مرة أخرى بعد مضي أربعة اشهر وعشرة
 ايام على وفاة زوجها إذا لم تكن حايلا ، وفي الحالة الأخيرة يمكنها أن
 تتزوج بعد التوضيح ، وللأبناء أيضا حق الزواج بعد موت والدهم لكن
 المبالغة تحتم انتشاء فترة بين حدث محزن لهذا الحد وبين فعل يتطلب على
 الدوام مظاهر الحزن والفرح ، وفي ذلك توافض والضحك ، ولذا فإن من
 يستجيب لنفسه أن يعقب جنازة أي من والديه بفعل زائفه يخطئ نفسه
 بوصمة لا تختار لدى الرأي العام .

٣

المقابر

يبدى المصريون المحدثون اليوم عناية بتقبرهم تمثل عناية مسلامهم
 في الماضي ، تؤديهم لاقباله منشأت بلخفة لكل مظلة حقيقة بما اسمها

أحد الناس حتى يسارع أهله ولصنفاته فيغطون رؤسهم بالطين ويمسرون
 في الشوارع ليكون حتى يتم دفن الجثمان « ولكن ثمة شيئا عند ديودور
 أكثر تحديدا عندما يتحدث من حداد المصريين عند موت أحد الملوك « عند
 موت الملك تدخل مصر كلها في حداد : فيبزيق الناس ملابسهم وتغلق المآبد
 أبوابها وتعلق الأضحيان وتوقف الأعياد والاحتفالات لمدة ٧٢ يوما . ويتوم
 عدد من الرجال والنساء يبلغ ٢٠٠ — ٣٠٠ شخص ، ورأسهم مغطاة
 بالطين ويحزمون صدورهم برباط ، بالانتحاب والرقاء على صوت الموسيقى
 مرتين في اليوم . » انظر ديودور ، الكتاب الأول ، الفصل الثاني .

القضاء ، لكنها على رومة غير عادية لذا ما وضعنا في الاعتبار حالة المصريين في الوقت الحاضر . لقد حدثت ثورة تلبية في التقاليد والديانات والمادات الاجتماعية ومع ذلك فقد ظلت ضعف النيل كما كانت في الماضي ، هي المكان الذي يحترم فيه أكثر من غيره أحداث الموتى وترابهم ، فليست هناك كما يحدث في البلدان الأخرى تلك الأحوال الفقيرة والمتهمجة التي تضم مقابر أولئك الذين انطلقت شجرة حياتهم ، ولا يحدث فيها — كما يحدث في أماكن أخرى — أن يطأ المرء بقدميه وهو يسير في أرض تالفة أو بجوار خلل الأعشاب البرية عظاما بشرية مبعثرة كهنا اتفق . نعم ليس نمة مثل هذه الأعمال المموجة والنتيجة عن الإهمال واللامبالاة ، والتي تكشف عن مدى ما تلقاه أرواح الموتى من أهالة ولزدرأ على يد الأحياء . نقل شيء هنا — في هذا الصدد — يختلف ، فنية أشجار بسطة تظل الخضر ، أو نمة على الأكل وورد زرعتها بين القبور ملطقة بحبة ، تحول مثل هذا المكان المبهش إلى نوع من الحدائق العامة ، ولنة معاهد وعراشات بين المتبر ترسم نوما من الشوارع الصغيرة ترى على امتدادها أكثر ميل الإنسان .

بالروعة بناء المتبر ! وبالروعة النقوش التي تشطبها .. أن المرء ليلخذ بهذه الروعة الروعة لحد أن يفكر ما كان يحدث في الأجنة الطوالى : « تتجلى منية القضاء بمتابهم في تلك الأموال المعلقة التي ينقلونها عليها ، وفي إقامة الأهرامات والتقيب في الجبال واستخدم الرسوم بأفحة البذخ .. ويأخذون في تلك الروعة المدهشة » . وما يزال نفس هذا الميل موجودا حتى اليوم . وينفق المصريون في هذا المجال من المال أكثر مما ينفقون على ملابسهم ومساكنهم . هنا يتجلى معنى ما قاله ديودور الصقلي عن أسلافهم من أنهم يعتبرون يومهم مجرد نزل عابرة لا ينبغي التوقف عندها طويلا ، لذا فعنايتهم بها قليلة ، في الوقت الذي يعتبرون فيه المقابر بمثابة دار للخلود فيحييونها بكل الفن والمهارة وهو لم كانوا ضليعين فيه . لقد ضيرت دقتهم بشكل كامل ، ومع ذلك فقد ظلت العادة كما كانت في الماضي ، بجوار كل مدينة كبيرة توجد مدينة صغيرة الموتى ، حيث يكون لكل أسرة

(١١ — وصف مصر)

جسورة لحد ما مدفن خلص بها وحيث تزين كل المقابر بالنتوش والرسوم الجميلة (١) .

ويقتل المزيرون المحدثون لقتلهم — شتمهم في ذلك شأن المصريين القدام — المطلق المرتفعة فوق مستوى النهر حتى لا تصل مياه النهر اليها فتهدمها ، ومن جهة اخرى فان الاراضى القليلة للزراعة في الوادى غالية الثمن وضرورية للحياة لدرجة لا يمكن معها ان يجعلوا منها مأواهم الأبدى ، وعلى هذا فنعلم ان يكون المكان الذى يستخدم كمقبرة فاحلا اجد لا ينشأ أو يزرع فيه . والأرض التى خصصت للناس في مقبرتهم الأخير ينبغي ان توفى عليهم والا تطلق هناك أجسادهم بأن يسمح للفلاح ان يخرس بها سلاح محراثه . واذا امتلأت مقبرة ما فلن يزارع احد معالم الموتى في مكان خصص لها فلا تغطى المقبرة من العظام ليخلو المكان لموتى جدد . . هناك في هذه المقابر يردد الفقير مقتريها تحت المسكن الحجري الذى خصص له . لها الفن فان ما دفعه في شراء تلك المساحة الضيقة التى يغطيها قبره ان يضع بهاء ، وهكذا ، لما ان تغطى المقابر مساحة من الأرض التى خصصت للسكان حتى تصبح الحكومة بأرض جديدة لللبس الفرضى ، وتجر الأولى ، ومع ذلك يظل ينظر اليها الناس باحترام ورج ، ويصبح من أعمال الخير — لوقت طويل من هذا الهجر — ان يضع الناس الورود فوق رخام المقابر .

ويح المدين ، أو مدينة المقابر ، في محفل الفن عادة ، وخروج طائفتها ، ويستطيع كل انسان أن يدخلها بلا حائق إذ ليس فيه حائط أو سور يعوق الاقتراب منها . وبما لها من ملاءة بالنسبة للأجانبى الذى لم يكن قد رأى حتى هذه اللحظة الا الأكواخ التى يسكنها الأحياء في الريف عندما يرى هذه المقابر البانضة ١ غنية غلبة من الصولبيد والنصب التذكارية والأضرحة . . تغطى مساحة شاسعة : وقد يظن المرء في البداية أنه ليلام مدينة ضخمة حجرتها عشية الأمس سكنتها . وعندما يرى شوارع المدن فقد يظن أنه في سهل مزروع بالمقابر . وفي كل مكان ستجلى المنون

(١) انظر وصف مدينة طيبة في دراسة المسيسي جوملي عن المنارات والكهوف ،

الحجارة التي تتفاضل إلى جوارها - وبخاصة الأهرجة الكبيرة - عبارة
المساجد وتصور الكبار .

وتصنع العواميد وشواهد القصور من الرخام الأبيض : أما نلسس
المقابر فمن الحجارة وتصنع القبة من الخشب وتغطيها طبقات من الجبس
أو الجير شديد البياض . وتقوس المقابر ذات ذوق شرقي وهي عبارة عن
نقوش وزهور من مختلف الأنواع رسبت بطلاء لا وتغطيها أوراق مذهبة
مما يعطيها مشهدا بديعا . أما أولئك الذين لم يهوزوا إلا ثروة متواضعة
فيكتنون بالكتابة على مقابر أهلهم بالأسود ، لكن الكتابة التي ينقشها
الأغنياء على مقابرهم ذهبية اللون . وتتكون المقابر العالية من حجر
نور اللحد يرتفع من أحد جانبيه عمود يحمل عملة وينتهي جانبيه الآخر
بكتلة حجر مسطحة ، تنتهى بشكل منسوب وشذبت جوانبها لتأخذ شكل
مسلة وتلقى عليها النقوش ، وهي إلى بعض الأحيان رسم لفجرة مرو أو
رسم لورود يأخذ بطلاء شديدة . وتتكون مقابر السسهدات من حجرين
مسطحين ينهض أحدهما عند الرأس والآخر عند القدم ، وهما مليئان بالرسم
والنقوش وينتهى كل منهما بشكل مسلة لكنها لا تحمل عملة ، وتصنع
هذه الحجارة من الجرانيت أو من الحجارة الجبلية ، ولا تكون إلى هذه
الحلقة مزدانة بأية نقوش . وإلى بعض الأحيان تغطي المقبرة كتلة صماء من
الحجر وهذا أمر كاف عند الاكتفاء الوريين ، فكل انسان يدخل ما يستطوع
للكريم فكري ذويه . وإلى أسبها حيث الأراضي خصبة والإبطار غزيرة
يزرع الأتراك إلى الحدائق أشجار المرو ويشبه الحدائق غابة واسمة ،
اذ ترتفع هذه الأشجار إلى علو شاهق . ومهما بلغ عمر الشجرة فلا يسمح
بقطعها ، فطرح هذه الأشجار جريئة لا ينقرها القاتلون .

ويوم الجمعة يوحه خلص هو اليوم المحدد لزيارة المقابر ، وتذهب
الأسرة إلى هناك بكاملها متصهبة الأمهات لطفلين ويتجمع هناك الأصقاء
ويجلسون حول مقبرة القعيد ويترجمون على النصر ليتناولوا بعض ما يحلون
من هبات ، ويتحدثون ببرارة عن الجسارة التي حققت وعن فطائل القعيد
وكهاده وسبباته . وهم يذهبون إلى مخبئة الموتى هذه عند شروق
الشمس ويمضون فترة الصباح كلها إلى السلوات والدعوات الدينية . وإلى

هذه الأيام المهيبة يبلغ الزحلم درجة جنون مما المتألم وكثما تغطئها جماهير غفيرة ويكس أن تتفعل أحجية النساء وهى تعرف وملابس الرجال الراهبة بكل الألوان الفاتحة والمتنوعة ومغضلة مبقى المتألم الذى تغطى السهل .
 فننتكر على الفور تلك الأساطير القديمة التى ولغت على نفس هذه الضعاف . . إذ تبدو هذه الأماكن وكثما مقر لأشباح محظونة ، يضل للمره أنها تهيم على وجوها وهى تحلو خطوها البطيء وسط مسكن الموت هله . أما تلك المجموعات المبعثرة هنا وهناك تحت أشجار الأكاسيا والجميز ، فتبدو وكأنها تقدم لميون المسافر لوحة من جنة الدار الآخرة تكملها ولجسدها خيلته .

وتبتك المقلات الفنية كما سبق القول مقابر رائعة الجبال ، ويعتبر بعضها فى الواقع مسلج صغيرة ، وهى محاطة بسور ويدفن فيها عبيد الأسرة وخدما ويدفن السادة تحت القبة ثم تجمع عظامهم بعد ذلك فى قبر واحد . أما المقابر الأخرى فهى أكثر بساطة ، وتتكون من أسس من الحجارة تطوقه أربعة عوامد تحمل اقبة ومقبرة أما على شكل قبة أو على هيئة هرم ، وتوضع الأجساد عند الأسس ، أما المقبرة أو القبر فتظل خالية وتبنى تحت القبة التى تحدثنا عنها .

وفى معظم الأحيان ثمة مريح محفور وسط المستطيل الذى يغطى المقبرة ، ويملؤه الناس بالقرب لتزرع فيه الزهور بدافع المحبة والاعتزاز والتعجبيل .

لما العلبة الذين لا يقدرون حتى أن يفتوا مجرد حجر مئدى علامة على المكان الذى يرتد فيه أمزؤهم ، فكنهم يكتفون برقع مستوى الأرض حول حفرانهم ، ويذرون فيها بالائل وروفا يكون كل أسبوع لريها .

ومدائن المصريين تحظى بتقديسهم ، وهم يحرصون على أن يعبدوا عنها كل ما يمكنه أن ينال من قداسها . وتحاط مقبرة القاهرة بأهواس مقابر سبق أن تحدثنا من مقلتها ، لكن ينبغى أيضا أن نقوه بمقبرة الموتى فى سيوط (أسبوط) فى صعيد مصر ، فهى تقع عند سفح جبل على حافة واد يانع الخضرة ويخترقها طريق وأسع للغاية يقضى الى الصحراء . ويحيط كل مقبرة جدار أبيض ، تطوقه رسوم زاهية اللون ، وتظله الفضيل والشجر

الأكاديمية والجيز . وتعمل عطفة الأحياء نحو ذويهم هناك على مساعدة عدد هذه الأسر والعتاة بها .

وهكذا فإن المصريين الذين تربط بينهم على الدوام المودة وصلات الدم ، يقدمون بعد موت أحبائهم عائلات مؤثرة على ذلك الحزن العبيق الذي انتابهم بفقد هؤلاء . لهم — مثل أسلافهم — يصون بقوة ببهاج الشاعر الأسرية ، وتصحبهم بشكل مؤثر تلك الضربات التي تحرمهم من مخلوقات عزيزة عليهم ، خسارتها لا تعوض . وهكذا لأنها نراهم بعد أن يكونوا قد تذوقوا سعادة أن تسلمهم المحبة أثناء حياتهم ، يتسبون بعد أن يتركوا العالم الأرضي ، بسعادة أن يخيم على ذويهم الأسف على فراقهم .



العباد والتعبدات

لدينا في أوروبا وقت محدد للعباد الكبير ، أما العباد الصغير فيلزم ذلك . لكن هذه الممارسات مجهولة في الشرق ، فهناك يعبرون عن الحزن والأسى بطريقة أخرى ، كما أن للآلم هناك لغة غير تلك التي لدينا . فغالب مدد من الأهم حننها العرف ، تظل المرأة فيكي وفاة أقاربها سواء داخل بيتها أو في المسجد أو على القبر . وفيه وقت من أوقات النهار مخصص لهذا الواجب الحزين . وينتظ هذا الواجب بقعة تستقصى على النهم . صحيح أننا نلاحظ في بعض الأحيان نوعا من التكلف في هذه الممارسات الخارجية ، إذ ليس من النادر على سبيل المثال أن نرى النسوة يعبرن الشارع وهن في طريقهن إلى المسجد أو إلى القبر ، دون أن يبين أبهة دلالة على الحزن ثم ينهضن من هناك بعد أن يكن قد أطلقن صرخات الحزن المؤثرة لمدة تقرب من ساعة ، ويرطحن دون أن تصتظ ملامحهن بكل أثر لانفماهن ، وبرغم ذلك فإن هذه المظاهر صالحة وحقيقية عند العدد الأكبر من هؤلاء النسوة ، ولكن تنتهك بذلك ، فيتكلم أن ترى كما رأينا باتسعت بهزهن الخوف من فقد أحد أقاربهن ، يحاذثن أنفسهن ويعبرن بمسوت خفيض وبطريقة تغير الشفقة من القلق الذي يكلهن ، وكثيرا ما سمعنا نسوة ينطن أثناء سيرهن في الشوارع بالدموع الحارة كي يمد الله الصوبة التي تهدد أسرتهن . ولا يقطع حديثهن إلا العبرات التي تترق صدورهن ،

وهيبرن من مشاعرهن تلك بلا حرج ويلهجة صاعدة ويدعين الله أن يخلص
 مصر من الخطر على حساب مصرهن . يظن ذلك بحرارة لدرجة
 يكون من الظلم معها أن تفكر في الخلاص . لهذا تكن الخوف من الخطر
 يحذرين يمثل هذه الطريقة المؤلمة لئلا ينهضن أن تفرسهن الأضرار إذا ما
 تحلفت مغلوبين لا وكثيرا ما رأينا سيدة عقدت لطفها العزير وهي تتدفع
 إلى خارج بيتها نائمة بأكية ، لتجوب الشوارع لظني بصرخاتها المنعجة
 لتنادي طفلها بصوت يترق القلب : يا والاد .. يا والاد .. يا ولد .. يا ولد ..

والسيدات وحدهن في مصر يقمن بمحافل البكاء بعد موت اقربهن .
 أما الرجال فلنعيهم كما سبق القول أن يظهروا قدرا أكبر من ضبط النفس
 فلذا نألموا على الفجع مركز . بل انهم يطلبون من النساء — إذا ما ذهبن
 إلى مسجد في التضرع من يؤمن (١) — أن يحتلن ويحلقن بالصبر . وفي
 جهار السوق والأضرار يتجلى حداد مصر ولا يظن الذين زينا بمسحدا
 للحداد ، ومع ذلك فإن الناس يرتدون ملابس قائمة علامة على الحداد ، لكن
 أبناء الطبقات العليا لا يضمنون لهذه العادة ، فإنا أن يقمن شخص منهن
 وتؤدي إليه الصلوات حتى لا يعود ثمة أي حداد ديني ملزم . ويكتسبون
 خفاء مدة لهم في استقبال المعلن . ويؤدي إلى وجهة جنسية كل لصداقة
 المتوفي ، وتخصص هذه الوجبة لذكراه التي تكون موضوعا للحديث ويأخذ
 كل يدعو في تعهد بقلبه .

أما التذاليف الثلاثي يعين مرسلهم الذين من نساء من التمسح
 مخربك منذ زمن طويل على التحويل وتصنع صرخات اليأس . وليس ثمة
 مسلم مثبور إلا ويدين هذه الصادة الكفيلة ، ومع ذلك فقد لاحظنا أنها
 لا تصدم الرأي العام ، وتلجأ زوجة الواحد من الكبار عندما تقف أنها إن
 تستطيع أن تسكب وحدها على المرحوم قدرا ككفا من الفجع ، أو ربما
 عندما تجد أن مهمة الانتحاب لمدة طويلة بلا انقطاع تفوق طاقتها — تلجأ
 إلى استخدام التذاليف الثلاثي يقمن في العجزة من البيت التي كان الجنين
 يسبح فيها ، وهناك يقمن بتعيين الميت ولكن بطريقة شديدة التعجب .

(١) ليست النساء المسلمات وحدهن كما سبق القول من الثلاثي يمكن
 مؤثاهن . فربما تتقوى عليهن المسيحيات في هذا الخصوص . وهذه المادة
 مكية في مصر .

ويبدأ أحدهم بإطراء لفلسف الختوى ، وما أن تلفظ أول كلمة حتى تطلق الأخرى في صوت واحد سيحلت مفزعة كما لو كان لكلك للتعبير من حجم الخسارة التي لصبث العائلة . وتغرب الفدايلت بن لبريق موضوع على موائد في نفس الحجرة وعقب كل نوبة نخبين — تحفا من القهوة ومع ذلك فليس في صرخاين ما يمس قلب الأجنبي ، فمن يحولن أكثر مما يمكن بمأطلة . وأغلب هؤلاء الفصبات لا يسكن نمويا ويقتصر علىهن على الاثنان ببعض الحركت ولن يربحين فسوع من الإيقاع الحسزي ، ولا يسمح للقلب الذي يغشطى وجهين ، والذين بدونه لا يسكن لمن أن يجلسن على الظهور أمام النفس — لا يسمح للمره أن يكشف قلب بكالمن .

وعلى الرغم من الاحترار الذي يديه المسلمون المخبورون لهذه الاحتفالات الجنائزية والتي تنبه مسرحية هزلية لكفر بما هي تعبير حقيقي من الألم ، فإن من المحتمل أن تظل هذه المادة لوقت طويل في كابل توتها ، إذ من الصعب أن تتطلع من حذورها بمعتقدات أمقد بها العمر وتحدثت في هذه العادة الضارية في القدم ، والله لأمر أكثر مشقة عند نصب روتيني يبدو كما لو كان يرى على نمويا ، في طوره حنو أسلافه ، لمرأ له قداسة الأكيان .

الفصل الخامس

النظم والمؤسسات

٩

رجال الشريعة والقضاء

بعد أن انتهينا من الحديث عن التقليد الأسرية والعادات الاجتماعية للمصريين المحدثين ، وبعد أن تتبعناهم في مختلف أطوار حياتهم من المهد إلى اللحد نسوف نهتم الآن بأنظمتهم ومؤسستهم المدنية والدينية ، ولعل هذا هو أهم فصل في مؤلفنا ، إذ كان من المستحيل على الرحلة الذين جاءوا إلى مصر قبل هزيمتها على يد الفرنسيين أن يحصلوا في هذا البلد على أفكار ومعلومات موضوعية ، فقد كان لمة عقبات كبيرة تحول دون إبحاث بهذه الدقة ، كما أن مثل هذه الأبحاث كانت تثير الحلع كما كانت تثير ريبة وشكوك الحكومات المستبدة ، التي كانت تتولى شؤون البلاد . لقد كان الأمر يتطلب وجود ودم جيوش مختصر مسيطر ، وعلاقات يومية وبمباشرة مع السكان من كافة الطبقات حتى يمكن دراسة قوانين مصر ونظمتها المالية والإدارية . وقد سبق أن قدمت دراسة « أساليب » *Salido* لوحة كلية من الدخل العام وتوزيع واستغلال الضرائب ومختلف أنواع الملكية ، أي أنها قدمت باختصار لوحة من كافة مروع الحكومة التي كان عليها الإشراف على مالية الدولة .

ولقد كانت المهام التي أوكلت إلى الأستاذ استيف هي التي مكنته من أن يرى بعينه كل شيء وأن يسبر في قلبها ذلك 'غور تلك الإدارة البطيئة' والمعقدة . علينا إذن في فصلنا هذا أن نهتم بالدرجة الأولى بالنظم والمؤسسات التي لا يدخل في نطاقها الموضوع الذي عالجناه زميلنا ونحن نبدا بالقوانين المدنية التي يخضع لها المصريون في الوقت الحاضر ولكن من الأمور الملحة قبل أن نفيض في تجميع هذه القوانين أن نتعرف على الأشخاص الذين كانوا أعضاء في هذه المؤسسات أو قائمين على أمر هذه النظم . وحيث أن الشريعة الإسلامية وكتابها « القرآن الكريم » هما القاعدة الرئيسية التي تنهض عليها القوانين المدنية فإن رجال الدين قد أصبحوا في نفس الوقت رجال القانون . هؤلاء ينقسمون إلى عدة طوائف ومجتمعات

بلغة النوع . فبعضهم تقتصر مهمته على العناية بالمسجد ومن هؤلاء الأئمة ، وهذا النوع من الرجال ليسوا بالأغنياء ولا بذوى المكاتب ، بل يمكن كل مسلم علم بالقراءة والكتابة وإقامة الصلاة أن يكون أمياً لمسجد . وهو ليس من رجال الدين المتخصصين ولا يرتدى زياً خاصاً . وهذا النوع من العمل ورأى في المعتلات ومن السكن التناول من هذه الوظيفة لأخر مقابل جعل من المال .

والقاضي هو الذي يفحص الأئمة ويمكنه أن يقبلهم أو يرفضهم حسبما يترامى له من الموضع وهل هو في مستوى الوظيفة أو ليس في مستواها ، وليس لمة هيراركية (هرمية) بين الأئمة فهم أئمة المساجد وليس أكثر من ذلك . وللباب العالي عليهم وعلى كل العلماء نوع من السطوة الروحية ، ولكن إذا حدث أن كان ببعضهم مرفقة ما يتعرض مع بعض ما جاء في القرآن فقام لا يلزمون أنفسهم بطاعتها من اعتقاد إذ لا ينتهى عليهم أن يطيعوا إلا الله ورسوله .

ويشكل الأشراف في بحر طبقة بمنزلة ، وهم يتمتعون بنفوذ كبير ، وسبب مكانتهم تلك هو القلب الذي يحملونه ، فشراف معناه مشيز ، وهذه الصفة لا تخلع إلا على أفراد محدد من أئمة الطبقة ، ويحق لهم وحدهم ليس العيشة الفخراء ، ويقول بعض العلماء : ويل لمن يدعم لنفسه الشرف دون أن يكون كذلك وويل لمن يهجر الأشراف ونحن نجد أشرافاً من مختلف الطبقات ، وئمة أشراف لا تعرف ما هي مهنتهم بالضبط ، بل وئمة منهم من يمارسون أمماً مرفولة ، وينقل النساء هذا القلب لأولادهن من الجنسين وحيث أن من هنن أن يتزوجن بلا تحيز ، أي سواء من شريف أو من مسلم ليس من الأشراف بل يمكننا أن نستنتج كيف يمكن أن يخشع معد أفراد هذه الطبقة .

ويخالف الباب العالي واحداً من أبرز هؤلاء الأشراف ليعينه نقياً للأشراف . وهي وظيفة محترمة ويقوم من يتولاها في القاهرة ، ويأتي هذا التقريب مادة من المصطنعية مع القاضي . ويدفع في مقابل وظيفته تلك حوالي ٢٠٠٠٠ ر. مدينى ويحصل على دخل عديد من القرى الصغيرة في بمثابة امتناع لوظيفته . ولا يعمد لشخص ما بهذا المنصب إلا لمدة عام يثبت في نهايته التقريب أو يستبدل به غيره حسب مشيئة السلطان .

ويحكم كل الأشراف أمام تقييهم على ما يتون من إخطاء بسيطة ، لكن ليس من سلطته أن يحكم على واحد منهم بالموت ، فلقضى وحده هو الذى يحصن بحاكميتهم فى الأمور المدنية والجنائية مظلم مثل بقية المسلمين ، وعندنا يحكم على واحد منهم بالإعدام يتولى النقيب تنفيذ الحكم . وللأشراف مسجون خلفهم بهم ويستخدم جزء من دخول القرى الموقوفة على النقيب لأحكام المسلمين من الأشراف (١) .

وليس ثمة بلد يمتنع فيه الأشراف بامتياز أكبر مما يتمتعون به فى مكة . إذ لهم الخطوة على سائر المسلمين فى كل الاحتفالات الدينية ، ولهم بخلاف ذلك امتيازات كثيرة ، ومع ذلك فحرف مكة ليس سوى أهر زمنى وليست له ثمة قداسة دينية ، بل أن الصلاة لا تقام مطلقا باسمه ، بل تقام الصلاة على الدوام فى الحرم المكي باسم السلطان .

ولقد سبق لنا أن تحدثنا عن العلماء ، وهؤلاء ينقسمون الى ثلاث طوائف كبرى : رجال الدين ، علماء الشريعة ، القضاة . والأولون هم الثمة ، والآخرون هم رجال الإنشاء وهم بمثابة محليين استشاريين يسدون آراءهم فى كافة الأمور ، أما الفئة الثالثة فهم قضاة العدل ، وينح القضاة من الدرجة الأولى لقب مولاي ومضاه سيد أو شريف . أما شيخ الإسلام — أو مفتى القسطنطينية — والوزير الأكبر (الصدر الأعظم) فهما أهم شخصيتين بعد السلطان فى كل الإمبراطورية . وهما يمثلان السلطان : الأول فى الشؤون الروحية والثانى فى الأمور الزمنية ، وليس من حق السلطان أن يحكم بنفس الطريقة التى يحكم بها المذنبون العاديون ، وعندما يدان شخص ما وهو يتخذ هذا المنصب الضهير بجريمة كبيرة فإنه يلتقى مديبا خاصا ، ربما كان أكبر بكثير من ذلك المديب الذى يوقع على المجرمين العاديين .

وتعرض على المفتى المسائل الحويصة التى قد تظهر عند تطبيق بعض

(١) يوجد كذلك اختلاف فى طريقة إعدام الأشراف ، إذ لا يمكن أن تفصل رؤوسهم من أبدانهم ، ويرسل النقيب الى السجن من يقوم بضيق المحكوم عليه بالإعدام ، ولا تطلق أجسادهم كذلك بعد تنفيذ الحكم بل تدفن على الفور .

الحكم الشرعية ، ويتوجه اليه للحصول على حكم منه باعتباره رجل الشريعة المكلف بإبداء الراى فى العقوبات التى تطبق فى بعض الجنايات . وهذا الحكم الذى يصدره عن هذه الأمور الجنائية أو فى غيرها من المسائل المدنية مثل حقوق أطراف النزاع فى قضية ما يسمى غتوى ، وهى تمثيل مطوقا شرعيا لتحديد مسار حكم القاضي ، ويحرر هؤلاء فتاواهم كتابية ، ولكن عندما يطلب إلى المفتى إيفاضات حول نقطة غامضة فى القانون فىقته يستدعى كبار العلماء ليناقش الحالة معهم ، ومن النادر أن يلجأ قاض ضليع فى الفقه إلى طلب رأى المفتى بل وأكثر من ذلك أن يلتزم بقراراته . ولكن عندما لا يكون القاضى ضليعا فى الفقه كما يحدث فى معظم الأحوال ، فإنه يلجأ إلى الدوام لطلب رأى المفتى قبل أن ينطق بالحكم .

ولكل من المذاهب الإسلامية الأربعة التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول مفت خلس بها فى القاهرة . لكن هذه الوظيفة لا تمنح ، بل هى لقب أو جدارة تبال بالسمعة ، أما فى المدن الأخرى والتى نحظى ببعض الأهمية لمن المفتى يقوم بإرسال قاض يمثله فيها ، ولا يمارس هذا « المولى » وظيفته إلا لفترة قصيرة من الزمن ، وأمثله فى تركيا يغيرون كل شهر ويقدعون لبنا لوظائفهم قبلما يتفاوت بحسب فراء المدينة التى سيسارسون فيها عملهم ، والمولى بعد الحكم هو السلطة الأولى فى المدينة .

ولمة فى مصر نظام للخلوات — وهى تماثل الأديرة — وتنتشر إلى حد ما فى الولايات التركية الأخرى ، ويسمى المنسحبون إليها دراويش . وهم يعيشون فى حراسة ويبرحون من حلة إلى أخرى وليس محرما عليهم أن يتزوجوا لكن لا يمكن قبول زواجهم معهم فى الخلوة ، وعلى هؤلاء أن يقطن فى مساكن خلصة ، ولكل جماعة من الدراويش دخول ثابتها من هبات موصى بها ومن منشآت أوقفتها عليهم الخيرون من المسلمين ، ولكل طريقة رؤساؤها ، ولكل خلوة رئيس يسمى شيخا ، وتمثلا من ذلك فإن هؤلاء الدراويش يتسمون باحترام علم ، ولكنهم ينهون بالتفلسف وهذا اتهام خطير عند شعب جاهل بتشبيك باخطقه بحكم النعود الطويل . فالشركيون يسمون فلاسفة كل العقول التى لا يسهل عليها أن تتقبل بسهولة الكثير من الأفكار والآراء ، وبخلصة تلك العقول التى ليست على استعداد للاعتقاد فى معجزات النبى . ومع ذلك فمن الصعب أن نقبل اتهامها كهذا يوجه إلى

الدرأويش ، فهم ليسوا مثوريين للحد الذي يهتمون معه في موضوعات جادة بل يبدو أن مثل هذه الموضوعات لا تثير اهتمامهم . وبما يكن الأمر ذاته يثن بكثير منهم المنطقة وعدم الودع . ويقول خصومهم بأنهم يهتمون من فيهم بقلة مهية المظف لعينهم ، فلا يلتزمون بعد ذلك بالثابة الصلاة أو الابتثال للدرأويش ، ويهتم لا يهتمون إلا من حيث الشكل ، وبأن كل ما يتظاهرون به فارغ لا قصد منه سوى الرياء . وثمة طوائف دينية أخرى كثيرة من المسلمين ولكن حيث أن بعض هؤلاء من النسك المتكثفين ويحطهم الآخر حجاج جوابون فسوف يكون من الصعب علينا أن نقدم تلمسيل موسوعية عنهم ، ولكننا نكتفى هنا بأن نحدث بعض الشيء عن الأولياء ، وهم بالنسبة للمصريين موضوع تقديس خاص .

ليس ثمة شعب لم يخلط بمعتقداته وممارساته الدينية سواداً من صور الابتثال المضحك ، فلقد صور المصريون في عصورهم القديمة الآلهة في أشكال بصفة الثرابة والوحشية ، وقدم الأفرق ألهم الذين أظهروهم في شكل التهمين إلى المذات الضخيمة والخبرة ، أما الرومان فقد كان لديهم عرفهم الباطنون من شكل المستقبل بعضهم لبعاء وجروح الأضحيان ، وكم من مرة استسلم الشعوب الضالمة لأول جمهورية مرعها التاريخ لضحية الدجانات المقدسة ، أو نتيجة استجداء جروح الأضحيان حتى يقرروا مصير الوطن ، أما عبادة الكهنة الخالبين فهي تكرر الأمور المزعجة التي يقدنها لنا التاريخ ، ومع ذلك فقد ظلت لوقت طويل مزينة على المثالبين ، وهكذا ، وكان هذا قدر لا يمكن الإعتات منه ، إذ يبدو أنه لم يبق بكل أنظمة البشر ، كرس المحدثون شأنهم شأن القداس لقطاء ومعتقدات بعيدة عن العقل ربما لم يعد من الممكن اغتزارها مع هذا الذي يلفه مثل الاستن مما كان عليه في تلك الأزمان الضارية في القدم . وفي هذا الصدد لا يقل المصريون المحدثون غربة عن أسلافهم وإن كانوا أقل منهم عبقرية ومهارة ، فهم يقيمون بمباداة أمور يجهل المثل من الأضرحة والأولياء حيث يتقدم الناس هناك أن الله قد كلف أولياء بخدمتهم وحياتهم للامر بطريقة شبيهة لصبحوا معها لا يبالغون — أي الأولياء — بكل ما هو لرضى ، بل أنهم جميعاً قد غرقوا في السمر بلعافيسهم الدينية ، وهكذا يلتقي البلاء في حياتهم الاحترام والتكبر باعتبارهم أولياء وقديسين . وثمة بعض من هؤلاء يهتمون بقدر شئيل من المواهب الروحية والفطرية ، لكن هؤلاء يتمسبون إلى

الاماكن المعزولة ليعيشوا كنسك زاهدين وينهمكون فى الصلوات والتأمل، وثمة اولياء من كلا الجنسين ، ويرى هؤلاء على الدوام وهم يسيرون عراة كما ولدتهم لهتهم ، لكن المتدين أو قل هو الصبي الصائم يكون بالنسبة لهم بمثابة الرداء (١) . ويغتن هؤلاء الانسحاب بعد موتهم فى احتفال كبير ، وتصبح مقابرهم بالنسبة للناس امكان ملئ بالمحجزات ، وفى الاريك ، وكذا فى الاحياء البعيدة من وسط المدن ، يوجد الكثير من هذه الأضرحة التى تدعى بوجودها لهبات المسلمين المتحمسين ، وهى على شكل شطب صغيرة تتفاوت درجة فخمتها ، وثمة رجال مكثون بالحفاظ عليها وللقيام بوظيفة الامام فى هذه المساجد — المقبرة ، لكن هذا العمل على الدوام ليس مجزيا ، وكثيرا ما تقبل فى الشوارع رجالا تفتيحهم الهلالية ، يتوجه شمرهم المتهدل ويمسكون بيدهم عصا : هؤلاء هم شيوخ مقابر الأولياء جاؤوا يتكلمون الناس .

وفى بعض الاحوال يلعب بعض المخطئين دور الولي حتى ينعموا بالترحيب والاحترام ، وبخاصة كرم الضيافة ، ولكن بعد وقت يطول أو يقصر ، يتوصل الناس الى اكتشاف الخدعة ، ويكون الهجر والاحتقار هو نصيب هؤلاء الأولياء المزيفين .

٢

الاعياد الدينية ، الجاهلية الرئيسية والتقيدة الاسلامية

سبق لنا ان تحدثنا عن اعياد المصريين أثناء حديثنا عن الاحتفالات وضروب اللغو عند الشعب المصرى ، وعلى الرغم من أن اعياد المصريين كلها تعود الى أصل ديني ، فليس ثمة سوى عيدين من هذه الأعياد يمكن اعتبارهما بحق اعيادا مقدسة ، وهذان العيدان هما عيد رمضان (عيد الفطر) وعيد نصحية ابراهيم (عيد الأضحى) . ويبلغ طول العيد الأول

(١) يروى عن كثير من الأولياء أنهم لم يكونوا على الدوام ببنائى عن ملذات الحس ، ويقال ان القداسة التى يتقربون بها قد سهلت لهم على الدوام وسائل اشباع كل ملذاتهم دون أن تمس قداساتهم حيث أنهم لم يخدموا الهواه الملم أو يخرجوا على متخيفات اللبابة .

ثلاثة أيام ، وفي هذا العيد يشكر المسلمون ربهم لأنه قد مكثهم من أن يضوا
لمرة الصيام على خير ، أما العيد الثاني ، العيد الكبير ، فيتم الاحتفال
به في العاشر من ذي الحجة وهو آخر شهور السنة ويستمر أربعة أيام
بالسجدة لعامة الشعب ، لكن الأثرياء وكبار الشخصيات يحتفلون به لأسبوع
كامل ، ويتفق حلول هذا العيد مع وصول الحجاج إلى مكة فيذهبون على
الجبل اضحياتهم . وفي يوم العيد تنبثق كل أسرة مسلمة في كل أنحاء مصر
حملا أو أي حيوان آخر بحسب إمكانياتها ، أما الأغنياء فيذهبون ليلتحق عدة
بحبث بخصص لكل فرد من الأسرة لبيحة على الأكل ، لكن الفقراء يتكفون
بأضحية واحدة .

ومما هو جدير بالذكر أن الأعياد الدينية التي قررها محمد لا تشبه
في شيء أعياد المسيحيين ، إذ هي ليست ليلا للراحة ، فهي لا تفسر
من بقية الأيام إلا في الصلوات الأسبوعية والادعيات التي تلي في كل مسجد ،
ويختلف ذلك فإن الحملات تظل مفتوحة ويستطيع العمال أن يقوموا بأعمالهم
المعتادة ، لكن الناس يغفلون أن يرمعوا من أنفسهم ، فيرتدون لجبل
ملايسهم ، وتنص الشوارع بالناس لتفحصوا في المرح .

ونذكرى مولد النبي في الأخرى مناسبة لمهاج كبرى للعامة فليذكر
المولدين بالمهرجين والحواف والحوالم وباعة الحلوى ، ومع ذلك فلا ينظر
لهذه المناسبة باعتبارها هذا أجبارها إذ يمكن الاحتفال أو عدم الاحتفال
به والعادة وحدها هي التي أتت به . وعند حلول المساء يسارع الناس
بأضواء الأوتار ويستمر اللهو حتى وقت متأخر من الليل .

وثمة عادة خاصة بمصر لا تشتركها فيها أيها يسبحو بقية الدول
الإسلامية ، تلك هي عادة ائمة الأعياد للأولياء ، حيث لكل قرية ولكل حي
من مدن مصر الكبرى ولي يحتفل الشعب بيوم مولده ، ورغم ذلك فلا تتلم
لثة صلوات اشيقية في المساجد وعلى الرغم من الدافع الديني لهذه الأعياد
إلا أن رجال الشريعة لا يشتركون فيه على الإطلاق ، ويتركون شئون

الإحتفال للسكان من كافة الطبقات وهؤلاء نهضوا على الدوام للمهجة وضروب اللهو (١) .

وجع ذلك شهر رمضان هو أهم الأوقات التي ينغمس فيها المصريون في الممرات ومختلف ضروب اللهو ، فهو في مجموعه شهر صيام وشهر مهرجانات . وقد يبدو من الغريب أن يفتخروا مثل هذا الوقت للتقاسم بممارسات متناقضة : القوة وتطهير النفس من ناهية ، والملاذات من الناهية الأخرى ، ولكن ، فعل المخرج قد أراد بذلك أن يخفف من وطأة تلك القوة المهلكة بعمل على أن تصبحها لوقت تخصص للممرات (كلا ١) إذ يستطيع الناس بشكل أفضل أن يتحملوا من ضروب الممرات تلك التي تعقبها الممرات والملاذات .

وإن يكون يتصورنا أن تكون فكرة تابة عن شهر رمضان ، شهر صيام المسلمين ، إذ اتخذنا من صيام المسيحيين طرفا للمقارنة ، فلقد منح محمد نفسه كابل الحرية في تقديره لنيط الرجل القليل الذي ينشده والذي سيحوز مباحج العالم الآخر ، لدرجة أنه قرر تقليدا بهذه القسوة يؤمنه مع الجماعة في هذا الصيام السنوي . فالصوم يستمر لشهر قمرى كامل ، ويأتي في أوقات غير محددة إذ يأتي أحيانا في الصيف وأحيانا في الشتاء ، لكن القريضة تظل في كلا الفصلين على قسوتها ، فينبغي على المرء أن يهرم نفسه من كل طعام ابتداء من شروق الشمس حتى غروبها ، ولا يستطيع خلال هذه المدة أن يشرب ولا أن يفخن ، ومن السهل أن ننهل قسوة مثل هذا الصيام ، إذا ما تصورنا كيف يكون الصلح في منطقة بدائية ك مصر ، هو اند اشكال الحرمان استعصاء على الفصل . وفي الوقت نفسه ، يكون على الصلبة الذين لا يستطيعون الاستغناء عن مهلهم اليومي الذي يتكسبون منه عيشهم ، الانتظار حتى نهاية اليوم ليروا غلاتهم ، ويرى المرء في فترة هذا الصوم حبالين يسيرون — كما في الأيام العسائية — وهم يحملون أحمالا ضخمة أو يحملون بطريقة شاقة لتلول وقت من النهار ، دون أن يربط حلقهم الجفاف قطرة من ماء ودون أن يتناولوا وجبتهم الصائمة

(١) يغفل المصريون الإحتفال بأعيادهم وممراتهم في الليل . وهذه في العائبات عادة كل الشعوب التي تعيش في جو حار . بتقليد في المنطق الإدارية في شوارع هو الوقت الذي تنشط فيه أجسامهم وملابسهم .

المجودة لتثبيط قواهم التي هدها العرق والصب . ولكن ما إن ياتي المساء حتى يتنهر المشهد ، انهم لم يعودوا نفس الرجال ، قليل بطوله يتقضى في الولايم وشروب اللبؤ والفور . في النهار ينط كل ابري قدر طاقته كي ينهي امله بسرعة ليخصم بضع ساعة للنوم ، فترى السراح راقدا تحت الفضة بعد ان انتهى في فترة الصباح ممله ، وترى الفجر يرقد على بنك فكته ، والعلبة مسخين في الشوارع بجوار جنران مسكتهم . بينما الغنى راقد بالمثل ، نحصان ينظر على اريكته الفضة الفضة التي تسبق غروب الشمس . واخيرا تأتي تلك الساعة التي طال انتظارها ، فينهضون على مجل ويهرع كل ابري للحصول على مكان مرتفع . وتجميع النساء في شرفات منازلهم ليرين حركة اختفاء الشمس ، وتبدأ الشمس تفسح رويدا رويدا ويأكل قمرها ليختفي وراء الأفق ، وتتمنى — والتلس في مشقة الانتظار — اشعتها حتى لن العلبة وسكن اللصور والقابض في مصائل الحرم — كل هؤلاء يحبون بصوت جباري تلك النهاية التي تكلت طويلا طويلا — وتعلن الافئدة العذلة حلول وقت المسرات ووقت الطعام ، وتدوي من كل المساجد اصوات المؤنن الجادة فتدوي الناس للصلاة ، وتحث هبمة واضطراب علم ، فيتفرق التلس على الفور ، وتفسح الجوامع ويجمعون اما الى المقاهي ولها الى البهوت والمساجد والميخمين العابة ، ويأكل كل ابري بشراة ، ويقيم الاثرياء مأدب بلاهة ويقدمون للفقراء فسات موائدهم . ويقدم الطعام للجميع بلا تمييز ، لكل الحاضرين ، وهذه العادة العبيدة بلا شك ، تطبق في كل ولايات السلطان .

ويحطب الطعام الاحتفالات والاعباب . وتسيطر الفلاة الجانحة على كل شروب اللبؤ في ليالي الفسق هذه ، وتظل المساجد مضاءة حتى بزوغ النهار ، ويقضى الليل للناس ليلهم في حديث ناعم ، لكن الجمهور يذهب الى المقاهي حيث الرواة والمفسدون يقصون بصاسة مثلية ، مخبرات عجيبة تطلب الابواب بطريقة مريدة ، ويهرع البعض الى العلبات ، فهناك على وجه الخصوص تزدهر المذات وتتم لقاءات الخسرام ، والمصلون بالصلوات ، المحتفون على هذا النوع من الامور ، هم على الدوام عصب هذه المخبرات الحلقية ، وهكذا ينتقم الضمن من سجنه وطغاه ، ولكن ينهي ان تحاط مثل هذه المخبرات بلكر قدر من السرية ، والا فان غضبه الزوج المطعون في كرامته ان يعرف لنفسه حدودا .

ويمكن القول أن المبادئ العلية هي الأماكن التي تعرض فيها أكبر مشاهد الدمار والفسق مدعاة للقبول . فهناك يتقدم بعض الصواة والشعوليين مشاهد شهوانية تنهى بلوحات بلغة الانطباع والظافة تشكل مساحا مدعيا للتقليد ، والمثلون الرئيسيون في هذه اللوحات هم على الغوام شيخ وطفل . ورغم ذلك ، فلو أننا حكمنا على تقليد الأمة بأكملها عن طريق الجيل الذي يديه لبناء الشعب مادة نمو هذه العروض ، لكونا بالتأكيد فكرة خلطلة وظالمة ، مثل هذه العروض المناهضة لا تجذب الا الموقفة والرماع ، ومثل هؤلاء الناس في كل مكان ، نهمون لرؤية مشاهد الظلمة والفسق بكل مريها ، لكن ما يدمو الى الأسف هنا هو أن تصبح السلطبات بمثل هذه العروض .

بل أن مباحث رمضان تصل الى معقل الحريم ، على رمضان يسمح للسيدات باستخدام الحوامل وبعض الموسيقيين ، ويجلس الزوج باسترخاء ولا مبالاة على أريكته ، ويسمى نأرجيلته في نومه ، وإلى جانبه أحب زوجاته إلى قلبه ، ليستمتعا بمتعة شديدة إلى أغنيات الحوامل وصوت الموسيقى ، ويحيط الزوجين بعضى المبيد ، واثنين من حولهما أو جالسين الفرصاء على حميرة . ولا بد أن يندى المرء اعجاب به بذلك التمثل الصامت (بالتقويم) للعالة الشبهة وهي تصور لى خلاعة وشهوانية ، الصراع بين الفسق وبين العفة ، ويحيط بقلمتها الرشيقة حزام معقود برحاوة ، يسدو كئنه العاجز الوحيد الذي يصد عنها هجمات الحب . وتعود لتعقده من جديد - برخاوة أيضا - كلما بدا أنه قد بدأ يستجيب بفعل قوة لا تقاوم وهي ترمض على نصمت الآلات ، لكن الحزام تزعزعه حركات الراقصة فهناك من جديد رويدا رويدا . متفكذ تنبه العفة فجأة بعد أن نوبتها الشهوة ، وتعقد الرقصة الحزام من جديد ، وينفس الرخاوة ، ويتخذ الرقص مظهرا أكثر حنية ووقارا . لكن ذلك يخلى مكانه مرة أخرى لحيوية الاحساسات والشهوة التي تبدو العالة فريسة لها . . وتتجدد نفس الظروف وتضمف المعتدة الرهيبة التي تحول دون الحب ، وتمتددا الرقصة من جديد ، لكن الحب ينتصر ولا يعود أحد يحترض على اتصلا وتستجيب العالة لى النهاية لمواظفها ، فغبطىء من حركاتها وتبدو غارقة لى هيلم لأفد ويمسك الحاضرون لها بحماسة وأعجاب ، ويحدث تمثيلها الشهوانى الصامت انرا يعوق الوصف على مشاهدتها ، ويخلصه على الزوجة ، فمخروج

من طورها — كما شاهدنا ذلك عدة مرات — مخالفة تلك الرقعة الشهوانية — فتصل صوتها بصوت الممين وتقلد حركات المائلة .

لن نختص طويلا في وصف تقاليد المسلمين أثناء شهر رمضان ، فقد حل الوقت لأن يعود الى موضوعات أكثر حنية . لنلق نظرة سريعة على الدين بشكل عام ، حيث في من الصحيح أن للدين في مصر بصفة خاصة — وأكثر من كل البلدان الأخرى — تأثيرا على كل النظم الحنية والمبادئ الاجتماعية .

ينبغي على المسلم أن يعتقد بوحدة الله (١) ، في رسالة محمد ، مع الإيمان بكل ما جاء في القرآن باعتباره كلاما مقدسا (٢) ، وأن يؤدي الصلوات الخمس مع أداء الوضوء الذي لا غنى عنه لممارسة هذه الصلوات ، وأن يحرس على صيام رمضان ، وأن يؤدي للقراءة جزءا من دخوله في كل هؤلاء القراء (٣) ، وأن يحج الى مكة مرة واحدة في العمر .

ويعترف المسلمون — رغم أن المسيحيين — بقدرة الله وعدالته ومعرفته بالغيب لكنهم يعتقدون أكثر من المسيحيين بالقضاء والقدر ، وأن كانوا يختلفون في درجة ثقل هذه الفكرة ، ويتقدم هذا الاعتقاد الى استسلام لا حدود له يبرهم من سائر الشجوب ، ويعتقدون في نفس الوقت أن الأعمال الإنسانية وأحداث العالم محددة بنظم ثابت ، حتى أنه ليس بمقدور المرء أن يتوقع بما سيكون خيرا به حتى ولو كان مرضيا محمدا (٤) . ويفسر استسلامهم الطبيعي على الدول بأنه خضوع أعمى لشئنة القدر .

(١) ينبغي الاعتقاد بصورة مطلقة في وحدانية الله فعلى المسلم الحق أن يؤمن بأن الله أحد ويثله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) يعتقد المسلمون أن الله أنزل القرآن على محمد عن طريق الملاك جبريل آية آية على مدار ٢٣ عاما .

(٣) من أهم المصاحفات الإجبارية التي على المسلم تتبعها ، صلاة عيد الفطر .

(٤) ينقسم المسلمون حول هذه النقطة . فيذهب الأحناف والأتراك مذهباً الى أن الإجراءات الصحية تعتبر مظهرا مبينا لقدرة الله ، لكن بقية المذاهب أقل تمسكا .

ويرى المسلمون أنه لا يمكن تمثل الله على أية صورة ، كما يدعون أنه لا ينبغي التصق في البحث في ذات الله ولكن ينبغي فقط البحث في صفاته ، ويرى بعضهم أن الروح منبثة في كل خلايا الجسم ، وأنها تجري مع الدم في العروق ، ويرى آخرون أنها مثل الشمس تتوزع لشعها على كل أجزاء الجسم ، وقد قتل محمد من الروح أنها من أمر الله . وعلى العكس فإن المسائل الميتافيزيقية التي مزقت مدارسنا المسيحية طويلا ، لا يميل إليها علماء المسلمين إلا قليلا ، لمعتقداتهم أفكار مسبقة ، وهم لا يسمعون لتفسير ذكاء العقل الإنساني وينظرون إلى موسى وإلى المسيح باعتبارهما من الأنبياء ، فالمسيح هو روح الله جاء من طريق نطفة من جبريل في العذراء ، وعندما قام برسائله على الأرض صعد إلى السماء حيث الدلت العليا ، وحيث يعيش الآن وإن الكرة الخاطئين في تولداتهم الإجرامى لم يقطوا أو يذبوا إلا شبهها له .

ويطلق العلماء على أن اليهود والمسيحيين الذين عاشوا قبل رسالة محمد كمثاقوا مؤمنين بحق ، ولكن حيث أن هذه الرسالة الأخيرة قد جاءت لتغير وتصلح من كل الشرائع التي جاء بها الأنبياء السابقون ، فإن أتباع موسى الحاقين وكذا أتباع موسى ككفار وغير مؤمنين .

ويرى المسلمون أن العالم مخلوق وأن الله وحده هو الأزل ، ولا يعود زمن النطق إلا إلى ألف عام وبضعة قرون ، والفترة التي ينبغي أن يحياها العالم غير مؤكدة ، ويتمتع محمد أتباعه إلا يحولوا مطلقا السمك فيها ، وقد خلق الله الخلق في ستة أيام : مطلق الأرض في يوم السبت ، وشكل الجبل في اليوم الثاني ، وفي اليوم الثالث خلق الأشجار والنبات ، وفي الرابع خلق الآلام والفن الاجتماعية (وهو يوم ساء الطلح) وفي اليوم الخامس خلق الظلمات والنور ، وفي السادس خلق الحيوانات . وظهر آدم في اليوم السابع لأول مرة على ظهر الأرض ، وكان قد تشكل منذ أربعين يوما .

ويؤمن المسلمون أيضا بهذا الاعتقاد الباعث على الأمل والمواساة : الإيمان بظلود الروح ، وهذه الفكرة هي بمثابة المحور لكل معتقداتهم . وعند الموت تمتد روح المسلم الحق إلى الجنة ، وهي خضراء على الدوام ، لتتظفر يوم الحساب الأكبر الأخير ، أما روح المسيء فتبقى لسيرة في

المناطق المحيطة والانسنة ، ولكن عندما تقوم السامعة ، وتدخل سامعة الحساب ، فإن العالم سوف يقلب رأسا على عقب ، وتتشكل الأرض من جديد ، وتفتح في النهاية أبواب الجنة وأبواب النار ، ويتخلص الله محلاها بكل رسله أعمال البشر ، وتعود الأرواح إلى الأجساد التي سستخلص من ظلمة نفسها بكل حيوياتها ، وحينئذ يدخل المفلتون إلى جنة النعيم لكي لا يخرجوا منها ، أما الآخرون فيذهبون ليكفروا عن جرائمهم ، ولكن ليس ثمة مذاب أبدى إلا أن لم يصدقوا رسالة وكلمة محمد (١) .

(١) السعادة التي وعد بها محمد لتمامه حسنة عظيمة ، وهي عبارة عن ملذات شهوانية أبدية ، ويقول المسلمون أن كل إنسان يوم البعث سيكون في قوة وعظمة الإنسان الأول ، التي لم تكن تقل تبعا لأتوالهم من حينهم لهذا ، وسوف تكون النساء على درجة من الجمال تشمل محوها طوبى الرجال بمختلفة تتجدد على الدوام ، ويستطيع الرجل لضيافها إلى ما لا نهاية دون نفور أي ملل . أما النساء فلا يحملن مطلقا ، لأن هذه الملذات ستكون على نحو ما ملذات علوية ولن يترتب عليها شيء من نقائص الطبيعة البشرية . وسيحتفظ المظل وكل الأطراف بكل حيوياتها ، كما أن الذين سيهمرون هذه الجنان سيقتسمون بسعادة لا تحول وبكل بياض الوجود وملذات الحس ، إذ لن لجسدهم ستظل على قوتها أبدا . ويشيع الاعتقاد في أوروبا أن محمدا قد استبعد النساء من جنته (٢) ، وهذا خطأ . لقد قال مؤلف كلاسيكي : « أن ما قيل من الرجال بفسوس الجنة هو نفسه ما قيل من النساء » وحيث اتهم خاضعت لنفس الغريزة الدينية مثل الرجال لينبغي أن يقتسم بنفس المكافأة . فالمصلوات الخمس وصيام رمضان والحج إلى مكة ، كل هذه غريزة الزامية على الجنسين . لكن النساء لا يسلطن لا أداء الصلاة ولا صيام رمضان أثناء فترات الدورة الشهرية ، لأنهن في هذه الفترة لا يهتمن بالطهارة الواجبة للمعبدة . ويؤكد الكثيرون أن النساء كن يقدورن أن يوجهن إلى المساجد في أيام النبي ، لكن الخليفة عمر عندما لاحظ ما يسييه وجودهن من سرهل منذ الرجل وما يكن أن ينتج من ذلك من مضللح ، لمرهن ، بكن يؤدين الصلاة في بيوتهن .

(٢) وهذا ما نهدد عند ملتشكو حين يقول : « وحيث أن النساء من طبيعة دون طبيعتنا وحيث أن تهبائنا قد قالوا انهن لن يدخلن الجنة .. »
Lettres Persanes, Lettre XVII.

بل إلى فولني Volney نفسه مرغم من ببحره في دراساته الشرقية قد ذهب إلى ذلك حيث يقول في كتابه :
Voyage en Egypte et en Syrie, t. II, P.323.

وليس ثمة طريق للحصول على مكافأة الحياة الأخرى إلا الطهارة والصلوات ، وبسطيح المسلم أن يؤدي صلاته في أي مكان ، فيسقط على الأرض سجدة أو حصىرة أو حتى شال شلته ، ويستدير بوجهه جهة مكة ، وصلاته قصيرة لكنها جية ، وإذا لم يكن ثمة ما يمنعه من الذهاب إلى المسجد فينبغي أن يؤدي صلواته هناك ، فهذا أفضل ، إن الله حقا في كل مكان ، لكن من الأفضل أن تعبد في بيته .

وفي داخل كل مسجد ، ثمة حوض كبير مليء بالمياه ، هناك يغسل المسلمون الأجزاء المستورة من جسدكم (الاستنجاء) ويطهرون أيديهم وأرجلهم حتى المرفقين . وعندما يجيئون صهاروات لا ماء فيها ، فائهم لا يطهون من أداء نوع من الوضوء ، يبل غيه الزبل القاعم أو التراب الطاهر محل الماء الذي ينقصهم (التيمم) .

والهدف من صيام رمضان بلا شك إرغام المسلمين على أن يولوا اهتماما أكبر إلى واجباتهم الدنية ، حيث أن عليهم في هذا الوقت أن يحرروا أنفسهم من جزء كبير من المذات الحسية ، فكل أرواحهم التي تحررت طيلة النهار من الهوس التي تشغلها مادة ، يكتفون أن تنغمس في حيلة أكبر في التأمل والصلاة . وهم لا ياكلون إلا في الليل كما قلنا ، والليل هو كذلك الوقت الوحيد الذي يسمح لهم فيه أن يقرؤوا زوجاتهم . ومن جهة أخرى فقسوة الصيام لا تمتد لأبعد من غروب الحرمان هذه ، إذ باستطاعتهم أن ياكلوا كل شيء كما يحدث طيلة العام . ورمضان هو زمن الصوم الاجباري الوحيد ، وللمسافر الذي يقوم برحلته أثناء الصوم إلا يصوم ، لكنه ملزم بأن يحوش بعد ذلك الأيام التي سبلوته أن يصومها .

والحج إلى مكة واجب الزمى ينبغي على كل مسلم حق القيام به ، ومع ذلك فحيث لم يستطع ذلك سن محددة لأداء الحج ، وحيث أنه ليس ملزما

« أن مبعدا برغم شدة ولعه بالفساء لم يمنعه شرف محبليتهن كجزء من الجنس البشري . فهو لم يشر إليهن لا بخصوص التوالف الدينية ولا بخصوص مكانات المعلم الآخر ، لكن هذا الزعم لم تكتبه كل مؤلفات رجال الدين الإسلامى محسوب ، بل إن القرآن للمسة ليس فيه ما يؤكد صحة هذا الزعم .

بذلك إلا عند المجبرة ، فكل مسلم يؤجل هذه الرحلة ، وقد ينتهي به الأمر بأن يعنى نفسه نهائيا من الحج . ومن هنا يحدث أن كثيرا من المسلمين يمتنعون فحينئذ منهم للحج .

ويحرم محمد على أتباعه - وهو الذى يحرم عليهم الطهارة الخارجية بوقد النار شيئا - الاتصال بزوجةهم أثناء الدورة الشهرية التى تقضى لها التسعة - وكذلك أثناء الأربعين يوما التى تعقب الولادة ، لكنهم يستطيعون الاتصال بشمسهم أثناء الرضاعة ، ويحول للمرأة التى تحمل أثناء الرضاعة أن تواصل إرضاع طفلها أثناء الأشهر الأولى من الحمل ، على الرغم من أن الأطباء يرون أن لبن الأم فى تلك الظروف لا يكون صحيا .

وتصبح الفريضة الإسلامية بكل لحم الحيوانات المجترة ، لكنها تحرم من بين كل الحيوانات ذوات الظلج أكل لحم الخنازير ، ولا يحرم أكل الضوئل إلا أتباع المذهب الحنفى ، وينبغى على المرأة أن يغسل الاتان الذى ضرب منه الكلب سنبع مرات قبل أن يستطيع استعداده من جديد ، وتخطط المذاهب حول علة هذا المبدأ ، ويرى البعض أن الكلب نسي بطبعه ، ويرى آخرون أن النفس فيه نطق هو الله وفيه . ويرى فريق ثالث أن مبيدا لم يقدم هذا النصح إلا خوفا أن يكون الكلب قد تناول طعاما أو شرابا غير طاهر . ونحن ندخل فى كل هذه التفاصيل ، كي نمضى فكرة من نوع عقيدة المذاهب المختلفة ، فهم لا تخطف مطلقا إلا حول مثل هذه الأمور الواهية

وينظر إلى الدم باعتباره غير طاهر ، لذا لا يمكن تناول لحم حيوان نلق بشكل طبيعي ، أو قام البعض بختفه ، فلا بد أن ينبغى وأن تسبيل دمائه ، ويخضع لهذه القاعدة أيضا الصيد الذى يقتله طلق ناري ، لذا يسارع المسلمون بقطع رقاب الطيور والاراتب أو الحيوانات الأخرى التى يصيرونها بظلماتهم ، والسك وحده لا يتطلب مثل هذا الأمر (١) .

(١) ليست النباتات ولا الحيوانات ذنبة ، ومع ذلك يمتنع المسلمون عن أكل لحوم الفرائس لسبب يعود إلى نفور طبيعى أكثر مما يعود إلى دافع دينى . ويرى المذهبان الشافعى والحنفى تحريم استخدام الزواحف كعداء ، لكن المالكيين يستثنون من ذلك الحملين إذا ثبتت .

وقد لاحظنا أن ثمة تماثلا كبيرا بين تعاليم المشرع العربي ومحرمات موسى ، ومن الواضح أن محمدا قد استعار عن المشرع اليهودي اجراءا صحيا أراد أن يحطه غير قليل للنقص من قبل الناس - صحيح أن لحم الخنزير له آثار بلقية الضرر على بنية من يتعمدون عليه في البلدان شديدة الحرارة مثل أفريقيا وآسيا ، بل أن هناك من يؤكد أن الجذام ليس له من سبب الا التعود على لكل لحوم الخنزير . وليس لمحمد من هدف في الزام لباهمه بالقوفوء وطهارة الجسم سوى ضمان صحة اتباعه . والقسركن ملهم باليسلديء الحكمة حول طريقة الحياة ، وكلها تهدف بوضوح لنفس الصلية . وعلما نقول ان المسلمين يفتنون بصفة كل ما يرضى منهم ، واندرن أولئك الذين يسمحون لأنفسهم من بينهم بالخروج على أوامر النبي ومع ذلك فسوب تكون سماعتهم اكبر لو أدركوا المغزى الفلسفى الصبى لبعضى هذه الأوامر والمعتقدات . تلك التى تبدو منيعة وموتية وهى تصنعت انرها المطلوب فى أجسادهم .

٣

الحكومة

كانت حكومة الاقليم تتكون قبل مجيء الجيش الفرنسى من النابا ورؤساء الأوجنات السبعة و٢٤ بك . وكان البك الأول يتولى وظيفة شيخ البلد ، وكان يحكم القاهرة وبصر . أما المنصب الثانى فهو منصب أمير الحج ، على الرغم من أن هذين المنصبين - حسب دراسة من نظام البلاد الإدارى - يمكنهما أن يجتمعا فى منصب واحد . وإمير الحج موكل بهراسة المعمل ، ولا معنى لقبه شيخا آخر سوى أمير الحج أو أمير الحاج . والشخصية الثالثة فى الحكومة هو المفتردار أو المستشار . وبعد هذه المنصب العليا بقى البكوات حكام الأقاليم ، وتتعدد درجاتهم بحسب أهمية ولايتهم ، وعلى هذا كان حكم جرجا يعد أول هؤلاء البكوات وكان يحصل لقب نابا بذيولن (١) أما البكوات الآخرون فكانل لبحازا .

(١) يفكر الصديق الاستاذ ريفيه جوري في احدى دراساته المخطوطات وهو باحث مدقق - أنه كانت هناك ثلاث درجات لرتبة النابا هى كبا
على : -

وكانت كل السلطة السميكية مركزة في يد شيخ البلد ، وهو في الواقع حاكم مطلق . إلا إذا جاءت ظروف غير عادية لترقبه على اقتسام السلطة . وهكذا كل الأمر وقت نزول الجيش الفرنسي أرض مصر ، فقد كان مراد بك - وهو الذي كان أميراً للحج وشيخاً للبلد والذي لم يكن يحتفظ مع ذلك إلا بهجرة من اختصاصات هذين القصبين - يحكم تلقية مع إبراهيم بك شيخ البلد الأصلي . وكان يتضمّن أن يوقع شيوخ البلد كل الأوامر المتعلقة بالإجراءات الاستثنائية والضرائب الاحتمالية الباهظة على الولايات والمخس حتى تصبح سلطة المفعول ، وهكذا يمكن القول بأنه قد ركزت في يده على الدوام قوة وسلطة الحكومة .

وكان حق تحصيل الضريبة المحصنة لكّة من اختصاص أمير الحج . لكن هذه الضريبة أصبحت شيئاً محالاً لما كانت عليه في فترات سابقة، حيث ظلت تتكشف شيئاً فشيئاً بفعل سطو البكوات الآخرين حتى لم تعد حصيلتها تبلغ إلا مقداراً ضئيلاً .

وكان شاملاً هذين القصبين بدرجة بالغة بغيان وكذلك كان حاكم ولاية القرية وسلام بلقي الذي كان يتكلم بالسحر أمام المحل عندما يمشي إلى القاهرة لكي يمد المسافرين بالماء والجمال والخيول والبغال . الخ . التي قد يكونون بحاجة إليها بعد سفر بهذا الطول . وفي البداية لم يشأ مسلّم الذي قسم وظائف الدولة على هذا النحو وحدد كذلك اختصاصاتها ، أن يتم اختيار هؤلاء الموظفين الكبار من بين المالكين أو المناجق ولا من أبناء البلاد لأسباب أكبر إذ كان المتكلم على الدوام

١ - بلقي بذيول : وهذه الدرجة تعادل رتبة الفريق .

٢ - بلقي بذيول : وهي تعادل ما كان يسمى برتبة الميربحران .

٣ - بلقي بثلاثة ذيول : وهي تعادل ما يسمى برتبة المشير .

ولم يكن يحمل الرتبة الأخيرة في كل أنحاء الإمبراطورية المتشعبة إلا ثلاثة فقط هم :

الصدر الأعظم ، بيطان بلقي ، والي مصر .

وعند مرور مركب أي بلقي كانت تصبغه بحرية برنوعة بحيث بها عدد الذبول التي تحدد درجته كما كانت توضع ليلهم بيوتهم نوانيس مذهبة أو فضية تنتهي رموسها بريشة واحدة أو اثنتين أو ثلاث يهضاء أو بنية اللون، ويتفق مدد هذه الريشة مع درجة البلقيسا سكنت البيت .

يكون نوعاً من الاحتكار العرب ، وكان هؤلاء بدورهم يرغم رعاياهم للحملة على
وخداهم لهم يكون لهم نفس الاحتكار . ويمود نصيبين السـ ٢٤ سنجنا ككك
الى عهد سليم . وقد خول هذا الأمير لـ ٢١ منهم بأن يكون — لكل — فرقة
من المسلمين تتكلف من ٦ طبائات ، ٦ مغارلت (خفوف) ، ٦ مـلر ،
نفرين ، وصنجة واحدة ، وكثاوا يحصلون على عطاه يصل الى ١٠٠٠ را
أردب من التبع في العام . أما البكوات الثلاثة الآخرون فلم يكن لهم الحق
لا في الفرقة الموسيقية ولا في العطاه السنوى . وكان يحتر من هيئة السـ
٢١ هؤلاء حكم ولايت : الشرقية ، المتصورة ، البحيرة ، المنوفية ، اطنح ،
الجيزة ، اليهنسوية ، الفيوم . وكان بك جرجا يحكم البلاد التي تمتد من المنيا
حتى آخر حدود السمهد . وكان الشتردار أيضاً يخرج من بينهم .

وكانت الوظائف المشمل اليها سنوية ، وفي نهاية العام ينتقل شغلوا
هذه الوظائف الى مراكز أخرى أو يصبحون أفراداً حادين كما أن بإمكانهم
أن يشتروا ، وهذا ما كان يحدث عادة وخاصة في السنوات الأخيرة . أما
الباشا فكان يختير على الدوام حسيماً يترامى للباب العالي أو بنسجة من
المماليك . وبغلا من ذلك ، فعليا كانت تسبح الشـفـf
المستورة التي تهل مصر لأصحاب المناصب البقاء في مناصبهم تلك ، فقد كانت
المصـفـفـفـفـفـفـفـفـفـفـفـf على الدوام يطلب بعضها البعض ويتبادل السيطرة
والمناصب ، وذلك هو الذي تقهه حكومات المماليك مذ حوالى نصف قرن .

وكانت للبكوات الثلاثة الآخرين في سلسلة السـ ٢٤ سنجنا مهام
ثقوية . فكان أحدهم كخيا أو وكيلاً للباشا ، وكان الثاني شرخة — بك ، وهو
يتنصـف منصبه مع زعمال له ولم يكن أى منها يتنصـف بسلطة من أى نوع ، أما
الثـفـفـفـفـفـفـفـفـفـf فكان يشغله ككك اثنين من البكوات ، وكان أحدهما يحكم
البلدة المسماة مـفـفـفـفـf في شواحي الجزيرة ، أما الآخر فكان يحكم المنطقة
الجاورة للمتصورة .

وقد نظم سليم سبعة أوجاقات أو سبع فرق عسكرية : أولها فرقة
(أوجاق) الانتصارية (ومضاهي الفرقة الجديدة) ويشكل العزبان الأوجاق
الثاني ، والفرقة الأوجاق الثالث ، والجنوديشية الرابع ، والجلوبلبن
الخامس ، والثلاثكجيان السادس ، وآخرها باقي أوجاق الخراكية . وكان

للأوجاقات الأربعة الأولى نظم خاصة بكل منهم ، أما الثلاثة الأخرى فتخضع لقانون عام .

وكانت حراسة القطعة موزعة بين الباشا ولوجياتي الإنكشارية والمزبل ، وكان الباشا يحل بلين من الأبواب الأربعة الموجودة في القطعة؛ أحدهما يؤدي إلى الجبل والثاني إلى ترابيدان . أما البقية الثلاث فيسمى بلب الإنكشارية ويسمى الباب الأخير بلب العزيرين . وكان يهرس بلب الإنكشارية كخبا (مقولى) وكان تحت أسرته ٦ جاويشية و ٥٠ لودا بقى . وكان لكل من هؤلاء المبلغت مسكن بالقرب من الباب ، ولم أرى أربعة رؤساء يختارون من بينهم هم الذين يصحبون جاويشية ، وكان الأوده بقى أو رئيس الحجرة لا يركب إلا العجل . وكان للجواريش الدلالة السوداء ، وغسلن اهران وفلوق أو عبادة من القطيفة السوداء .

والدلالة ليست إلا جلبابا واسعا من الجوخ الأسود . وعندما يصبح هذا الشخص سراجا للاحا ، يضيف إلى قلوقه قطعة من المرسلين الأبيض.

لكن هذه الفرق العسكرية قد دبت فيها اليوم عوامل الوهن ، مما يثبث ويهدمهم هم الذين يصنعون القانون، وجنودهم هم الذين يحطون بالمبادئ الهامة ويديرون شؤون الفرق الأخرى . ولم نقول من حديثنا عن الوظائف الهامة للحكومة اختصصت القاضى ، ذلك أن اختصصات القاضى ذات طابع معنى صرف ، وهو يعين من قبل الباب المالى — مثل الباشا — ويختلر القاضى قضاء الأقاليم ، وهو يختلرهم جميعا من أهالى البلاد ، ومن خرجى الأثر ، حيث درسوا الشريعة وكيفية تطبيق القانون . ويفضل خرجى الأثر هذه الوظيفة على كل الوظائف الأخرى ، لأنها تنفذ بسرعة نحو الثروة وتعطى بلحرام النفس .

وقد حدد السلطان سليم القلعة كمقر القلعة للباشا ، ولا يجوز له أن يختلر مقرا آخر .

وكان هو الذى يطلع القطعة على من وقع عليهم الاختيار للمستغل

المناصب ويقتضى هدية من كل من يعينهم (١) ، ولكن بعد أن استعاد المليك سلطونهم تغير كل شيء ، ولم يعد الناس في السلطة إلا مجرد ظل يمتد على كل نزوات المليك ، بل يمكن القول بأنه كان وانما تحت رحمتهم ، وهذا هو الحال الذي كانت عليه مصر عندما دخلتها قواتها .

فلما إن أمير الحج أو أمير المحمل كان موكلا بوجه خاص بقيادة الحجاج إلى مكة ، وبثلاثين طريق العودة لهم . وحيث أن سفر المحمل كان حدثا عالميا بالقيمة لمكانة القاهرة بن لمس كلها ، تستغل في بعض التفاصيل من الصلوات التي كانت تتم بهذه المناسبة .

عندما يقترب الموعد المحدد لسفر المحمل يتجمع في القاهرة كل المسلمين القادمين من أفريقيا ، والذين يريدون الانضمام إلى المحمل ، ويصل آخرون من القسطنطينية ، من روميلي ومن الأناضول ، من طريق البحر ، وحتى يختصروا الأسفار عليهم أن يقوموا بها إذا ما سلكوا الطريق المعتاد. ويصغر هؤلاء الحجاج خرج المدينة ، ويكون عددهم في بعض الأحيان كبيرا جدا ، إذ يخرج من مصر وحدها ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ حاج . وحيث إن هؤلاء الحجاج مضطرون لاجتياز مناطق شاسعة ، تكاد تكون كلها صحراوية ومبتلاة بمخاطر العرين ، الذين ليست لهم من حرية سوى السلب والنهب ، فقام مرغمون على التزود بالسلاح والذخيرة ، وتجهيز لهم حكومة مصر فوق ذلك ركبا حوالي ٥٠٠ فارس تحت إمرة أمير الحج ، يشرف اليوم هذا القائد بيته العسكري (ماليكة) وبعض جنود من البرابرة ، بالإضافة إلى الرجال المحليين في خدمة كبار الشخصيات الموجودة بالمحمل. ومن حق أمير الحج أن يرت كل حاج بيوت في الطريق ، وليس من حق أحد أن يطالب بشيء من مثل هذه التراكات . وتستغرق رحلة الذهاب أربعين يوما ومثلها في رحلة العودة ، وبذا تمتد فترة المحمل إلى حوالي الثلاثة أشهر . وبهذا مسيرة المحمل في الشجع والعشرين من شوال ،

(١) كانت الخطة عند الاتراك كما هو معروف ، تقدم إلى المحتفى بهم في حفل تقديمهم ، وهي عبارة عن قطان وجبة ، ولم يكن يقدم في المناسبات الدبلوماسية سوى القطن ، وهو مصطف مفتوح من قمليتين ، ملطته ببيضاء بورود صفراء . وقد جرت العادة أن تزاد الجبة بفراء ثخين ، وأحيانا كان يكتفى بتزيين حوافها ، وكانت الجبات التي يظلمها السلطان ضاربة العين .

لكن الصعوبة التي نجمت عن فرض ثلثة أصبحت تؤدي منذ عدة سنوات الى تعطيل السفر حتى ٢ أو ٣ من الشهر التالي . ويختار كل حاج أن يركب نوع الدابة التي تروقه ، وهم ينقلون على وجه الخصوص البغال والحمير لأن هذه الميوانات أكثر من الحصان تحملا للنصب وضروب العرمان .

وقبل الرحيل بعدة أيام تعرض الكسوة أو السجادة المخصصة للزعم الكعبة في موكب بائخ . وهذا الموكب عهد شعبي كبير ، فيذهب كل سكان القاهرة في جماهير قليلة الى الميدان الكبير الذي تطل عليه الطحة والذي يسمى قراييدان ، وهناك يسلم اليكسا — يحيط به عدد كبير من البكوات مع بهوتهم (١) ، ورجال الأوجاغت والأغا وكبار موظفي الحكومة — يسلم السجادة المقدسة الى يدي أمير الحج بعظمة وخيلاء ، وتحرر حجة بهذه الوديعة ، وبعد ذلك يكون من واجب كل كلمة المساجد وكل المسلمين بالمدينة أن يصحبوا السجادة ، تتحمل على جمل وتير في يلب النصر ويسلم الموكب الى معسكر الحجاج ، وتوضع السجادة في صندوق منطى بالمشقة مغطاة بطرزة طريزا فخرا — ومنذ هذه اللحظة يقيم اليك أمير الحج وسط المعسكر ، ويضرب كل المسافرين تحملا كانوا أو حجاجا خيلهم حول خيمته ، ويكون من حق أى منهم أن يشرع في السفر ، لذلك ينتهي حكم من التجار هذه الفرصة الفريدة لكي ينقلوا بضائعهم دون أن يدفعوا رسوم الضخول أو الخروج ، فيقبلون على ظهور الجبال مبنية القلعة والأصناف ويضائع ثمينة أخرى وكثيرا من الأموال ، ويجلبون معهم عند العودة شبلان (شال) الكشمير والموسلين والامتبشة الفاخرة والين (٢) .

(١) يقصد بالثبوت منذ الحديث من أحد البكوات كل رجاله وسلكه .
(٢) من نائلة القول أن ثلثت الانتظار الى أن للحج الى مكة الذي فرضه محمد أفراشا سياسية أكثر منها دينية ، إذ كان يلبل عن طريق الحج أن تزدحم التجارة في شبه الجزيرة العربية لتصبح واحدة من أهم أسواق التجارة في العالم .

وقد تحقق هدفه ولو كان جزئيا ، إذ يمكن القول بأن الدافع وراء سفر نصف الحجاج على الأقل ليس سوى مصالحهم التجارية وبلاط مؤلف كتاب *Tableau de L'Empire ottoman* — وتتم ثمره على ذلك — أن « محمدا قد حدد لمبدأ الأضحي وقت قدوم الربيع حتى يجعل السفر على الحجاج أقل مشقة ، ولكي يسهل في نفس الوقت نقل وبيع البضائع »

ويكون وصول الحمل المقدس (١) ، إشارة بدء الرحيل ، ويقصد هذا الجبل الى المسكر حيهو فقير . وعندئذ تطوى كل الخيام ويتوغل المسافرون في الصحراء وبعد اقل من ساعة لا يعود الميدان الواسع الذي كان المجاج يشغلونه سوى مكان موحش . ويسير امير الحج في المقدمة وتصلف فرق الحراسة على جانبي الموكب ، وكذلك عند مؤخرته ، ويظنون على هذه الحال حتى وصول الركب الى مقصده .

ولا نستطيع ان نؤمن بحلقة هذا الحبل ما يليق بها من وصف على الرغم من انها في الأزمنة الأخيرة قد فقدت الكثير من روعتها التي كانت لها ، فقد كان على مراد بك في معظم الأحيان — وهو الموكل اليه منصب امير الحج — ان يقاتل الميرين في الصحراء ، بعد ان اصبحوا اكثر سطوة بسبب ضعف أسلحته ، ولو كان مجرد تأمين طريق المحمل والتجارة التي كانت تحظى برعايته كهيلا باعادة ازدهارها السابق ، لربما كان يكتفي بهذا الرجل المتسام ان يحصل ذلك ، لكن حوادث السلب ، والانتهاكات ،

لذلك ان الحج ليس له بعدئذا سوى قصد سياسي يتخفى تحت ستار الدين ، والغرض الرئيسي منه هو التجارة واقبال أسواق هائلة ، ولقد فهم المسلمون جيدا أهداف الشرع بحيث جعلوا من هذه الرحلة امرا مبنيا في العلاقات التجارية . ويصعب علينا ان نكون فكرة صحيحة من الثروات التي تكتسب في مكة لو تلك التي تكتسب في الكعبة وقت الأضحية ، وهم هناك ميلت تجارية كبرى ، وتكون حركة البيع والشراء والتبادل خلال خمسة عشر يوما عظيمة ، لحد ان الذين يشهدونها لا يستطيعون تقدير قيمتها ولو بشكل تقريبي .

(١) يعود ظهور الحمل المقدس في مواكب الحج بل ووجود هذا الحمل نفسه ، الى خرافات المسلمين وساطة مفاهيمهم . اذ هم يدعون ان محمدا في رحلته قد حمل عرشه (١) على ظهر جبل وقد تنفصل هذا الجبل بعد ذلك . وقد حرص السلطان على ان يمتلك التين من هذه الجمال التي تعد مطية النبي المفضلة ولكن حيث ان من الخطر ان تعرض هذه الجمال لتأليب الحج ، منه يلجأ الى جبال أخرى يقال ان لها نفس الأمل وترى في دمشق وفي القاهرة . وهذه الجمال اقل تكلفة وتقوم بالرحلة الى المدينة المقدسة . وتقليدا لذكرى أن محمدا كان يقوم بالسفر على الدوام من مكة الى حبل عرفات على جملة فان الحجاج يحرصون دائما ان يصحبوا جمل القاهرة المقدس ، وكذا جمل دمشق المقدس ، في كل الأسفار التي ينبغي عليهم القيام بها في اليومين اللذين يسبقان طبع الأضحية .

بالإضافة إلى الحالة المتدهورة للحكومة ... كل ذلك لم يكن يبرر ما يمكن من الأمل للسكان أنفسهم ، وهم الذين لم يجدوا بملكهم القيام بأعمال كهذه ، أصبحت تعد ضريبا من الضاريات غير مألوفة المواطن .

٤

القضاء

يرتبط القضاء المحكمة اليهم مهمة اقلية العدالة في مصر بالهيئة القضائية الإسلامية التي مقرها القسطنطينية ، ومن بين امتيازات الباب المالي حق اختيار القضاة من الدرجة الأولى ، كما أنه قد احتفظ لنفسه بحق تعيين بلائيا ، ولكن إذا كانت سلطة الباب المالي في تعيين البلائيا ليست سوى وهم ، وإذا كان نفوذ مثله قد تضائل لحد العلم شبه العلم ، فإن الأمر لم يكن كذلك بخصوص إدارة القضاء ، إذ لم يكن في هذا الأمر ما يتعارض مع رغبات المالك ، أو ما يفسد من نفوذهم السياسي ، لذا فقد قبلوا عن طيب خاطر أن يرسل اليهم السلطان رجلا موكلين بتلك المهمة الصعبة : مهمة تطبيق الشريعة . بل إنها مشقة وعرضا هو عليهم ، وعلى هذا فإنه لم يحدث مطلقا أن مارس المالك سلطات القسطنطينية القضائية في حق تعيين رؤساء المحاكم بمصر . بل أنهم باستقيلهم لهؤلاء القضاة الذين لن يؤثروا مطلقا على نفوذهم السياسي ، كانوا يهيئون لأنفسهم مزية لا تكلمهم شيئا على الإطلاق ، تلك هي مزية تقديم الدليل على الولاء للسلطان .

ويشكل القضاء في تركيا على نحو ما طرقة مهنية لها رؤسائها الخاصمون للإشراف المباشر للمنى الأكبر (١) ، وكل مناصب هذه الهيئة

(١) المنفى والمصدر الأعظم هما أكبر شخصيات الدولة بعد السلطان ، وتتكون الهيئة القضائية من علماء كبار ، وفي عهد السلاطين الأول كان العلماء ينقسمون إلى ثلاث درجات : الأئمة (أسام) وهم الموكلون بالعبادات ، المنفى أى فقيه الشريعة ثم القضاة : فقهاء العدل ، وهؤلاء الآخرون هم أكثر الجميع أميالا ، وقد منح براد الأول لأكبر القضاة لقب فاضل المبكر وأنشأ محمد الثاني منصب فاضل مبكر ثان ، وأعطى لهما سليمان الأول منى العلية وهو الآن شيخ هيئة العلماء ويحصل

قابلة للتنمير ، والتغييرات فيها باللغة الصيوع ، ويمكن لتفسي الشخص ان يصبح بالتناوب شاعلا وظيفه اعلی او اثنى من تلك التى كان يشغلها ، ويقوم احد كبار اعضاء هذه الادارة القضائية بتعيين كل قضاء مصر ، وعددهم ٣٦ قاضيا بما فيهم قاضى المسكر المكلف بإدارة شئون القضاء فى القاهرة ، والذى يعتبر القاضى الأول فى الاقليم ، وعلى الرغم من صدارته على كل القضاة الآخرين بسبب علو منصبه وكبر حظه وما له من اعتبار ، فان القضاة الآخرين لم يكونوا تابعين له ، اذ كانوا يتبعون القسطنطينية مباشرة ، ومعظم هؤلاء القضاة يجهلون لغة البلاد ، وكان قاضى المسكر على الدوام يستعين بترجمة يكتبون بقرآن النصوص ويترجمونها كما يحلو لهم ، كما كانوا يحصلون اتاوات شتى .

ولما كانت مدة ممارسة أى من هذه الوظائف تتجاوز السنتين ، بل كثيرا ما كان يخرج القاضى من وظيفته بعد عام واحد . وكان كل واحد من هؤلاء القضاة يلقى مند رحيله من القسطنطينية قرارا يحدد الولاية التى سيدبر شئون القضاء فيها . كما يحدد المدة التى سيقضيها فى وظيفته ، واذا لم يلقى القاضى بعد هذا القرار أمرا متينته فانه يوقف مباشرة أعماله القضائية . وقد جرت المادة فى هذه الحال ان يترك مقره المعتاد كل يوم ينتقل الى ان يتم تشيئه او وصول بديل له . وفى هذه الفترة يقول رجل الشرع المصل نيابة عن القاضى ، ويستلزم هذا الأمر دفع رسم الى القاضى المساعد بالحكمة ، وكان قاضى المسكر عادة لا يبقى فى مكانه الا لعام واحد ثم يضى بعد ذلك الى وظائف اخرى ، وعندما يصل القاضى الجديد من القسطنطينية ، فانه فى غالب الاحيان يبيع الوظائف التى كانت فى حوزته الى سلفه ، ولسنا نعرف مقدار الثمن الذى يمكن ان يبلنه هذا النوع من

لقب شيخ الاسلام ، وصدارة المفتى بمقصورة على قضاء المأصبة ، ويشكل قاضى مسكر الأناضول المحكمة الثغية فى الإمبراطورية ويحكم باسمه فى كل القضايا المتصلة بالوارث فى كل اقليم آسيا ، وهذه واحدة من المهام الاسمية لوظيفته ، وينفع له كل شهر مبلغ يتفاوت قدره من رؤساء ترى ومقاطعات ولايته ، وقد أصبحت وظيفة القاضى قابلة للتنمير كل عام عند نهاية القرن الأخير ، وكان من النادر ان يشغل الشخص نفسه الوظيفة الواحدة مرتين الا اذا اخذت ترتيبات معينة مع خلفه ، وكانت وظيفة المصدر الروسى - وهى التى تناوب كثيرا على مركز قاضى مسكر الأناضول - هى وحدها التى تستثنى من هذه القاعدة .

التراخيص ، ولا أبلغ الذى يعرضه صاحب الوظيفة حتى يتناول منها ، وكانت هذه الصلقة تتم بالتراضى مع الطرفين ، وبهذه الوسيلة كان القاضى يظل فى عمله مدة تبلغ أربع أو خمس سنوات .

والذا ما لاحظ الباشا المقيم فى القاهرة بعد انقضاء عمل القاضى ان يساعد هذا القاضى ليس جديرا بل أن يخلعه فى عمله ، فان بإمكانه أن يكلف الأهل الخاص به بهذا العمل الهام ، وبهذه الطريقة اختار إبراهيم بك منذ مدة سنوات — عندما كان فى منصب قائم مقام — الشيخ العريشى لى يقوم بصفة انتقالية بمهام القاضى ، بسبب غيبة أهلك الباشا .

وكان نموذج القاضى القاهرة يند إلى مصر القديمة وبولاق ، أما الجيزة فكانت لها محكمة خاصة بها ، وكان القاضى يعين ممثلون منه فى دوائر القاهرة المخططة : ٩ فى المدينة ، واحدا فى بولاق ، وآخر فى مصر القديمة ، وكان هؤلاء القضاة المروسون ، الذين لهم بنودهم مسامحون ، يفصلون فى القضايا باسم القاضى ، وعندما كان يتغير القاضى المسكر ، كان هؤلاء القضاة يشتركون من خلفه حق التثبيت فى وظائفهم ، وكان من المبع فى البداية حسب الأنظمة السائدة أن يفصل فى كل القضايا القديمة إلى دائرة ما ، ثم حدثت فى الآونة الأخيرة مجموعة من التعديلات فى هذا النوع من مروج الإدارة كما فى بقية فروعها ، وفتح القضايا الكبرى عادة إلى محكمة القاضى ، الذى يكلف لجد ممثليه بالانتقال إلى مكان الجلسة ، والبدء فى التحقيق .

ويسلم القاضى عند دخوله الوظيفة مرقعا من الباب العالى يمهّد إليه بوظيفة قاضى ، ويحول له أن يختار الحد الذى يراه مناسبا من المساعدين ، ومع ذلك بعد كان هذا العدد محددا بفعل المادة التى لها فى الولاية الإسلامية قوة القانون .

والحكم فى أية قضية لا تقضى له (١) . ومع ذلك فقد وضع الدين شروطا محددة تقضى من هذا الإجراء التشرىعى سنة الإطلاق ، عندما

(١) نقرأ فى مجموعة فتاوى المفتى بهجت عبد الله لفتدى أن كل قضية تحمل إلى القضاء وتخص ويفصل فيها لا تحمل إلى القضاء مرة أخرى .

تكون التعفية خطيرة أو عندما تحظى باهتمام الشخصيات الكبيرة ، فإن القاضي يستطيعه بتصالح رجال الشرع ، ويستطيع الأطراف أن يحصلوا مقدما على نوع القرار الذي يصدره القاضى ، ويلجأ القضاة عادة الى هؤلاء المفتين ولرايهم سلطة معترف بها ، ويصدر القاضى على النوام فتواه أو رايه المتأملح ، وإذا كان حكم القاضى قد صدر فهو متخذ بمثابة قضاء من عند الله ، ومع ذلك فإذا حدث أن أجمع مقلو المذاهب المخطئة على الانتقاص من قرارات القاضى ، فإن القاضى يعترف بخطئته ويسحب حكمه الأول .

والقوانين التى يحكم بهتفتهاها كلها مكتوبة ، وتستخلص أصولها من القرآن ، وتفسرات هذا الكتاب السيفى والدنيى هي شرة عمل جمهور كبير من المفسرين ، ليس من بينها كتب ثمة المذاهب السنية الأربعة وهذه المذاهب هي : الحنفى ، المالكى ، الشافعى ، الحنبلى . وكل علماء مصر تقريبا يتبعون المذهب الثالث ، ومع ذلك فإن القضاء فى مصر - وهذا ثلاثة قرون - يتم وفقا لأحكام المذهب الحنفى السائد فى القسطنطينية .

لها مهام قاضى الصكر المخطئة هي :

- ١ - الفصل فى القضايا .
- ٢ - المصار آتية المساجد .
- ٣ - إدارة الأوقاف الخيرية .
- ٤ - تقسيم التركات .
- ٥ - تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات .

ومعاريف القضاء - كعادة عالية - تحصل من موضوع النزاع . لو من الشخص الذى يحكم لمصلحه ، ويعتبر المسلمون أن فرض محليف على الشخص الذى لم يحكم لمصلحه عمل متفلس وبالفق القسوة ، ويفصل فى القضايا عادة على الفور ، ومع ذلك فثمة قضايا يستغرق فحصها مدة ايام ، بل يصل الامر أحيانا الى شهرين أو ثلاثة شهور .

وفي كل قضية نهر أريحا لبارك : القاضي ، المدعى ، المدعى عليه ، موضوع النزاع . ولا يفصل في أية قضية في خيبة واحد من هذه الأطراف . ولا تحدث أية أدانة مطلقة من الأخطاء . وعندما يرفض المدعى عليه الحضور فإنه يستدعى بالقوة ، وعندما لا يستطيع أحد الأطراف أن ينتقل إلى المكان الذي تنظر فيه القضية ، يقوم القاضي بتعيين شخص مشهود له بالاستقامة والنزاهة لمطالبة ، وكل طرف بدافع عادة عن موقفه ، ويمكنه أن يهدد بذلك إلى رجل شريفة أو إلى صديق ، ولا يلقى الشهود مطلقاً أجراً على شهادتهم ، ويمكن دعوتهم إلى القسم لكتم ليسوا ملزمين بذلك ، لكن المذهب المألوف وحده هو الذي يحتم ضرورة القسم .

ولم تكن مصاريق القضاء قبل مجيء الحملة منظمة ، وكان قاضي الصلح أو مجلثه يحصلون حوالي $2 \frac{1}{4}$ من قيمة الأقساء موضوع النزاع ، لكتم في العدة كانوا يفرضون رسماً كبيراً ، وكان ذلك ليرا بالغ السهولة لدرجة أنهم كانوا يحددون حسباً يترامى لهم رسوم القضاة . ومن هنا كانت مصاريق الدعوى تصل في بعض الأحيان إلى ٨ \times أو ١٠ \times بما في ذلك أجور الكتبة والمترجم . وقد وضع الفرنسيون حدا لهذه الإتهامات البربرية كما سبق أن قلنا ، ومع ذلك ، فلما كان رافع الدعوى شخصية كبيرة مثل القاضي لا يستطيع أن يفرض رسماً لكسر من $2 \frac{1}{4} \times$ ، وفي نفس الوقت لم يكن القاضي يتقاضى شيئاً من القراء ، ونادراً ما كان ينقص ما يحمله مسلم لبله من أنه فقير . ومن المبادئ التي تنص بين القضاة ، أن الفقير طرف له قدانسته .

هكذا وضع العرف والأخلاق حدوداً لجشع القضاة . بل لقد لوحظ أن القاضي المسكر ، وهو رجل ذو طباع خفية وله سطوته واحترابه ، كان يكفى بما يقدم له دون أن يفرض بنفسه شيئاً ، حتى يحتفظ بتقديره الكبير وحبه العيلة . ويؤخذ أن نظمت سطوة البكوات في بحر ، امتداد القضاة

لا يطلبوا رسوما من أولئك الذين يخلق عليهم البكوات حملتهم (١) .

وكانت الأحكام التي يصدرها مطلقا القاضي ، بالرغم من كونها مختومة بخاتمه ، تخضع في حالات كثيرة لتتبع من القاضي ، وخاصة فيما يخص بالاجراءات التي تتخذ ضد المتضررين المتخلفين ، أو فيما يخص بالأحكام التي تحدد التويضات التي يقررها الأزواج على أنفسهم ، ويمكن لقبضاها من هذا النوع أن تحول من محكمة لأخرى ، وهكذا حتى يأخذ القاضي ملها ويصدر فيها حكمه النهائي .

سبق أن قلنا أن القاضي العسكري يشترى وظيفته من السلطنة ويدفع الترابها إلى رئيس قضاة الإنشغال وإلى شيخ الإسلام ولم نستطع أن نستدل حل مقدروا ما يلزمه للأول، لكن الثاني كان يتلقى منه عشرة آلاف مدين في الشهر (٢). ولتمريض كل ذلك كان قاضي العسكر يفرض على مثليه اكله لا تتجاوز في بعض الأحيان ٩٠٠ مدين في الشهر ، ويستطيع هؤلاء القضاة الرؤوسون أن يحصلوا في مجلد ذلك ثروة طيبة في وقت قصير . وثمة كثيرون منهم يصلون في قضايها كثيرة للغاية ، لكنهم لا يدفعون أكثر مما هو مقرر ، ومن الصحيح أنه لا يسمح لهم بالفصل في كل هذه القضايا ، لكنهم يدفعون رسوم القاضي إلى ٨ - ١٠ ، لذا يسبل عليهم على الدول أن يكونوا ثروات ضخمة في وقت قصير .

(١) يحدث عادة ألا تسمح طيبة القضاة المتأخر عليه بتحصيل رسوم ، مثال ذلك عندما تكون الشكاوى مقدمة من أشخاص وليس من ممتلكات لكن أمورا من هذا النوع تنتهي مادة عند القضاة لأن تقوم بدين وهكذا أصبح القاضي يحصل رسوما في مثل هذه القضايا بفرض نوع من التهربات للقضية .

(٢) يشغل وظائف القضاة الستة والثلاثين في مصر ، قضاة من الدرجة الرابعة وهم ينقسمون إلى ست درجات ، وقد جعل سليم الأول من حق بعض هؤلاء أن يستمروا في مناصبهم . وهؤلاء القضاة هم مساهمون أو نواب ويشكلون الدرجة الخامسة في السلم القضائي ، وليس من الضروري أن يكون ينسب هؤلاء قليلا للتغيير ، وهم يشتركون وظائهم من القاضي في شكل التزام أو في شكل مختلف ، لذا كانوا يستصرون في مراكزهم لأية فترة حسب أهواء رؤسائهم ، وعندما كانت تقضى بسدة القاضي ، كان هؤلاء النواب الذين يرون من صلاحهم الاستقرار في مناصبهم يسلمون بتقديم ولائهم للقاضي الجديد ونادرا ما كان يرفض واحدا منهم إلا إذا كان ثمة هذه شكوى من نوع خطير .

رأينا من قبل أن وظائف القضاة الـ ٣٦ كانت تبايع في القسطنطينية لرجال مشهود لهم بالاستقامة ، وكانت النتيجة الطبيعية لنظام من هذا النوع أن كل قضاة مصر كانوا غرياء على البلاد التي عليهم أن يملسوها فيها وظائف على مثل هذه الدرجة من الضلوة ، وبالرغم من أن أحدنا من المواطنين لا يستطيع في ظل السيطرة العثمانية أن يرنوا إلى وثيقة تافس ، فقد رأينا في السنوات الأخيرة كثيرا من المحاكم يرأسها مصريون ، حيث لم يكن الأجانب الذين يصلون إلى مصر ومعهم فريق من توبيخهم في وثيقة تافس ، يلزمون أنفسهم على الدوام بالعمل في ذلك القضاء ، بل كانوا يبيعون وظائفهم ، إما إلى ملتهم كما سبق لنا القول ، ولما إلى رجل آخر من رجال الشرع يستطيع أن يفتح الثمن ، وسعر هذه الوظائف غير معروف لنا على وجه التحديد ، ومع ذلك يبدو أنه لم يكن بجوار . ؟ الف مدينى في العلم لوظيفة تدور دخلا متوسطا .

وفي أثناء احتلال القاهرة من قبل الفرنسيين ، أغلقت لبعض الوقت كثير من المحاكم الخاصة في المدينة ، وتوقفت المجلات المدنية الصنف بين السكان ، وحيث أن المصري بطبعه شكك وخجول في نفس الوقت ، فقد كتم المصريون شكوكهم ، وبدأوا وكثفهم قد اتهموا في أعمالهم مراهن نفس الدرجة من الأمن التي كانت مساندة في الماضي ، ولم نعرف نحن الفرنسيين إلا بعد وقت طويل حقيقة التأثير الذي أحدثه في النفوس مثل هذا الإجراء الشاذ ، لكن الإمتداد الذي سيطر بعد الغزو قد طابن بشكل (الاسموري) من روع هذا الشعب المتحامد من الأخطاء ، وهو الذي ما يزال يتذكر منقطع حسن بلقاء أثناء حملة ١٧٨٦ .

ومعها بدأت الإدارة الفرنسية تحلى بنوع من الاستقرار ، أي بعد الاحتلال بعلم ، انفتحت كل الخراف العنصرية التي كانت قد أغلقت بصفة مؤقتة في البداية ، وأعطى النقد العام للجيش لؤامره في هذا الخصوص بعد اطلاع على تقرير قدم إليه ، مكلف قومييسير الحكومة لدى ديوان القاهرة بالتأكد من تنفيذ ذلك ، وعنفذ نظمت رسوم القضاة وتحدثت بنسبة ٢٪ من قيمة الشيء موضوع النزاع ، وتوزع حصيلة هذا الرسم بين القضاة والكتابة ، ولم تحدث أية تعديلات أخرى في إدارة القضاء ، وسارت الأمور على نفس نظمها في الماضي ، وبدأت فئة الناس التي كانت قد تزعزعت

لحين تصود منذ الآن ، ومنذ هذه اللحظة بدأ القتمرون يجنون ثمار
اتصلارهم .

وبح ذلك لمن نظم الضحين في الوظائف القضائية لم يعد هو نفسه
ما كان في الماضي ، واتخذت لذلك الاجراءات اللازمة ، فبعت كل رجال القضاء
الذين كانوا قديمين بالصل في مناصبهم ، وعزل قلوص السكر الذي كان من
اتصار أمير الحج ، وظلوه في منصبه الشيخ العريفي ، وهو الذي ظل في
هذا المنصب حتى نهاية الاحتلال .

والا ما تابلنا لحظة نمط الانظمة القضائية العثمانية وطريقة اختصار
رجال القضاء ، فمنا سجد في هذه الوقائع نفسها منبع المساوىء التي كان
ينبى ان تنجم من هذه الوقائع بالضرورة ، وفي الواقع ، لمن رجال القضاء
الغريباء ، بجعلهم لغة البلاد التي ذهبوا اليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط
حياة مواطنيها ، لم تكن حركتهم أية مواطن من تلك التي تصور في نزاعة
القضاء ، كما ان اعتبارات المواطنة واعتبارات القرى التي لها على الدول
دائر كبير على القلوب لم يكن لها على الاطلاق وجود عندهم ، وحيث انهم
تبعوا تبهلت من الذهب حتى يتولوا لير محكمة ما ، من الطبعي الا يكون
سيف العدالة الذي يفضحه القانون في يدهم سوى أداة للثراء ، فكتروا
يستفيدونه وسيلة لتحويل الاموال التي اكتفوها ، بل ولتكوين ثرواتهم
الخاصة ، ووجهت الوسائل الكبرى التي في حوزتهم نحو نفس الغرض ،
فغرض تكديس الاموال ، لذلك لم يذهبوا أية مرساة فقلت دون ان
يستغلوها لتدبير ثرواتهم ، لما أولئك الذين يخلف حب المال والانتانية
عندهم من جرح ذلك التمسك الى المال ، فقد كتروا اكثر ميلا للعدالة ، بينما
لم يكن يكبح جماح الآخرين الا الخوف من تدهور سمعتهم ، وفلا من ذلك
لمن الحالة التي سادت في مصر ، مادة بيع او تلجير وظائف بمثل هذه الدرجة
من الخطورة من شخص لآخر ، هي واحدة من تلك المساوىء الشيطانية
التي لا يمكن لاية حكومة مثقلة ان تتعامل معها ، اذ هي نوع من العت
او الضيقة لا يسمح بقبيلها الا البرابرة .

ولتعد الى مبرسة الوظائف القضائية ، يحول حكم القاضي في محكم
الاحوال قبول كل نفس المتورين ، وقد يكون من الظلم ان نوجه الى
رجال القضاء هؤلاء ، ذلك الاتهام القبيح بالمحاباة او الفساد ، وهو الاتهام

الذى يوجهه كثيرون الى القضاة المسلمين حلبة ، اذ لا يمكن لغرض ان يتجلبرو ويصدر حكما قليل التطبيق مع روح الشرع ، او منحازا بشكل ما لصالح الطرف الذى يريد ان يصل لصالحه ، الا فى حالة واحدة ، هى تلك الحالة التى تكون نسوح العقوب فيها خفيفة وتقبل القسبر على وجوه عدة مختلفة او متعارضة ، لكن المساوىء تنجم بشكل كبير من ذلك التقدير العشوائى والمجتر لتقدير رسوم القضاة ، ويتلهس الناس حول تحصيل هذه الرسوم بشكل غير معتاد . وفى القاهرة تنهض الصفات الشخصية لغرض المساوىء وكذا الرقبة التى يارسها العلماء — بل وحكومة المليك — بحملة تشب على نحو ما ضد جشع القضاة والكتابة ، لكن الامر لا يسر على هذا النحو فى الاقاليم ، حيث يستطيع القاضى هناك ان يستوفى من مدونة وحماية البك حاكم الاقليم من طريق تقديم الهدايا او اية وسيلة اخرى ، وبذلك يكون حرا من كلفة القيود وهو يقوم بتقدير رسم يسوق بكثير ذلك الرسم القلوى ، ومع ذلك فمن الصحيح ايضا انه حتى فى هذه الحالات ، كان القضاة يستطيعون كبح جماح جشعهم ، وكفوا عن بعض الاهل بظواهرهم بفرض رسوم لصالح كتابهم ومرؤوسهم ، على الرغم من ان هؤلاء لم يكونوا يحصلون مطلقا الا على قدر ضئيل من هذه الرسوم ، وكان هؤلاء يجلبون فى معظم الاحيان الى وسائل مشابهة .

سبق لنا القول بان احكام القضاة تصدر بلا نقض ، ونحن الذين نحالج جزئيا تلك المساوىء المتعقدة من مثل هذا التصويت الواسع الممنوح للقضاة بفعل المادة ، حيث المادة فى مصر كما فى كل اجزاء الامبراطورية العثمانية هى كل شىء ، بل يمكن القول بانها هى التى تمنع القانون ، لذا فان المادة التى يعتادها لبيرو او رجل او قضاء او حتى ضابط صغير ، وهو يتعامل مع من هم نونه تصبح الزاجية لكل من يقومون بنفس هذه الاعمال ، وبتر من مثل هذه المساوىء على ضرورة ارساء النظام القضائى على اساس ثابتة ومستقرة ، وهذه الحاجة التى تنفج اعينتها يوما بعد يوم لا تجد الاستجابة الواجبة من جانب الحكام ، او تل قها بالآخرى تقع تحت رخصة روتين غير قابل للهرية ، لقد يفضل معه الحكام ان يتحلوا بمسؤولته تلك عن ان يتعدوا عنها .

وتنهض العدالة فى مصر على اساس المذهب الحنفى ، ولا يمكن ان يحدث الامر على نحو آخر حيث ان كل رجال القضاة الذين تروهم

العثمانيين يقيمون هذا المذهب ، وهو نفس مذهب السلطان نفسه
وكذا شريف مكة ، وقد بدأ هذا الأمر منذ بداية القرن السادس عشر ، ومن
المحتم أن يكون سليم غازي مصر هو الذي وضع أسس ذلك ، حيث أنه هو
الذي أقام حكمه على نفس الأسس التي تنهض عليها اليوم ، ومع ذلك
نحيث أن المذهب الشافعي هو السائد في مصر ، وحيث أن كل شيوخ
الأزهر يقيمون هذا المذهب فربما كان من الأفضل الامتناع لأحكام هذا
المذهب ، وذلك مسألة تتطلب دراسة عميقة لولي بها أولئك الذين يسيرون
الأمر .

ومرحلة فترة الاحتلال الفرنسي لم تحصل أية رسوم من التعيين في
الوظائف القضائية ، ويبرر ذلك تواضع النفوذ التي يمكن تحصيلها من مثل
هذا الأمر ، أن من الممكن القضاء هذه المسألة على وظائف بهذه الضرورة
دوليا فالتأثير كبير على خزانة الدولة ، ومن المعروف أن هذه المساويء لم تكن
تحدث مطلقا في جهود الظفاء ، وأما بدأت مع بداية الحكم المملوكي ثم
دمجها المادة ودعمها كذلك وبدرجة أكبر ، ذلك النموذج التركي الذي
تسوده مثل هذه المعدات .



عن الحقوق المدنية المكية

لا شك أن التنظيم الذي يساهم في ربط المواطنين بمسقط رأسهم ، هو
واحد من أهم النظم الوطنية ، ونحن هنا نتحدث عن نظام الملكية ، هذا
الحق الطبيعي الذي كرسه كل الشرع ولا يخرجه لو ينكره سوى البرابرة،
لكن طاعة مصر ، عندما اتفوا تحت أقدامهم بكل مبدأ حكيمة وعادل ، لم
يحرموا هذا الامتياز المقدس الذي هو في جبلته أسس لضمين السيادة
الاجتماعية ، غلبة كثير من المزارعين الأحرار على ضللك النيل قد أصبحوا
بمجرد غلاحين أحرار ، لو عبدا مملوئين تحت وطأة تلك الضرائب الباهظة،
يفلسون هناك وفي حلقهم غصة ، أراضى خصبة ، لكنهم لا يستطيعون
أن يجنوا لها ثمارا ، فهذا الوادي الخصيب في الفيوم ، وتلك السهول
الخصبة في الدلتا ، التي كانت غزيرة الإنتاج تحت حكم الفراعنة والبطالة
بل وتحت السيطرة الطبقية ، لا تنتج الآن بل كانت ريع ما كانت تنتجه في

المضى ، وبين السهل ، أن تخلص لسبب ذلك التغيير المحزن ، لكننا لا ينبغي أن نبحث عن التفسير عند الطبيعة أو عند تغلبت الشمس مهما كفت عنيفة ، فنظير على الغمام هو نفس النهر ، ويفسقه السنوي - شأنه شأن الماضي - ، يلقى كل عام ليرى الوادي ، غطت أخضر الأبل ، بما عاد يلهمب جباله الفلاح ولا عاد يستثير حبه ، إذ هو يعلم الآن أن ثمة أجنبيا بغضا هو الذي سيحصل على ثمن مرقه هو ، نعم ، ماذا سيعود على الفلاح أو أنه عمل على إنشاء محصولات جديدة ما دلت أن تعود عليه ولا على تولاده خيراتها ؟ أنه يطر البذور وهو حافق ، ويحني محصوله وهو خائف ، ويحمل جهده ليخلى من نظرات طفله الجشعين قدرا ضئيلا من الصوب يمكنه أن يحصل بها على بعض احتياجات أسرته العديدة ، فالفلاح في هذه البلاد البعيدة ليس بملك للأرض ، وليس بمعقود أن يكون ذلك ، أنه ليس بصاحب للأرض ، ولكنه تن لها منذ ولادته يحمل لحساب تلك العسبة التي تهرت وطنه واستقلته ، له رقيق القولة في أسبلة القنينة ، ومهد المستعمرات الأمريكية الشمس .

يرتبط توزيع الأرض في مصر بعدد تراها ، إذ تبذل كل قرية مساحة من الأراضي القليلة للزراعة تتفاوت مساحتها ، وتقسم أراضي كل قرية إلى ٢٤ قراطا ويبلغ عدد القرى في كل الوادي ما بين ٢٥٠ - ٣٠٠ قرية كبيرة أو صغيرة منها ٤٠٠ من أسوان إلى المنيا ، ٥٠ من المنيا إلى القاهرة بما في ذلك الفيوم ، ٦٦٠ في المنيا ، ١٠٠ في بقية المناطق (١) .

وهناك بعض الأفراد يسمون باسم الملتزمين (ملتم) ، وهؤلاء هم الذين يتكون أراضي هذه القرى لامتلاكها لها ، ويحني الفلاحون بالتمسك هذه الأرض بينهم وبين هؤلاء الملتزمين ، ولكن انظر إلى أي حد تضاعفت حقوق الفلاحين ، وإلى أي حد كفلت وصلت سطوة الآخرين .

(١) لحل التقدير الأخير مبالغ فيه ولحل تقدير عدد قرى الدنيا قبل من الواقع . أزيد من التفصيل انظر دراسة جاكوتان Jacotin عن مساحة أرض مصر وكذلك دراسة جومار Jomard عن المليون بين سكان مصر في الزمن القديم وسكانها الحاليين .

أن ملك عدد معين من القراريط يحصل من الفلاح الذي يملكها ضريبة
 قليلة كانت قبلها في المنفى محدودة ، وتسجل هذه الضريبة باسم المال
 الحر ، وبخلاف ضريبة المال الحر التي تلتزم القوائين الفلاح بها ، تلم
 الملتزمين بحصول الفلاح بعدد حقل من الضرائب والالتزامات لم تكن موجودة
 قط من قبل ، أو كان ينظر إلى بعضها في البداية على أنه — على الأكثر —
 مجرد هدايا ، لكنها بمرور الزمن أصبحت ضرائب إجبارية واجبة الدفع ،
 ومسجلة ، وتحصل بقسوة بالغة ، وتسمى حصيلة كل هذه الرسوم التي
 ينظر إليها السكان باعتبارها نتيجة لغير وطنهم : البراني ، وتحصل هذه
 الضرائب لعلها اسم : مضاعف كما لو كان للاشارة إلى أنها مستقطعة من
 بقية الضرائب ، وأنها أضفحت أو زيدت على الضرائب المشروعة ، وحصل
 الملتزم مجموع هذه الضرائب : المال الحر والبراني ، ومن هذه الحصيلة
 يدفع المهرى وهو الضريبة الثابتة والمقررة بموجب قانون إداري قديم (١) .
 وهو يحصل باسم السلطان بواسطة الموظف الذي يملكه ، ويحصل
 المصريون هذه الضريبة أكثر مما يحصلون الضرائب الأخرى ، إذ هي في
 نظرم اعتراف بسيادة السلطان ولأن لها طابعاً مشروعا .

ويشكل ما يبقى من المال الحر بعد سداده المهرى ما يسمى بالملحظ
 (الفائض) ويكون بالامسالة إلى البراني مجموع ما يحصل عليه الملتزم من
 فوائد ، لكن عليه في نفس الوقت أن يدفع خصما من هذه الفوائد بمصاريف
 إدارية كبيرة ، وفاء لمسؤوليات تقع على ممتلكته ليس من بينها أية جـبـلـغ
 مخصصة للفلاح ، لا تعويضا عن فلاحته للأرض ، ولا كتقابل لجهوده إلم
 الحصاد .

ويورث الفلاح لأبنائه حق زراعة الأرض التي في حوزته ، وعلى
 هؤلاء أولاً أن يدفعوا للملزم نوما من رسوم التظـلـد ، وينظر لهذا الرسم
 باعتبارها حدية اكتنتها المادة ، ومع ذلك فنادرا ما يستخدمها الفلاحون بالرغم
 من أن للملزم حق تحصيلها ، وتبلغ هذه الضريبة ثلاثة ألبال عقد الأرض
 المقررة ، ويمكن للملزم حسب تسامحه أن يتناول من جزء منها أو يتناول
 عنها كلمة إذا كانت الأرض ضائعة ، ولكن إذا رفض الفلاح المورث أن

(١) يدفع المهرى عينا أو نقدا ، ويدفع جزء منه في الصميد منها .

يسدد هذه الضريبة بالرغم من أوامر وتعليمات الملك المقتدر ، فإن الأخير يستطيع أن يرغمه على ذلك بملءه من استغلال الأرض التي كانت في حوزة أبه ، فتلحق أن بآلة طريقة وبأى فن يستطيع الفلاح المصرى أن يورث أبناءه أروثة الشمس .

ومن نافذة القول إن ثلثت النظر الى أن الفلاح لا يستطيع أن يبيع الأرض التي يزرعها حيث أن ملكيتها الحقيقية ليست في يده ، ومع ذلك فقد كان له الحق في أن يجرها لبعض الوقت ويظل يحتفظ لنفسه بحقوق الرجوع إليها ، وعندما يكون الفلاح مصراً غير قادر على سداد ما عليه ، فإن المقتدر يستدعيه أمام القاضى ويثبت عن طريق شهود أنه لا يستطيع تحميل شيء به ، أى من الفلاح ، وعندئذ يعزل المسكين من الأرض ويصبح لسيده الحق في إحلال فلاح آخر محله ، ويرفع الفلاح الجديد مادة من طريق شيخ أول القرية ، ويقبل المقتدر هذا الاختيار لكن ذلك لا يعنى أن الفلاح القديم قد انتزع من أرضه بنير مودة ، فيمكن أن يستطيع دفع الأقساط المترتبة عليه لكي يحصل من جديد على أرضه ، ومن جهة أخرى لماذا حدث أن وقع ضرر بين ويبلغ الفسوة على الفلاح على يد المقتدر ، فإن بمقدور الفلاح أن يهجر حقله ويحل محله في هذه الحسنة شيخ الفلاحين والملازم .

ولا ينبغي أن ننسى أنه ليستقلونين الوضعية — لا في هذا المجال ولا في أى مجال آخر بمصر — لا النقة ولا الفاعلية التي للتأسيسات والأنظمة الأوربية ، ويمكن القول بأنه ليست للقاتون المكتوب — على ضفاف النيل — إلا أهمية ثقوية ، بينما يرسم العرف لوائح وأحكام رجال القضاء ، كما أنه هو الذى يبرر تلك الامتيازات الإجرامية للرجال القادرين من كل الطبقات ، ونتيجة لهذه السوء البربرية فإن الفلاحين يعيشون في شكل ميودية أكبر بكثير مما ينبغي ، فاعتد لهم تحت رحمة نزوات المقتدر الذى يستطيع حسبما يترأى له أن يودى بهم الى حالة من البؤس المزعج أو أن يهينهم لهم عيشاً رغداً ، إن هذه الأوضاع الشيطانية في مجموعها ليست

أقل سوما من بقية الأمور التي مستوجب نظائرها تشريعيا جديدا في مصر (١) .

ولم يكتفِ الحق أن يبيع الترامه ، وعندنا يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميرى بدلا منه ، وبخلاف الأرض التي يزرعها الفلاحون في القرية ، ثمة جزء من أرض هذه القرية لا يخضع لنفس النظام ، حيث يمكن القول بأن هذه القطعة مقسمة بين المالك (الملتزمين) بنسبة حدد القرايط التي يملكونها من أرض القرية . وتسمى هذه الأرض : الوسية (٢) . ولا يقوم الفلاحون بزراعة هذه الأرض بنفس الطريقة التي تظم زراعتهم للأراضي الأخرى ، بل أن الملتزم يستخدم فيها من يشاء بالشروط التي تراهي له . ومع ذلك فعندما يبيع الترامه في أرض الفلاحين فإنه يبيع كذلك الجزء الذي في حوزته والمقابل لذلك في أرض الوسية ، إذ لا يمكن أن تفصل هاتين الممتلكات .

ويرث أبناء الملتزم الألتزم من والدهم ، لكنهم لا يملكونه إلا بمعد موافقة الباشا ، وفي هذه الحالة يحصل هذا الضبط بامبارها مثلا للسلطان ، على جعل يصل إلى ثلاثة أبنال قيمة النفيز السنوى غير مشتل على البراني ، ويؤكد الباشوات هذه الفريضة بأن يدفعوا إلى بلاد القسطنطينية جزما من عائد حقوقهم هذه ، ويعدل الباشوات في معظم الحالات من المبلغ المفروض كفسرية أرث ، ويمارسون في هذا الخصوص نحو الملتزمين ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين في نفس الظروف، وينظر المصريون إلى شرائب الأرت هذه بامبارها استردادا للأرض ، وهكذا يصبح أبناء الملتزم أصحاب حق في الحصول على ممتلكات أبيهم بمعد دفع الفريضة المفروضة .

(١) يمكن القول بأن الأراضي — في المنطقة المحيطة بحلب — مقسمة بين السلطان الذي يحصل الميرى من المالك ، والملك الذي يدفع لنفسه دفلا سنويا عينا ونقدا والزراع الذي يحتفظ لنفسه بجزء من ثمرات جهده . وثمة مكان من القسطنطينية يمكن أن يكون أراضي في هذه المنطقة .

(٢) لا توجد وسية في المسجد لبناء من القيا .

(وقد بين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم في كتابه الري المصري في القرن الثامن عشر أن هذا خطأ وقع فيه علماء الصلة الفرنسية) المترجم .

وعينا معنى كانت مصر مملوكة لجمهورية من كبار الملاك ، لكن الملكية تخلصوا من هؤلاء حتى يقتسبوا فيها بينهم لسلابهم ، وقد نتج عن هذا السلب ان أصبح أعضاء الحكومات الملكية ، يتكون كل لرض مصر على وجه التقريب ، فكانوا يتكون على الاكل ثلثي الارضى القابلة للزراعة ، ولا يمنع هذا من ان هناك بعض الأفراد كانوا يحصلون بعض الاملاك الهلهة ، يكر من بين هؤلاء الشيخ هلم الذى كان حائزا على لرضى عند كبير من قري المسجيد .

وبرغم كل ذلك لسوف نتج فى خطأ بين اذا ما استطعنا ما تقدم انه ليست لدى المصريين فكرة صحيحة من الملكية الحقبة ، انهم يعرفون معنى هذه الملكية الحقبة بلا ريب ، ولكن كيف يتكلمون ان يتمتعوا بها ، بينما كل شيء هناك يترعى سبيل سعادتهم ؟ فالمعادات ومخيفان الحكومات وجشع الملقين ، كل ذلك عطلت لا يمكن التغلب عليها . لا مفر من اصلاح تام ، بل يمكن القول بانه لا بد من توزيع جديد للارض ، ولو كلى الفرنسيون قد استطاعوا ان يثبتوا لقدامهم فى البلاد فليس من فسخ فى انهم كانوا سيصلحون من مساوىء هذا النظام ، واذا ما حدث ووجد أبناء ريف مصر انفسهم يعيشون فى ظل حياة القوائين فكم سيحصلون فى وقت مما على الامل والهمة ، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغل هذه الارض الخصبة المصماء ، التى استجعت ذات يوم اسم : زوغة روم (١) .

(١) لسكى تقدم فكرة تقريبية من بؤس الفلاحين لسوف نعتد على شهادة المعلم يعقوب ، المياثر القبطى الذى أكد لنا ان ١٠ فدادين من الارض فى الصعيد تنتج خمسين أردنا من القمح من بغور خمسة ارايب ، كما أكد لنا بالمثل ان الامساك التى يبيعها الفلاحون للبلقرم مينا لا تغل مطلقا من ٢ — ٣ أردب من الحبوب من القدان ، فاذا قمنا بخمس بصلريف الحرت والبنر ، نجد انه لا يتبقى شيء على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين الصماء .

عن الرق ومن الحق

تحفظ الشعوب الشرقية بتلك المادة القيمة ، عادة استخدام العبيد ، ونحن إن نمسك في هذا الضيق من إبداء أى رأى مهما بدا قاسيا ، ومما كانت اعتقاداتنا وعلامتنا مشروعة ، فلها كنع جميعها على أوروبا ، كما أن كل واحدة من هذه الاعتقادات والملايات ليست سوى نقد حر لظك الفجأة المحزنة التي تسليحت فيها أوروبا حتى اليوم ، تمستعمرات العالم الجديد ، وجزر البحر الأتريفي — مزارح هجبة الشعوب المحضرة — تقم أكثر مضاهد العبودية بشاعة ، بل وربما أكبرها احتذرا للخلق المقدسة للتسلل إذ ينبض أن نعترف هنا — وهذا أمر مخز للحضارة والمدنية — أن قدر العبيد في مصر كما في كل بلاد الشرق ، لقل حائرا على الشكوى من قدرهم هناك في أمريكا ، حيث يروون بحرقهم وديالهم تحول سوق لا رحمة فيه ، أما رقيق مصر — على العكس من ذلك — ليس التول بأنهم يملكون في المثلثات كثرة أفراد فيها ، وليس ثمة ما يقومون به من عمل يهوى خدمة المنزل ، كما أن حالتهم ليست على الدوام بالسيئة ، بل أن الرق عندما يكون السيد واحدا من البكوات ، يكون في معظم الأحوال بمثابة الخطوة الأولى نحو الثروة أو نحو السلطة .

وفي مصر نعمل من الرقيق : السود من وسط إفريقيا ويكون إلى مصر وإلى المدن الكبرى عن طريق قوافل ، والبيض ويأتون من أقاليم آسيا المجاورة للبحر الأسود ، وثمة فرق هائل بين ثمن هؤلاء وثن أولئك ، فغالبا يبلغ ثمن الأسود ٤٠ — ٨٠ ترشا أسبانيا ، بينما يعتبر الفليس أن من الطبيعي أن يدفعوا في شراء شلب شركسي ٦٠٠ — ٨٠٠ مكين Sequin وهو عملة ذهبية إيطالية تقدر القطعة منها بـ ١٢٠ بارة) — أى حوالي ٢٠٠٠ فرنك ، وقد كان ثمن الأتلى بك ألف مكين ومن هنا جاء اسمه : الأتلى .

ويعتبر العبد جزءا مكملًا لثروة سيده الذي يستطيع أن يبيعه أو يبادل أو يعفقه ، وذلك حسبما يترأى له ، وليس للعبد أن يمتلك شيئا خاصا به ، فكل ما يمكن أن يحصل عليه يكون من حق سيده ، ولا يتمتع العبد

بأي حق مدنى ، ويحتد لمى كل لمره على لردة سيده ، ومع ذلك فلذا تلم الآخر بالجوء الى العنف او لاية وصيلة اخرى — بفعل مخالف للتوانين او الطبيمة — فلن العبد يستطيع ان يشكوه لىم القاضى الذى يرغم سيده — حسب الحالة المروضة عليه — على بيمة للآخرين ، ومع ذلك فلنلرا ما يتهم السيد سيده بالطغيان ، فكل ما يفرض عليه من واجبات يقتضى فقط بالخدمات المنزلية ، فهو يعنى بمزل سيده ويخدم على المائدة او يقوم بآية امال اخرى تلتصق بشخص سيده ، لكنه بعيد عن الزراعة وعن كل الامال الشاقة ، وفعل لائق ميل يكلف به السيد ، هو ان يمد لهم سالتهم بالمعنية بخيولهم ، وهم عاية يعللون بلطف تلم ، وتلرا ما لا ينتهى بهم الامر الى الحق خلال بشمة سنوات او عند موت سيدهم .

ويمكن القول بان العبد الأبيض يعتبر عضوا من اعضاء الأسرة ، وعندما يرغى تاجر من عبده فقه يشركه فى تجارته ويوزجه من ابنته ويهيئه له حياة طيبة ، اما اولئك الرقيق الذين يكونون فى خدمة البكوات الكشاف او كبار طباط حكومة الممالك فلن حظهم اكر برقا ، نصحت ان سالتهم انفسهم قد بدلوا حياتهم عبيدا ، فلتهم بدورهم يولون عبيدهم جل عائلتهم ، ويهيئون لهم نوعا من التدريب العسكرى ليشكلوا فيها بمسده جيش الممالك ، وتجلى قوة كل بك فى عدد رجاله ولى شجاعتهم ، لذا فهو يعنى بتقدمهم وثروتهم كما لو كانوا ابناؤه ، وغضلا عن ذلك فقد كان الممالك يدعمون حزيهم عن طريق نفوذ رجلكم ، وهو النفوذ الذى هيكه لرجالهم هذه المناصب التى ولوهم — هم انفسهم — فيها .

لكن الشجاعة والميزات الشخصية لمبد ما — ليست على اللوام هى الاسباب الوحيدة التى تعدو مشرف بملوك ، ان يهيئه لعبده هذا التقدم السريع ، ويؤكد البعض ان الجبال والصفات الجسدية تلعب دورا كبيرا فى اقدار هؤلاء العبيد ، ويشكل هؤلاء الرجال ذوو الأصل الضاهى ، والذين تحول بلاد معظمهم ، طاقاة التلاء الحقيقين رغم كل ما قيل ، فهم وحدهم يحوزون المناصب ويمشرون بيوت وعائلات سالتهم ، التى كفت ستخو عليها مدونهم لشواء الحياة منذ الجيل الثقى ، ومن نائلة القول ان نذكر ان الاء البضاوات القاضات من نفس بلدان هؤلاء البكوات والكشاف والممالك الآخرين ، يقتصر هن ايضا بامتبار خاص ، ذلك انهن — عادة — يصبحن زوجات هؤلاء او امامهم المفضلات .

ويفرغ من الامتيازات التي يهيئها للعبيد المالك وجودهم بالقرب من البكوات ، فان من الواجب ان تلفت النظر الى ان المرف قد وضع حدا لتقديم ، ويمكن القول بأن المالك ، ولو اتم ككلوا يعدون جزءا من أسرة سيدهم ، لم يكونوا ليتبعوا باى حق مدنى فى ميراثهم ، فان العلاقة التى نشأت بينهم لم تكن تصلوى علاقة التبني ، فليس للعبد حتى اذا اعتق أى حق فى تركه سيده الذى توزع على لنتقه الشرعيين ، صحيح ان مقدور السيد أن يخص جزءا من ثروته لصالح العبد ، لكن هذه الهبة لم تكن لتبلغ مطلقا أكثر من ثلث الثروة ، حتى ولو لم يكن للمعتق أى أبناء ، وعلى العكس من ذلك فإذا مات المعتق دون ذرية لم تكن ثروته كلها تقول الى سيده القديم .

وتباع الاماء من كلا اللونين بدمى أعلى من ثمن العبيد الذكور ، وإذا ما نشأت علاقة بين السيد وبين واحدة من ابنة واصبحت هذه ابنا ، فانه لا يستطيع ان يبيعها ، اذ تصبح فى حكم الزوجة الحرة حتى يموت سيدها ، وعندما يموت هى تصبح ابنتا شرعيا ويرث شأنه شأن أبناء الزوجة الحرة ، ولكن اذا اراد السيد أن يتخذ من احدى اماته زوجة شرعية فليطه أولا أن يحقها .

ويمكن للمسلم ان يمسخر احدى اماته دون ان تخرج من أجل ذلك من خدمته ، فهو يحتفظ لنفسه عليها بكل حقوق الملكية ، فليستطيع ان يستردها ولن يجعلها تقوم بخدمته ، بل ولن يبيعها من جديد ولكنه فقط لا يستطيع الاتجار بها ، وثمة امثلة على زواج من هذا النوع ، وان كان المعتاد ان يقوم الزوج بمقتن تلك التى يختارها زوجة له .

ويدرك العبد انه مملوك كلية لسيده ، وهو يثق بآيابه ويداه مضمويتان الى صدره ، وعينهان مثبتتان على عينييه ليدرس اتل رغبات سيده حتى ينفذها قبل ان يعبر سيده عنها ، وحلقته فى نظر نفسه طيحية وهو لا يستطيع مطلقا لا الرغبة ولا الحلجة فى قطع قيوده ، بل ان المعتق نفسه يظل يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى رجل حر قبوله ، لكن الحرمان هو الذى يفسره ، وقد رفع على بك الشهير — (بالكبير) كثيرا من مملوكه الى مراتب البكوات والكشاف ، ومع ذلك فقد كفلوا — منجما يتجون لزيارته — يظلون واثنين فى مظهر خضع ، ولا يجلسون مطلقا لآيابه

إلا إذا دهاهم لذلك ، كما كانوا يحرصون على ألا يجلسوا على نفس الأريكة التي يجلس عليها سيدهم القديم ، ويلاحظ نفس التحفظ والمراعاة من جانب المتوفيات نحو السيدات اللاتي كن مملوكات لهن .

ومن المألوف لدى الشرعيين أن يروا السيد المتوفى يصلون إلى ثروة المجد ، ولا يمكن أن يحقر الرجل مطلقا من قبل الرأي العام لأنه كان من قبل عبدا ، ودائما ما يسمى النفس لصداقته بموته ، وهكذا فإن الأمر الذي يحد عند الشعوب الأخرى شيئا جديرا بالاعتبار ، يصبح هنا وكفته أمر مرغوب ، بل ثمة من يؤكد أن لقب الأثراف في مكة قد روج لبنته من محسوق .

سبق لنا أن قلنا أن الرجل الحر الذي يريد أن يتزوج من ابنة عليه أن يحتلها ، ونفس الأمر بخصوص تولاده ، فله لا بد أن يسمح لابنته بالارتباط بأحدى أماله — أي أمام الأب — وألا فإن بنته الأطفال الذين يأتون من طريق هذا الاتصال بأى حق مدنى ، بل سيظلون عبيدا حتى موت لهم إلا إذا اعترف الأب بهم ، الأمر الذى يعنى حق الأم .

وصيغة المتق بالغة السهولة ، هى عبارة من كلمة من السيد تقال فى أى مكان ، فى المنزل أو الشارع أو أى مكان آخر ، ولكن إذا خشي العبد من تغلب مزاج سيده فانه يطلب تحرير وبيعة بالمق بغيره على مسحة عتقه ، ولأدرا ما يرغب طلب كهذا ، وليس لمق السيد على عبده من حد إلا الحق الطبيعى ، وعلى سبيل المثال فإن الأمة التى من واجبها الاستجابة لكل رغبات سيدها مستطيع أن ترفض أى فعل يهين طبيعتها ، وعندما يتركب فيد ما جريمة تقتل فانه يمثل أمام القاضى مع سيده ويقدم كدليلا للمحاكمة ، وإن كان لأسرة القاتل أن تدفع أو تكفى بشخص نقدي ، وقد سبق لنا القول بأن المستوفى لا يرث من سيده التقسيم ، ومع ذلك فإن سيده ، لذا ما بات دون ذرية فإن السلطان والقاضى — وهما الأثراف فى هذه الحالة — ، للأول يرث ثروة المتوفى والثانى يرث وظائفه — بملكان كل شيء أو جزءا منه إلى معنونه . وليس هذا حقا مقفرا له ، ولكن العرف هو الذى جعل منه نوعا من الإكراه ، وفيها مضى ، عندما كان القبنى مسلما ، لم يكن الأمر يصل لهذا الحد ، ويمكن الآن للرجل أن يعنى سيده ، أو هو على الأقل يستطيع ذلك ، على نفس النحو الذى كان يتم فى الماضي

والحق هو مكافأة على اخلاص وحماسة وتفحبة المييد ، وهذا العمل شائع لدى أنك لا تستطيع أن ترى إلا مدداً بالغ الضلالة من الرقيق وهم يموتون في ظل حالة الرق ، جميع المييد رجالاً ونساء ، بيضا وطونين ، يحتنون على قدم المساواة ، وثمة طوائف من المالكين ، ولكن منهم من مراد بك يبلغ العشرين ، ولكن لم تهر المادة مطلقاً في القاهرة على اللجوء لخدمات هؤلاء النساء ، وبين الذين هذه المادة ولا يملأونها بخلاف المالكين إلا عدد بالغ الضلالة من السكان ، فتمير معين الحياة عند رجل جريمة كبرى في نظر المسلمين ذوي الحمية الدينية ، ويمكن للطوائف أن يحتق شأته شأن أي عبد ، وهو ما يحدث في معظم الأحوال ، ولا يحتقر الطوائف إلا إذا كان الاحتقار من نصيب سيده ، ولا تجلب عليه حاله كطوائف أي تحقر خلس ، بل كل يرى طوائفو الرجل الثوي يهتمون لأنفسهم على شيء من التقدير الذي يحتل به سيدهم .

وبعد موت أحد الأكرياء يقسم الورثة تركته ، ويدخل المييد ضمن هذه التركة شأنهم شأن بقية أجزائها ، ولا يستثنى من هؤلاء إلا من اعتهم سيدهم عند موته ، أو ثلثك الذين كان سيدهم قد وعدهم بذلك من قبل ، وفي هذه الحالة فإن الأمة التي كفت قد صارت أما بفعل سيدها تأخذ كل طوائف الزوجة الحرة ، وهو الأمر الذي لم تكن قد تمتعت به حتى هذه اللحظة .

- ٧ -

الوصاية ، التركة ، اليهود

منما يموت رجل تاركاً إتهام منار السن ، فإن جدهم لأبيهم يصبح هو الوصي الشرعي عليهم ، أما إذا لم يكن هذا الجد على قيد الحياة فإن القاضي يختار بمعرفته وصياً على هؤلاء الأيتام ، لكن الوصي ليس له حق التصرف في ثروة القصر ، وتخصص نفقات هؤلاء وكذا مصروف تعليمهم من ثرواتهم ، وإذا ما أراد الوصي بدافع من العاطفة أن يستثمر أموالهم ، فأنه يقوم بذلك مخاطرة من حقيقته يحصل هو كليل مسؤوليتها ، وهو ملزم على الدوام بأن يقدم إلى القاضي حساباً بالغ التي في يديه .

أما التريبة فهي مستقلة عن الثروة ، حيث يهد بها إلى الأم حتى من السليمة بالنسبة للأولاد ، وحتى من الزواج بالنسبة للبنات ، ولا يفلت

الوصى أن يعلم الأولاد القراءة والكتابة ، وأن يعيهم لنوع من الحياة حسب درجة ثرائهم ، ولا يحق إلا للأب أو الجد أن يعقد أولاداً لابنائه جون من البلوغ ، أما الأقارب الآخرون غير محولين في ذلك ، وعندما يبلغ الأولاد من الرشيد فاعلم يستطيعون أن يرفضوا الامتثال للقرار الذي اتخذته الأب أو الجد ، وقد سبق لنا أن قلنا أن من البلوغ للولد محدد بخمسة عشر عاماً ، وفي هذه الحالة يقدم الوصى الحساب إلى القاضي عن ثروت هذا الولد الذي سيصبح الآن قسماً على نفسه ، ومع ذلك فينبغي حسب المذهب الحنفى أن يمين على هذا الولد وصيا حتى يبلغ من الخامسة والعشرين ، لكن القضاة لا يمتثلون لهذا الرأي ، ويمكن للابن عند بلوغه من البلوغ أن يترك منزل الأب ولا تمود أسرته ملزمة بالعلم به .

والابن — في التركات — يحق حق البنت ، وعندما يكون لرجل بنتان وولد واحد على سبيل المثال فإن الزوجة تلحق لنفسها $\frac{1}{4}$ من التركة ويأخذ الابن $\frac{1}{4}$ وكل من البنين $\frac{1}{4}$ ، وعندما يكون للموتى وريث ذكر ، فإنه لا يكون لأخوة الموتى أو أخواته حق في الميراث .

وتنسب الأخوة للذكور مضافة لها بينهم ، وإذا لم يكن لها حرية فلا يقول لزوجته الموتى إلا $\frac{1}{4}$ تركته ويقول الباقى لأبيه ، ولا يحق لأخواته أرنه إلا إذا كان الأب مفقوداً ، أما إذا ترك الموتى ابنة فإن نصيب الزوجة على الدوام $\frac{1}{4}$ والبنت في هذه الحالة $\frac{1}{4}$ وإذا كان له أكثر من ابنة واحدة فلهن ينقسم $\frac{1}{4}$ حصة والدته . وعندما تموت الزوجة يحصل الزوج من ميراثها على نصف ما كانت ستحصل عليه هي في الحالة المقتلة .

وتقبل الشروع في تقسيم التركات تجنب مصروف الجنائز ثم فيون الموتى ، ثم يتم الوفاء بشروط الوصية التي تركها الموتى بحيث لا تتجاوز الوصية بأى حال $\frac{1}{3}$ صافي التركة ؛ أما إذا لم يخلف وريثاً من حصة أن يهب كل شيء لأحد أصدقائه ، وينبغي أن نستنتج أنه في بلد ننسب فيها العلاقات الأسرية لهذا الحد ، فإن حالة كبداء تبدو بلغة القدرة .

وليس للأبناء الطبيعيين (غير الشرعيين) أى حق في الميراث ، حتى ولو كان الأب قد تزوج من أمهم ، أما لم يكن هو قد اعترف بهموتهم ، بل

أنه في هذه الحالة - حالة الاعتراف - يصبح حتى لبناء الأمة أبناء خيريين ، ويستطيعون الأثر كما بينا من قبل .

ونعتقد حتى تكفل دراستنا عن الموارث ، أن من الواجب أن نقدم هنا من القرآن النصوص التي تتصل بالموارث لنرى كيف مبرر محدث من كل الحالات المحتملة : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلث ما ترك ، وإن كانت واحدة فلهما النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فللمأمة الثلث فإن كان له أخوة فللمأمة السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين ، أبلاؤكم وبنسبكم لأقربهم لهم أقرب لكم نعماً غريبة من الله إن الله كان عليماً حكيماً . ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، وهن الربع مما تركن إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن الثمن مما تركن من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم » (٥) .

ويستلزم الأمر أن يخصص لم تركته لصالح من يريد ، ولا تملأ من الفوائض في ذلك ، ونعتقد هذه المهمة كتابية أو عن طريق جهود ، بل أن الكتابة تفرغ وجود شاهدين ، وإذا تكرر الأبناء إن والدهم قد خصص المبلغ المطلوب كتابية ، فلهم يرفعون على القسم ، وينبغي أن نلاحظ أن الشريعة تحتم القسم على من ينكر .

وحيث أنه لا يسمح مطلقاً بأن يذهب ما هو أكثر من ثلث ما يمكن أن يتركه المرء ، فإن ثمة وسيلة للتخلص من هذا التشريع لإعطاء كل الثروة كتابية ، ولا يحدث هذا إلا عندما يموت رجل دون ذرية . إذ يمكن في هذه الحالة أن يوقف تركته على أحد المساجد ، مع تخصيص حق الانتفاع للشخص أو الأشخاص الذين يفضلهم ، بل حتى لأقربهم ومساكينهم ، ولا يمكن أن يوصي بقية للمعد حيث لا أحقية له حتى يملك ، إذ أن قيمته نفسه ليس ملكاً له .

(٥) القرآن الكريم، الأيتان (١، ١٢) من سورة النساء. المترجم.

ويمكن القول بأن الشهادة لازمة في كل الأمور الهامة ، وإذا ما حدث على سهيل الخلل أن وقع الإشكال من جانب المدين وشاهدين ، ثم مات هذان الشاهدان ، فإن للمدين الحق في أن يرفض السداد ، لكن يجب لا يبحث في الواقع إلا إذا كان للدين كبيرا ، واليكم كيف يتصل في الأمر : يستدعي المدين ودائته إلى القضاء وعليهما أن يقسما ، ولكن إذا اختلفا أن المدين قد قسم اليدين بأطلا عن الآخر (الدائن) لا يقسم ، لأن القسم دائما على من ينكر . ويفترض القاتون أن الكتابة يمكن أن تزيد أكثر مما يفرغ منه يمكن للمسلم أن يحث في قسمه .

ولا تقبل شهادة المسيحيين أو أي رجل ليس دينه الإسلام أمام المحاكم الإسلامية ضد المسلمين ، إذا لا يستدعي التكرار مطلقا عند الفصل في الأمور المدنية أو الجنائية عند الاتراك ، ومع ذلك فيمكن لتفاد الشرطة أن يستعلم من كافر عن أمور تدخل في اختصاصه ، وثمة لبر آخر يبحث على الدهشة فعندما يدعى على سهيل الخلل شخص أن ثمة شخصا آخر قد طلب منه مائة خردة ، وشهد على صحة هذا الدين اثنان ، فإن هذه المائة خردة فتستوجب الدفع حتى ولو لم يكن قد قسم الدين في واقع الأمر ، ولكن إذا ما جاء هذان الشاهدان بعد أن عليهما اللزم ليطنا أمام القاضي اثما قد حدثا في قسمهما ، فإن القاضي يلزمهما بأنفسهما بدفع هذه المائة خردة إلى الشخص الذي ادعيا طلبا ، ويحتفظ المدي الزهاب بالمبلغ الذي حصل عليه ولا يلزمه القاضي بأى التزام ، ذلك بأن هذا المبلغ غير مستحق قد جاء فقط من جانب الشاهدين سوى للثمة ، ولذا يقع التقلب عليهما وحدهما ، لبا إذا لم يرجع في شهادته سوى شاهد واحد ، فانه يقوم بدفع نصف المبلغ المستطلب .

ويمكن لرجل ما في غيبة الشهود أن ينكر دينه مؤكدا ، فالشهود وحدهم هم الذين يبرهنون على صحة الدين ، ويحلف القاتون لذلك من سداد هذا الدين ، وإذا ما ظهر شهود على هذا الدين ، فإن المدين يلزم بالدفع ويكون الحكم في هذه المرة بمثابة إقرار للحكم الأول . وفي الحالة التي يطلب فيها شخص ما بدون لا ينكره المدين : وثما يدعى أنه قد قسم بتسديده ، فإن القاضي يطلب من الطرفين أن يقسما ، ولكن إذا انكر الدائن أنه حصل دينه بها كتبت حقيقة ما حدث ، فإن المدين يلزم بالسداد مرة أخرى ، لأن القاتون كما سبق أن قلنا ، يحلف في صفة الشخص الذي ينكر إذا ما قسم على ذلك .

ويلزم الشاب البالغ بدفع الدين الذى حرره على نفسه ، وينظر الشريعة لذلك باعتباره أبراً مشروما ، حيث انها تعتبر ان الشاب يتصرف عندئذ ، وهو على دراية تامة بالأمور .

ويسمح القانون بالأرقام الجسدى لسداد الدين ، فالمدين يلزم ببيع كائنه ما يملك ، فيها عدا الملابس التى يرتديها ، اذا ترفع الدائن على ذلك ، وعندما يشك الدائن ان المدين قد أخفى في بيته احد لممتلكاته نقودا او أشياء لوئلت بها من الدائن ، لفته يمتاق الى السجن ، ويظل هناك حتى يثبت بشهادة شاهدين مشهود لها بالتزاهة انه لا يملك في الواقع شيئا ، عندئذ يأمر القضى بإطلاق سراحه حتى يستطيع ان يحصل عن طريق عمله على ما يستطيع به سداد دينه . وما ان يجنى الدين يعطى المال ، وما ان يبرهن الدائن على ذلك أمام القضى ، حتى يتعرض المدين لأرقام جديد ، ولكن لا يسمح للدائن مطلقا باستخدام القوة من جهته ضد مدينه ، ولا أن ينتهه دون تفويض صريح من المحكمة .

ويخضع الفلاح المزارع لكل صرامة القانون ، فممكن أن يطلبه على بيع كل شيء ، حتى ثمراته ومخراجه ، ولكن حيث أن المشرع يطلب من الدائن قدرأ اكبر من الامتثال نحو سددته ، فان المدين يمكن على الدوام تقريبا من الحصول على مهلة لتوفاه بالتزامه ، او يربط ذلك مع الدائن بطريق ودى .

والشخص الذى يودع لديه مبلغ من المال لو أى شيء آخر لها كن ، لا يعد مسئولا اذا ما برهن أمام القضى بشهادة شاهدين ، أن الوثيقة قد سلبت منه من طريق قوة قاهرة ، وفى هذه الحالة نفسها فان نفسه وحده يكفى . اذا لم يكن ثمة شهود — لتحريره من كل التزام .

ومع ذلك فان المسلمين في مصر يبدون الكثير من التزاهة والأمانة في معاملاتهم ، فمصرعون شلون تجارتهم بنحة طيبة حتى عندما تكون تجارتهم هذه مع تجار من ديانة أخرى ، ويفضل الأوربيين للتعامل معهم اكثر مما يفضلون التعامل مع المسيحيين ، سواء كانوا من أهل البلاد او كانوا من السوريين ، الذين هم اجمع ما يكونون من القباى بثمن الطيبة ، والذين يشتم على المرء أن يتخذ أكبر قدر من الحيلة عند التعامل معهم ، ولا نستطيع

إن نعطى صورة من نزاهة المسلمين في محر عبية أفضل من أن تذكر على سهيل المال لامة تنس للطبقت الدنيا ، فنقل الأموال والمجوهرات الثينة يتم عادة عن طريق قوارب تسبح فوق النيل ، ومن التفر أن تتخذ احتياطات للتأكد من لفة البحارة ، ولم نكد نسمع مطلقا أن لهذا منهم قد لساء استخدام اللغة التي وضعت فيه .

وللتحليل على الإجراءات القانونية التي تحرم الربا ، يمكننا أن ننصو
ما يلي :

يقترض رجل مبلغا من النقود يريد أن يستطها ، فيعتبر الدائن نفسه شريكا له في المشروع ، وعندئذ يحصل على نصيب شرمي من الربح الذي يدره هذا المشروع ، ويسمح القانون أحيانا أن يقدم المقترض إلى الشخص الذي يقترض منه عدية سنوية أو شهرية طيلة المدة التي يحتفظ خلالها بالمبلغ ، ويمكنه أن يحصل على عديته هذه بقسم منه ، ونحن نرى أن هذا الإجراء يسوى الربا بشكل تام ، بل أنه يفوقه في أنه غير محصور داخل نفس الحدود .

والشخص الذي يستقل مبلغا من المال ، أو الذي يحصل على إيجار منزل أو على مثل من ملكية ليا كانت ، يلتزم بأن يقدم كل عام للقراء بأجر من ربح رأس المال ، وللمحكم الحق في أن يرغمه على ذلك ، إما كل الممتلكات التي يستخدم في الاستعمال الشخصي ككليت الذي يقيم فيه المرء أو الأرض التي يطم أسرته من نتائجها . . . إلخ فهي لا تخضع لهذا النوع من الضرائب ، إذ يمكن القول بأن هذه الضرائب ليست إلا لبرا يعود إلى ضمير المرء ، ولا تلغى المحاكم ضرورة دفعها ، لذا فإن المسلمين ذوي الحبة الدينية ، هم وحدهم تقريبا الذين يؤمنونها .

فلما إن الدائن يرتب لمرء مع محبته ، ونتيجة لذلك فنادرة هي حالات الإفلاس بتقليد في بحر ، لكن حوادث المسافرة معروفة وشائعة ، وكثيرا ما توضح الأخلط على الحالات التجارية وبراءت أولئك الذين تريد الحكومة أن تفسد ممتلكاتهم . وتوضح هذه الأخلط بطريقتين : إما بواسطة مسمار يضعه موظفو القضاء في قفل الباب ، وعندئذ لا يستطيع أحد أن يخلط هذا القف دون أن يعرض نفسه لقطع يده . وإما بوضف قفل من الطين على القفل مع ترك علامة ما . وعند مرورنا في الريلة مع

فرقة عسكرية من قوتنا مرونا بسط يحتوى على كمية هائلة من الذخيرة
ومخوم بحلابة الطين ، وكان من المستحيل علينا وقتها ان نترك حامية في
المدينة حيث اننا كنا ما زلنا نعالجه المسالك . وحيث ان هذا الذخيرة قد
آل اليها بينا نحن لم نصبح بعد في وضع يجعل الآخرين يحترقون قوتنا ،
لقد كان من المحتل ان يقوم العملية بدافع من الرغبة في السلب ، لكن منه
بفعل الحقد الذي كانوا يكتوبه لنا ، كاسر طبيعي في الأيام الأولى لقديونا . باقتحام
هذا المحل وسلبه ، ومع ذلك فان شيئاً من ذلك لم يحدث ، فعندما عدنا إلى
للمدينة من جليد أي بعد حوالي شهر - وجدنا المخزن سليماً لم تحسه يد .

— ٩ —

عن القرنا - وعن الانفصال

يبدو ان نبي الاسلام كان ينظر الى قرنا باعتبارها لراً يبحث على
المطرب الاسرة ، واقه ينبغي لذلك الا يفتضح لبره لا للعامة ولا لائم
المحكم . صحيح انه امر بان يرمي أي متزوج بدان بهذه الجريمة ، ولكنه
ارغم الرجل الذي ينتهك عرضه ، والذي يريد اتهام زوجته بسبب هذه التهمة ،
أرغمه على الصمت حين حتم عليه احضار أربعة شهود ميلان ، وجدل من
لا يستطيع تقديم الدليل حل هذا الاتهام ٤١٠ (٥) جلد . وقد حانت الفرصة
ذات مرة لكي يقوم هو بنفسه بتطبيق هذا (المبدأ) ، حين جاءه ذات يوم رجل
علجاً زوجته وهي ترتكب جريمة للزنا ليطلب إليه لتطبيق العقاب على زوجته
الأكبة ، يسأله محمد ان كان له على ذلك أربعة شهود ، فاجاب الزوج
الذي اعيى في شرفه بالقبلى . معتدلاً قال له محمد انه سيعاقبه بتهمة الظن
في حق زوجته .

ولم يرد الا ذكر امرأة واحدة رجيت لانها اتهمت بالزنا ، وقد تم ذلك
لانها هي نفسها التي اعترفت بجريمتها ، وعند تنفيذ حكم من هذا النوع
تملى للمحكم أو القاضي الذي يظنه ان يلقى بأول حجر .

وتلقى الشريعة بجدة العزب الذي يتهم بالزنا مائة جلدة ، ويجلد
المبد الذي يذان بغس الجرمية والذي يعيش في كنف سيده خمسين جلدة فقط .
(٥) ومن المعلوم ان يجلد ثمانين جلدة . كما ورد في سورة النور آية ٤ .
(الترجم) .

ويدان الزوج الذى يغيبه زوجته وهى ترى ثم تظنها ، بالتقتل ، ويلقى عقاب الموت ، فليس له فى هذه الحالة الا ان يطلقها لو ان لجأ الى القذف .
وعندما لا يتوافر له الشهود فانه يقسم أربع مرات بانه صادق فى اتهامه ، وفى القسم بالخلف يدعى على نفسه باللعنة ان كان كاذبا ، وعندما لا ترد المرأة بشيء على هذا الاتهام ، فحقها تدان بسبب سببها ، وعقابها فى هذه الحال عبارة من جلدها بـ ١٢ جلدة وحبسها بقية عمرها ، أما اذا برهنت على برائتها بنفس طريقة القسم ، عن القذف يطلق سراحها . ويكون انفصالها من زوجها أمرا لا محيص منه ولا رجعة فيه (١) .

وقد يحدث ان يجد رجل ما عبده فى أحضان زوجته ، ومع ذلك فلن يكون له الا حق عقابه أو بعبه ، أما اذا تظنه أو حرمه من أملاكه الضالعية فانه سيكون قد ارتكب جريمة كبرى ، لكن مثل هذه الأعمال العنيفة سببى دون شك بغير عقاب ، فى بلد تسيطر فيه السمادة والحوادث الجامحة أكثر مما يسيطر القانون ، فضلا عن ذلك فسيكون من السهل على فرد ما ان يغشى جريمة قتل يمكن ان يقرنها داخل منزله ، أو يستطوع على الأقل ان يجعل هذه الجريمة تغشى بامتياز أن الموت قد حدث بشكل طبيعى .

وعلاقب حل الاختصاص بمالة جليلة ويلزم لاثباته أربعة شهود .

ويقرم من أن البغاء جريمة ، فان للشرعة لم تفرض عقابا لمنها على تلك اللاتى يمارسنه . أما الانطراب الذى تحدثه النسوة اللاتى يمشن هذه الحقة الفاسدة ، فهو من اختصاص الشرطة . وعدد هؤلاء التحيات فى القاهرة وكذا فى كثير من مدن مصر كبير جدا ، والتحيات ممنون بالقاهرة يملكن شريعة اللواتى . ولم يفرض محمد على الرجال الذين يتصلون بالبنات عقوبات زمنية ، لكنه انذرهم بعذاب النار بعد الموت .

(١) يقول القرآن من الزوجة التى تتهم بالزنا : «واللاتى يأتين الفاحشة من أنفسكم فاستشهوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » .

ويقول من الأمة المتروجة التى ترى : «فإذا حصن فلان اثنين بفاحشة لمظهرين نصف ما على المحصنات من العذاب » .
سورة النساء

والنقطة التي تحرق البناء لم تصبح لها بقدر نجاة احترام الحياة ،
ومع ذلك فهي لا تحتقر لدرجة لا يجد معها لنفسها بعد ذلك زوجا ، والشخص
الذي يتزوجها يقوم بعمل خير في نظر الله ، لأنه ينتشلها من الضيق الذي
سقطت عليه لا محالة ، لكن الرجل الصالح والذي يحرص على تقدير
اصحابه يتنادى لرباطا كهذا ، لكن ابتل هذا الرجل قلوبون .

٩٠

من السرقة والقتل - وعن القصاص

قصاص السرقة بقسوة ، ورغم ذلك فلا يعاقب المذنب مطلقا بالموت ،
إلا إذا كانت السرقة قد اقتضت بالقتل ، والشخص الذي يبدن بالسرقة مع
استخدام العنف داخل محل تجاري أو داخل بيت أو داخل نطاق ما ، تقطع
يده ، ولكنه إذا ارتكب هذه السرقة من شخص أو من محروشات ، ويقتصر
إذا سرق خارج مكان مسور ، فإن القاتلون يحكم فقط بشربه بالعصا
وبإعادة المروقات . إذن لاقتحام المسكن وانتهك حرمة من التي
تشكل خطورة في هذه الجريمة . ولا تسافر حرية المذنب في كل الحالات ،
ويتركه القضاء لجمال سبيله بعد تنفيذ الحكم عليه .

وليس فيه عقوبات أخرى للخادم أو العبد الذي يسرق سيده . وكذلك
لا ينظر للشخص الذي يسرق مملوكا باعتباره أكبر جرما من الشخص
الذي يرتكب السرقة في أي مكان آخر .

ولا تصيب العودة إلى السرقة شيئا إلى الجريمة . فالجزم يلقي في
جريمته الثانية نفس المذنب الذي تلقاه على جريمته الأولى ، إذا ما ثبت
السرقة في ظروف متشابهة . فإذا كان قد فقد يده اليمنى تقطع له اليسرى ،
ويلزم وجود شاعدي معين لإثبات السرقة ، ولا تقبل شهادة النساء مطلقا .
وعندما لا يستطيع المدعى أن يحضر شهودا ، فإن القضي يؤزم بكافة الأدلة
فإذا رفض يبدن ، أما إذا قسم يعلو عنه .

وإذا تخلص اللص من الأشياء المروقة ولم يستطع أن يردّها ، فإنه
لا يودع السجن من أجل ذلك وإنما يدخل ضمن طائفة المذنبين المسيرين
وينتبه القاتلون نفس الشاغل ، ويحكم على من يقوم بإغواء المروقات
بإعادة الأشياء التي تسلبها إلى صاحبها ، لكن الشرطة تستطيع عقابه

بطريقة أخرى . فإذا كانت هذه المروءات قد بيعت وتعرف عليها صاحبها وتثبت أنها تخصه في الواقع ، فإنه يستبعدنا دون أن يكون ملزماً بتعويض مشترطها .

وكانت حوادث السرقة منتشرة قبل مجيء الفرنسيين ، وكان عدد كبير منها يرتكب داخل البيوت بالرغم من بشاعة العقاب ، ولكن ما أن أصبح على رأس السلطة موظفون فرنسيون حتى أصبحت هذه الجرائم نادرة نسبياً .

ولا شك أن أكبر ولبشع الجرائم التي على المجتمع أن يعصمها وأن يحاسب عليها ، هي جرائم القتل . ويتفق محمد في الرأي حول هذه اللقطة مع كل المشرعين القدامى والمحدثين وحكم على القاتل بالموت ، لكنه مع ذلك يتميز عن أسلافه ، إذ هو أكثر منهم حنكة في ذلك الفن الصعب ، فن سياسة الأمم ، ويتجلى ذلك في تلك النصوص التي جاء بها حول هذه الجريمة ، ايفضل من وقمها وليغير من أثرها ، فقد أباح لأهل القتل أن يقتلوا بتعويض بلقي وذلك عندما ترك لهم الخيار بين هذا الإجراء ، وبين ائزال الخصم بالخنث فمن من جهة نقرأ في الجزء الأول (١) من القرآن : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عني له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . ومن جهة أخرى نقرأ في الجزئين الثالث والرابع (٢) : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين وفي الجزء الخامس (٣) : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

وبما لهذه النصوص المختلفة لما نرى أن محمداً مع اعترافه بشفاعة الجريمة ، ومع تشريمه بعلتها ، يميل نحو التخفيف ويحذو الصالح . ومع ذلك فإن مشاعر اللبقة هذه من جانب المشرع ، ليست بذات سطوة كبيرة

(١) مسجتها في الجزء الثاني ، الآية ١٧٨ البقرة .

(٢) مسجتها في الجزء الخامس ، الآية ٩٢ النساء .

(٣) مسجتها في الجزء الخامس ، الآية ٣٢ المائدة .

على مثل وروح الضحايا ، هذه الشعوب تفضل الانتقام أكثر مما تحب هذا التعويض البسيط (١) فليس المال هو الذي يرضيهم وإنما يرضيهم رأس القاتل ، لذلك محاولات القتل نادرة في بلادهم . وينظر إليه رجال الدين باعتباره تمديدا على الله وعلى أهل البيت وعلى الحكومة . ولكن إذا جاز الورثة بقبول مبلغ على سبيل التعويض ، فإن الله بدوره منطوق لأنه غفور رحيم ، وستعمل الحكومة أيضا لأنها لا يمكن أن تكون أكثر تقدما من الطرف الذي يهيم الأمر . من هنا يأتي قانون حق الدم (القدية) وهو نوع من الانتكوة يفرس على القاتل في مقابل رأسه ، وينظر إليه ككثير حطب ، ويطلب من ذلك أن كل من لهم الحق في لربث القتل يمكن لهم أن يوقعوا تنفيذ القصاص في قتله ، وإذا كانت زوجة القاتل حيا فلا تقيم ينتظرون إلى اليوم الذي يستلم فيه الولد أن يقتل ليعسل في مصير القاتل .

ويكفي أن يطلب أحد الورثة ، مما كان نصيبه في الإرث شيئا بقل الدم ، لكي لا ينفذ حكم القصاص حتى ولو كان الآخرون قد أجمعوا على هدائه . وإذا كان أحد الورثة غائبا فإن القاضي يؤجل تنفيذ القصاص ، وإذا كان القاتل معروبا ومن السهل الطور عليه ، يطلق سراحه ، أما إذا كان يخشى من هروبه فإنه يسجن أو على الأقل يفرس عليه أن يقدم كفيلا ويتحاضى القانون على الدوام ويحذر الأيكان إصدار حكم بالسوت ، ولكن إذا لم يرد أهل القتل قبول أي تعويض ، فإن القاضي يصدر في النهاية ذلك الحكم على القاتل ويسلمه للأسرة ويسأل ما إن كان أحد من أفرادها يريد

(١) الانتقام هو المصلحة المصورة على المصريين . وبينما كنا في قرية شنديا (مركز لبناي البارود) كان معنا باقر ذات يوم مع القائد في حديقة منزله ، عندما جاء شهاب يبلغ من العمر ١١ أو ١٥ سنة ليترجم تحت قسي القائد راجيا مستعظما ويبدأ مضبوتهن إلى صدره وهو يصبح فيه : الانتقام فتنهض القائد ومثله عن سبب حراجه لقاتل : كان والدي شيئا لمشيت الاتهام نذبه شيخ البلد الحالي منذ أربع سنوات ليتولى منصبه ، وإلى مطلب منك الانتقام لذلك « فاجاب القائد وقد أخذ ثياب الشهاب وحمله : « هل لديك شهود ؟ » فصح الشهاب : « أبا شهودي هؤلاء هم ! » وفي اللحظة أخرج من صدره قميصا مسبوغا بالدم بحث منظره بالزعر إلى قلوبنا : « هذا قميص أبي وقد اخترتته للطلقات التي تلقاها وهو محطى بدمائه ، انني أحمله فوق ظهري وسيتال في مكانه هذا حتى أقتل له » .

وتوصلنا إلى نهاية هذا الأبن القاس وأعين أياه بلقنا سنفرس الأمر وتركا وهو نصف راقي لأنه كان يظن قبل مجيئه أنه يرى يومه يوم الانتقام .

تتميز الحكم بنفسه . لماذا لم يتقدم احد ، ولذا لم تفرج الأسرة جسيلا
من مندها ، يكلف الوالى الاما بتطبيق العقوبة .

وتستطيع الأسرة أن تتقدم بمفوضها في أى وقت حتى وقت التنفيذ ،
وحيث ان الحكم لم يصدر الا برجلتها هي فهي حرة في ان تعلق عن القاتل
في الوقت الذى يراها لها . ويبرهن كل هذا بوضوح على ان القانون
لا ينظر الى القتل باعتباره جريمة اجتماعية بقدر ما ينظر اليه باعتباره جريمة
في حق الأسرة ، حيث ان القاتل لا يطرد الا بطلب من اهل القتل . بل ان
الاما نفسه — وهو يمارس واجباته — لا يستطيع ان يبر بروت رجل
بها قتلت جريمته دون موافقة الحاكم ، وينبئ لى يسمح لنفسه بالتمسك
على نحو مخالف ان يكون المذنب متشردا وليس له اهل ولا مفرق . وهكذا
لم تكن اختصاصات الشرطة في الأزمان الأخيرة تصل لحد الاعداد ،
الا اذا كان الأمر يمس رجلا مجهولين لا أهمية لهم .

ولا يسدر القاضى سلطانا حكما بالاعداد على قاتل الا اذا قدمت البراهين
الغاية على الواقعة ، والا اذا حرمت الظروف كلها وسبقت شهادة الشهود
ويلزم وجود شاهدين على الأقل يشهدان بأنهما رايها ارتكبت الجريمة ،
ولا تقبل شهادة واحد بفرده مهما كان مركزه او نفوذه ، ولا يمكن للنظام
ان يشهد في قضايا الاجرام ولا يلقى بل لشهادتين الا في الأمور المدنية .

وتعتبر شهادة اثنين من دين مخالف ضد مسلم سالمة ومقبولة . وفي
الحالة التي لا تكفي فيها الأدلة لادانة المذنب ، فانه يستطيع بتقديم مبلغ من
المال لمائلة القتل ان يحو من نفسه هذه الوصية التي يلطخه بها عادة
مثل هذا الاتهام الخطير .

ويعاقب قتل المرأة بنفس الطريقة التي يعاقب بها قتل الرجل ،
ولا يضع المذهب الحنفى أية تفرقة كذلك بالنسبة لقتل العبد .
واذا ما قتل غريب ولم يطلب احد ثمنه لانه كان ورثه — أى الحاكم —
يرفع القضية الجنائية عن طريق ممثليه ، وكما يلاحق السيد الذى يقتل
مبده كذلك باسم الحاكم ، الحافظ لحقوق المجتمع حسب رأى المذهب الحنفى
أما المذاهب الأخرى فترى ان السيد قد عوقب بما فيه الكفاية بفقد مبدده .

وموت الفلاح المدين تحت ضريبة مما المالك ، يعرض الأخير لتتائج

الممل الاجرامى ، ولكن النلوذ وسطوة الثروة الكبيرة لو سطلوة اسحقاه لهم نلوذ ، جعله فى معظم الاحوال فوق القنون .

واذا كانت الشريعة لم تقرر الا عقابا بسيطا للمسلم الذى يقتل كافرا ، فان الحكومة — وهى يعنىها ان تحمى كل الناس بما يميم الاجانب شتاهم فى ذلك شان رعاياها انفسهم — تحكم بالاعدام على قاتل المسيحى او اليهودى . وفى عام ١٧٧٠ او ١٧٧٢ اغتيل احد الفرنسيين بيد قواس احد الكشاف لما راما الابتكارية بتطع راس القواس وثلى الكاشف .

واعدام القاتل لا يحقر من شان لولاده ، فالجريمة عند المصريين وعند كل المسلمين شخصية ، بينما تبدو مصالحة الثروات باعتبارها شيئا شعا وظالما لورثته ، لكن هذا الاجراء كان يحدث فى بعض الاحيان اثناء حكم الممكات ، لكن ذلك كان احدى السموات التى انظوها مع ما انظوه من سموات .

وتحكم الشرعية بالفصاص على الشخص الذى يجرح ثرينه ، النفس بالنفس والعين بالعين والاثف بالاثف والائن بالائن والنن بالنن والجروح لفصاص (١) .

والشخص الذى يذان بارتكاب هذا الفعل العنيف ، يستطيع ان ينتصر نعلته بان يدع الى المبروح نصف المبلغ الذى كان سيفطر لدفعه لو انه قتله .

ولا يمكن ان يحكم بالموت على القاتل الخطا ، ولكنه يحين لاسرة القاتل نفس حق الدم ، باعتبارفه قد حرهما من احد افرادهما .

وحسبما يرى المطماء فان الشريعة فوق الحكم لذا فانه لا حق لاحد فى ان يحكم على انسان مظه بالقتل ، الا اذا كان القاضى هو الذى اصدر هذا الحكم . وفى عهد السلاطين الاول ، كل لاهالى الشخص الذى ابر رئيس الشرطة بقتله ، الحق فى استدعاء هذا الضابط امام القاضى ليطالبوا الفصاص منه ، بل ان السلطان نفسه لا يستطيع ان يحكم بالموت كما يترأى له على منسوب فاجاه هو بنفسه وهو يرتكب جريمة . فقد رآى المصورى (م ١٥ — وصف مصر)

(١) القرآن الكريم ، الآية ٤٥ ، الثالثة . الترجمة .

سلطان مصر بعينه واحدا يرتكب جريمة زنا ، فجمع القاضى والمفتين وأمر الأول بأن يقتل الآخرين فأجابه القاضى « أعرف أنك شاهدت هؤلاء الذين تتهمهم ، وكان فى يلك السيف لكى تضرب أعناقهم ، لكى ليس لى الحق لى ان أينهم بلا أدلة ، أحضر لى اذن شهودا حقيقيين المحسن لك القضية » ويقدم لنا التاريخ مالا حصر أكثر دلالة على سطوة الشريعة على كبار الأمراء فى ايامنا الاسلام الأولى ، فقد استدعى الخليفة هارون الرشيد فى قضية وعندما حضر الى المحكمة استقبله القاضى جالسا ، ولمحس القضية وأنهاها بشكل ودى ثم نهض القاضى — الذى لم ينهض عند حضور الأمير لاذ كان من المحتل ان يكون مذنباً — بعد الحكم ، وصحبه الى مصافحه وسامعه على الركوب .

ومع ذلك فتحت الادعاء بان الصالح العلم يحتم على الدوام انخذل اجراءات ماجلة ، فقد كان الوالى او رئيس الشرطة الليلية يقطع راس الشخص الذى يجده مغلبا بارتكابه جريمة ، دون بحث لو تعذرت قضائية ، ولم يحدث مطلقا منذ لى استقر الأتراك بمصر ان تجلسرت امرة رجل مات بهذه الطريقة ان تقدم بشكوى الى القاضى ، مسجف الوالى صريح وخارج القانون كما يقول العامة ، ولكن سلطة رؤساء السلطة كما سبق ان نوهنا قد اصبحت فى الآونة الأخيرة أقل استبدادا ، فلم يعد الشرطة يقتلون أى شخص الا اذا حصلوا مقدما على تفويض بذلك من شيخ البلد .

وليس ثمة مأوى له حرمة لقاتل ، فهو يلاحق فى كل مكان حتى فى المساجد وحجرات الحرم ، ومع ذلك فان الرجل الكريم الذى يخفيه من غضب الأسرة المتكومة يمدح بأنه قد قام بفعل خير مسوف تكافئه عليه النساء ذات يوم ، خاصة اذا لم يكن قد آوى القاتل الا لكى يلتصق من ملاحظته فوضيح العقاب الذى يطلونه ، أما اذا أمر أهل القاتل على طلب رأس القاتل فان حليفه يفسطر لتسليمه طواعية ، والا يرغم على ذلك بقوة السلطة .

وحواش القتل نادرة للغاية فى المدن الكبرى وبخاصة فى القاهرة ، وربما لا يعود الأمر الى قوة القانون بقدر ما يعود الى الطبع الخجول للمسكن ، والى بقطة الشرطة المتحفزة على الدوام والتي تنقض كالمصامعة، ولكن فى الأقاليم حيث لا توجد شرطة عمومية ، وحيث ترين البلادة والخمول

والجهل على الفلاحين وقبائل العربان التي تمر الريف ، من حوادث القتل
أكثر انتشاراً .

وقد دخلت في عهد محمد بك مادة هجينة سببت عددا لا يحصى من
الجرالم ، على موسم البرسيم كان سيلس (جمع سيلس) المالك يذهبون
الى حقول البرسيم لزعامة الماشية وجمع الكلا ، وقد تسببت هذه الانتهات
في كثير من حوادث القتل ، وكثرت الشكاوى من ذلك لدرجة أن الحكومة
تساهلت في الأمر حتى توفر على نفسها مشقة تتبع هذه الأمور الجامحة ،
وحتى لا يعود الأمر يسبب لها من الضيق ما هي في غنى عنه ، خولت
الفلاحين على نحو ما قتل السيلس النهابين ، كما خولت هؤلاء كذلك في
الدعوى من حياتهم . فشرطة ألا يستغنى أي طرف من الاثنين الأمثلة
الضارية ، ولم يكن القاتل من أي من الطرفين يلتق أي نوع من العقاب .

الفصل السادس

عَنِ التِّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالزَّرَاعَةِ



تجارة مصر منذ العصور القديمة وحتى اليوم

كانت مصر على الدوام مركزاً لتجارة هامة ، وهي تلعب بذلك لموقعها الجغرافي بقدر ما تلعب به كذلك لكثرة وتنوع منتجاتها الزراعية ، فهي تقع على بحرين ، ويمكن القول بأنها تشغل نقطة التقاء بين ثلاث قارات كبرى من العالم القديم . وعلى هذا فقد كثفت سوقاً كبيراً لمختلف الأمم ، حيث سهلت لها سبل الاتصال بالبحر في نهر النيل وفي ذراع وغروعه التي لا يحصيها عد . لذلك يخبرنا الكتاب المقدس بنيا أولئك التجار الاسماعيليين الذين جذبهم التجارة الى مصر ، فسأروا لها ومهم لشهر لبناء يعقوب الذي أشروه . ويبرهن هذا النص المهم — بالإضافة الى الحكاية التي طوَّه — وبطريقة لا تقبل الجدل ، على أن بلاد الفراعنة كانت منذ الأزمنة البعيدة مهددة ازدهاراً كبيراً بفضل التجارة والصناعة . ومع ذلك فإن العسرات والروحيات قد وضعت لذلك حدوداً ، إذ اتخذت شعوب مصر — حسبما يقول هيرودوت ومقريشون وأهرون جديرون ملققة — من البحر مدحوا . ونظروا للانفسار التي تتم عن طريقه باعتبارها امتحاناً لنفسهم بقدراتهم . هل من الممكن تفسير هذه الميزة العجيبة بنفوذ المصريين الطبيعيين من بقية الأمم أو بالرجوع الى البحث في أسباب آلهتهم ؟ لكن بحثاً من هذا النوع سوف ينأى بنا كثيراً عن موضوعنا ، ويكفي هنا أن نقول بأن مصر اذا كانت قد ظلت برغم هذا التحريم — تحتفظ بأهميتها في مجال التجارة ، فإن هذه التجارة تدبّر بولوجها لمصوبة أرض مصر ، ولاحتياجت الشعوب المجاورة التي كانت تجد في مصر ، ليس فقط كل ما تحتاج اليه من مسود غذائية ، بل كانت تجد كذلك مخطف المتجلبت التي تساهم في افسادها طابع الفخامة على بعضها الكبرى .

ولعل أول تجارة شهيرة يذكرها التاريخ هي تجارة التيبقيين مع المصريين ، وتجارة المصريين مع الإحيى والحزيرة العربية في موالي الدهر الأحمر . وكان الفرس والهنود يحلبون الى الحزيرة العربية لقطعانهم ومطوَّره واحجارهم الكريمة ويشتاع لغيرى ، وكثرتوا يحلبون معهم منذ

عودتهم المنتجات الصناعية النينيقية المصرية . فضلا من ذلك كانت توجد في هذه الفترة وسائل للتبادل التجاري ، لم تثقل تقالدها النسا على الإطلاق . أما بخصوص النينقيين ، فصل الرقم من أنهم يدينون بأسلهم جزئيا إلى المستعمرات المصرية ، إلا أنهم لم يبدلوا إلا جدي متأخرين في ممارسة علاقاتهم التجارية مع مصر . وقد سمح لهم في عصر أمثريس بأن ينفذوا من نكراتيس (١) مسودما لتجارتهم ، وهو امتياز لم يكونوا قد حظوا به حتى ذلك الوقت . وقبل هذه الفترة ، كانت المستعمرات اليونانية في آسيا تستطيع الاتصال بمصر ، وبخاصة منذ الدم الذي قدمه الآيونيون والكريون Carionis لاسميتيك على مملسيه ، لكن العلاقات بين مصر واليونان لم تصبح مطلقة من القيود إلا في عهد أمثريس .

ومن بين كل الشعوب كان أبناء قرطاجة — بعد النينقيين — هم الشعب الذي أرى ثراء كبيرا عن طريق التجارة ، بل ويتفق مؤرخو الأزمنة القديمة على وضعهم في الصف الأول . وكانت الأساطيل التجارية لهذه الجمهورية القوية تجوب كل أنحاء البحر المتوسط وموانئ إسبانيا والشواطئ الغربية من إفريقيا .

ويقول العلامة Hust في زمن فتوحات الإسكندر : كانت مدن القرطاجيين والنينقيين التي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة الفرس — تغطي البحار من الهند والحبشة حتى المحيط الغربي ، لكن تفريق مدينة Tyx (حاليا : صور) وانتمزلات البطل المقدوني وتأسيس مدينة الاسكندرية قد أحدث ثورة كبيرة في مسار التجارة البحرية ، لقد أصبحت هذه المدينة الجديدة المرفأ الرئيسي لتجارة الهند في عصر إيلياخندوس بطليموس الثاني (، وصارت في ذلك الوقت من أغنى دول العالم ، فكانت هي التي تمول كل موانئ البحر الأبيض ، إذ كانت اليونان وإيطاليا وآسيا وإفريقيا تأتي إلى أسواق الاسكندرية للحصول على توبينها . وقد بنى بطليموس الثاني مدينة بيرينيس على البحر الأحمر ، وقد سهل ذلك نقل البضائع التي كانت تصل إلى مصر من الهند ، فكانت تفرغ في بيرينيس ومن هناك تنقلها القوافل إلى قبط Coptos على النيل ، ومن هناك تنزل إلى التهرس

حتى المكان الذي تبدأ منه ترعة الاسكندرية . وقد اهتم هذا الحكم كذلك بقضاء محطت مريجة في الصحراء للقوافل مما جعل هذا المسر الطويل اقل مشقة مما يبدو لاهتنا الآن ، ولم يهجر طريق بيرنيس الا في اواخر عهد البطالة .

وكانت كورنثة — في اليونان — مزدهرة في الوقت الذي كانت الاسكندرية فيه في قمة مجدها تحت حكم البطالة ، وقد استطاع اهل كورنثة الذين اثروا من عملياتهم التجارية ، ان يحملوا من مدينتهم السوق الرئيسية في الغرب ، لكن الوقت لم يطل بها حتى عانت من الاثر البهيمية لثغرة روما ، فسلم بها القنصل مومبيوس Mummius (١) بجيشها التجاري بفلس الطريقة التي تدهورت بها حينة صور في الماضي بفعل انشاء الاسكندرية ، ففي هذه الفترة أصبحت جزيرة ديلوس Delos (٢) — التي كانت لا تعرف حتى ذلك الوقت الا بسببها وآلهتها — المركز الرئيسي لتجارة البحر الابيض .

وفي العام ٧٢٥ من تأسيس روما تساطت مصر لتصبح مجرد اقليم روماني ، ومنذ ذلك الوقت استغل الرومان — وكثروا قد أصبحوا سادة مطلعين للبحار — تجارة الهند لصالحهم ، ومع ذلك فلم تكن اساطيلهم تبحر الى ما وراء الهند حسب شهادة مؤرخي ذلك العصر ، وكان اليهود والرومان كما يذكر بليني Pliny يرحلون من الاسكندرية في منتصف الصيف ، أي في الأيام الأولى لفتحان النيل بلا شك ، وكثروا يصلون الى مونتيس بعد ٢٤ يوما ، ويستغرقون ٧٠ يوما ليمضوا الى الهند ، ولم يكن يلزمهم اقل من عام في رحلة الذهب والعودة ، واستمرت هذه الحال حتى الغزو العربي أي منذ أغسطس حتى مسطنطين ، ذلك لان انشاء القسطنطينية على يد هذا الحكم قد اضرت كثيرا بقردها لتجارة مصر ، فعما بعد ، فعما بعد الضيقة عبر على انشاء البصرة على نهر الفرات ، أصبحت تجارة الهند وقتا على هذه المدينة الجديدة ، ويمكن القول بان التجارة قد أصبحت

(١) تفصل الرومان عام ١٠٦ قبل الميلاد ، وقد استولى على كورنثة وانقضى اليونان . (المترجم) .

(٢) من جزر الارخبيل . (المترجم) .

محصورة بحدود الخليج الفارسي ، لكن مصر لم تكن قد فقدت بعد أوطانها القديمة . إذ كانت القاهرة التي بناها بعد ذلك الخليفة الفاطمي المرحوم بالله عام ٩٨٤ قد أصبحت مدينة هامة ، وفي القرن الثاني عشر استردت الإسكندرية جزءا من امتيازها وأصبحت تهاجم عليها بغارات الهند من كل جانب ، لكن اكتشاف البرتغاليين لطريق يؤدي إلى الهند عن طريق المحيط الأطلسي وراس الرجاء الصالح ، كان هو القشة الأخيرة التي قصمت ظهر مصر ، ويمكن القول بأن ذلك قد قلص مكانتها التجارية لدرجة لم تصد تدخل سواها إلا بتجارها المحلية . وقد تأخر بذلك وبنفس الجسر الأعلى البندقية وجنوة الذين كانوا قد أثروا لفترة طويلة من طريق تجارتهم مع القسطنطينية والبحر الأسود وآسيا الصغرى ، ثم أصيروا بسبب النتائج التي أتت إليها في آسيا الاكتشافات البحرية البرتغالية . فقد كان جسر البندقية وحدهم على وجه التقريب هم الذين يستولون على كل تجارة مصر فقد كانوا يلقون إلى الإسكندرية للمحصول على كل المواد الغذائية اللازمة لأوروبا ، ويحولون إلى مصر أخشاب البناء والحديد والاصواف والسلاح والزجاج . الخ . وفي القرن الرابع عشر ، عندما استطاع أهالي فلورنسا الارتفاع بمستوى صناعة الحرير والزجاج لحدا كبير ، فقام توسعوا في ممتلكاتهم ومبادلاتهم ، فكفوا يلقون إلى الإسكندرية ويقتسمون التجارة مع أهالي البندقية ، وقد كان هؤلاء من قبل لا يلقون أية منافسة ، وأنشأ أهالي فلورنسا البنوك ، واحتلوا مركزا بارزا بين الأمم التجارية في ذلك العصر .

هذه هي كل مآثر التجارة المصرية منذ المصور الفارسية في القدم حتى المصور القريبة من عصرنا . فلنظر الآن ماذا أصبحت عليه التجارة تحت الإدارة المخزية للمماليك ، وثبتت تكثير الضمانيين وهو لا يقل من تأثير المماليك حصارا .

مما لا جدال فيه أنه لو كانت حالة التجارة لبلد ما تعتمد على حكومة التي تحكمه ، لكنت مصر قد توقفت منذ زمان طويل كل أنواع التبادل مع الشعوب المجاورة . ومع ذلك فقد كلى ثمة تجارة شلتها تسكن كل مروع الأعمال التي يحترفها شعب من الشعوب ، لقد كان هذا الضرب من ضروب النشاط يسير نفسه بنفسه ، لأن كل تسكن يقرر بمصلحته إليه . أن من الممكن امتلاكها ولكن يستحيل القضاء كلية على أثرها التلعب . وهذا هو ما

حدث تحت استبداد المالك ، فكثرت المبادلات التجارية تتم على النوام ، وبالرغم من أن عدد البهونات الآورية التي استقرت في الصحارة أو الاستكدرية قد أصبح ضئيلا ، إلا أنه كان ما يزال كثيرا للقيام بنشاط كبير في مجال المبادلات التجارية بين مصر ولوريا . وبخلاف هذه التجارة كان لمة تجارة أخرى — لا تقل أهمية — بين مصر والقسطنطينية ، تلك هي تجارة الرقيق الأبيض من كلا الجنسين والذين يخلطون بعبيد سود قادمين من أملاك أفريقية . وكثرت القوافل تجلب إلى مصر من سوريا وفلسطين المواد الغذائية والبضائع المختلفة ، لتحمل معها بضائع أخرى عند عودتها .

ولكن أهم فرع من فروع التجارة المصرية كان هو استيراد وتصدير البن القطن من الجزيرة العربية ، وكثرت السفن تقوم برحلة مسموية من السويس ، لتتجه إلى جدة ، للحصول من هناك البن الذي كان حرب اليمن قد جلبوه إليها ، كما كثرت تحمل الأقمشة والنوابل والبحور القطنية من الهند أما عن طريق الإنجليز من البنغال وسورات وخراس وإما بواسطة الهنود أنفسهم ، وكثرت السفن المصرية تهر من السويس في الفصل الذي تهب فيه رياح الشمال ، وكان يلزمها ١٧ — ٢٠ يوما للوصول إلى جدة . ولم تكن ترفع شراعها إلا أثناء النهار ، وكثرت تلقى مراسيها في الليل ، وكثرت تهرس على التزام المشاطية ، ونادرا ما كثرت تتوغل في عرض البحر . وكانت رحلة العودة تستغرق شهرين .

وكثرت القوافل القطنية من دارفور وسنار ، وكذلك القطنية من بلاد النوبة ، تجلب إلى مصر بخلاف العبيد السود من كلا الجنسين ، أصنافا عديدة من المواد الثمينة مثل تراب الذهب والحاج والمسك والأبنوس والعنبر وريش النعام والصمغ من مختلف الأنواع . ويفترض لمجيه *Mallot* أن مصر تحصل من فرنسا وإيطاليا في العام الواحد على ٤٠٠ — ٥٠٠ ألف قرش ، وأنها تحصل من أملاك أفريقيا على ١٠٠٠ — ١٢٠٠ قنطار من تراب الذهب ، وعلى أكثر من مليون ريال فرنسي (*écus*) من القسطنطينية وآسيا ، ثوبا لاثبتها ومنها ولزها ويخطف الأنواع من القنول .

وتشتغل تجارة التصدير المصرية لفسا على الأرز والبن وحلوى المامز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والحضرات الجلدة . وكثرت الحنة ، وهي تفتت يستخدم في سبج الأظفر والادلم والإيدى باللون

الأحمر البرتقالى ، مرغوبة بكثرة فى كل البلاد ، لأنه كل حين حاجة المسلكات
بصفة عالية استخدامها .

وكان جزء من مالية مصر يذهب إلى تركيا لتسديد الجزية التى يدفعها
البلقاء للسلطان ، مع ما يرسل من هدايا كان يعطيها للوزراء والمترين من
السلطان ، حتى يثبت فى مكانه ، وكان جزء كبير من مال مصر كذلك يذهب
من طريق أبناءها الذين يخدمون على الدوام من المطبخ ، وقد انتهت هذه
العادة المحزنة . . . وهى شائعة من كل الشرقيين . . . بشرب كثير من الأموال
الى خارج مصر ، وبهذه الطريقة ضاعت على مصر مبلغ طائلة ، وإلى الأبد .

وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر بشكل
كبير ، إذ لم تكن مصر تدفع لىوالا على الإطلاق ، وكان المثلل يتم دائما فى
صورة بضائع ، بينما كانت لورينغسطة فى معظم الأحوال الى دفع
الأموال . وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة التيلة والأسلحة ومخطف
المواد اللزجة لصناعة المعاليد والتعليل ، أما البنديقية فكانت تصدر لمصر
المبيلات الذهبية الإيطالية (سكين Béquine) والخسرا والمرابا ، أما
المقيا فكانت ترسل البورسلين والأوانى الزجاجية والمواد اللزجة لصناعة
المعاليد والتعليل .

وكانت مصر ترسل فى مقابل ذلك الصنلكنى والصنخ ، وكثيرا من
المنسوجات القطنية الخشنة ، وغزل القطن والسكر الخام والبن الى
برسبليا . وكانت ترسل الى البنديقية كميات كبيرة من البن والمطافير الطبية
وكانت ترسل الى ألمانيا الحاج والأبنوس والصنخ .

وكان من المفيد فى السنوات الأخيرة إرسال القنود الى مصر ، لأن
قيمتها الاسمية كانت فى ارتفاع ، ويرجع السبب فى ذلك الى ندرة القنود ،
والى أن توبة المبيلات الوطنية كانت فى تدهور مستمر . أما البضائع
الشرقية كالأصواف ونحوها ، فكان يفضل الحصول على مقابلها ، على
بضائع ، حيث كان سعر هذه الأصواف قد ارتفع .

أما تجارة الهند وجدة ، فكانت على العكس من ذلك مكلفة لمصر ، لأنها
لم تكن تصدر فى مقابلها الى هناك الا تصوانا رديئة ، ولأن تجارة البن

كانت تلتفون منها أن تدفع $\frac{1}{2}$ ثمنه نقداً . أما تجارة قوافل إفريقيا فلم تكن تتطلب قطعة واحدة من النقد ، وكانت هذه القوافل تجلب كما سبق للدول اليهود والصيغ وسن للثيل وريش الفعالم وترب الذهب ، وتحصل في مقابل ذلك على الأموال الفخورة والمجوهرات والأسلحة النارية المصنوعة في أوروبا .

ولكن نمطى للفارسي فكرة موضوعية من تجارة مصر ، فضع تحت يده جداول مفصلة توضح عنها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التي تدخل في هذه التجارة ، وتعود هذه الأرقام إلى عام ١٧٧٥ .

تفاصيل البضائع المستوردة

من لندن • مارسيليا • ليغورنو • البندقية • تريستا • القسطنطينية

والزنجي و مدن تركية أخرى • إلى القاهرة للاستهلاك السنوي بمصر عام ١٧٧٥

| أنواع البضائع | الوحدة | القيمة الموتة | نوع البضاعة | العدد | مربو | الوزن والقياس |
|-------------------------------------|--------|------------------|-------------|-------|------|---------------|
| جوخ الملبوس سور فابن (فاخر) | طرد | ٥٠ | قائمة خاصة | ٧ | ٢٩/٤ | ٩٠ |
| » فرسي » | » | ٥٠ | » | ١ | ١٩/١ | ٩٠ |
| » هولندي » | » | ٢٠ | » | » | ٢٩/٧ | ٩٠ |
| » فرسي خشن وعريض | » | ٢٥٠ | ديوان | ٧ | ٩٠ | ٩٠ |
| » الملبوس » | » | ٢٥٠ | » | ٦٠ | ٧٥ | ٩٠ |
| » فرسي عريض | » | ١٥٠ | » | ٥٥ | ٧٠ | ٩٠ |
| » ملقوش للأرامل والمعدات | » | ١٠ | » | ٦٠ | ٩٠ | ٩٠ |
| » خمسة صوف الملبوس | » | ٢٠٠ | » | ٢٢ | ٧٥ | ٨٥ |
| » قطن | » | ٣٠٠ | — | ٢ | ٧٥ | ٩٠ |
| » زهرة القطن | » | ١٠ | ديوان | ١٦ | ١٨٥ | ٩٠ |
| » الخشبة التركية | باله | ١٠ | » | ٤٦٠٠ | ٤٧٠٠ | ٩٠ |
| » بدق ثلاث حبات وفور فاشا وجنب | ١٠٠٠ | ١٠ | — | ١٧ | ١٣ | ٩٠ |
| » صوف فاخر من الملبوس يسمى «فاشا» و | » | ١٥٠ | ديوان | ٧٧ | ٩٠ | ٨٥ |
| » من لندن موديل فرانسوي | » | ٩٠ | قائمة خاصة | ٢٠ | ٣ | ٩٠ |
| » ألمان | » | ١٠٠٠ | ديوان | ١٣ | ٤٨ | ٩٠ |
| » ورد القمح ومعمولات روية | » | ١٠٠٠ | » | ٢٥ | ٢٨ | ٩٠ |
| » أخرى وفرد ألمانيا والبندقية | » | ١٠٠٠ | فاندن | ١ | ١٢ | ١٤٦ |
| » نحاس مطبق | » | ٢٠٠ | ديوان | ٢٤ | ٣٦٠ | ٨٥ |
| » ورق بيع وارد سالفريكا وورق | » | ١٠ | » | ٦٠ | ١٠٠ | ٩٠ |
| » اقمشة قطنية وارد بورصة | » | ١٠٠ | فرش | ١٧ | ٥٠ | ٤٠ |
| » متاعيل من الزساق | » | ١٠٠ | ديوان | ٣٠ | ٣٢ | ٩٠ |
| » سجاد مطبوعة من القطنية | » | ٢٠٠ | بوطة | ١٠ | ١٧ | ٩٠ |
| » وسجاد سادة | » | ٢٠٠ | فاندن | ١٥ | ١٦ | ١٤٦ |
| » قطنية مطبوعة سادة بالذهب أو الفضة | » | ١٠٠ | ديوان | ٥ | ٧ | ٩٠ |
| » أو سادة | » | ١٠٠ | — | — | — | — |
| » اقمشة قطنية وحريفة من دمشق | » | ١٠٠ | — | — | — | — |
| » وحش | » | ١٠٠ | — | — | — | — |
| » صابون صوري درجة ١ | » | ٢٠٠ | — | — | — | — |
| » على من كرم | » | ٢٠٠ | — | — | — | — |
| » بيع صوري | » | ٢٠٠ | — | — | — | — |
| » قطن من صناعته وروموس | » | ٢٠٠ | — | — | — | — |

| أنواع الطامع | الوحدة | الكفة النوية | نوع الطود | الحر | ديوانى | الوزن والمقياس |
|----------------------------------|--------|-----------------|------------|------|--------|------------------|
| حيات سبعة يتشابة متفلة | مستوى | ٥ | ديوانى | ٨٥ | ٩٠ | بالألف |
| ألوان مختلفة | ٥ | ٥ | ٥ | ٩٠ | ٩٠ | بالسطة |
| من البلق الصنمى | ٥ | ١٠ | ٥ | ١٩٠ | ٢٠٠ | بالسطة ١٢-١٤٠ ح |
| الياب ٢٢٤ | ٥ | ٥ | ٥ | ١٠ | ١٧ | ٥ ٥ ٥ |
| نمرة ٣ | ٥ | ١٠ | ٥ | ٧٦ | ٩٠ | بالسندوق |
| أوراق لصية رقيقة | ٥ | ١٠٠ | ٥ | ٩٠ | ٩٠ | بالسكة حبات |
| ولاقى نحاسية | ٥ | ١٠ | ٥ | ٩٠ | ٩٠ | بالسكة حبات |
| سبارة نمرة ١، نمرة ٢ | ٥ | ٥ | ديوانى | ٩٠ | ٩٠ | بالسكة حبات |
| سبوق مربعة ذات حدين | ٥ | ١٠ | ٥ | ٨٥ | ٩٠ | بالسكة حبات |
| مواشيد بنادق | ٥ | ١٠ | ٥ | ٩٠ | ٩٠ | بالسكة حبات |
| نحاس جديد مصنع | ٥ | ٢٠٠ | ٥ | ٦٥ | ٩٠ | ألف بالرواقم |
| كلود الرقيق | ٥ | ١٠ | ٥ | ٢٦٠ | ٢٨٠ | ألف ٤٠٠ درهم |
| معدن مضروبة إلى رقائق خفيفة | ٥ | ١٥ | ٥ | ٢٠ | ٢٢٠ | بالسكة حبات |
| شلال من نحاس الأهمورا | ٥ | ٣٠ | ٥ | ١٧ | ١٨ | بالسطة |
| كوكم في طب سبعة | ٥ | ٢٠ | ديوانى | ٤٣ | ٥٠ | الألف ١١٠ درهم |
| شبه شيا | ٥ | ١٠ | ٥ | ٨٠ | ٩٠ | بالرواقم |
| أحذية بدون كعوب (بابوش) | ٥ | ١٠٠ | ٥ | ٦٠ | ٨٠ | الرواقم |
| وارد القسطنطينية وأزمير | ٥ | ٤٠٠ | مدينى | ١١٥ | ١٢٠ | الألف ٤٠٠ درهم |
| سكة واردة خموس | ٥ | ١٠٠٠ | ٥ | ٣٠٠ | ٣٤٠ | الفتنار ١٠٥ رطل |
| سكة عادى | ٥ | ٥٠٠ | ٥ | ٣٠٠ | ٣٤٠ | الفتنار بالأوزان |
| سكة أجود | ٥ | ٥٠٠ | ٥ | ٨ | ٩ | المنسوق |
| أكسيد الرصاص واردة غلبا | ٥ | ٣٠ | ٥ | ٨٤٠٠ | ٨٦٠٠ | الفتنار ١٠٧ رطل |
| كبريتات الزئبق | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ | المرحوب الصف |
| سكاكين ذات مقابض واردة سوريا | ٥ | ١٠ | مدينى | ٤٠ | ٤٣ | الحزبة |
| سكاكين بدون مقابض | ٥ | ٥ | ٥ | ١٣ | ١٩ | الرسفة |
| مقصات معدنة | ٥ | ١٠ | ٥ | ٢٠ | ٢٥ | — |
| أمواس ممتدة وعادية واردة ألمانيا | ٥ | ٥ | رطل ألماني | ٣ | ٥ | كل حجم حجم |
| أكواب رصاصية ومرايا متنوعة | ٥ | ٧٠ | ٥ | ٦ | ١٠ | ٥ |
| وارد ألمانيا | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ |
| مرايا واردة ألمانيا | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ |
| أكواب زجاجية ومرايا واردة | ٥ | ١٠ | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ |
| بوهيميا | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ | ٥ |
| معدن واردة واردة أسبانيا | ٥ | ٥ | مدينى | ٧٤ | ٣٠ | المرحوب الصف |
| زجاج مرايا بدون إطار | ٥ | ٢٠٠ | مدينى | ٦٦ | ٨ | المنسوق |
| وساس على شكل سبائك | ٥ | ٢٠٠ | ديوانى | ٤٥٠ | ٤٩٠ | الفتنار ١٤٠ رطل |
| زويخ أصفر وأبيض | ٥ | ٢٠٠ | ٥ | ٥٠٠ | ٥٦٠ | ١٧٥ ٥ |
| أكسيد النحاس على شكل صلح | ٥ | ٧٠ | ٥ | ٧٠ | ٧٥ | الألف ٤٠٠ درهم |

| أنواع البضائع | الوحدة | السكة البيروية | نوع القود | السر | ديوانى | الوزن والمقاييس |
|---------------------------------|-------------|-------------------|------------|---------------|--------|--------------------|
| إبر نمرة ١٠٠٠ ١٠٠٠ | ١٠٠٠٠ | ١٠٠٠٠ | ديوانى | ٣٥٠ — ٣٨٠ | ٩٠ | بالألف |
| ديانيس | — | ١٠٠٠٠ | د | ٣٥٠ — ٣٠٠ | ٩٠ | " |
| سناوات أنواع عظيمة | — | ١٠٠٠٠ | د | ٣٠٠ — ٣٠٠ | — | " |
| الاقحاح حامية وأسيان حديد | ٢٠ | — | مدينى | ٢٣٠ — ٢٣٠ | ٩٠ | النسار ١٥٠ وطل |
| ألواح زجاجية من الهندية ساحة | — | — | — | — | — | — |
| وشتوخ | — | — | — | — | — | — |
| الستور (المصاغة باللون الأحمر) | سناديل ١٠ | — | ديوانى | ٥١٠ — ٥٦٠ | ٩٠ | نظار ١٢٠ وطل |
| ملوى من قريبا وجنل | السلطة ٢٠٠ | — | د | ٣٠٠ — ٣٠٠ | ٩٠ | السلطة |
| بن محف من أربيد | ٥٠٠ | — | د | ١٢ — ١٢ | ٩٠ | ألف ١٠٠ حرم |
| لوران (رقت) من سناخوس | — | — | — | — | — | — |
| وودوس | ظفرية ٥٠٠ | — | — | — | — | — |
| سيدة القبة | البرميل ١٠٠ | — | قطعة فضية | ١ — ١٦ | ٩٠ | ألف ١٠٠ حرم |
| جوزة الطيب | ١٠ | د | ديوانى | ١٦٠ — ١٦٠ | ٩٠ | رطل ١٥٤ حرم |
| صلح بالقة | ٢٠٠ | د | د | ١٢٠ — ١٢٠ | ٩٠ | نظار ١٠٢ وطل |
| عقاقير لعلاج الميون | ٢٠٠ | د | د | ٤٢٠ — ٤٢٠ | ٩٠ | نظار ١٥٠ رطل برميل |
| جلالين لخطيب الأسنان | ٢٠٠ | د | د | ١٤٠ — ١٤٠ | ٩٠ | د ١٠٢ |
| أرواح زئبق | ١٠٠ | د | — | ٣٦ — ٤٠ | ٩٠ | نظار ١٥٠ رطل |
| أكسيد الفاسس الأحمر | ٢٠ | د | ديوانى | ٥٢٠ — ٥٤٠ | ٩٠ | نظار ١٢٠ وطل |
| سكر من لقيونة | ٤٠ | د | قطعة فضية | ١٠ — ١٣ | ٩٠ | د ١٠٠ |
| شدة من أمانرا | ٢٠٠ | د | ديوانى | ١٠٠ — ١٠٠ | ٩٠ | د ١٥٠ |
| كبريتات | ٤٠ | د | د | ١٦٤ — ١٦٤ | ٩٠ | د ١٥٠ |
| ساحر كبيرة الحجم | ١٠٠ | د | قطعة فضية | ١٩ — ٢٤ | ٩٠ | ألف ١٠٠ حرم |
| آله حديدية | ٢٠ | د | مدينى | ٢٢ — ٢٥ | ٩٠ | د ٢ |
| فحاصية | ١٠ | د | د | ٢٢ — ٢٥ | ٩٠ | د ٢ |
| زيت من القرب وبنوس | البرية ٤٠٠ | — | ديوانى | ٢٨ — ٢٨ | ٩٠ | د ٤٠٠ حرم |
| سايون رشو من الحرب | ٥٠٠ | — | د | ٢٢ — ٢٢ | ٩٠ | د ٢ |
| لحم بوقرة | ١٠٠ | — | مدينى | ٥٠ — ٦٠ | ٩٠ | د ٢ |
| ساعات حائط | الواحدة ٢٠ | — | قطعة فضية | ٣٠ — ٤٠ | — | الواحدة |
| كبيرة | ٥٠ | د | د | ١٥ — ١٥ | — | د |
| أفدنة من النشابة أرجوانية اللون | الصلح ٢٠٠ | — | د | ٣ ١/٢ — ٣ ١/٢ | ٩٠ | فواح الصنطانية |
| لحم ساي | ٥٠ | — | د | ٤ ١/٢ — ٥ | ٩٠ | د |
| أفدنة أرجوانية اللون | ٢٠٠ | — | د | ٢ ١/٢ — ٢ ١/٢ | ٩٠ | د |
| لحم سايو ايل صف قاهرة | ٢٠٠ | — | د | ٢ — ٢ | ٩٠ | د |
| حريرية وكفانية سادة | ١٠٠٠ | — | قود ألمانة | ٩ — ٧ | ٩٠ | الصلصة |
| لقصان | — | — | — | — | — | — |

| أنواع البضائع | الوحدة | السكة النيوية | نوع التتود | السعر | حيوانى | الوزن والقياس |
|-------------------------------|--------|------------------|--------------|-------------|--------|---------------|
| أقمشة قطنية خضنة من القطنية | القطعة | ١٠٠٠ | حيوانى | ٨٠٠ — ٨٥٠ | ٩٠ | القطعة |
| قلايات منقوعة من ألمانيا | ٥ | ٥٠٠ | مدينى | ٣٠ — ٣٥ | ٤٠ | فراخ القطنية |
| جوخ خشن وارد ألمانيا | ٥ | ٢٠٠ | ٥ | ٥٨٠ — | — | — |
| مناديل منقوعة وارد ألمانيا | ٥ | ١٠٠ | ريال ألمانيا | ١٠ — | ٩٠ | القطعة |
| ٥ كغائية | ٥ | ١٠٠ | ٥ | ٢٣/٤ — ٣ | ٩٠ | ٥ |
| فلس أبيض وثلوثى | ٥ | ١٠٠٠ | — | — | — | حطب الصنف |
| ٥ مدح سادة وستوش | ٥ | ١٠٠٠ | ريال ألمانيا | ٩ — | ٩٠ | القطعة |
| ساعات ذهبية وفضية | ٥ | ٥٠ | قطعة ذهبية | ٧ — ٢٠٠ | — | الواحدة |
| عقيق صناعى | ٥ | ٢٠٠٠ | حيوانى | ٢٤ — ٣٠ | ٩٠ | — |
| ٥ ناديل أنواع مختلفة | ٥ | ٢٠٠ | مدينى | ٤٨٠ — ٦٠٠ | ٩٠ | الدسقة |
| ورق مذبح | ٥ | ١٠٠ | حيوانى | ٢٩٠ — ٣٢٠ | ٩٠ | الرزمة |
| ٥ | ٥ | ١٠٠ | ٥ | ٤٩٠ — ٥٢٠ | ٩٠ | ٥ |
| ٥ | ٥ | ١٠٠ | ٥ | ٨٠ — ١٠٠ | ٩٠ | ٥ |
| ساعات من فلورنسا لوحة أولى | ٥ | ١٠٠٠ | ٥ | ٩٥ — ١٠٠ | ٨٥ | فراخ القطنية |
| ألفا مذبحه ومفضله من فرنسا | ٥ | ٦٠٠٠ | قطعة ذهبية | ٧ — ١٠ | ٨٥ | ٥ |
| وفلورنسا | ٥ | ١٠٠٠ | حيوانى | ٦٠ — ١٠٠ | ٨٥ | ٥ |
| ساعات عريضة وسيمكة | ٥ | ١٥٠٠ | ٥ | ٤٥ — ٦٠ | ٨٥ | ٥ |
| ٥ خنبل وطر عريضة | ٥ | ٥٠٠ | ٥ | ١٢٠ — ١٥٠ | ٨٥ | ٥ |
| ٥ عريضة ومنج من ألمانيا | ٥ | ٤٠٠ | ٥ | ٩٥ — ١١٠ | ٨٥ | ٥ |
| ٥ قطار لسود وأبيض من | ٥ | ٥٠٠ | ٥ | ١٠٠ — ١٢٠ | ٨٥ | ٥ |
| قيدقية | ٥ | ٤٠٠ | ٥ | ١٠٠ — ١٢٠ | ٨٥ | ٥ |
| ساعات من فرنسا ١ و٢ | ٥ | ٥٠٠ | ٥ | ١٠٠ — ١٢٠ | ٨٥ | ٥ |
| قطعه مصلية وسادة | ٥ | ٢٠٠٠ | قطعة ذهبية | ١٣/٤ — ٢ | ٨٥ | ٥ |
| ساعات مضاع وسادة وارد خيوس | ٥ | ٦٠٠٠ | مدينى | ٦٠ — ٨٥ | ٨٥ | ٥ |
| ٥ مذبح ومفضله ولورد خيوس | ٥ | ٤٠٠٠ | ٥ | ١٥٠ — ٣٦٠ | ٨٥ | ٥ |
| أدسقة مذبحه ومفضله من اليدقية | ٥ | ٢٠٠٠ | ريال أمار | ٩ — ١٢ | ٩٠ | ٥ |
| كرت عاود | ٥ | ٢٠٠٠ | حيوانى | ٢٠٠ — ٢٥٠ | ٩٠ | قطار ١٥٠ وطل |
| عتر أبيض مرة ١ | ٥ | ١٠٠٠ | ٥ | ٥٥٠ — ٥٦٠ | ٩٠ | قطار ١٤٤ وطل |
| مرحان وارد فرنسا ورايجوزة | ٥ | ٢٠٠٠ | ٥ | ٢٢٠ — ٣٤٠ | ٩٠ | قطار ١٥١ وطل |
| وليدويو | ٥ | ٤٠٠٠ | ٥ | ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ | ٩٠ | قطار ٢٠٠ وطل |
| عتر أصفر مرة ١ | ٥ | ٤٠٠٠ | ٥ | ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ | ٩٠ | قطار ٢٠٠ وطل |
| فراط من القصب أو الخيزر ملحبة | ٥ | ٦٠٠٠ | ٥ | ٣٥ — ٣٥ | ٨٠ | فراخ القطنية |
| ومفضله | ٥ | ٢٠٠٠ | ٥ | ٢٢ — ٢٢ | ٨٠ | مقال |
| وقائق ذهب وفضة | ٥ | ٢٠٠٠ | مدينى | ١٠٠ — ١٦٠ | ٩٠ | قطار ١٥٠ وطل |
| كبريت | ٥ | ٢٠٠٠ | ٥ | ١٠٠ — ١٦٠ | ٩٠ | قطار ١٥٠ وطل |

| أنواع البضائع | الوحدة | الكمية المطلوبة | نوع القود | البر | ديوانى | الوزن والقياس |
|--------------------------------|---------|--------------------|-----------|------------|--------|-------------------------|
| خيوط ذهب وفضة | الكتال | ٧٠٠٠ | ديوانى | ٧٥ — ٣٠ | ٨٥ | مثقال |
| مرايا ذهب وفضة ذهبية وفضية | » | ٣٠٠٠ | مخمس | ٣٥ — ٣٠ | ٩٠ | ب |
| من كل الأنواع | فيسان | ٦٠٠٠ | — | ٩ — ٩ | ٧٣ | قصار ٧٣٣٩ رطل |
| معدن من الحديد ومكوكيا | الكتال | ٧٠٠٠ | ديوانى | ٨٥٠ — ١٠٠٠ | ٩٠ | ب ١٢٥ رطل |
| لرمانوك [خشب الطلاء] | — | — | — | — | — | — |
| خشب من كل الأنواع من أسبانيا | — | — | — | — | — | — |
| ولرنا وموسكاليا | — | — | — | — | — | — |
| بنادق صيد وطيفيات انجليزية | — | — | — | — | — | — |
| أحجام مفرقة | — | — | — | — | — | — |
| أنواع خفيفة لقياس من كل نوع | — | ٦ | — | — | — | — |
| أحجام من رودهنا وعبر الأسود | المزولة | ١٠ | — | — | — | — |
| وقر ووطى | — | — | ديوانى | ٣٠ — ٤٠ | ٩٠ | ب ٣ ٣ ٣ ألف بالبراهم |
| لصق من سوريا بكيات مفرقة | — | — | — | — | — | — |
| والمنج (صغير) من سالونيكيا | — | — | — | — | — | — |
| بكيات مفرقة | — | — | — | — | — | — |
| أصناف لينة لفلان مسعود من | — | — | — | — | — | — |
| زوسيا وكية مفرقة من مرسيا | — | — | — | — | — | — |
| أنواع نحاسية ونحاس بكيات مفرقة | — | — | — | — | — | — |
| وارد مرسيا | — | — | — | — | — | — |
| أصناف مفرقة من الأنواع | — | — | — | — | — | — |

مجوهرات القسطنطينية مجوزة لوزن مجوزة

الملابس ، زيود ، لآلئ من كل الأصناف .

١٠٠ قيراط من الألماس الأحمر من حلب تفقد من ١٠ - ٣٠ خردة
القيراط حسب الصنف ، وتفقد اللآلئ من ٢ - ٨ خردة في المثلث الواحد
أما اللآلئ الكبرى فحسب النوع .

الجلود : جلد الجبة وثلاثي من روسيا وتشمل جلود الذئب الأبيض
والأسفر والسمور وتساوى الواحدة من ١٠ - ٢٠٠ خردة .

الخبور من تبرس وجزر أخرى من الأرخبيل .

موازين البضائع المختلفة بتمثال حام في القاهرة

الآلة في القاهرة = ٤٠٠ درهم وهي تساوى آلة القسطنطينية إلا
بخصوص الحرير الوارد من بورصة Bursa وراجوزة وقبرص حيث
تساوى الآلة ٤٠٤ درهم .

الرطل = ١٤٤ درهم .

رطل الحرير السوري = $1\frac{1}{2}$ ٢٢٩ درهم .

وعند وزن مختلف الأنواع يخصم الوزان الميزان المعدل (وزن الوعاء)
من كل الطرود والبراميل ... الخ .

ومع ذلك فإنه يوجد على الدوام مضلات تكبر مما يفترض في الواقع
حيث يصل القنطار إلى ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٢٠ رطلا من كل ١٠٠ .
ويبغى أن ملاحظ أن هناك بضائع يبلغ القنطار فيها عدد خصم الميزان
النديل إلى ١٥٠ أو $\frac{1}{4}$ ١٢٣ بدلا من ١٠٠ .

١٠٠ رطل في القاهرة تساوى بالضغط لبرة في لندن .

و = $1\frac{1}{2}$ ١١٢ لبرة (Livra) في مارسيليا .

و = ١٢٠ لبرة (Livra) في ليونيو : = ١٥٠ لبرة صغيرة في

البندقية و ١٠٠ لبرة كبيرة في البندقية أيضا ، وفي تريستا نفس الشيء .

١٠٠ غومدى فى تريمستا او البنقدية = $\frac{1}{4}$ ١١٧ ليرة كبيرة فى البنقدية.
 ١٨٥ ليرة كبيرة فى تريمستا .

١٠٠ رطل فى القاهرة = ٢٦ لقة فى القسطنطينية وازهر .

الغود التى يغسل استخدامها فى عمليات الشراء

قطعة ذات ٧٣ مدينى او ديوانى
 قطعة ذات ٧٠ مدينى او ديوانى
 قطعة ذات ٦٠ مدينى او ديوانى
 قطعة ذات ٣٣ مدينى او ديوانى
 قطعة ذات ٣٠ مدينى او ديوانى
 البنقدلى ويسلوى ١٤٦ ديوانى .

المجوهرات الذهبية والفضية

١ قيراط = ٤ حبات
 ١ درهم = ١٦ قيراط
 ١ مثقال = ٢٤ قيراط
 ١ لوتية = $\frac{1}{4}$ ٨١ درهم
 ١٠٠ قيراط بنقدلى = ١١٢ درهم .

وبساع المجوهرات المصهرة دون وزن . وساع الاحصاء الكريمة
 بالمقيراط دون خمس لعميل المعدل وساع اللؤلؤ بدون حيط وبدون حسم
 المعيار المعدل اما اذا كانت ملفومة فتوزن ١٠٥ فى مثقال ١٠٠ ويوزن
 المرجلن مع احوال حريرية صغيرة والمعار المعدل هو ١٥١ درهم مقابل
 ١٤٤ . ويباع بالبرطل او الدرهم .

١٠٠ درهم من وزن القسطنطينية من المجوهرات الذهبية او الفضية
 = ١٣٣ درهم فى القاهرة اما جواهر البنقدية التى تزن فى اوريا ١٨ قيراط
 فلا بد ان تزن فى القاهرة $\frac{1}{4}$ ١٨ قيراط .

١٠٠ قيراط موزن البنقدية لا بد ان تساوى فى القاهرة ١٠٢ قيراط.

والقطعة الذهبية من المجر تزن نفس وزنها الأصلي ، أما الدينار الذهبى الأسباني (دويلون) فيزن في القاهرة ٩ دراهم ، ويزن الفندلي ١٨ قيراط ، ويزن الواحد من الزر محبوب $1\frac{1}{4}$ قيراط . وتزن قطعة الخردة ٩ دراهم .

أما الفليس المستخدمة في القاهرة بالنسبة للالتشبة فهي ذراع القسطنطينية لها ذراع القاهرة فهو أفسر ، يستخدمه التجار لبيع القطاى .

قيمة العملات الأجنبية التي تصل القاهرة

من طريق التجارة

السكن Saguin البلدى = ٢ خردة و ١٣ - ١٨ مدني حسب المنطقة ، القطعة الالمانية = ٢ قطعة ذهبية و ٥ - ١٠ مدني ، ويبلغ سعر الدويلون الاسباني والسكن البربري والمراكشي والجزائري والنموسى والطرايلسى ١٣٠ - ١٤٠ مدني ، أما الدولار الاسباني فو الصودين او القرشين يساوي ١ خردة (بوظافة) و ٣-٥ مدني يستخدم بخاصة في الفكة . وهذا بخلاف كميات كبيرة من انواع اخرى من النقود ومن تراب الذهب والسبائك التي تجلبها القوافل ، وتراب الذهب حادة رخيص الثمن ، لكنه منذ فترة قصيرة بدأ يستخدم بكميات كبيرة في صنع قطع النقود الصغيرة في القاهرة .

الفليس الأجنبية مقارنة بفليس القاهرة

الذراع الانجليزي $1\frac{1}{4}$ من ذراع القسطنطينية وهو المقاييس المستخدم في القاهرة .

ذراع مرسيليا = $1\frac{1}{4}$ من ذراع القسطنطينية ، ذراع البندقية = ذراع القسطنطينية بالنسبة للالتشبة الصوفية ، أما بالنسبة للالتشبة الحريرية فلن ١٠٠ ذراع بتدعى = ٩٣ من ذراع القسطنطينية ، و ١٠٠ ذراع تسمى = $1\frac{1}{4}$ من ذراع القسطنطينية .

المنتجات التي تصدرها مصر

الى لندن وماسبيغا ولينورثيو والبندقية وتريستا والبندقية

وكرمي وسالونيك وبلاد القري في تركيا

| أنواع البضائع | الوحدة | الكمية السنوية | العملة التي تباع بها | القيمة | ديوان | الأوزان والمقاييس |
|--|--------|----------------|----------------------|-----------|-------|-------------------|
| تمر سنه | قنطار | ٧٠٠٠ | القطع الذهبية | ١٩ - ٢٢ | ٦٠ | قنطار |
| ملح النفاذ لإنتاج الجيرة نمرة ١ | • | ٢٠٠٠ | دولار بوسكار | ٥٠ - ٥٥ | ٨٥ | ٧٧ أنة أو ٢٠٠ رطل |
| ملح النفاذ لإنتاج المنصور وورهد نمرة ١ | • | ٨٠٠٠ | • | ٤٠ - ٤٨ | ٨٥ | • |
| البليج | • | ٣٠٠٠ | • | ٢٢ - ٤ | ٨٥ | قنطار ١٢٠ رطل |
| السلك | • | ١٠٠٠٠ | القطع الذهبية | ٢٠ | ٦٠ | • ١١٠ • |
| الجراب | • | ٢٠٠٠ | • | ٣٥ | ٦٠ | قنطار بالرطل |
| بردة السلك | • | ٢٠٠٠ | • | • | ٦٠ | • |
| قطن مغزول | • | ٦٠٠٠ | رد محبوب | ١٥ - ١٤ | ١٢٠ | • |
| القننة | • | ٣٠٠٠ | دولار بوسكار | ٣٢ - ٤ | ٨٥ | قنطار ١٢٠ رطل |
| صوف بعله | • | ٤٥٠٠ | • | • | • | • |
| كثبان أصناف متعددة | • | ٣٠٠٠٠ | • | • | • | • |
| لونه هندي من الهند | • | • | ديوان | ١٩٠ - ٢١٠ | ٩٠ | أنة بالدرام |
| كرم | • | • | • | ١٨ - ٢٢ | ٩٠ | • |
| جبان كبير | • | • | • | ١٤٠ - ١٦٠ | ٩٠ | أنة ٤٠٠ درم |
| جبان صغير | • | • | • | ٣٥ - ٤٥ | • | أنة بالدرام |
| دم التين | • | • | مدين | ١٠٠ - ١١٥ | ٩٠ | أنة ٤٠٠ درم |
| دم التين لاهم وارد الهند | • | • | • | ١٢٠ - ١٣٠ | ٩٠ | • |
| شمع جديد | قنطار | ٢٠٠٠ | • | ٥٠ - ٦٠ | ٩٠ | • |
| أفيون نمرة ١ ، ٢ | • | • | • | ٣٦٠ - ٤٠٠ | ٩٠ | • |
| حنة الصباغة بالأحمر | زكية | ٨٠٠٠ | • | ١٤٠ - ١٥٠ | ٨٥ | الوكية ٣٥ أنة |
| حنة الصباغة بالأصفر | • | • | • | ١١٠ - ١٢٠ | ٨٥ | • |
| حب اليسر | • | • | قندقل | ١٩ - ٢١ | ١٤٦ | • |
| أرد دياطي | الأردب | ٣٠٠٠٠ | القطع الذهبية | ٣٨ - ٤٠ | ٣٠ | الأردب ٢٢٥ أنة |
| أردز ريشي | • | ٧٥٠٠٠ | • | ٢٣ - ٥٠ | ٢٣ | الأردب ١٥٣ أنة |
| كبات كبيرة من الأدم لكافيا والصند | • | • | • | • | • | • |
| من الصند ونباه وزهد ومياطي | • | • | • | • | • | • |

| أنواع البضائع | الوحدة | الكمية السنوية | القيمة التي تباع بها | السعر | ديوان | الأوزان والمقاييس |
|-------------------------------|---------|----------------|----------------------|-----------|-------|-------------------|
| بن وارد الخبز | باله | ٣٠٠٠٠ | دولار موسكو | ٣٢ — ٢٨ | ٨٥ | قنطار ١٠٥ رطل |
| خشب السند | — | — | — | ٢٠ | ٦٠ | قنطار ١١٠ رطل |
| خشب السند وخشب زهرنا | — | — | — | ٢٨ — ٣٢ | ٦٠ | قنطار ١٠٠ رطل |
| جوز القيق | — | — | — | ١٩ — ٢١ | ٦٠ | — |
| للر بأنواع مختلفة | — | — | — | ٤٣ — ٣٤٦ | ٦٠ | — |
| مر فقط | — | — | — | ٧٨ — ٨٢ | ٦٠ | — |
| الحلثية (صنف لتسكين التفاحات) | — | — | — | ٢٨ — ٣٣ | ٦٠ | — |
| جلود الزعفران | — | — | — | ٢٨ — ٣١ | ٦٠ | — |
| قرقة | — | — | — | ٢٨ — ٣٢ | ٦٠ | — |
| قرقة شرقية | — | — | — | ١٨ — ٢٢ | ٦٠ | — |
| كتان مغزول | — | — | — | ٤٠ — ٤٥ | — | باله ٣٠٠٠٠ كيس |
| لفلفل طويل | — | — | ديوان | ٧٥ — ٨٥ | ٩ | أنة بالدرام |
| جلود إيران بأحجام مختلفة | — | ٤٠٠٠ | مدين | ٢٢٠ — ٣٠٠ | — | الجلود الواحد |
| " " " " | — | ٦٠٠٠ | — | ١١٠ — ١١٠ | — | — |
| جلود بقر | — | ٣٠٠٠ | — | ٩٥ — ١١٠ | — | — |
| قماش خشن أزرق يسمى منون | بالقطع | ٤٠٠٠ | — | ٩٥ — ١٠٠ | — | لقطعة |
| قماش خشن أبيض | — | ٤٠٠٠ | — | ٦٥ — ٨٠ | — | — |
| لاله | — | — | ديوان | ١٥٠ — ١٦٥ | ٩٠ | — |
| صمغ عربي من سائر | — | — | دولار موسكو | ١٦ — ٧٣ | ٧٣ | قنطار ١٣٣ رطل |
| صمغ عربي من جدة | — | — | فندق | ٥ — ٦ | ١٤٦ | — |
| " " " " | — | — | دولار موسكو | ١٣ — ١٥ | ٨٥ | قنطار بالرطل |
| " " " " | — | — | — | ١٠ — ١٣ | ٨٥ | — |
| غار الأملج [الأفران الطبية] | — | — | قطع ذهبية | ١١ — ١٣ | ٦٠ | — |
| بقدور | — | — | — | ١٣ — ١٨ | ٦٠ | قنطار ١١٠ رطل |
| بقدور من مختلف الأنواع | — | — | — | ٨ — ١٠ | ٦٠ | قنطار |
| من القليل | — | — | — | ٦٠ — ٦٥ | ٦٠ | قنطار ١١٠ رطل |
| زهود الزعفران قطعة أول وثانية | — | — | — | — | — | — |
| زهود الزعفران زراعة الصمغ | القنطار | ٣٠٠٠٠ | — | ١٨ — ٢٢ | ٦٠ | قنطار رطل |

العملات المتداولة في القاهرة

يستخدم المصريون والديوانى في الفكة ، اما الزر محبوب فيسوى ١٢٠ مدينى ويسوى القرش ٤٠ - ٦٠ مدينى .

وتمة عملة اخرى من راحوزة تكفي - ٦٠ مدينى وهى عملة مطلوبة في آسيا وترسل منها كميات كبيرة الى سوريا حيث تلقى اقبالا كبيرا .

اما الد بوطانة او الخردة فلان سعر استبدالها المتعدي يبلغ في رشيد والاستكفرية وفيصل ٨٦ مدينى ، ويصل في القاهرة الى ٨٥ مدينى ويسبب ندرتها ارتفاع سعرها الآن الى ٩٢ مدينى ، اما في تجارة المواد الغذائية الفالية فهي تساوى ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٢ مدينى . اما الدولارات التومسكانية التي تعرف باسم البوطانة فتداول بسعر ٨٠ ، ٨٢ مدينى وهى تساوى قطعة الخردة ، وتفضل في آسيا .

وتصل قيمة غندلى القسطنطينية ١٦٠ مدينى ولكنه نادر .

ويختلف مقدار الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة من أوروبا وآسيا بحسب قيمتها ، فهي تبلغ ٨٪ على المجوهرات ، وبالنسبة لصبغة النيلة ويختلف اخرى ثمانية ٦٪ ، الجوز والورق ... الخ ١٣٪ ، الرصاص وبضائع اخرى رخيصة القيمة ١٥ - ١٦٪ ، البضائع الواردة من تركيا ٢٠٪ ، وتبلغ الرسوم الجمركية ٨ - ١٥٪ ، اما الاخشاب وورق التبغ والصابون والفواكه تدفع رسوما نقدا .

اما البضائع المستوردة من مصر الى أوروبا فتبلغ الرسوم المفروضة عليها من ١٥ - ٢٠٪ وينتفى على هذه البضائع ان تدفع رسوما الى القناصل والى اشخاص آخرين حتى تحصل على تصريح بالخروج ، وكان تصدير البن والارز والحبوب ممنوعا في معظم الاحيان ، وتحصل البضائع المستوردة الى تركيا على بعض التسهيلات حسب الظروف ، وكثرت صلاحيات البن والارز والصمغ العربي والرمستر والبخور والنفثة وملح التشنج الجيد واخشاب السط المتأخرة وبضائع اخرى - كانت تمنى نقدا ، وفي بعض الاحيان كانت تقايض ببضائع اخرى ، ويمكن شراء البضائع الاخرى من طريق المكشوفة مع تقدير سعرها بحسب سعر السوق .

وتختلف تجارة مصر اختلافا بينا من تجارة لوريا ، بسبب الاضطرابات الكبيرة التي تتعرض لها الحكومات ، وبسبب أحداث أخرى تتعرض لها التجارة ، فتنخفض حركتها بشدة لقضاء بعض هذه الأحداث ، أو تزدهر خلال أحداث أخرى ، لذلك ينبغي أن يكون التاجر يقظا وعليه على الدوام اقتناص الفرص المواتية .

وشهر رمضان هو الشهر الملائم لبيع المنسوجات الصوفية والحريرية ، على هذا الوقت يشتري العلبة وكذا لساء للطلعة العليا ملابس جديدة لأنفسهم ولزوجاتهم وخدمهم .

وتجلب سفن وقوافل جدة البين والبخور والصمغ وبضائع أخرى من الهند والجزيرة العربية والحبشة ، عندما تحد إلى جدة ، تحصل معها الثبلة والرماس والعنيد والطحى الزجلجية وبضائع أخرى تستورد من الهندية ، خاصة باليمن والحبشة والهند .

وكانت بضائع الهند تأتي دوما مع محمل الحج ، وهذا ما يعطيها من دفع الرسوم في القاهرة ، إذ كان للمحمل امتياز عدم دفع أية رسوم على الاطلاق .

وكانت قوافل النوبة تجلب الصمغ العربي من سنار ، ومن النيل وبضائع أخرى من هذا البلد أيضا ، وتأخذ عند مودتها الجوخ الفرنسي المسمى لوندريان والجوخ الاتجلبزي والورق والترنفل والمرجلان .. الخ واتواها مغطاة من خزف المحلة وطنطا الذي تقوم عليه تجارة كبيرة . وتجلب هذه القوافل أيضا كمية كبيرة من تراب الذهب الذي يباع عادة بمـ ٢٠٠ — ٢٠٨ دولار هوسكفى لكل ١٢٥ درهم ، ولكن بمذا عهد بمعد بك تستخدم تراب الذهب بكميات كبيرة في ضرب النقود ، مما جعل سعر هذه الوزنة يرتفع إلى ٢١٢ — ٢١٦ حسب الجودة .

وشهر أغسطس هو وقت الزعفران والحناء والطح ، أما سبتمبر وأكتوبر فهما شهرا الأرز والكتان ، وديسمبر وينابر للسندل والفتة ، وفي هذه الفترة ينبغي على المرء أن يشتري بضائع جيدة سيبيعها بربح ، بضمنه ومجل لحد كبير .

وسوف يكون الأمر مجعنا بالنسبة للذين يرسلون بضائعهم من أوربا

أن يتمتعوا ببعضها في الحال ، ذلك لأن التجار المصريين المتهمين بالفساد سيخضعون هذه البضائع كلها ، كما أنهم سيحولون في نفس الوقت أن يبيعوا بأعلى سعر يستطيعون الوصول إليه تلك البضائع التي يراد إرسالها في مقابل البضائع التي اشتروها بهذه الطريقة .

ولقد كانت هذه عادة الفرنسيين فيما مضى ، ولكنهم عندما فبنوا المخابية السبعة لذلك ، انشأوا لأنفسهم محلات واحضوا لهم وكلاء ، ووصلت بذلك خبرتهم لدرجة مزدهرة ، لقد أنهم استطاعوا أن يكتسحوا على وجه التقريب كل الأجانب الأخرى .

من حلة الصناعة

لا يمكن للكات شعب من الشعوب — ذهنية كانت أم روحية — أن تنمو ، وأن يبنى هو بالذات ثمرات ذلك ، إلا في ظل أنظمة تراها ، وينطبق هذا القول نفسه على الصناعة ، والألمتها ستظل راکدة حيث لا اختراع ولا تحسن ، وهكذا ، فإن الحرف والمنتجات الصناعية في وادي النيل تبقى بحضارة لا تزال في طور الطفولة ، أو تبقى بالأحرى بتعاقس الصناعات وأصحاب الأعمال ، وليس ثمة شيء دقيق ، أو محلي به يخرج من المصانع المصرية إذا ما استثنينا التطريز ، والمنسوجات القطنية والصوفية وبقيت الأشياء ذات الاستعمال الطويل ، تظهر بشكل خشن وغير دقيق ، لقد سوف يذهلنا إذا نحن لم نلق بالآلة تلك الظروف التي يحياها الشعب الذي اتجها ، ولقد ظل المصريون المحبون — برغم كل العناصر التي كان يمكنها أن تؤدي للنماء والازدهار — مخلفين ، لأن خطوة الطفيلان قد حصرت عقولهم ، بل يمكن القول بأنها شلت قدرتهم على التفكير ، وليست مصر هي الدولة الوحيدة في كل دول الشرق التي تحيا في مثل هذه الحالة المحزنة ، بل تتناثر للأسف الشديد ، في كل مكان من الشرق ، نفس التدهور ونفس الجمود ، ونفس النتائج .

ومع ذلك ، وبالرغم من تلك الحياة الفجطة التي تدر عليهم لأن يحيوها في ظل حكومة المبالك ، فإنه لم يفت المصريين حتى الآن أن يستغلوا شيئاً من المصادر الهائلة التي تهيئها مناجل لرضهم للصناعة ، فصناعة الألبسة المشتهة من القطن والكتان ، تتيح فرص العمل لألاف الأيدي ، وتقوم الحلة

الكثرة — وهى مدينة يبلغ تعدادها حوالى ثمانية آلاف نفس — يصنع القمصة حريرية وشعلان من الحرير تعرف باسم شيت وحرير ، وبعض المنسوجات القطنية الحشنة ، ويوع من القطن الأسود تستخدمه زوجات البكاوت ككفاح يتخلين به ، ويعمل فى هذه المصانع ٨٠٠ — ١٠٠٠ عامل من كلا الجنسين ، ومن مختلف الأعمار .

وتصنع سنود — وهى مدية لا يبلغ تعدادها بالكاد ٢٠٠٠ — ٢٠٠٠ نسمة — بعض المنسوجات الشعبية من الكتان ، وتصنع موف كثيرا من هذه المنسوجات نفسها كما تصنع أجمل حصر البلاد ، أما مدينة طنطا الشهيرة بأسواقها وبطريق السيد البدوى فتصنع كثيرا من المنسوجات الكتانية . لكنها بمنسوجات بالغة الحقة والاعتلى وتعرف باسم : قمشى (١) .

وبخلاف هذه المنسوجات — بالإضافة الى التطريز الذى يبرع فيه المصريون كما سبق القول — يصنع المصريون كذلك كثيرا من الآنية الفخارية الشعبية والفلكل (وهى آنية موطنة) والآنية الزجاجية وهى حشنة ومنقره ، كما يصنعون السجاجيد وأحجار النازجيلة من الطين المحروق ، ويصدر الى كل دول الشرق ، ويصنعون فى نفس الوقت أجواحا خشبية ، ونوعا من اللباد المخلوط بالصوف ، يستخدم فى صناعة الضمام ، أما كل التركيبات التى لها صلة بالكيمياء مثل صناعة ملح النواصر وتطهير الخبور والمطور ، هى صناعات ما تزال بعد فى طور الأمنيات ، أما أجهزتهم هى منقره بقدر ما هى عاجزة ، وكثيرا ما يستخدمون البوس المتقوب بدلا من الاتناب الزحاحية ، أما الآلات الخالية التى يستخدمونها للرى ، ففيها شيء من الحقة ، والميكانيكا عندهم ماهرة فى بعض الأحيان ، ولكنها تستطيع لولا مسموئات الروتين أخراغ ماكنات تستطيع أن تعضى نفس الفنتج فى وقت أقل وباستخدام عدد أقل من الرجال ، وبماختصار ، فنحن نلاحظ فى كافة حروب الامسال بسطة كبيرة سواء فى الأدوات أو فى التنفيذ ، ويستخدم العمال اقدامهم بنفس المهارة التى يستخدمون بها أيديهم . وهذا مما يزيد فى سرعة انجاز العمل ، وهذه المادة شائعة عند النحيرين والتحنسين والنساجين وصناع القباطين ، وعند كل الحرفيين عموما ، ومن الطريف أن ملكت الطر برم فلك ، الى أن اقدامهم عارية وتغطى فقط ملحية واسعة للغاية بتروكوبها

(١) هذه الكلمة باللغة العربية تعنى كلمة انواع المنسوجات .

عند دخول الثورثة ، وتعمل المالكية معهم وهم جالسون ، وهذا بما يسهل استعمالهم اقدامهم .

ويستخدم الخراطون قوسا يحركونه بيد بينما هم باليد الأخرى يشكلون الآلة القاطعة على الشيء الذي يريدون تشكيله ، وهم يديرون هذه الآلة بلهزم القدم اليمنى التي يستخدمونها بالمثل كقفلة لبركتك ، وبهذه الطريقة يصنعون اجزاء وقضباناً حديدية وتقنصات تستخدم في صنع الشكال أكبر .

وليس ثمة شيء غير عادي في اعدادهم للجبس ، فقد يبني أن نلاحظ أننا في بلاد نصف بربرية كهذه ، كنا نتوقع أن يكون الناس في هذا المجال شائهم في ذلك مثل شائهم في بقية المجالات أكثر نظفاً وأقل هدفاً في الوسائل التي يستخدمونها لسحق هذا المعجن مما نحن عليه ، فالإنسان عنفنا في أوربا هو الذي يتحمل عبء هذا العمل الشاق ، ورغم أنه من المؤكد أن سحق الجبس يضر بصحة العمال الذين يقومون به ، لكن المصريين استطاعوا تفادي هذا الخطر ، إذ يقومون بسحق المحرق بواسطة طاحونة يحركها حصان . وهذه الأداة ملفة البساطة لكنها عمالة وهي مخروطية الشكل وذات ثقل هائل .

ويلزم الكثير بالنسبة للطواحين المختصة لطحن القمح حتى تصبح في دفعة وعملية طاحونات أوربا ، مرحاضاً صغيرة لا يزيد طورها من ٢ - ٢ ١/٢ قدم ، وطحنها غير ناعم ولا تقوم بفصل الردة عن الدقيق ، لذا فيكاد يكون مستحيلاً أن تأكل في مصر هبة يسافل خبز باريس أو بروكسل في جهله وخفته .

ويستخدم البيطاربون أداة حادة لقطع حمار الخيل ، وهذه الأداة التي لا تشبه في شيء تلك التي نستخدمها في أوربا لنفس الغرض . تحمل كذلك شكل مخالف وتتطلب طريقة في العمل تتعارض مع طريقتنا .

وحرفة الحدادة قليلة الانتشار في هذه البلاد ، حيث أن القمح نفسه بلادر ، وهم لا يستخدمون عادة إلا أقبالا حثمية صنعت بضاعة ، وعمدد الصاعة وتجار المحوهرات قليل . وهم لا يصنعون إلا أطبا متواضعة ، ومن السهل أن نلاحظ أن المصري الحديث يستطيع بفضل الاستعداد الطبيعي للعمل ، ويفضل المهارة والنكاء اللذين روتته بهما الطبيعة ، أن يرتفع إلى

مصاب الشبهة التي تتبع بها اسلافه ، لولا تلك العقبت التي لا يحلو للتصميم والطبعان الا ان يكسبهما في طريقه .

وعما قليل ستحدث عن الفلاح ، وستكون الزراعة موضوعا لفقرة مستقلة ، أما بخصوص الحرف الأخرى التي لم تتعرض لها مطلقا في هذا الفصل ، فقد وصفت في شرح لوحات الحرف والفنون
Explication des Planches d'arts et de métiers
لدراسات خاصة مثل معمل التريخ ، صناعة ملح النوشادر . . الخ ونسحق
لعمل القارئ اليها ، وسيجدها مشروحة بكل تفصيلها .

طريقة صنع جلد السمكتين الأحمر (الفاسي) في القاهرة

لصناعة جلد السمكتين (الجلد الفاسي او المراكشي) لا تستخدم الا جلود المامز ، ولكي يتم ذلك يسطح المعدل على السطح الداخلي لهذه الجلود ، طبقة من مجنون الجير ، ويتركه هكذا لمدة أربعة ايام ، ثم يقطع الجلود بعد ذلك في ماء الجير ، حيث تبقى لمدة عشرة ايام في الصيف او ١٥ يوما في الشتاء ، وبعد هذه التجهيزات ينزع الشعر ، وتجرد الجلود بسكين مقوسة لها مقبضان ، وتسمى داس لم توضع الجلود في حوض ، وعلى كل جلد منها طبقة من زيل الحمام ، وتبقى على هذه الحال لمدة ٢٤ ساعة ، ثم تغسل بعد ذلك بعناية فائقة مع دوسها بالأقدام ، ومع تغير ماء الحوض عدة مرات ، وعندما تنظف جيدا توضع في حوض آخر ملوئ بمياه مخلوطة بالردة ، وتترك هناك حتى تختبر ، وعندما تسحب وتغسل من جديد بالمياه العذبة ، لتوضع مرة أخرى في ماء الصل المخلوط بالردة لمدة خمسة ايام في الصيف او عشرة في الشتاء ، وعند سحبها تكون منفوخة نلبا ، ثم تبسط ويهرس فوقها الملح ، وبعد دوسها بالأقدام حتى تعود الى سبكها الطبيعي ، تحرد من جديد وبخاصة من سطحها وقد كلى كلى نعومة من سطحها الآخر في العملية الاولى ، ثم تبسط الجلود واحدا فوق الآخر على حصيرة نظيفة بعد ان ترش الجلود مرة أخرى بالمح ، وتنقل بعد ان تجهز بهذه الطريقة الى يد الصباغ .

ويتمرها الصباغ في دس من الخشب صب فيه السائل الملون ، ثم ينتشلها ويغمرها عدة مرات في هذه الصبغة ثم يعلقها لتساقط منها نقاسط الصبغة ، ويكرر نفس العملية حتى تلغز الجلود اللون الأحمر ، وعندما

تحصل على درجة اللون المناسبة ، يطفونها لتتساقط منها نخلط الصبغة من جديد ، ثم نغمس في دهن به ماء بارد ويحوب القرض المسحون ، وبقى الجلود لمدة يوم كامل في هذا الدن شتاء ، ثم يجرود بعد ذلك سطحها الداخلى لثلاث مرة ثم يغمس الجلد مرة اخرى في نفس الدن ثلاث أو أربع مسرات ، ولا تتطلب هذه العملية الأخيرة الا يوما ولعدا في الصيف ، وأخيرا ، وبعد أن يمر الجلد بكل هذه العمليات ، يغسل بالماء الصنب وهو لا يزال رطبا ، ويدهن السطح الداخلى بريت الكتان ، ويلقى في الهواء السطوح ، حتى يجف تماما ، ويضع بين اسطوانتين من الخشب .

أما من الصباغة فليكن كيف يحونها ، وبلية عناصر يكونونها : نضع حوالي عشر قرب من الماء في دهن من النحاس وينقع فيها على البارد لمدة ليلة كاملة كمية معينة من مشب القرض الذي يجمع في ضواحي الإسكندرية ، وبعد ذلك تسخن المياه حتى تبلغ درجة الخليين فيسحب المشب ليوضع في الدن حفنة من قشر الرمان وأوتيتان من الشبة ثم ٥٠ درهم من مسحوق حودة القرض ، وبعد ذلك يغمس الصباغ جلدا في الدن ليتأكد من سلامة الخلطة فإذا لم تثبت المادة اللونية بشكل جيد يضيف مرة أخرى أوتية من الشبة أو أكثر أو أقل فإذا كانت الطلعة واضحة أكثر مما ينبغي تزود كمية مسحوق الحودة القرمزية قليلا وعند استعمال الصبغة ينبغي أن تكون حرارة السائل معتدلة لدرجة تصلها اليد .

والجلد الذي يستخدم في صنع نعال الاحذية هو عادة من جلد الجملوس ويصل هذا الجلد عادة الى المديفة وهو ملتح ويوضع في أحواس مليئة بماء الجير ، ويصنع هناك لمدة حوالي عشرة أيام وبعد ذلك ينزع شعره ويوضع من جديد لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ويجردة الليل مسكين ذات مقبضين ويغسله بالماء الصنب عدة مرات وبعد ذلك يغمسه في أحواس حجرية مع نوع من الحبوب المسحون ، ويبدو ان هذه الحبوب هي والجير الجفلسن الوحيدان اللذان يستخدمان ، وبقى للجلود لمدة ١٥ يوما في الحوض الأخير ثم تصب الفضل بمغلي ثم يفرش الكتان وبعد أن يمر الجلد بهذه العملية وبعد أن يصف يباع لصناع الاحذية .

ومن نغلة القول ان نغلة النظر الى ان احذية المصريين ليست لها نفس المدة التي لأحذيتنا فهي مجرد « شيلتب » أو أخفاف من السخيل يتعد الألوان ٤ أما نعل جلد الجملوس فهي تصنع بترتيب الماء على

الدوام كما لو كانت من الاسفنج ، لكن هذا العيب الذى ينظر اليه في اوروبا حيث الأمطار تهطل على الدوام على انه عيب خطير ليس كذلك في مصر فالأرض جافة باستمرار وحيث أن جلد الحلبوس من يطعمه لانه يناسب الأرض المتبسطة الرملية والخلالية من الأحجار ، وتختلف احذية شعوب الشرق قليلا عن احذية المصريين .

ولد وصل عن الصباغة الى ارقى درجة عند قدماء المصريين بالنسبة لتقوعها وبريقها ويعلمة في طول مدة شتت الألوان ، لكن الصباغة في مصر اليوم شتتها شتت للصباغة في كل مكان ، ولم يحتفظ الذين يمارسونها هناك اليوم الا بالقليل المأخر من عى أسلافهم فهم يكتفون بغمس المسوجات او غزل القطن الذى يراد صباغته في المادة الملونة وهى تفلت ، كما ان ورشهم غلبة في البساطة ، كما أن الألوان التى يستخدمونها تعد بشكل مجاف للذوق ، واكثر المواد الصباغة استعمالا هى البيلة ، وهم يصبغون كذلك بالألوان : الأحمر ، الأصفر ، الأخضر يستخدمون على وجهه الصمغوس الوانا يستخرجونها من الحبوب والشتاتى .

٣

عن الزراعة ، وعن الفلاحين

كانت الزراعة هى السبب الرئيسى في ازدهار مصر ، وهى تشكل حتى اليوم العمود الأساسى لتجاريتها وصناعاتها ، ولولا تلك المصادر الهائلة التى يستمد بها المصريون من خصوبة تربتهم لكانوا اناس شعوب الدنيا خصوصا في ظل حكومة القاهرة مثل حكومة المليك . ومع ذلك لميسف أن تلقى الزراعة كما سبق القول العناية التى تطبق بها لدى تصبغ زراعة بمعنى الكلمة ، فينبغى الاستفادة من كل الأراضى التى يمكن استصلاحها . أن هذا الإهمال المعزى لهو النتيجة الطبيعية لهذا اللون من الصودية الذى نشاط في ظله قدر المصريين وسوف يرى عبا قليل بشاعة ظروفهم ، وسنستنتج سهولة أن مثل هذا السلوك المحاق لاصول الحكم والسياسة من جانب الملاك والسلطات الحاكمة ، لا يمكن أن تكون له نتائج أخرى .

لا تنتج الأراضى المخصصة لزراعة القمح عادة إلا محصولا واحدا ، وبإستقامتها أن تعطى محصولين مختلفين في جزيرة الفنتين على سبيل المثال

تحمص الأرض ثلاث مرات في العلم بقتلهم ، وتفسح الأرض مثل الكمبة المبدورة ١٤ مرة ويلزم لبذر الفدان ١/٧ أردب من الحبوب .

ويكفي لمن الأردب الواحد لسداد مصاريف الزراعة والحصاد ويبقى بعد ذلك خمسة أردب حتى بمثابة مقد الفدان الولد ، أما في فرنسا فان فدان القمح يبلغ من خمسة الى ٨ أردب ، وبخلاف ذلك فان أحدا لا يجهل أن كمية كبيرة من القمح التي تبذر في الأراضي الفرنسية لا تثبت مطلقا ، فالمحرم هنا إذن في صالح خصوبة أرض مصر حيث يحمل الفلاح هناك ويدون أن يكلف نفسه ذلك القدر من الضاء الذي يكلفه ملاحنا كل عام على هذه النتيجة المزدهرة . وينبغي أن نضيف كذلك أن غلة الأرض تقل أو تزيد حسب طبيعة المحصول ، إذ تنتج الذرة على سبيل المثال ٢٠ مرة من مثل الكمبة المبدورة .

ولا يمكن أن نحصى في مصر أكثر من ١٠٠٠ فدان من الأرض المزروعة ويوجد في القريخ الربع ٣٢٠٠ فدان ، وهكذا فان فرنسا واحدا من الأرض المزروعة فحما يفل أكثر من ١٦٠٠٠ أردب من القمح كمقد صاف ، وإذا افترضنا أن الأردب يساوي ثمانية فرنكات فان المقد يبلغ ١٣٣ ، ويمكن مضاعفة المقد إذا ما استبدلنا بزراعة القمح مزروعات أخرى أكثر ربحا مثل السكر والنبلة ، فالمحصول الأول يعطى مقداً أكبر من القمح ، مرة ١٥ ولكنه يتطلب رأس مال أكبر بكثير ، ويستلزم الريج في الحالين نجد أن ربح السكر أقل نسبيا من ربح القمح أي أن ربح الأموال المستغلة في زراعة السكر أقل بكثير من ربح نفس المبلغ إذا ما استغل في زراعة القمح والمقادة الوحيدة التي تحسب لصالح السكر ، بل القويض الوحيد الذي يمكن أن نكتمه هذه الزراعة هي أن محصول السكر يحتاج لمساحة صغيرة من الأرض بينما يحتاج القمح إلى مساحة كبيرة .

وقد يكون من السهل كذلك زيادة مساحة الأرض القابلة للزراعة ، ولكن لمبرهم أن ذلك أمر ميسور إلا أننا لا نظن أن مصر في قبضة ملاكها الحاليين سيتر أكثر من ١٥٠ مليون فرنك ، وينبغي أن نخضع من هذا المبلغ ٤٠ مليوناً كمصاريف بذار وحصاد فيصل صافي الربح إلى ١٠٠ مليون فقط ، ونحن علم ، يقين من أن الصناعة الأوربية كلها قد تتوصل بصعوبة بالغة إلى (م ١٧ - وصف مصر)

انتاج ثلاثة أمتال بل حتى ضعف هذا الانتاج الذى تنده أرض مصر ، ولكن فى نفس الوقت لحطى مصر أن تعمل الكثير ، إذا ما لفرضنا أنها ستكون توفرة على ذلك ذات يوم ، لكى تقرب من ثروة فرنسا الزراعية ، بالرغم من خصوبة أرض مصر الهائلة ، حيث أن الضريبة على الأراضى وحدها فى فرنسا تصل لأكثر من ٣٠٠ مليون فرنك .

والنفقات الخيرية التى يترها اليانسا ممثل السلطان لحطى من لحطى الجرى ، بينما تخضع كل الملكات المحلية لهذه الضريبة التى سبق أن تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل السابق .

ويؤثر الكتان والقمح فى نوفمبر بمجرد أن تنحسر مياه الفيضان . ويتم البذار مبكرا من ذلك فى الصعيد ، حيث تكون مياه الفيضان على جانبى النهر أقل كثافة ، ويؤزر القطن فى نهاية شهر مارس وبداية شهر أبريل ، ويحصد فى يولية وأغسطس ، أما المحصولات الأخرى فتنتج بعد خمسة أشهر .

ويستخدم المصريون المحتلون ، وعلى مقوال اسلافهم ، الرى فى زراعة الأراضى ، ولكن هذه الطريقة الماهرة التى مضى بها الآندسون الى أعلى درجة من الرى ، قد فغقت الكثير عند استخدام المحتلين لها . وبمضلا من ذلك فالمحراث تقريبا هو نفس المحراث الذى وجفناه مرسوسيا فى الكهوف ، أو على الأقل شبة تشابه كبير بينه وبين المحراث الذى يستخدمه المزارعون فى مصر اليوم ، وهو بالغ البساطة ، حيث أن الأراضى فى كل مكان لا تبدى الا مقاومة ضعيفة ، ويلاحظ أيضا ذلك التشابه الكبير بين الطرق القديمة والطرق الحديثة فى درس القمح ، ومع ذلك فأنهم يستخدمون اليوم عبدا أقل من الأبقار فى درس القمح ، وهى تقوم بفصل الحب فى الوقت الذى تجر فيه القودج .

ومن المفيد بعد أن تحدثنا عن الأرض وعن زراعتها أن نقول شيئا عن هؤلاء الذين يفلحونها ، هؤلاء هم الفلاحون البؤساء الذين تكرر اسمهم كثيرا على صفحات هذا المؤلف ، وهم لا يشبهون فى شيء ملاهى نو مزارعى البلدان الأخرى ، ولم يول الرحلة الذين مبروا مصر خلال القرن الأخير أى اهتمام بهذه الطبقة العميلة المظهرة ، وسوف تكون التفاسيسيل التى نقدمها هنا جديدة على أكبر عدد من القراء .

والفلاح المصري هو لكثر الناس حياة ، وطبيعته الفخولة هي بلا جدال نتجة طبيعية لحالة القهر التي حصره في داخلها سيدان لا سبيل الى تهرما ، اذ ان مقاييه من ملاحقة البكوات والقبيل لا تنتمى الا لبدا مع العربان ، وعندما يحصل هؤلاء على كليلهم ، يتعرض الفلاح لانتهاكات وابترارات جديدة من جانب البكوات والكثيف ، نكلى لصلبيه ما قد يكون قد بقي له ، وهكذا يظل الفلاح المسكين بلا اى دعم او سند ، فريسة لنزوات كل هؤلاء الناس من راكبي الخيل ، والمسليين على الدوام بسلاح الحرب ولو كثروا في نزعة صغيرة ، ويقدم الفلاح لهؤلاء الكثير من الأبقار والغراف ومكاييل الحبوب التي يجنيها ، ثم يذهب ليعول ويش من وطأة الجوع مع زوجته وأولاده ، ومع ذلك فان تعطل الفلاح وامتداله يسحق له بتدبير ما هو لازم لمعيشته ومصلحة أسرته ، وهو يستعمل وقته ، ويطلق كاجر عددا يتلقا عليه من مكاييل الذرة والحبوب ، ولئى كل مساء يجهز لنفسه خبزه ، وهو يطن الحبوب بواسطة رمي ، وينضح الخبز على رماد ساخن ، لانه لا يملك فرنا على الاطلاق . ولكن يحصل على البلح والبصل والزبد والبيض واللبن ، فانه يستبدل ذلك مع فلاح آخر ببعض القمح والفول اللذين يلقاهما من الملك . وهو قابع بهذا النمط من الحياة ، حيث ان الشقاء الذي اعتاده جعله يمشى في طور الفطرة ، وهو يتناسى المظنية التي يسرقها منه البدو ، كم ينسى الاتاوات المتزايدة التي يفرسها عليه طمعه . وعندما يدر القيل فثدا كبيرا ويحصل مائتالى على اجر انخل يستطيع ان يوفى منه شيئا ، فانه يشترى من جديد حبرا وبعض الغراف وادوات زراعية ويعود الى مسكنه الاول ، ويرد للشيخ اليه الاراضى التي كان يفلحها من قبل .

ولابس الفلاحين عبارة من قميص بسيط ، وهذا القمص مشقوق من الرقبة حتى اسفل البطن ، وليست له اكمام ، وينزل حتى الركبتين ، ويثبت بالجسم بواسطة حزام من الخلد ، وهو من القطن ولونه ازرق ، ويخالف ذلك يخطون راسهم بغطاء من اللباد الأحمر يسمى طربوشا ، اما الفلاح المصري بعض الشيء ، فيغطي راسه بصلبة تتكون من شال من قماش قطنى مختلط يلف حول الطربوش ، وما عدا ذلك فان ائرع الفلاحين وسيفاتهم واندابهم عارية تبلى ، بل ان كثيرين منهم لا يمتلكون حتى القميص الذى تعدلنا منه ، ويكتفى هؤلاء بأن يثبتوا بحزامهم قطعة من القماش تلف حول وسطهم ، ويرتدى الاغنياء منهم طربوشا وسروالا ومغطا اسود اللون من الصوف فوق القميص ، ويطلق على هذا المغط اسم : بشت .

وعندما نعرف يؤس وهوان وتدهور حال الفلاحين ، فلنا نستطيع ان تكون فكرة مما ستكون عليه ملامح وجوههم ، فهل يمكن أن يكون لائس كهؤلاء حكم عليهم بهذا التحطير وذلك السودبة ، وإن يظنوا على الدوام لمبة في أيدي عدد كبير من السادة — هل يمكن أن يكون لهم نظرة مريحة جريئة ، ووجه صاف بشوق ، ولقاء حر مفتوح ؟ ان مظهر هؤلاء المؤسساتاء ليعان من حسرتهم ، والخوف يقرأ في عيونهم ، وهم يمشون بقلق ، ورووسهم مكنية الى الأمام ، وإذا ما غن الفلاح مند لفته شخصا ما ، ان هذا الشخص يحوز ولو قدرا ضئيلا من العاء أو الثروة ، فانه يقترب منه ويده مبسطة كما لو كان ليستعدي حياطة أو يطلب احسانا .

يا له من تناقض يبحث على الاكثرة بين وضعهم الذليل والمستجدي ، وبين ملامح الغشونة والجد التي ترسم على وجوههم ، التي تعطى لها لحياتهم الطويلة قدرا كبيرا من الثيل ! وشكلهم في عيونه جميل ، وتتميز جباههم — رغم أن حزنا منها تحطيه الصلبة — بالانضاع ، ولوجنات خنودهم متوءة شديدة الوضوح ، وخط الأنف واضح بشدة لها الففن ممبشوقة، ويبدو الامر وكأن ثمة رجلا قد منحهم الطبيعة هذا الملمح الوفور ، لكن عليهم ان يحلقوا من كل عوامل القهر والحن والاذلال ، بكل ما فيهم يشهد ببؤس حالهم ، غلست فرائهم الا يسطى الأيدي مكررين عبارة : قصة . قصة — اي امطني برة . برة واحدة ، وقد لا يدرك الغريب الذي لا يعرف مادات البلاد ، ان هؤلاء الذين يقضون بهذا الانحاض ، ينفخون ابجار اراضى عديدة يظفونها ، وأنهم يستطيعون ماشية وحيرا وخيولا ، وأنهم يحولون عائلة كبيرة العدد ، من طريق زراعتهم الفلكهة والخضار ، التي يعرفون كيف يحرقون منها بالفتح عليهم وعلى ثمرتهم وقت الحصاد .

وهكذا يسوف تقع في خطأ بين اذا ما حكينا على الحالة الحقيقية للفلاح استنادا الى مظهره الخارجى ، فهو لا يلحأ لهذا التسول المظهري الا ليشهد مصليديه ، فمن المهم بالنسبة له ان يظنه اتلس بلا مورد ريق وبلا وسيلة للحيش ، ذلك انه يرتفع على الدوام لرقا من أن يرى نفسه وقد انتزع منه القليل الذي يملكه ، لهذا فانه يشهد العالم كله على فقره وعوزة ، ويرندى من اللاس ما ينسجم مع الاتطباع الذي يريد أن يحدقه في مشاهدته ، فهو داخل قيصه هذا عار كما ولدته امه ، ويقبل بنهم على أى طعام يقدم له ، ويجمع قطع الدينى التي يحصل عليها بصلية مكنة في طرف مخدله ، ويتنسى

الأميين حتى لا ينفق تلمعة واحدة من نقوده إلا عند الضرورة الملحة ،
ويقتصر عليه لا يفوته شيء مطلقا يمكن أن يساهم في اقناع الناس ببؤسه
الشديد .

وعندما لا يكون الفلاح في حظه ، فله مجلس الترفصاء أمام منزله .
وحول كل القرى المصرية تشاهد آلاف الأكوام الطينية الناتجة عن الخرائب
والهدم ، وهذه الإخلال كثيرة في هذه البلدان أكثر منها في أي مكان آخر
بسبب رداءة بناء الأكواخ ، وكذلك رداءة الخيلت المستخدمة في ذلك ،
غنى على الدوام من الطين المجوى أو من الطوب النيم . وعندما يكون
الفلاح بلا عمل ، فله يسمد هذه الأكوام ويظل جالسا أكبر فترة من النهار ،
ويخض النارجيلة وينظر إلى الحلاء ، وفي بعض الأحيان يقوم بغزل القطن
أو الكتان بينما تحبب زوجته روث المائسة ، لتشكل منها نوعا من الأكراس
تجلبها بصفها على جذران كوخها ، ويبله القاذورات يحصل الفلاح على
نقوده وينسج خبزه وطعمه .

وقد يظن المرء وهو يلاحظ بلادة وضول هؤلاء البؤساء الذين يعيشون
وسط خطوب لا تنقضي : أنهم شبه هرومين من بوهبة الفكر ، ولكن ،
لعل من الأصوب أن نقول ، بأنه يبدو أن العناية الإلهية ، بينما هي تهيب
للإنسان ملكاته الروحية والذهنية التي تشجع مع الظروف التي وضعت
فيها ، ماتها قد شاعت في قرن الملائدة بالقرن ، كما لو كان يفرس أن تفنى
عنه الشقاء الذي قدر عليه أن يحيا فيه .

٤ عن الحرف

ينقسم العمال في مصر حسب حرفهم وليس ثمة قواعد لاحتراف الحرف ،
والأب الذي يريد أن يعلم حرفة لولده يسلمه لـحل أو عند معلم ، ويحصل
المنى معه وجبات لبشى اليوم ثم يعود في المساء إلى بيت والده . وبسبب
أن يتعلم غاته يحصل على أجر يزيد بزيادة مهارته .

وتنقسم الحرف المختلفة إلى طوائف لها رؤساء ، ويشرف على محتلميها
وكيل الإنشائية (الكتبا المتولى) وهو رئيس الشرطة في القاهرة ، وتخضع
بعض هذه الطوائف لأقرانه أمّا العزبان والمضرب ، وللأحر حق الاثراء
الخاص على المواد الخشائية . وثمة حرف لا ترتبط بأى من هؤلاء الرؤساء ،

وتشكل طوائف هندية مثل الرافضات والرافضين على سبيل المثال وعارف المزامير وياحة المدايد وعموما كل تجار الفردة .

ويرأس شيخ الحملات تحت امرته ٢٤ شيخا من مختلف المهن ، مثل صناع الخيم والجباليين ولاعبى العصا والمفنيين ومنسدى الشوارع والعمارين ، وهو يحكم فى الخلافات الصغيرة التى تنشأ بين هذه الطبقة من الناس فى موضوع حركاتهم ، ويقوجه الناس اليه عند طلب عدد كبير من دواب النقل لفرسيه ما . ويحصل من أتباعه عددا من الضرائب الصغيرة ، بعضها ثابت وبعضها طارىء ، ولكن يحصل على هذا الامتياز مما له يلزم يدفع ادوات ثابتة لمخطف خيوط الأوجافلت ، نقدا أو فى شكل أشياء تدخل فى تشكيل اثاث البيوت . ولا ينبغي أن ننسى أن هذه الرسوم التى يحصلها المخترمون او مساعدهم ، إنما هى فى الغالب رسوم استبدادية مثل كل ما يحدث فيما للمعدات الإسلامية ، ولكن شيخ الطائفة يفرغم من اتساع سلطته فى زياده الضرائب التى يفرغها ، بلقرم مع ذلك بحدود الاعتدال حتى لا يندد لاحترام العلم ، يبلقد بالثقى عليه وامله و ان يشغل وظائف اخرى .

واذا لم يكن لدى الصناع ما يشكون منه من شيخهم . واذا رغبوا فى الاحتفاظ به ، فان الكفيا المتولى لا يستطيع فى نهاية العلم أن يبطه ، كما انه ليس فى مقدور هذا الأخير زيادة مبلغ الإثرام الذى يحدد بشكل لا يقبل التغير . وعندما لا يكون الصناع راضين عن شيخهم ، يضطر الكفيا لتعيين شيخ آخر ، ويطلب الى الطائفة أن تحدد له شيخا بعيه ، ويتم ذلك بطريق النداء ويدون اية صيغة أخرى ويدون اللجوء الى طريقة الاكتراع ، على الرغم من معرفة الأتراك لهذه الطريقة . وعندما يريد الكفيا أن يفرغم الصناع على اختيار شيخ معين ، يجتمع كل مديري الحملات ليعترضوا على هذا الصنف غير المخترع .

وفى النصل الأول من مؤلفنا هذا قدرنا عدد عمال اليومية بـ ١٥ ألفا فى مدينة القاهرة ، ويمكن تقسيم هذه الكتلة من الناس الى ثلاث طبقات :

الأولى : وهى لكثرتهم يؤسسا وتضم ١٠ آلاف شخص ، وهؤلاء يستخدمون فى أعمال ثقوية ولا يحصلون الا على أجر بالغ التواضع ينى

بالكاد لحبستهم ، وهم يرتدون قميصا بسيطا أزرق اللون ، من الصوف ويحرم بحبل عند وسط الجسم وتغطي رؤوسهم بلبدة بيضاء ، كما مستخدم خيالة من كوخ يكتفهم ليحاربه الشهي ١٠ يارات ، وكل اثنتهم مبلرة من مرقه من الحصى يملون عليها مع زوجاتهم وأولادهم ، ويمكن التعديل من هذه الطبقة أن يكسب حوالي ١٥ باره في اليوم وتحتل زوجته (اذ ليست له الا زوجة واحدة) بأعمال نظري لقل كسبا ، تدبر عليها على الأكثر { — ه يارات ، ولا ياكل هؤلاء البؤساء اللحم على الإطلاق ، وهم يشترون الخبز وشيئا من المبوب المطبوخة والبيض . وينفق الرجل بعض نفوقه في المتهى ويحضر ثوبا يلبع الرداءة . ويحضر نفسه بأهل القنب الأحمر المعد ، فبعد أصبح الطير بالنسبة له شبه ضرورى . وتردى المرأة كذلك قميصا أزرق اللون ، ويسير الأطفال عراة أو بقمطهم بعض الهلاهل .

وتضم الطبقة الثنية حوالي ٢ آلاف عامل يومية ، ظروفهم ليست أكل من ظروف الأولين بدماة للشكوى ، برقم أنهم ليسوا على نفس الدرجة من البؤس — وأجرهم ليس اكبر من أجر الأولين مع أنهم يعتبرون نوعا من وكلاء الأعمال ، لكنهم يحصلون على بعض المكاسب البسيطة لا يحصل عليها الأولون ، ومستخدم أكثر راحة وأحسن تاليفا ، ويتكون رداؤهم الطويل من المصمغ أو ثلاثة يرتدونها في بعض الأحيان فوق القميص ويختلف ذلك لمن طريقتهم في الحياة هي نفس طريقة الأولين .

ويمكننا ان نضع في صفوف الطبقة الثالثة ٢٠٠٠ من العمال ، وهم في حالة أكثر يسرا من الأولين بتليل ، ويصل هؤلاء كروساء ورش ، ويسكنون في مبنى كبير به دهاليز عديدة تؤدي الى مساكنهم ، وهذه المباني تشبه الأديرة ، ويقطن كل عامل في حجرة ، ويعد طعامه في مسكنه ، وزوجته هي التي تقوم بهذا العمل ، ويبلغ ٣٠ مدين كليلر شهري ، ويمتلك حصرية حشنة من البلف الكتان ، وبعض المحدثات التي لها غطاء رديء ، بالإضافة الى اناء للطبخ أو انامين ، مع آنية أخرى رخيصة الثمن . لكن ما يميزهم على وجه الخصوصي أنهم يرتدون ملابس أكثر وأفضل : ثال من الموسنين أو الصوف حول طربوش ليشكل مملعة ، وملابسهم الداخلية من لتيل ، ويمتلك الواحد منهم خلية زيادة على الجلباب الطويل ، وهذه الخلية مبلرة من صوف الأسود ، كما يرتدى ملاية وهي قطعة طويلة من تباش تغطي بها مريمات بيضاء وورقاء ، وكل هذه الأشياء التي

يعنى بتجديدها عندما تبلى يمكن أن تكلف العليل من ٩ - ٢٠ بوطلمة (حردة) ، ومع ذلك فبأجر هؤلاء العيال ليس لكبر بكثير من أجر الأولين ، لكن ما يجعلهم يعيشون في بعبوحة أكثر ، هو أنهم يعملون طيلة العام باعتبارهم أكثر شهرة وأكثر دراية . وفردى زوجاتهم جميعا أسود للزينة وفيصين أو ثلاثة لبقبة الأيام . وهن يعملن في غسل ونسج القطن ويمود عليهن هذا العمل بأجر مخولف .

ويبلغ عدد الخدم الملبين بالقاهرة ، كما مسبق أن قلنا في الفقرة الخاصة بسكان هذه المدينة في الفصل الأول ، ثلاثة آلاف ، ويمكن أن ننظر إليهم باعتبارهم يشكلون ثلاث طبقات متمايزة فيما بينها بسبب طبيعة أعمالهم وهم : السماس (السماس) ، الفراشون (الفراش) ، القواسون (القواس) .

وينال السماس بالقرب من الخيول التي يوكل إليه أبر العناية بها ، ويكاد السماس لا يتقاضى أجرا ، إذ لا يعمل إلا ١ - ٢ برة في اليوم ، وكمية من الخبر تبلغ ١١/٢ رطل ، لكنه يحصل على عدد لا يحصى من المكاسب الصغيرة المحظورة ، ويحصل في معظم الأحيان على هدايا بمناسبة الأعياد (عيدة) ، ويأخذ ما هو يفتقر في بعبوحة . ويكاد هؤلاء الخدم لا يزوجون ، وهم نفعاء ، وملابسهم حسنة ، ويشتهرون بمهترتهم في معاملة الجهاد ، وهم مكبرون وتحون نظمهم ، وعبيدون ، لكنهم لا ينساقون لحضبتهم إلا فيما بينهم ، هم ييخون الكثير من الخضوع نحو أسيادهم .

ويمكن أن نشبه الفراش بالـ *Vallet de chambre* عندنا ، فهو الذي يمس باللائن ، وهو الذي يسهو على نظافة البيوت وعلى الإضاءة ، وهو يقيم عند سيده ولا يترك مسكنه إلا عند زواجه ، ولكي يحصل على هذه المرتبة فانه ينتظر حتى يصبح رئيسا للفراشين ، وهو على القوام حسن الجسم ، وهذه التلمحة هي التي تساهم في أعداد ملذات سادتهم المتحطة ، وهم يتدفعون في القيام بهذه الخدمات لأحد مما كان السادة يرهبون ، وأجرهم ليس محددًا ، وإنما يتوقف على مشيئة السادة .

ومعنا يسمح هؤلاء الخدم رؤساء ، يصبح لهم منزل وأحياناً منزلان قليلا الاتساع تقيم في كل واحد منهما زوجة ، وأولادهم فأنخر لحد ما ، وتبذل زوجاتهم بعض المولى .

ويسير الشرقيون من قوى المكفة لهم خدما ، يسحبهم سقارين على الأقدام وحاملين عسا لإبعاد الجهور ، وليهيئوا لسادتهم مكانا . ويسمى إحداهم من هذا النوع : القواس ، وهم يقتلون أولاد سيدهم في داخل الحنية وإلى القرى المجاورة ، ويخاف لهذا العمل فلاحون ورجال من أبناء الريف لأن مظهرهم وتلبثهم أكثر مهلية من مظهر وقلة سكان المدن . ولا يخلع للقواس لجر ، ولا يحصل هو إلا على الخبر ، لكنه يموهس هذا القرم إلى حد كبير ، على حسب الذين يحمل إليهم أولاد أو رسائل من طرف سيده ويحاصه إذا ما كان لسيده نفوذ كبير . وليس ثمة أي نوع من المخارم أو الأناوات إلا ويحصلها لصلابه . والقواس عند الكبار هو الذي يقوم بحسابهم مارتكيب أحداث السلب والانتقام ، وهو الذي يهوى بحصاء على من يريد سيده أن يحلقه أو يهينه . كما أنه الذي ينزل الشخص الذي يصفح لهذه الأهلقة من فوق ظهر حصانه . وكل هؤلاء الضخم على وجه التقريب ملتوجون وترتدي روجاتهم مثلما ترتدي زوجة هرن ميسور ، وملابسهم على الدوام من قماش خشن من الصوف الأسود ، وهم يرتدون شالا من الصوف أو ملاية ثقلى على كتفهم ، ويعطون رءوسهم بلبدة بيضاء ، ثم بطربوش أحمر ، وهم يحرصون على أن يضعوا بينهما كثيرا من الوريق وقطعا من القبشة رقيقة لتفصض شربات الحمصا التي تهبل عليهم عادة من ساداتهم ، ويسمى رئيس هذه الطائفة من الخدم : مقدم ، ويفرض هؤلاء الرؤساء عددا كبيرا من الأناوات ويفتنون بسرعة .

أما السقاون فهم على نحو ما رسل الحريم ، وينتفى بهم الأمر بأن يكونوا ثروات كبيرة ، والنساء هن اللاتي يختزنهم ويغادلتهم فيما بينهن . وينتفع هؤلاء الخدم حبة بحظ أولاد من الآخرين ، ويوليهم أرباب القيسوت أكبر قدر من الرعاية ولبسط النساء عليهم حيلتهن ، ويحرصن على راحتهم ، ويمكن أن يكون لهذا الذكريم ، اسبلب مديدة ، فالمسما : وهن يطبخن رقيقات وشعوقات — لا يمكن أن يسكن هذا المملك إلا ربنا بدائع من شغلة حمودة ، وربها بسبب من فصنع الدائع الإنسافي ، ومع ذلك فيحصل أن تكون ثمة نواهي ضئف خفية هي التي تحدد بين إلى أكرام رجال يكن لهم قدرا من الصلابة .

وليسا هذا ذلك ، فإن الخدم في مصر يلتون معليلة طيبة على وجه العموم وإذا ما نحينا بعض الحن السميطة ، وبعض المتويلات التي قد تكون

تلبية بعض الشيء في بعض الأحيان ، والتي يوقعها عليهم السادة بسبب
تقلب أهوائهم ، أو بسبب مفاد صبرهم ، فليس ثمة في حياة هؤلاء الحشم
ما يمكنهم أن يشكوا منه . فالسادة يولونهم الكثير من العطف - بل ويرى
السادة في معظم الأحيان يتخذون جانبهم بصلابه فريدة - سواء كانوا
مخطئين أو كانوا على صواب ، وسواء كلى الأمر بدافع من العطف عليهم
أو بدافع من كبريائهم وكرامتهم هم . وتذكر كثير من الأمثلة على نكوات
تشاحروا بغضب فيما بينهم بسبب مشاحنات خدمهم .

وطبع هؤلاء الخدم عادة سيئة مردول ، والتي يتوصلون منهم الى
الحصول على نوع من الثراء يصبحون وحين يتماثلين ، وهم وشدة
فقدانهم ومخالفون مكررون ، وويل لمن لا حياية لهم أو جاء حين يتماثلون
معهم ا انهم اكثر غلظة وقسوة من المالك الذين يقسبونهم ، والنرائش
والنسبى والمقدم والسفاد يرتبطون بسادتهم ، وهم راضون من حظوظهم
ولا يكادون يغيرون سببهم . وهؤلاء السادة يعاملون خدمهم برقة في غالب
الأحيان كما سبق القول ، وهم يعمون بإفناء هؤلاء الذين يولدون في كنفهم ،
لأن المصريين جميعا مولعون بالفلان ويتبادلونهم فيما بينهم ، وتستقبل هذه
الهدايا سرور بالغ ، فلماذا إذن والأمر كذلك ، لا تكون بقية الأمور مشقة
مع هذه الميول الطمعية ، والملاذات البريئة الظاهرة ؟

الملاحق



نبذة من الطفل الذى يقام عند مولد الأطفال

سنقدم هنا مذكرة طبعت بلقفل في القاهرة ، وتمطى فكرة دقيقة من العادات التى تتم عند مولد الأطفال الذكور . ويعجب المرء من أن الأب لا يدخل مطلقا وبغية طريقة ضمن إطار هذا الحفل الشيق .

في اليوم السابع لمولد الطفل تجميع الوالدة صديقاتها وللمنى اليوم كله في لهو سمين .

وتتلفى الفترة بين الوجبتين في غناء ورقص تقدم بها الموالم . وبعد الخداء يتم حفل تصيد الطفل الجديد ، ويطلق على هذا الحفل لاسم : السبوع ، وهو عبارة من نزع في كل حجرات مسكن الحرم ، وتمشى واحدة من الخائسات الرئيسيات على رأس الاحتفال حاملة مينة من اللباس وضع نوعها ويشكل فقري مدد من السبوع يحادل عدد النساء اللاتي يشاركن في هذا الاحتفال . وهذه السبوع مضادة والواتها متعددة ، وتسمر بعدها القليلة الموكلة بالطفل وعلى جانبها خافضتان ، تصل صغراهما موقدا من الشماس الأسمر ، وتعمل الأخرى طبقا يحتوى على حبوب شعير وتبع وحسن ونول ولرز وملح بحرى ويخور . أى مينة لصلاف بعدد الأيام التى اتفقت منذ مولد الطفل .

وتمشى الأم بعد ذلك تحيط بها الموالم واقرب صديقاتها إليها ، وتشكل الزوجات الأخريات آخر مجموعة في الموكب . وفي النساء المسير تعزف موسيقى صاخبة للخفلة ، وفي كل مرة يدخل فيها الموكب حجرة من حجرات الحرم ، تأخذ القليلة حفنة من الحبوب والبذور يهناها وترى بجزء منه في المجرة ، ويرد عليها بزغاريد طويلة جدا ، ويصبح ليقاق الموسيقى لسرع وأكثر سخيا ، وتحاول النساء المسير فوق الحب المتضر في كل مكان .

وعند العودة إلى حجرة الحرم الرئسية ، توضع مينة السبوع على كرسي بدون مسند ، موضوع وسط الحجرة ، وتلقى كل واحدة من المضيفات

لنضع تبخة من البارات ، وترى الفتحات الصغيرة والخناصير على
الشروع ليتزعم عليها . وبعد ذلك تحمل الغلبة القصيفة ، وتحصى دخلها
من النقود التي تجدها عليها ، والتي أقيمت هناك من أجلها .

وينتهي العمل بزيارة للطفل ، وترى رأسه يقطع من النقود الذهبية
التي تقدم له كهدية ، أو توضع في منديل غالية تحت رأسه .

٢

جمل المصريين والمصريين بمفهوم رسم الصور الاستيقية

سبق أن تحدثنا عن طلة مصرية المصريين المحليين بكل ما يتصل بالفنون
الجميلة ، ولكن ينبغي علينا أن نقول كلمة من أي حد يبلغ مدى هذا الجهد
في موضوع الرسم والتصوير نتيجة للمتطلبات التي تصاحب الدين الإسلامي ،
أو سوف يوضح ذلك كثير من الأحداث التي وقعت أمام أعيننا ، أكثر مما
نوضحه الأفكار أو الآراء التي يمكن أن نقدمها .

كان الأستاذ ريجو Rigo الرسام وعضو المجمع العلمي المصري ، قد بدأ
سلسلة من الدراسات حول ملامح السكان . وقد كان وصول طفلة النوبة
إلى القاهرة عام ١٧٩٩ فرصة طيبة بقتنبة له ، ينبغي الإمساك بها ، وكان
قادراً للفتلة عبد الكريم على وجه الخصوص بلغت النظر بقوة الملامح النوبية
المرصبة على وجهه . ونجح الأستاذ ريجو في أن يجذبه إليه بأغراء النقود .
وبعد مغادرت طويلاً — كثيراً ما انقطعت — جاء عبد الكريم إلى المرسوم
في حراسة ١٠ — ١٢ شخصاً من مواطنيه ، مع كل الاحتمالات التي يمكن
أن يقوم بها رجل مقتنع بقله مستخرج إلى كمين . ومع ذلك علقه أكن
مبادئه في النهاية واقناعه بصرف حرامه ، وبدأ الأستاذ ريجو في عمل صورة
له بالحجم الطبيعي ، وبدأ النوبي في أول الأمر مسروراً بالخطوط الأولية في
الرسم ، وكان يشير بإصبعه إلى أجزاء الرسم ، وإلى الأجزاء التي تغلبها
في وجهه وهو يقول : طيب . طيب . ولكن عندما بدأ الفنان يضع الألوان
على الصورة ، كان للتأثير مخيفاً عليها ، فلم يكف عبد الكريم بلقي عليها نظرة
حتى تراجع وهو يصرخ صرخات برعبية ، وكان من المستحيل تهدئته ،
وما أن فتح باب المرسوم ، حتى أطلق لساكه الفنان ، وصاح في الشارع
بأنه تقدم من بيت تزعموا فيه رأسه ونصف جسده .

وبعد ذلك بعدة أيام - جاء ريجو إلى المرسوم بتوبى آخر ، يعمل بوابا لأحد مبوت المعهد ، فلم يكن لثقل من مواطنه شحورا بالرعب عند رؤيته للرسوم ، وجرى يقص على كل جريحه ، بأنه شاهد عند رجل فرنسي عندا هائلا من العروس والأطراف المقطوعة ، أسفر أخواته منه ، وتجميع مقبرة منهم ليدفنوها من مسحة الواثمة ، ولكن لم يكن ثمة واحد من بينهم لم يملكه اللزع عند دخول المرسوم ، ولم يشأ واحد منهم أن يبقى في المرسوم لحظة واحدة .

وقد رسم الأستاذ ريجو سيدة من نفس هذه البلاد جاءت إلى القاهرة مع صد الكريم . وكان على الرسام أن يرسمها حتى تتفتح بأن تدع نفسها ترسم ، وما أن انتهى الفنان من رسم الرأس والذراعين حتى ثلثت له : « لماذا تأخذ رأسي ؟ ولماذا تلزع على ذراعي ؟ » . وبذا أنها مقتنعة بأن كل أجزاء جسمها التي انتقلت صوريتها إلى اللوحة ، سوف تظلل .

ويعتقد المسيحيون من أهل البلاد أن كل الرسوم تمثل قديسين ، وكان يوجد في هذا المرسوم لوحة لفرنسي ، كان الأقباط يفرقون ألبانها مساجدين عند دخولهم المرسوم ، كما كانوا يجلونها في خشوع شديد (١) .

٣

فن الأناشي أو مسخرة الثعابين

اعتقد أن علينا قبل أن ننهي هذا المؤلف ، أن نتحدث عن هؤلاء الرجال غير الماديين الذين يهتفون اكتشاف الثعابين وتطهير المنازل منها . وعلى الرغم مما هو واضح في علمهم هذا من دجل وشعوذة ، وعلى الرغم من أننا نقر بمقدما أن قليلا من القراء يخطئهم الذين سهولوا الثقة بهذه المعجزات الزهومية ، فله مما لا مندوحة لنا عنه أن نفضل في تفصيل حول هذا الموضوع . ونحن نعلم - دون أن يعنى ذلك بساطة مفاهيمنا ، لو أننا من بين أولئك الذين يسهل إقناعهم - بأننا كنا بأنفسنا شهودا على بعض الوثائق بغلة الغرامة لدرجة أننا لا نستطيع أن نخجل من الأناشي ضمن إطار الأمور المتوهمة والخيالية ، بل أن واحدا مثل بروسبير أيلر Prosperè Alpin ذلك الطبيب ذائع الصيت - ولا يمكن أن نميله بأنه واحد من يعتقدون

في الخرافات — قد نقل إلينا أنه رأى رجالا يتعاملون دون أن يصيبهم أذى
الذى ، مع الزواحف السامة والمخاطب .

وقبله عرف سترابون Strabon الحواة الذين كان المصريون القدماء
ينظرون إليهم ، على اعتبار أن لديهم موهبة سحر الثعابين ، وكل ما نقله إلينا
المؤلفا مخصوص هؤلاء الحواة بتحديد هذه الأيل .

إنشاء وحود الجيش الفرنسى في مصر ، أراد عديد من الأطباء المهرة أن
يتأكدوا بأنفسهم من حقيقة تلك اللثة التي يولدها الرحالة لهؤلاء السحرة .
وكان من السهل عليهم في البداية أن يمتحنوا بشعرة البعوض ، على الأكل
لها ، يتعلق تلك الممارسات القريبة التي يستغلون بها بمسألة مفهوم جمهور
جاهل أبشع استغلال ، فلكي يدخل هؤلاء المشعوذين شخصاً ما في رقتهم ،
ولكي يجهلوه في مأمن من لدغات الثعابين ، قاتهم يقومون بحبب بعض الماء في
إناء ، ثم يضيفون إليه الزيت والسكر ، ويحلولون عمل مزيج من هذا الخليط ،
ويعد تلوثة بعض الأدمعيات يمسكون في الإناء ، ويأمرونه بشرب هذه الجرعة
المتفرقة ، وبعد ذلك يطلعون في أنفهم ثعبانين كثيرين من أسنانها ، ويظل
الثعبانان متدليين هكذا لمدة ربع ساعة ، وبعد انتهاء العملية ، يخرج هذا
« المألون » من كبسه لمن الخدمة الجليلة التي أسديت إليه ، وينسحب ، وهو
متحيد الاكتناع بأن ليس عليه أن يخشى بعد اليوم من لدغات الثعابين .

ولعل هذا الاكتناع الذي حصل عليه هذا « المألون » ، والذي جعل منه
المشعوذون انتفاعاً طويلاً يمثل هذه العملية الشائعة ، هو اللثة الوهيدة التي
هناها هذا الرجل ، إذ أننا في الواقع نستطيع بسهولة أن نتجسس على
الانقياء التي تنقل خفيقتا لها ، وهذه الثعابين تثقبه نوفاً من الحيوانات
لا يصبح ضاراً ، إلا عندما تظن أن من يقترب منها — مسبب اضطرابه غير
الواقع وترجده — يريد إيذاها . أننا مضطرون للتفكير على هذا النحو ، على
الأقل حتى يمكننا أن نفسر النتائج الغريبة لهذا الطقوس الغريب لهؤلاء السحرة ،
إذ كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يحملوا في ملاءسهم ، بل وعلى صدورهم ،
زواحف من كل نوع يلتصقونها بالصفحة ، دون أن تقع لهم أحداث مؤلمة ؟
كيف يمكنهم أن يضعوا ، دون أن يصيبهم أذى ، عسارب حية تحت
مبايعهم الحمراء التي تغطي رؤوسهم الجليلة ؟ لقد قلنا في البداية أنهم كانوا
يقيمون أسنان الثعابين أو على المخاطب ، لكن واحداً من زملائنا من بخرية

ثبت العكس . فقد أراد ذات يوم أن يتأكد من الحقيقة ، وتقل شكوكه هذه التي واحد من هؤلاء الفرعانية ، فما كان من الأخير إلا أن تناول أصبعه على اللور ، ودسها في غم الثعلب الذي يمسك به بين أصابعه ، ولخذ زميلنا بفعل المفاجأة ، وشعر بسلسل الثعلب الدقيقة والناعمة للحمية . صحيح أن كل هذا يمكن تفسيره ، إذا ما عطينا رأى بوكوك Pooka : فهذا العالم الرحلة كان يزعم أن ليس ثمة ثعلبين سلبية في مصر . ولكن هل تأكدت صحة بطل هذا للزعم ؟ وهل الأسمى السلبية ، أو الأسمى ذات القرون ، وهي المعروفة بظهورها في أوروبا ، تكون أقل خطورة منها في إفريقيا ؟ وهكذا فلا يمكن أن يكون زعمه صحيحا ، وبغلا من ذلك ، فقد حدثت تحت ناظرنا أمور برهنت على عكس هذا الرأي .

بقي علينا أن نتحدث من عن استخدام الثعلبين من شعبه ، وهو أمر أكثر مثارا للدهشة ، بل أنه يشبه المعجزة . وقد واثنا هذه الفرصة للرأى هذا المتشدد اللورد لأول مرة في طهطا بالصعيد منذ آباء الدومة . كان ثمة رجل يبر بأشواخ وثمة سلة تقلى من ذراعه ، ويطن بصوت عال أنه يطير البيوت من الثعلبين التي يمكن أن تحويها . ولردنا أن نضع نداء الرجل موضع الاختبار ، في التبر نفسه ، بالرغم من تطيبت رجال الدين ، الذين يطهرون نلابهم إلا يكونوا على استعداد مطلقا لتقبل بطل هذه الأفكار . ومع ذلك فقد كان ثمة واحد من الإماء أقل تشددا من أخوانه ، وهيد فكرتا ، واستدعى الرجل الذي نحى بسند الحديث منه إلى مناء صغير من أبنية الدبر وكانت سلته تحتوي على ثعلبين كبيرين ومن أنواع مختلفة ، قال أنه أخرجها من البيوت الجاورة التي دعى إليها . وسأناه ما أن كان ثمة زواحف بالدير ، وما أن كان بمقدوره أن يجرها ، عنفت شكل نسبته وجهه ، وجهه لكي يفسى على وجهه بمسحة من الصوم ، وهال صممه في كل الأماكن المحيطة به ، وكانت كل أماراته توحى بالجدية والخطورة ، وكان يقخذ هيئة الرجل الملم ، ثم أوقف صممه في النهاية على حجرة معلقة للحمية وهو يقضم الهواء ، كما لو كان ماكنه أن يستدل على وجود الثعلبين عن طريق اللقم ، ثم أهاب بانه لا توجد زواحف إلا في هذه الدجرة . وفتح باب الحجرة وتقدم بخطى بطيئة ، حليلا في يده صممه صغيرة ، وكان يضمهم بكلمات بضممة خاصة وبصوت خفيض ، ولم يفهم رجال الدين من كلماته إلا كلمة : السلام عليكم ، وبعد هذا النوع من « التعزيم » الذي استغرق خمس دقائق على الأكثر ، وضع

(م ١٨ — وصف مصر)

أحدى قديميه في الحجرة ، ويمسك على الأرض ، وأنحنى ، ثم نهض على الفور ، وقدم اليها ثعباناً يبلغ طوله أربعة أقدام ، وكان يمسك به من ذيله ، ويسنده بمصاه . ولم يكن هذا كل شيء فقد تلم بهذه الطفوس مرتين وأحضر ثعبانين آخرين من حجم صغير ، وضعهما مع الثعبان الكبير في السلة . وسرنا الرجل ، ودفعنا له ثمن المشهد الذي قصه لنا . ونحن نطرف برغم قلة ميلنا إلى تصديق ما حدث ، بأن الضداع كان كابلًا ، وأتينا منذ ذلك الوقت ، أصبحنا أكثر ميلًا للاعتقاد في وجود السحرة الذين عقدوا صلات مع الشيطان ، حسب الفكر الأكبطل الدينية .

ولعل من الممكن الاعتقاد بأن هذه العملية ليست سوى حيلة من حيل السحرة أو الحواة — وهو ما اعتقده كثيرون — لكننا كنا قد اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة ، التي لا يمكن معها خداعنا ، بل ويمكننا أن نؤكد بأن العلوي لا يخفيء مطلقاً ثعبانين أو ملايسه . وغضلاً من ذلك فقد أرفغ البعض بنا — كي تبذل كل شك — هؤلاء الرجال على أن يتجردوا من ملابسهم ، ومع ذلك فقد حازوا نفس النجاح في عملهم . وتستطيع أن تقدم على ذلك الكثير من الأمثلة ، لدرجة لا يمكن معها أن منهم بحكم الكتابة ، لكن ذلك يعني أن نقول طويلاً حول هذا الأمر ، ومع ذلك ، فلنكي نفس بطريقة صحيحة وموضوعية وقائع حادثة عن المألوف بمثل تلك الوقائع ، فنحن نعتقد أن بالإمكان الافتراض بأن الحواة المصريين لديهم القدرة على أن يملأوا أصواتهم نغمة قادرة على جذب الثعابين ، بنفس الطريقة التي يستطيع بها الصياد أن ينغم صوته لكي يخدع ليريسنه التي يجذبها إلى شراكه . ويؤكد الأستاذ دي لاسبيد de Lacépède في كتابه Histoire naturelle أن الثعابين عملة ، تتميز رائحة قوية ، وأن بعض الناس يفرزون بالمثل رائحة مسكية . ويذكر واقعة تفيد ماذهب اليه ، يمكن أن نستنتج منها أن الرائحة تخدم الرغبة عند اكتشاف الزواحف ، بنفس القدر الذي يفدهم صوتهم .

ويبدو أن هؤلاء الناس قد عرفوا تأثير اللعاب على هذه الحيوانات الخطرة ، وكل العمليات التي يتبعونها توضح ذلك بجلالة ، وتتفق كثيراً مع رأى جالين Genion ، الذي يدعى أن اللعاب سقم بالنسبة للثعابين والثعابين وقد شاهدنا كثيراً من العلاجات التي تدعم ما ذهب اليه هذا الطبيب العالم . فالواحد من هؤلاء الحواة ، يعرض أمام الناس ثعباناً ضحاً ، ويظل يهيج

حتى يوثك الحيوان أن يحسه ، وعندئذ يصرق في لغة غريبة غصص الثعبان على الفور ، بل يفسد ملا حركاته تقريبا . وهذه التجارب التي تتكرر مرات كثيرة ، وبفلس النجاح ، لا تسمح مطلقا بإثارة ألفك حول مفعول اللعاب ، أن لم يكن كسم للثعبان ، فعلى الأكل كخضر ، وقد اتبع بعض أطباء الجيش نفس هذه الطرق مع المختارب ، فحصلوا على نفس النتائج .

والشهر الثعابين المصرية على الإطلاق هو بلا جدال ثعبان الصعيد ، الذي يعرف باسم الشيخ هريدي . وقد تحدث كل من نورتن Norden وبروس Bruce وستلاري Severy عن هذا الثعبان الشهير ، الذي رغمته سذاجة العتبة وأحيان المشايخ المسلمين إلى برقية ولي من الدرجة الثانية . ويمكن أن نرجع هذا التقديس غير الخالوف ، إلى لينة ضارية في القدم ، حيث كتبت شعوب مصر كما يقول هيرودوت واليان Elian ، تولى للثعبان بشكل خاص ، فدرا كبيرا من التقديس ، فكثروا يتفخضون به رمزا للخصومة . وقد تحدث دوبيوي Dupuis من تلك الصداقة المالمة التي اتخذت الثعبان موضوعا لها . وعن الدور الذي لعبته الثعابين في كل الرموز الثعالبية التي امت إلى نشأة المبادئ المظلمة . لكن ما سوف يدهش عددا كبيرا من القراء بلا جدال . هو أن يظل الثعبان هريدي ، يلقى في مصر ، وتحت سيادة المبادئ الإسلامية ، نفس المكاة التي كانت له في الملوك عند عبدة ايزيس وثروريس ، رمز الخصومة ، ولته لا يخطف في شيء ، لا في الشكل ولا في الطبيعة ، عما وصفه الليل . وقد أخطأ هيرودت عندما خلط بين هذا الثعبان وبين الحية ذات القرون . وتلك النساء الطقليات لزيرة الأمكن التي كانت مخصصة له ، لكي يحصلن بفعل القرابين والأضحية على نهلية لمحبتهن كما تذهب إليه الفتيات ليمسرن إليه يرغبائهن في أن يصبحن ممسا قريبا زوجات وأمهات . وسوف نلزم الصمت عن كل الأهابيل المتقزة للبشرية على مزار هذا الثعبان — الإله ، وكذلك عن المشاهد الشموانية ، التي هي منحة طبيعية لعبادة مربية ، بعيدة عن العقل لهذه الدرجة ، ويمكننا أن نقول بأن النساء بعد أن يبعثن أضحية عند باب المزار ، يمسحن عند دخول الليل إلى قبة سلم يبلغ عدد سلطاته ١٠ — ١٢ سلبة ، وما أن يهل الظلام ، حتى ينزلن بطريقة عابضة إلى داخل المزار ليقتضين بقية الليل مع شيخ . ومن سائلة القول ، أن مذكر أن هؤلاء السيدات يتجنبن في معظم الأحيان في تعتيق الهدف الذي تم بهذه الزيرة من أجله .

ويحكى عن أصل اسم الشيخ هريدى : ان شجنا بهذا الاسم كان محروما
بفصله ، قد ظهر من جديد - بعد موته - في صورة ثمين ، وهذه
الخرافة التى يجد شيوخ البلاد مصلحتهم فى نشرها وتديمها ، أصبحت طعما
يسهل بلعه ، وذلك هى نسيئة كل الخرافات (١) .

(١) فى نهاية هذا المؤلف علينا أن نبدى ملاحظتنا الى الأستاذ غورييه
Fourier السكرتير الدائم للمعهد العلمى المصرى ، للمحاضرة التى
أبداها نحننا ، عندما أخذنا بذكراته من مصر ، والتى كانت مصدرا لكثير
من أدق الأفكار . وكان مركز القوسيمير الفرنسى عند ديوان القاهرة - وهو
المنصب الذى يشغله أثناء الحملة - قد جعله على صلة يومية بكبار المشايخ
ورجال الشريعة ، وأكثر أهل البلاد تنورا وفوقا . كما ان المخطوطات التى
تركها المرحوم الأستاذ جلوتيه Gloutier ، عضو المعهد المصرى - قسم
الاقتصاد السياسى - لم تكن تقل معنا لنا ، فقد استطاع جلوتيه ، بوصفه
مديرا للمكتبة ، أن يحصل على كل المخطوطات الدقيقة ، كما لا ينبغي أن نلزم
المصنف اراء الأفضال التى نعين بها للأستاذ جومار Jomard ، عضو
المعهد ، بخصوص كل المخطوطات القيمة التى قسمنا لنا ، وللمنابة الخاصة
التي أبداها بمراجعته هذا المؤلف .

كما أننا فى النهاية - اتقدم بخالص شكرى - الى السادة مارسيفال
Gratzenon Parseval ، وروويه Rouyer ، وبوتيه
Boudet ودالماس Dalmas ، الدين رودوى - بالمثل ،
بالمعلومات الهامة التى جمعوها فى ظروف مواتية .

كما أن الرحالة المدقق نيبور Niebuhr ، قد قدم ملاحظة بالغة الأثر
عن الرياضة والألعاب عند المصريين ، ومن ملاحظتهم - وعندما حانت لنا
لمسة مراجعة دقة هذه الملاحظات - أخذنا عنه الكثير وأنقلناه فى دراستنا
هذه .

الكتاب الثاني

دراسات تكميلية

مذكرة مقدمة من السيد بلقوك

الى سيمون وزير الداخلية بخصوص امة

طبع كتاب لا وصف مصر (١٩٠٠)

كانت مصر موضعاً لعدد ضخم من المؤلفات ، كما وصفت من قبل
برأت كثيرة ، لكن احدا لم يتمكن ، حتى وقت قريب ، من الحصول على
معرفة تامة وحققة من هذه المنطقة من العالم . كان ذلك في الحقيقة يتطلب
حننا غير مادي ، وظروفا مواتية لا يستطيع أن يهيئها الا جيش منقصر ،
حتى تنهى الوسائل اللازمة لدراسة مصر بالعناية التي تلحق بها . لقد كانت
هذه البلاد ، التي زارها افسر بلاس في الزمن القديم ، هي اللب الذي
اغترف منه الافريق ، بل الرومان كذلك ، مبادئ القوانين والطوم والفنون ،
ولم يك مسموحا للأجانب في عهد الافريق والرومان أن يتوغلوا في هذه
البلاد حتى يكتفوا بمباديها ، ولم تعد هذه التنبأت لها بعد — بعد أن حقق
بها الاهمال بفعل الثورات الدينية والسياسية المتوالية — ككفر مثالا بالنسبة
للمرحلة الأوربيين منذ أن استقرت الدولة الحديثة هناك .

اما أن توصف وترسم الصروح التي يمكن القول بأنها كانت تغطي
أرض مصر القديمة ، وأن تجمع وتضم كل متعلقاتها الطبيعية ، وأن توسع
خرائط حقيقة ومصلة من هذه البلاد ، وأن تجمع الشظايا القديمة (من
آثارها) . وأن تدرس الأرض والطقس والخصائص الطبيعية ، وأخيرا أن
يلم الناس بكل ما يتصل بتاريخ المجتمع ، وتاريخ الطوم والفنون ، فلقد كانت
ذلك هي غاية هذه المهمة التي تطلبت اسهام عدد كبير من الدارسين ، كانت
تحركهم جميعا نفس الغايات ، وهذا العمل الذي ننشر فيه اليوم طبعه
القديمة هو الثمرة المشتركة لجهودهم .

وما ان عاد الى ارض الوطن هؤلاء العلماء والرياضيون والملكيون
والهندسون وعلماء الطبيعة والمستشرقون ورجال الادب ، والمعماريون
والرسامون ، بعد ان تعرضوا لكل اخطار هذه الحملة العسكرية الصلدة ،
وهم السادة : برتوليه Berthollet ، مونج Monge ، كونتيه
Conté ، كوستاز Costaz ، ديليل Delile ، ديجينيت
Desgenettes ، فيليب Devilliers ، فوريه Fourier .
جيرار Girard ، جولوا Jollois ، لانكريه Lancret ،
جومار (١) Jomard ، اندريوسى Andréossy ، بلزاك Balzac
بليست Belleteste ، بيرتر Bertré ، بوديه Boudet ،
دى شبرول de Chabrol ، كورابوف Coraboeuf ، دى كورانسيه
de Corancez ، كورديه Cordier ، كوتيل Coutelle ،
دى لابورت de Laporte ، ديكوتيل Descotille ، دى بوا اييه
Dubois-Aymé ، دوشاتوي Duchenois ، دوتتر Dutertre ،
فافييه Favier ، فاي Faye ، فيف Fève ، جراتيان لوييه
Gustien Lépère ، جيوفروي Geoffroy ، جلكوتان Jacotin
جوير Jeubert ، لارى Larry ، ليسانس Lescane ، لوجنتي Legentil ،
لوييه الأكبر Lépère aîné ، لوييه المهندس المعماري Lépère architecte
مالو Malus ، مارميل Marcel ، مارتان Martin ، نوري
Norry ، نويه Nouet ، بروتان Protain ، رانينو
Raffeneau ، ريج Raige ، روييه Rouyet ، سان جيني
Saint-Ganis ، صلوبيل برنارد Samuel Barverd ،
سالييني Sevigny ، فيلر Viard ، فيرتو Villoteau ،
فينسين Vincint . ما ان عاد هؤلاء الى ارض الوطن حتى أنفقوا

(١) كل هؤلاء اعضاء في اللجنة القبلية التي كان يرأسها المسيو
برتوليه والتي يتولى مسكرايتها جولوا ، أما المسيو جومار فوميستير
الحكومة ، لقد تولى ادارة وتنسيق العمل منذ وفاة المسيو لانكريه . وقد
توفي عشرة من البلكين منذ موتهم (من سر حتى الآن) .

سبعة عشر علما في اعداد وتصنيف المواد التي كانت قد تحضمت لديهم ..
وانا للأسف لانا لم نتكهن من ان نذكر هنا لسياء كل اولئك الذين سقطوا
ضحية لحبهم للتفصية أو سقطوا بفعل الحرب أو الطغس .

لقد حدثت فرنسا كل جهودها لفتح هذه البلاد ، ولقد وظفت كذلك
كل جهود الفنون من اجل وصفها ، ولقد اكب عدد كبير من الخطاطين
والرسامين ورجال الطباعة الماهرة والمكتبيين ، وما يقرب من اربعمئة من
الحنفرين .. حملوا جميعا بمثابة تدعو للأعجاب في اقلية هذا الصرح
(وصف مصر) ، الذي يجمع ما بين مجد فرنسا الحديثة وما بين كل ذكريات
مصر القديمة . ان هذا العمل المخصص لوصف الكثير من روائع المتجزات
العلاقة ، هو نفسه انجاز عظيم في مجالات الآداب والفنون والعلوم ،
ولقد خرج هذا الانجاز العظيم من الحدود المألوفة حتى الان للمجموعات
المحدودة (اللوحات) ، لقد كان يلزم الوريث تواليب ولشكال (غوربات) لم
يسبق استعمالها ، بل لقد تطلب الأمر ان نعتبر لها حتى على اسم جديد .
ان مصفح أوروبا لم تصنع حتى اليوم لورانا بهذا الحجم أو على هذه الدرجة
من الجمال ، بل لقد اصطلحت وسائل ثينة لتطوير فن النحت اسرعت
بتكنيته ، كما اتري ان الطباعة بطرق مستحقة طورته .

وفي النهاية ، وبعد الكثير من العناء والمكثرة ، وبعد مجهودات من كل
نوع شغلت أو نالت عناية أكثر من التي شغلت كل علم في فرنسا ، وبعد
ان اسهمت العديد من الفنون الهامة بالكثير ، وبعد ان نضجت — بفضلها
ومثابرة — خطة لم يتناولها أي تغيير ، بعد ذلك كله اتيت لجنة مصر
Commission d'Egypte هذا المؤلف الضخم ، الذي لا يمكن ان نجد
ما يضاهيه في حوليات العلوم .

لقد كان بوسعنا ان نطلق عليه اسم « موسومة مصر » ، فهو يعرف
بها تاريخا ومنشآت ومنتجات ، وليس ثمة بلد يحول وصفا بهذه الدرجة من
التمام والكمال في كل مناحيه ، وليس هناك من سبيل في ان نأمل ان تتوفر
على الاطلاق مثل هذه الظروف المثالية والارادة الفاعلة على انتاج سلسلة
مبجلة من الانجازات أو ان تقيم مثل هذا الصرح ، ان فرنسا لتستحق — دون
جدال — ان تكون موضوعا لوصف يتم بنفس هذا النمط .

ولقد افار هذا العمل اعجاب كل أوروبا ، لكن هذا الاعجاب كان بالأحرى

ناتجا من مواطن ود ارتبطت به ، أكثر منه ناتجا عن معرفة حقيقية بمحتوياته ، ولقد ظل قلبه شاكرا لآله مصر ، حبسا داخل محراب الفنون ، ولقد كان هذا العمل جديرا بالآمة التي أتجبت المقلتين والطباء والفنئين الذين نهين لهم بهذا العمل ، كما كان جديرا بالحكومة التي أمرت بإتمامه ، لكنه مع ذلك ظل شبه مجهول من الفرنسيين لأنفسهم ، وكما تمى الرسامون والمماريون والطباء ورجال الأنسب أن يستمتعوا بهذا العمل الذى لا يمكن لأية إمكانات فردية أن تحصل عليه ، لكن الطلب يشتد عليه ، وكان ينبغي له أن يحل منذ زمن طويل الى الأجنبي أمارات لا حصر لها على المجد الذى حازه الفرنسيون .

وحيث نفس الطرف من المبالغ الضخمة التى انفتحت على وضع هذا السر ، ونقصر على حساب المصاريف الجديدة التى يتطلبها أداة طبع تسهيلة لوحة ، الى جانب النصوص التى تكون هذا السر ، وإذا ما نشرناه فى شكل أجزاء صغيرة ، مقدمين بذلك تسهيلات طيبة للكثيرين من لوى القدرة المحدودة ، فلا بد أن نكون على ثقة من إمكانية انتشار هذا المؤلف ورواجه فى كل أوروبا .

كانت تلك هى الدوافع التى عرفها المسير س. ل. ف بانكوك
C.L.F. Panikouke على صاحب السعادة وزير الداخلية الكونت سييمون
Siméon .

ونرى فيما يلى أجابه ، وكذلك الأمر الملكى الذى لجاز نشر هذه الطبعة المثالية .

سيدى ..

لقد وهنت تحت تصرف الملك اقتراحاتكم المتعلقة بإعادة طبع المؤلف الكبير الذى وضع عن مصر ، وقد رفقت فى صف هذه الاقتراحات ، وقد شاء جلالتهم أن يوافق عليها ، وأرسل لكم هذه النسخة من المرسوم الصادر فى هذا الخصوص ، وعليكم أن تتخذوا فيما يخصكم كل إجراءات التنفيذ ، أنها مهمة نبيلة ، وأست أشك فى أنكم ستقومون بها ، بطريقة تحقق القلة التى وهنت أنفسكم .



(التوقيع)

مرسوم ملكي

لويس ، بهمد الله ، ملك فرنسا ونافار

إلى كل من سيطلع على هذه الأوراق .

حول تقرير وزيرنا سكرتير الدولة للشؤون الداخلية ، ومستشار دولتها المختص .

أمرنا ونأمر بما يلي :

مادة أولى : يقبل الاقتراح المقدم من المـسيـو سـ. لـ فـ. بـ بـتـكـوك بإعادة طبع « وصف مصر » ، والمرغوع الوثنا من قبل وزير داخليتنا ، ويلحق هذا الاقتراح بهذا المرسوم .

مادة ثانية : بالنسبة للحصيلة التي ستعود على الحكومة من عائد هذا العمل : توزع خمسة (بحددها وزير الداخلية) على الذين ساهموا في الطبعة الكبيرة والتي تمت على نفقة الخزينة ، ويخصص الباقي لتشجيع العلوم والفنون الجبيلة وبخاصة عن الحفر .

مادة ثالثة : يكلف وزيرنا سكرتير الدولة للشؤون الداخلية بتنفيذ هذا المرسوم .

مسدر بقصر التويليري في ٢٣ يونية من عام الشكر ١٨٢٠ العام
المسلم والعشرين من ههنا .

لويس

(توقيع)

الدراسة الأولى :

دراسات موجزة حول البنية الجسدية للمصريين البارث لايف

العنوان الأصلي للدراسة « دراسة موجزة حول البنية الجسدية
المصريين والاختلاف الجنسي التي تطلق مصر ، وفيها بعض الفكر حول تنظيم
الحيوانات » تأليف المسور هيلتون ليزي دكتوراه في الجراحة من باريس . .
ودكتوراه الطب من جامعة يينا ، وعمل المصبع الطبي المصري ، وعمل
المعيد من الكنديت ، والجراح الأول في حرس صاحب الجلالة الامبراطور
الملك ، والفنان العام بصحة صحة الجيوش ، ولحق القادة المسلمين على
وسام الشرف ، والفارس من طبقة التاج الحديدى .

كان من الضروري ، فيما بدا لي ، حتى استطيع أن أمير الملاحم
الجسدية للمصريين الطليعين ، من ملاحم بقية سكان مصر ، أن ابدأ بمحرم
مختلف هؤلاء السكان ، في صلاتهم الأساسية . ولكن استرشد في محرم
هذا بشيء من المنهج ، فسوف أميز هؤلاء السكان ، كما لمحل رحالة فرنسي
من قبل ، في أربع طبقات (لو أجنس) تشكل على : الممالك ، الأتراك أو
التركمان ، العرب ، والشعرا الأقباط .

لقد استقر الممالك في مصر ، وهم حكماها اليوم ، عند حوالي القرن
الحامس ، وتحدث سلالة هؤلاء من قبل القوقاز ، وقد وصلوا إلى هذه
البلاد بعد جولات طويلة بها في سوريا . ويمكن لنا تمييز هؤلاء ، الذين
أشار إليهم مقاتلوننا الصليبيون بالاسم الذي لا يزالون يحملونه حتى اليوم ،
من بقية السكان الآخرين في مصر بميزانهم الجنسية وطبقتهم العسكرية
العدواني ، وهم جميعا ذوو قامة مديدة وبنية شديدة ، وتطاليع خلقتهم
جسدية متنافسة ، ويتحدثون بوجه بيشوي وجسدية ضخمة ، وجبهة عريضة ،
وعيون واسعة نجلاد ، وتنت مستقيم ، أو أثنى بعض الشيء ، ولم متوسط ،
ولكن نافذة على نحو خفيف ؛ أما شعرهم وجفونهم ورموشهم فمسراء داكنة
أو كستنائية اللون كما أن بشرتهم بيضاء في غير لململ ، ولنسائهم ، وهي
قادمات من نفس البلاد ، نفس الملاح ، مع ثغرات كبيرة ، وبعد من بنين
نسوة بارعات الجمال .

وتلفت رعوس المسنين من هؤلاء الشرقيين النظر ، إذ يضلعي متوڑها
عليها روعة ، يريد منها جمال ملامح الوجه ، ونباض لحيتهم الأحاذ ، والتي
يذهبونها نحو حتى تلامس أسفل الصدر ؛ وبعد مراد بك النموذج الأمثل
لهذه النية الجسدية الجميلة ، أما طبع هؤلاء الممالك فقصور ، جسور في
غير ملظفة ، وهم يشتهرون بالكرم ، وحسن وفادة الضيف ، ولا يتزوج
الأوحد منهم إلا إذا بلغ مرتبة عالية ، وفي النهاية ، منهم جميعا متبرسون
مفتون القتال ، واعتقد من حقني أن الناس محزون حين ينظرون إلى هؤلاء
باعتبارهم الفرسان الأول في العالم .

ويتكون الجنس القلبي (من سكان مصر) من الأتراك أو التركمان ، القادمين من تركيا أو من بلاد التركستان ، وتقرب بنسبة هؤلاء من نسبة الحوريين أو الشراكسة المهابيك الذين كنت لتحدث لغو معهم ، وإن كان لون بشرتهم يميل إلى سحنة برنزية ، كما أن وجههم أكثر تسطحاً ، وجسمهم معتد على نحو أكبر ، وهي كذلك أكثر كروية ، وعيونهم أكثر صفراً ، ونظراتهم غليظة محنة ، وعلابهم أسود حالك سواده ، كما أن لحياتهم بالمثل سوداء . وطابع هؤلاء الترك أو التركمان أقل حيوية مع شيء من غلظة : ورجال هذا الجنس كثيرون بمصر الشيء في القاهرة ، وهم ياترون بأوامر الباشا بمباشرة .

وتتكون الطبقة (الجنس) الثالثة من العرب ، وهؤلاء يمكن لنا أن نقسمهم إلى ثلاثة فروع مختلفة : فرع العرب الشرقيين القادمين من حواف البحر الأحمر أو من الجزيرة العربية ، والعرب الغربيين أو الأمازيغ ، وينتمي هؤلاء في الأصل إلى موريتانيا أو سواحل أفريقيا ، ثم أخيراً العرب البدو أو الـ *Scénites* القادمين من الصحراوات .

وللأفراد من الفرع الأول ، وهم الذين تهوروا إلى الأبد في طبقة الفلاحين والصناع أو المرفيعين في كل مصر السفلى ، قامة نوعي المتوسطة بلليل ، وهم مثنيو البنية ، جيلو الخلفة على نحو كاف ، وبشرتهم خافتة حائلة ، تكاد تكون سوداء ، ولهم وجه نحلي بهضوي وجبهة عريضة ومحدوبة وجفنان متعامدان أسودان ، وعيون لها نفس اللون ، مسفرة ولامعة وغائرة ، وأنف مستقيم متوسط الحجم ، ونم مخروط في شيء من الحسن ، وأسنان منتظمة ، حافة القاطع ، بيضاء كالعاج . ونلاحظ عند نسايتهم اختلافات طيبة ، ويعجب المرء بموهبة بصفة خاصة بسيط اطرافهم الرشيق والتفلسف المنتظم لأيديهم واتقائهم ، كما يعجب بسا في مشيبتهم ووقتنتهم من اعتداد .

ويشارك العرب الأفريقيون سلتيتهم في مجمل شكل البنية الجسدية وكذلك في لون العيون وحيويتها ، لكن سلتتهم يلبث ساهل أفريقيا تضخم في شكل الأنف والفك والشعاع ، ويتشابه طبع هؤلاء مع طبع الأجناس الأخرى من العرب . ويتنشر هذا النوع من العرب في مصر العليا ، وهم هناك يزرعون الأرض ويملسون الحرف كالأولين .

وعلاوة ما ينقسم البدو أو العرب إلى الرعاة إلى شمال متناثرة على شرف الأرض النجدية عند مداخل الصحراوات ، وهم يقيمون تحت جبال يحولونها من مكان لآخر حسب الحاجة . ولهم بعض صلات شبه بالآخرين . وإن كثرت ميومهم أقل برينا في العدة كما أن ملاح الوجه أقل وضوحا . وهيتهم أكثر جمالا في حين أن قوتهم أقل حجبا ، وهم أكثر خفة وأشد نحولا ، ومع ذلك فهم لشداء مثينو البنية ، ذوو روح مطوية ، وطبع فخور ، لكنهم حذرون جفولون ، كما أنهم نفعيون ككوميون هاشون يصربون على غير هدى ، وبغلا عن ذلك فسرعان ما يسمع الواحد منهم فارسا مائرا ، تمدح مهارته في استخدام الأسهل والعراب . وتقليد ومادات هؤلاء العرب هي على وجه التقريب . وهم يربون قطعان الضال والجبال والخيول من صنف نعين للحلبة .

أما الطبقة الراقية من سكان مصر : والتي كانت الموضوع الرئيسي لأبحاثي . فيتكون من القبائل الذين يوجدون بأعداد كبيرة في القاهرة ومصر العليا ، هؤلاء - نوس شك - هم أسلاف المصريين الحقيقيين والنضاد ولقد أحفظوا من هؤلاء بطائفتهم الحديثة . ولهم كذا ، وتقاليدهم وعاداتهم . ويبدو أن أصولهم قد ساعدت في عمور بالغة القدم . وقد كانوا يظنون مصر العليا من قبل عصر نطقلياتوس بزمان طويل ، ويؤكد هيرودت أن المصريين من سلالة الأحيائي والأنثويين . ويتفق كل المؤرخين في هذه النقطة مع هيرودت ، وتدعوى الأبحاث التي قست بها في هذا المجال إلى تنبؤ هذا الرأي .

وتضرب بقرة الاتصال إلى المسفرة وإلى العتبة مثل الأحيائي ، ووجههم ممتلئ في غير انتفاخ ، وعيونهم جبهة . لوبرية الشكل ، ذات نظرات ذائبة واهمة ، أما الوجهات فمائلة - ويكاد يكون الأنف مستقيما . مستقيرا عند قمته ، لكن المتخاوين وأسمان ، والفم متوسط . والشفاة غليظة والأسنان بيضاء ، منقظمة وإن تكن نائلة بعض الشيء . ولحيثهم وشعر رأسهم أسود جعد ، وللنساء نفس الملامح مع اختلافات تأتي لمسالحهن ، ويرهن كل ذلك ، وهو عكس ما رآه فولسي Volney ، على أن هؤلاء القوم لا ينحدرون مطلقا من جنس الزنوج في أواسط أفريقيا ، إذ ليس ثمة أي نوع من التشابه بين هؤلاء الآخرين وبين الأقباط ، وفي الواقع فإن للزروج الأمريكيتين أسنانا

أكبر حجبا وأكثر بروزاً ، كما أن تجويلهم الصغرى أكثر انشاعا وأكثر
تحيذاً ، وشسافهم ، الدلاة ، أكثر غلظة . كما أن حدودهم أسفر
وعيونهم كلبية على نحو أكبر ، كما أنها أكثر استدارة ، ولشعرهم شكل
الزغب أو الصوف . أما الحبشى فعلى العكس من ذلك عظامه وأسنان ،
ونظرته بريجة ، وراوية صدره تنحني نحوه ، وجنتاه أكثر نتوءاً ، وشكل
خدوده مع الزوايا المحددة للمك والتم مطباً أكثر انفتاحاً والشفاه غليظة
حقاً لكنها غير مدلاه مثلها عند الزنوج ، وكما سبق لى القول لى الأسنان
جبلة وأقل نتوءاً ، أما تجويل الصحر فمثل انشاعا ، ولى النهاية لى بشرة
الأبيض لشادية اللون .

وكل هذه الملامح نلاحظ مع غرور لا تكاد تحس بها لدى الانبساط ،
أو المبررين الحقيقيين ، ونجد نفس هذه الملامح مرة أخرى لى رعى
التلال القديمة وبخاصة تلال لى الهول . ولكى نتحقق من هذه الظواهر
قمنا بتجميع عدد محدود من الجمال من مقابر عديدة للانبساط . كان لا يفر
من أرائها للتفضيلات المصلحة العامة ، ثم تارتها بغيرها من جمال الأجناس
الأخرى ، التى جمعت منها بالمثل مجموعات كبيرة (١) ، وبخاصة جمال
لحافى والثوبيين حصلت عليها بنفس الطريقة ، وقد اقتضت بأن هذين
النوعين من الجمال يمثلان نفس الخلقة على وجه التقريب .

ولقد مكنتى الزيارة التى قمت بها الى اهرام سفرة فى وضع سمح
لى بأن اتقرب من عدد كبير لحد كاف من التومبوات ، قمت لى جسامها
نفس الملامح التى قدمتها الجمال الأولى . مثل نقوشات الوجنت ،
وانشاعها ، والشكل الجبر للفتحات الأتنية ، والبروز القليل لأقواس
الصحر .

وبعدو مختلف الموازنات التى انتهت من أتامتها ، وكذا الملاحظات التى
وجدت على اللوام ، والتى لا تزال موجودة حتى اليوم ، بين الأجناس وبين

(١) حيث لى الطامون على الأكفالى الذين تركتهم بمنزلى فى القاهرة
أثناء سفرنا الى الإسكندرية . وحيث فاجر الجيش هذه المدينة ليعود رأسا
الى فرنسا ، ففنى لم نستطع إثناء هذه المجموعات كما لم أتمكن من إثناء
أبحاثى .

الأقباط ، والتوافق بين تقاليد ومعتقدات هؤلاء ولؤلئك ؛ بل وديانتهم ، كل ذلك يبدو كالميل إلى يبرهن على أن المصريين إنما يحضرون حقيقة من الإحيائيين والأيثيوبيين ، وزيادة على ذلك ، عين الطبيب أن نتحيز إلى الأثيوبيين قد اتبعوا محرى النيل منذ الأزمنة الأولى . وإنهم كانوا يتوقفون أولا بأول في البلاد التي يفصلها هذا النهر ، لكن هذه الإكلمة كتبت على النوالى ، وهكذا لقد انتشر هذا الشعب بالتتابع من النقيضين إلى طيبة إلى ممفيس إلى هليوبوليس ، أما المدن الأخرى شمال هذه المدن . فلم تكن إلا بعد ذلك بوقت طويل .

وقد لاحظت كذلك ثلاثة أنواع من الموميوات ، تنتمي — فيما بدأ لي إلى ثلاث طبقات من المواطنين . بل ربما إلى ثلاثة أجيال مختلفة ، موميوات مصر العاصية في العادة أكثر حملا . وتلقى عناية أكبر من موميوات مصر السفلى ، أما الموميوات التي أنجمها في الصف الأول لمتناسكة متينة ، مطلية بالزئبق ، ومغطاة بنفس المادة . وتحاط بالشرطة من قماش الكتان ، بمسكة عذدا من عصابات الجراحة والتفريغ بمعدن المناطق المحيطة في جسم الإنسانى ، وهي مطلية بملام كرتونى ، تنشر عليه الكتابات الهيروغليفية . ويضم كل هذه الأجزاء صندوق من خشب الجبهر ، رسمت على غطائه صورة الشخص (المتوفى) .

وكما قال هيردوت . فيبدو أنه بعد أن كتبت تفرغ المصروف الثلاثة الرئيسية للجسم ، كتبت هذه التجاريف تسلا بالزئبق ، كذلك كانت تعق به الأطراف . وكل الأجزاء الخارجية ، وحين تكون هذه المعدة في كليل أنسهارها لها تفتد داخل هذه الأحراء بمعى ، لحد تنشرها معه عظام هذه الأجساد . حتى أنها استطاعت . ولا تزال تستطيع البقاء بالمثل لوقت أطول ، ما دامت توجد في طقس تنشر فيه الأمطار . وحيث نزل الأمكن التي أودعت بها شديدة الجفاف ، محرومة من التهوية . وبعد انتراع أغلفة الموميوات ، بعدما نعرف أولا على جنس صاحب المومياء وملامحه الرئيسية فتحد أن وجهه وأيدي وأقدام بعضها مغطاة بأوراق من الذهب ثبتت فوقها بشكل نسي حائقي ، وتحت ذراعى لو في داخل جسم هذه الموميوات وحننا هذه الكتابات النادرة التي عرفت مسلم البريديك والتي لا تزال حروفها مجهولة بالنسبة لنا حتى اليوم . وتحمل كل واحدة من هذه الموميوات ؛ بالاضافة إلى ذلك ، كل شواهد الحرفة أو المهنة التي كان يمارسها صاحبها في حياته ، وتحفظ

أنتهت معه في القلوب . ويخصص هذا النوع من التحنيط لكبار المواطنين في الدولة ، وكان يتطلب استعدادات طويلة وشاقة ، كما كان يتطلب توفير الكثير من العناصر المكونة . كانت تجعله ولا بد بالغ الكلفة .

وكانت الطبقة الفنية من المومياوات أقل حصلا وأقل تميزا ، وكانت ضياعها من قبائل أقل نموة ، وبدرجة أقل من الفن ، ولم تكن لهذه المومياوات أغلفة كرتونية . أما القلوب المصنوع من خشب الجبيل ، والذي كان يحوها ، فكان مصنوعا بشيء من الفسونة ، كما لم يكن مزدانا بالرسوم شانه شأن النوع الأول .

وكان لمراد الطبقة الثالثة يحضنون بمصاريق أقل ، وتختلف أساليب تحنيط هؤلاء لغير ما حد ، وقد اختلفت المومياوات من هذه الطبقة بالحسن سواد بلحية ، تختلف درجة تليينها للزوايا ، وكانت توضع داخل تجاويف الجسم . مثل محلول النطرون أو الملح السحري . وبعد أن كانت تملح الأجساد جيدا على هذا النحو ، كانت تترك لتجف في الشمس ، أو كانت تعرض لتأثير النار حتى تبلغ درجة اليبوسة الكاملة ، ثم توضع بعد ذلك في صناديق من خشب الجبيل ، خراطت بشكل خشن .

وكانت كل هذه الممارسات تتم دون جدال تحت إشراف رجال متبحرين في علم التشريح .



لكي تكمل هذه المذكرة الموجزة ، سوف نضيف إليها ملخصا مركزا حول الطريقة التي حفظنا بواسطتها في أوروبا أجساد بعض مقلاتنا الذين ماتوا في ميدان الشرف .

إذا كان الشخص (الحالة) الذي ينبغي أن يحفظ جسمه قد مات نتيجة مرض مزمن ، مع هزال ، شريطة ألا يشك مطلقا في وجود ترسبات تجمعية في الأعضاء ، ولا يكون الإحتلال أو التعض قد بدأ ، وأن يكون الجسم سليما من الظاهر ، فإن من الممكن حفظ الأعضاء في تجاويفها الخاصة (بالجسم) فيها عدا المخ الذي يفيض على الدوام إخراجا .

وفي هذه الحالة تبدأ مفصل كل أجزاء الجسم بالمياه النقية والطازجة ،
وسرر ما الأهماء الغليظة غسول من نفس السائل . ونقص بحفنة خالية
الأشياء الدائبة . التي لن يكون بالإمكان غروبها أما بسبب ثقلها الخاص ،
وأما بسبب الضغط الذي تخارسه أسفل البطن ، كذلك فالتا تنقص المواد التي
تحويها المدة بنفس الوسيلة ، وقد يكفي أن نعد بسبارا بلعوميا عند شجاع
(مشعب) الصفة التي تدخلها الى هذه الأجزاء الداخلية من طريق الدم أو
من طريق فتحة بحثها في البلعوم من الجهة اليسرى للرقبة . ويمد ذلك
نبلا المدة والأشياء بمادة خالية توضع بمنصورة . وتطلق الفتحات ، ثم
نعمل نفس الشيء عند حقن العروق ، ومن أجل ذلك تمرق شريحة من الجرد
الداخلي والجانب على يسار الصدر . تجاه الحصى الأورطي ، ويقطع واحد
أو اثنين من المضاريب التي تعطيه ، ويوضع بداخل هذا الشريبي فجاءا ذا
صنوبر ، نضع من طريقه حقا دقيقا ملونا بالأحمر ، لهذه الأهمية الشعرية
لكل النظام الفشائي ، وبعد ذلك مباشرة . ونفس الطريقة ، نقوم بحقن
نلى . وندفئة أكبر ، لكي نبلا الشرايين والعروق التي ترند عنها ، ثم بحقن
ثالث بالنسبة للأوردة ، وينفى أن يمرر هذا الحقن من طريق واحدة من
أوردة الفخذ ، ثم تترك الجلسة لتبرد ولتتحرر مادة الحلق . ولكي نخلى
العجبة . يثبت بها داج واسع بواسطة مثقب للعظام عند زاوية اتصال
الدرز (❦) السهم بالدرز القذالي (أي درز القفا) ، بعد أن نكون قد صنعنا
حرا طوليا بالجلد دون مسلس بالشمع ، الذي مضى بالاحتفاظ به ، شأنه
في ذلك شأن زغب وقصر بقية الجسم . وصنبا تم هذه الفتحة ، نقوم
بقطع التحاملات وطوايا الأم الجبلية (❦) بواسطة مبضع طويل ومضيق ،
ذي حلقين ، ونشرع برق هذا العرق بواسطة حطاف متظم (غير حاد
ولا قاطع) . ثم نخرج كل كتلة المخ والمخيخ بنفس هذه الآداة ، ومن طريق
حقنات بالماء البارد ، ندب على وجه السرعة كل ما تبقى من المادة المخية ،
وبعد ذلك نضم حذاف فتحة الأعشية مع بعض مقلط الدرز .

أما إذا كان الشخص (الحالة) سميئا في كثير أو قليل ، وإذا كان قد

(❦) الدرز هو حيلة حافتي الجرح ، وهو كذلك خط الالتصام أو
الانفصال .

(❦) الأم الجانبية هي النشاء المخلف للدماغ والحبل الشوكي .

مات بمرض من لو خبيث ، وخلال فصل حار ، فقد يكون من المستحيل حيلة
 الاضماء من القطن . وفي هذه الحالة ، نستخرجها بواسطة خز حلالى ،
 يتم في الجنب الايمن عند المتطقة البطنية (الحوية) ، وتصل اولا الامعاء
 والمعدة والجذ والطحال والكليتان ، ثم يقطع المصباح الحليز بشكل دائرى .
 ثم المنصف (ج) والتصبية الهوائية والبلعوم عند دخوله الى الصدر ،
 وبعد ذلك تنزع الرتتان والقلب دون اطلاق المضمض الاخر ، الذى ينبغي ان
 يجهز بشكل منفصل وان يحفظ بعناية ، ولا بد ان يجفف هذان التجويضان
 بالاسفنج ، ثم نضع كمية معينة من موريات الزئبق المشبع بالاكسجين
 المحولة الى مسحوق ، على المناطق المصابة من جدرانها ، وبعد ذلك يملأ
 هذان التجويضان بالوير المسلول والمجفف ، ثم يعاد شكل البطن الى حالته
 الطبيعية ، وتثبت حلقا العز من طريق خيطة ذات نقاط حددت مسلفا .
 وبعد اعداد الجسم على هذا النحو ، يغمس في كمية كافية من محلول موريات
 الزئبق المشبع بالاكسجين على اقوى درجة من التركيز يمكن الحصول
 عليها . وتترك الجثة مغمورة داخل هذا السائل لمدة تسعين او مائة يوم ،
 وبعد ان تتشبع جيدا بهذا المحلول ، توضع فوق غريال ، وتعرض لتأثير
 متزايد لدرن تصير منه حرارة ومقام في مكان جاف ومعرض للهواء . وبمجرد
 ان تعف هذه الاجزاء تدريجيا ، يثبت من جديد الشكل الطبيعى للامع الوجه
 وكذلك الوضع الطبيعى للأطراف وتلخذ الهيئة المناسبة ، وتثبت ههنا من
 الميثاق بين يويق العين التى مسحت الى الداخل وبين الجسوم ، ويعطى
 للشعر صبغة تتناسب مع لونه الطبيعى اذا ما وجدنا ذلك ضروريا ، ثم نمر
 على كل الجسم ببرنيق (طلاء لامع) ، خفيف اللون ، كى يعطى حيوية
 لصبغة الجلد ، وكى يحفظ له مظهرا من الطراوة ، واخيرا يوضع الجسم
 داخل صندوق زجاجى ليعرض على الجمهور ، لو يدفن داخل تابوت .

وهكذا نستطيع ان نطرد الالاب السنين ، لجسد الامطل او رجال
 الدولة المظلمة .

(ج) المنصف هو الحيز الذى يشغل على القطن وكل ما في الصدر
 هذا الرتتين .

الدراسة التالية :

مصر .. والعملة الفرنسية

مقدمة تاريخية
بقلم الدكتور فوزي

تُشغل مصر ، بموقعها بين أوروبا وآسيا ، وبتصلها اليوسور بلوريا ، قلبه العالم القديم ، لكن هذه البلاد اليوم لا تقدم سوى ذكريات مجيدة ، هي وطن الفنون ، وهي التي ما غشت تحتفظ لهذه الفنون بصروح لا تحصى ولا تزال قائمة حتى اليوم أهم معالمها ، وكذا القصور التي سكنها ملوكها ، على الرغم من أن أحدث هذه الصروح قد تمسدت قبل حرب طروادة . ولقد ذهب الى مصر كل من هوميروس وليكيورج . ودرس فيها سولون وفيثاغورث وأفلاطون للمسلم والدين والفنون ، وأسس الاسكندر هناك مكتبة بالغة الثراء حظيت لوقت طويل بالسيطرة على عالم التجارة ، وشاهنت هوميوس وقصر وماترك انطونيوس واغسطس يقررون فيها بينهم قدر روما واقدار العالم بأسره . ومن خدسية هذه البلاد انها تسترعى انتباه كل المبدعين الباهرة والمتألقة التي تنظم لدار الامم .

لم تلبث في الشرق لو في آسيا لمة قوة كبرى لم ترن ببصرها نحو مصر ، لو لم تظفر اليها باعتبارها ، على نحو ما ، اقطاعية طبيعية بالنسبة لها ، كما ان كل الاحداث الكبرى التي كثر لها تأثيرها على تفاليد وتجارة وسياسة الانبراطوريات قد صاحبت معها الحروب الى ضلف النيل ، وبكنا ان نلاحظ ان الفرس والمقدونيين والرومان والعرب والمسلمين قد استقروا بمصر بمجرد ان تفوقوا على الشعوب التي كانت محاصرة لهم .

ولها معنى ، اوصى الدين الى ملوكها بالرغبة في الاستيلاء على مصر . وقد بذل العديد من الامراء الصليبيين ، وكذلك البابا انوسلن الثالث (Innocent) وهو الرجل الذي حكمت مواحه كل أوروبا ، كل جهودهم لتحقيق هذا المشروع . وقد جدد هذا المشروع واحد من الورراء الذين يعرفون أكثر من غيرهم المصالح المختلفة للدول المسيحية ، هو الكاردينال هينيس Himénès (**) وتحالف لهذا الغرض مع كل من فرديناند

(*) تولى البابوية من ١١٩٨ الى ١٢١٦ ، وقد خلف صراها ضد ميليب المستطس واتخذ المبادرة في قيلم الحرب الصليبية الرابعة ، كما حارب مذهب الـ Cotharés الذي انتشر في جنوب فرنسا حتى قضى عليه مسلم ١٢٠٩ . (الترجم) .

(**) كاردينال اسباني ولد عام ١٢٣٦ ومات ١٥١٧ وكان رجل دولة كبير ، لكنه اسال الكثير من الدماء (الترجم) .

الكاثوليكي ، وإيمانيول ، وهنري السبلج . وهم الذين تميزت جهودهم بالحكمة ونهج الصيت ، أما ليتر *Leblitz* القسيس ، والذي لم يطلق إلا من أجل المهمل الكبرى ، فقد شغل هذا المقروء لزمان طويل ، وقد وجهه إلى لويس الرابع عشر مؤلفا عليها ، على مخطوطا ، مرغى فيه المكسب التي تحقق من وراء هذا العزول (١) .

وقد كتب بوسويه *Bousuet* في نفس الفترة من التاريخ الطبيعي ، ويمد أن أماد إلى الأذهان مشكلة مصر ، وروحة الانظمة والمؤسسات التي نشأت بها ، لصف هذه الجبلة اللاتعة للنظر « والآن ، حيث يتقدم اسم الملك اشد بنطلق العالم قسوسا ، وحيث يبسط هذا الحكيم إلى نفس المدي البعيد تلك الأبحاث التي أمر بلجرائها من المؤلفات الرائعة التي تصور حول طبيعة الفن ، أن يكون كبرا جديرا بهذا الفضول النبيل أن تكشف غروب الجبل التي يضيها الصعد في سمراته ، وأن نثرى من الصبارة منعنا بما سبق أن اتهمته في هذا المسار مصر » . ولقد تحققت أمنية هذا الرجل اللامع خلال فترة من حرب خالدة ، أصبحت مصر على الفور مصرها لها .

ان الناس - ولا يد - يتذكرون ذلك الانطباع الذي أحدثه في أوروبا هذا الظهير المدهش من تيلم حيلة فرنسية تنجى إلى الشرق ، فلقد آمد هذا المقروء الذي اتم فيه الفرنسيون النظر طويلا وفي صيت ، بكبر من العناية والسرية حتى أن بقلة امدلائنا التي لا تنفد قد خدمت ، لقد عرف هؤلاء في وقت واحد تقريبا انه قد ووفق على هذا المشروع ، وانه قد آمد ونفذ . ولقد برره ضرورة تلمين تجارلتها من المظالم التي لم يكن يكف البكوات (المباليك) من ممارستها ضدها ، ولقد خابرتنا الأمل في تصالح يتم مع اللطال المنهاني ،

(١) هكذا يفسح السيد المؤلف عن روحه وبواياه بند البداية ، ولاند أن نضع هذا في اعتبارنا على الدوام وبص نقرا ما احتلم هذه الملاحمة بوصف مصر بما يقوله إلا يفسر الكثير من آرائه الغريبة ، ويبرر الكثير من التناقضات الصارخة التي وقع فيها وبخاصة عندما يتحدث عن الحرب والاسلام ، والتي تلغ أحيانا حد الاستهانة بالمعتول ، ولدرجة تثير من السخرية والافتقار أكثر مما تثير من حذل حاذ لا تستطع في الواقع ، في الوقت الذي تظل فيه تفسر لنا الكثير من النوايا ، بما لا يرال موجودا ربما حتى اليوم (المترجم) .

منعما نقدم له ، نتيجة لعملنا هذه نفسها ، ريادة في الحقل وتعلما في
النفوذ . ومهما تكن الصعوبات التي بفت في هذه المفاوضات ، عقد كس من
اليمكن أن تأمل في مخرج سار ما دام نجلنا هناك كان موافيا للغاية للمصالح
المشترك للدولتين الحليتين (تركيا وفرنسا) ، وفي الواقع عقد كس معلونة
قوة لوربية (فرنسا) عنما نستقر في مصر أن يعلمون على تغيير الحالة في
مصر بطريقة شبيهة بمجالية () .

أن هذه البلاد التي نقلت بحاربها إلى كثير من الأمم ، هي اليوم غارقة
في المهجية ، وبقدر ما تال هذه البلاد اعتبارنا المزايد بفضل موقعها
الجغرافي ، وبفضل خصوبة أرضها المثلثة ، بقدر ما تكون ماسة بالنسبة
لها المكاسب التي تحققت لها الفوائض والفنون والصناعات . وحين كانت
تلود عنها لها مضي قوى عسكرية مجهزة ، تتكون من بحاربها الخاصين
بها ، كانت مصر منيرة ، مهيبة من الأمم المجاورة ، لكنها لمعدت منذ زمان
طويل ، مع تقدمها لأنظمتها ومؤسستها ، استقلالها ومعارفها ، بل أنها لم
تعد بقدرة على أن تفكر بعظمتها الأولى ، ولقد ظلت على الدوام منذ هذه
الفترة خاضعة لقوة أجنبية ، وأحلت كل الثورات التي هزت أوروبا وآسيا
تزدودها بسادة جدد ، وتنتقل بشعبها إلى أقصى درجات المذلة والشفاء .

كانت مصر ، في عهد ملوكها الأول ، تطيع وتستعيب لمبادئ وأخلاقيات
ثابتة لا تحول ، وكان ثمة حكومة مثابرة تسهر على رعاية القوانين والمعادات
والعقائد ، كان كل شيء يوحى بالحرص على المستقبل ويدعو إلى الشروع
في أعمال يكتب لها الخلود ، وهذه هي اليوم فن تحت أشد السلطات
استبدادا في العالم ، بل وأكثر القوى الموجودة على ظهر الأرض انحداما
للبيعة ، كما لو كان قد قدر على هذه البلاد أن تمر بتشد الأحوال التي
عرفها المجتمع الإنساني تلافيا ، لقد نقلت الحضارة إلى كولشيد
القديمة () إذا لم يكن تاريخ العصور القديمة يخدمنا ، لكن نفس هذه
المنطقة تحت إليها اليوم بحكم بضعين مسوا عائلاتهم وأوطانهم ، ويلطون

() يقصد أن فرنسا لو أنها كانت قد استقرت في مصر لمأونت على
دمج سلطة الدين العالي هناك لأنها كانت ستعلم نفوذ الماليك وتضع حدا
لخروجهم على السلطان (المرجع) .
() مدينة تقع إلى جنوب القوتز ذهب إليها إبطال أرجوس الحصول
على جزات من الذهب (المرجع) .

لرئيسهم ، ويحبسون وسط عبيد (ممالك) جاحدين مثيرين لا يمكن لهم احتواؤهم ، وحيث أنهم ملأون من الصيلة وعن نور المعرفة ، فإن يقدر لهم مطلقا أن يعرفوا كيف يفتون سلطتهم وكيف يسارعون إلى التمتع بها ، فهم يتمتعون كل سناعة ، ويهملون أو يقرّبون الترع والمنشآت العالية ، وما هي الرمال تغزو الأراضي الصالحة للزراعة ، كما أن القرى تمشي تحت وطأة تهديد مصابات السلب القاسية من الصحرائات . لقد حكم على الإنسان في ريف مصر أن يقوم بعمل جاهد لا يمكن أن يجنى منه — هو — ثمره ، كما أن الإنسان في كل مكان من أرض مصر ، إنما هو عريسة للظلم والمهانة والمجاعة والأمراض المعدية .

وقد يكون من المستطاع اصلاح حال هذا الشعب ، لو أن سلطنة حكمه أصبحت ذبذبة ووراثية ، لكن السياسة العنيفة تتفادى مثل هذا الإصلاح ، إذ هي تثير في هؤلاء الأقاليم عدوات وخصومات تضغط من قدرتهم هم ، وتجعلهم شئى مختلفين ، لا يحوزون الوسائل التي تجعلهم يلحون في الحصول على استقلال تام : كما أنها في نفس الوقت تلف غسده القوة العسكرية المبروح ، التي للباشوات . ووسط هذه القلاقل تظل غائبة على الدوام سلطة الحاكم (السلطان) أو أنها لا تثبت وجودها إلا في شكل صفوف مفتعبي حكم مصر ، فلا هي قادرة على تبليغ لرسل الضرائب ، ولا على حملة الشعوب ، ولا على شغل تنفيذ المعاهدات التي تبرمها مع القوى المتحالفة معها . وهذه الظروف الأخيرة بوجه خلس هي التي جعلت هذه الصيلة المخالدة من قبل الفرنسيين لبرا لأبد منه ، ومع ذلك ، فإن ذلك الذي قاد هذه الصيلة لم يقصر أغراضه فقط على عقاب الذين أمضوا تجارتها ، بل أنه أمضى لمشروع هذا الخروج سموا ومظلة جديتين ، كما طبعه بطبيع عبقريته الخاصة ، لقد قدر منذ البداية ما سيكون لهذا الحدث بالضرورة من سطوة على ملاقات أوروبا مع الشرق ومع أواسط إفريقيا ، وعلى الملاحة في البحر المتوسط . بل وكذلك على ائدار آسيا . ولقد انقضت الصيلة لنفسها حيفا ، هو تاديب الممالك والحد من طغيانهم ، والتوسيع في مشروعات الري والزراعة ، وأن تحقق اتصالا دائما بين البحر الأبيض والخليج العربي (البحر الأحمر) ، وأن تقيم مؤسسات تجارية وأن تقدم إلى الشرق المال الناتج الذي للصناعة الأوروبية ، وأخيرا أن تجعل شروق وحيوة السكان أحسن حالا ، ولن تدهم بكل المزايا التي أنتجتها حضارة بطورة .

ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الشاية دون تطبيق مستمر ودائم للمعلوم والفنون ، وقرر قائد هذه الحملة الفرنسية - سعيًا وراء تحقيق ذلك - أن ينشئ في مصر مؤسسة تسمى الى نهوض وتقدم كل المعارف النافعة ، وحدد ، وهو لا يزال بعد في عاصمة فرنسا ، كل أولئك الذين ينبغي عليهم الاسهام في تحقيق اغراضه ، ودعم عن طريق ما ابداه من امورات الرعية والذخيرة ، هذا الحلف غير المعتاد بين الاسلحة وبين العلم ، وقد مهد بانشاء هذه المؤسسة الحفيدة الى عضوين شهورين (١٧٩٨) من الاكاديمية السابقة للعلوم ، وكانا منذ وقت طويل قد شرعا وغنما وطنهما باكتشافاتهما الدوية ، كما كانت أعمالهما ومقريتهما قد ساهمت في اعطاء الأمة الفرنسية تلوقا مجهدا في علوم الهندسة والطبقيات .

ولقد أخذت اكااديمية القاهرة (اى المجمع العلمى) على مانتها ، مظهرها مثل اكااديميت اوربا ، ان تسترزع العلوم والفنون وان تطورها وان تسعث في كل تطبيقاتها النافعة ، وكان عليها بصفة اساسية ان تسعى للتصرف على احتياجات ومصالح مصر وكذا الوسائل الكفيلة بالمصول عليها ، لذلك فقد كان من الضرورى بالنسبة لها ان تخصص بكثر من الحنية تلك البلاد التى ستصبح خلفعة لادارة جديدة ؛ تلك كانت الدواعى التى حملت على القلم بالابحاث التى تنشر اليوم نتائجها .

ومع ذلك فقد كان الحرص على الفنون الحفيلة والادب يقتضى منا كذلك وصفا مظهرا وتابا للصروح التى تزدها بها ، منذ قرون ، سفك وادى النيل ، تلك التى تجعل من هذه البلاد احدى مختلف الدنيا ، ولقد لم حيلونا باخذ متعلقات كل اجزاء هذه المنشآت بقعة صلبة ، والحقوا بالتمصيلات المعمارية خرائط للاماكن التى كانت تقوم عليها المدن القديمة ، كما قدموا في رسوم خاصة النقوش الدينية والفلكية والتاريخية التى تزين جدران هذه الصروح ، وبالإضافة الى الدراسات والرسوم التى من شئتها ان تعرفنا بالحالة القديمة لصر ، فلقد جبع أولئك الذين كان عليهم ان يقدموا لوحة من حالتها الراهنة وانشوه عدد كبير من الخرائط الجغرافية التى تصدد ، بطريقة دقيقة ومفصلة ، مواقع السواحل والموانئ ، ومواقع المدن الحالية

والمدن القديمة والقرى والكفور ، وكذلك مواقع التقاط المياه الأخرى ، ويجرى النيل ابتداء من شلال أسوان حتى للبحر المتوسط ، وقد تأسس هذا النيل على ملاحظات ملكية . وأخيرا فقد أكد العلماء على فحص كل المنتجات الطبيعية أو على الأقل ، على فحص الظواهر بصفة الأهمية أو غير المعروفة لنا من الحيوان والنبات والمعادن .

ولقد شئت نتائج هذه الأبحاث المختلفة حول التاريخ الطبيعى وجغرافية مصر ، وحول عصورها القديمة ، وحالتها الراهنة ، فى مؤلف واحد ، أنى لئلا كان الهدف من هذه الموسوعة التى سيعمل سحاه حكومة فرنسا على إمتاع أوروبا بها هو أن تقدم معرفة دقيقة ومتميزة عن مصر ، يفضح بذلك الطغمر الحقيقية التى تقضى عليها دراسة طبيعية وأدبية وسياسية لواءة من أهم مناطق المعصورة وأكثرها جلبا للفتنة .

لقد تمتعت مصر ، خلال سلسلة طويلة من القرون ، بحكومات ثوية ومتنوعة ، وكثرت كل القوانين والمعادن العلمية والتقاليد الأسرية والأخلاقية تسهم كلها فى نفس الغاية ، كما تأسست على معرفة بتقاليد الأسس ، وعلى مبادئ راسخة للنظام العدالة ، نقتت فى كل القلوب .

أما الدين ، الذى كان متوحدا مع دراسة الظواهر الطبيعية ، فليس كان عقلا وطبيعيا فى وقت معا ، ولما كان يكشف لبعض العقول الحكيمة من المبادئ المجردة للأخلاق ، فقد كان يقدم هذه المبادئ الى الجميع فى أشكالها المعسومة ، لقد كان ينظم الأحداث والأمكر ، ويحتوى الناس فى حزم ، ويمير المؤسسات المدنية دما من سلطة مستقرة .

كانت الحكومة ملكية ، وتنهض على قوانين مريقة ومفيدة ، ولقد حول القوم الأمثلة التى تقدمها المبادئ بالمة الحكمة الى عادات لا مسيل الى تغييرها .

وكان المصريون يقدمسون بصفة خاصة تمضية العربال باعتبارها متبع كل الفضائل العلية والحاسة ، وباعتبارها كذلك أكثر الميول الطبيعية عدالة ونفعا ، وكثروا يجاهدون فى تخليد تكرى أجدادهم عن طريق إقامة سروح رائمة تقاوم الفناء ، أما الروح الأسرية فقد مضت الى أبعد حد ، ويمكن القول بقها قد جعلت من كل الأجيال لجيلا معسرة . وكانت تنهى

مخاطر البطالة والفراغ من طريق إدامة الاحتفالات والاميلاد ، وكذلك من طريق القيام بأعمال ضخمة تستهدف الصُّلح العلم . وكثفت الزراعة مزدهرة ، كما كثفت الفنون المتطورة تصبُّ جهود الصناعة ، وكان المعدد الأكبر من الناس يراعون ، يدافع ديني ، يبديء الصحة العامة ، التي اهتموا اليها بعمل خبرة طويلة .

لما عبرة الفنون الجميلة بعد إخطت خطوات أوسع من ذلك بكثير ، لكنها كانت تخضع لقواعد ثابتة ، وكان العبارة طليعها الوقور والمتسامي ، كما كان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت والملك ، يطبع الخوف من الآلهة في النفوس ، ويوحى بالورع والامعجب . وكان يحتفظ داخل المعبد بمسائل الملوك وكبار القوم ، كما كان يحتفظ هناك بالحوادث العساسة واستقرارات السماء ، وكان ينقش فوق هذه المنشآت المشهد المتبع لدورات النجوم . ولا زالت هذه النقوش باقية حتى اليوم ، وسوف تستخدم — هذه — عند دراسة تاريخ مصر في الاستدلال على الفترات التي لا زالت مجهولة حتى اليوم ، من هذا التاريخ .

وكان يسكن آسيا في نفس تلك الوقت ، لم توبة مضت أمجادها القديمة الى زوايا النسيان ، وكان العقل الشرقي قد ارتقى لحد توصيل معه الى الاعتقاد في وحدانية الله وإلى مبادئ الأخلاق السلبية ، وكان يراقب سناء الكلدانيين رهبان تكونوا في مدرسة المصريين ، وكثفت العلاقات الأساسية للهندسة والفلك قد اكتشفت ، وأوشك الناس ان يعرفوا النظام الحقيقي للكون ، كما كانوا قد اقبلوا خرائط جغرافية ، وتمهدوا فيلس حجم الكوكب ، كما كثفت المدن المومرة تزدان بها انتعجه عبقريه الفنون الطبيعية التي كثت تحف من المعادن والالوان وكل المواد الطبيعية خلبات لها . وكثت هناك علاقات بين مختلف شعوب الشرق وبخاصة بين شعوب الهند وفارس ومصر ، وكان موضوع هذه العلاقات هو الدين ، والطوم ، والصكوبة ، والتجسرة .

وفي ذلك الوقت كثت تنعص أوروبا ، وهي اليوم بالمة الرقى ، القوانين والتقاليد الراسخة ، وان كثت اضاء الفنون قد بدأت تنفطر في الغرب . كثت المسند الأثرورية(*) قد تأسست ، وقببت المستعمرات المصرية

(*) نسبة الى اثروريا التي كثت تقع قديما غرب إيطاليا .

والتيينية الى الأفريق فكرة مؤسسات ونظمة جديدة ، وحصلت العمارة والتحت على مجامعها وأساطلها من طيبة ومفيس ثم قلمت بعد ذلك بفقرات نظم الاعجاب ، وتشكل الدين من مبادئ خليفة ومخططة في نفس الوقت بالبيولوجيا المصرية ، وبعد ان قلم خيال المؤرخين والشعراء بجعل هذه الافكار القديمة ، لم يعد بمقدور المرء ان يكتشف مجهول واحد يحز على الفهم ، وفي اليونان احتفى الشعر ، مطم البشرية الأول ، بالمفائل والأبطال والآلهة ، وجلبت مصرية هوميروس الشهرة الى ليونتها ، لمبرقت يوميض خالد ، واسبحت مطبا للحكم والشعوب .

لقد جاء الوقت الذي لم يعد ينبغي على مصر فيه ان تعلم الأمم المنافسة والتي تزايدت قوتها سرعيا ، وبدلت مصر تقاسي من ولوج الحاديات الأجنبية اليها ، كما بدأت تمحل عن المبادئ الأسسية المسقاة في المملكة ، استند وقت طويل واضطر الخرافة تحيط بالدين والعلم ، واصبح الفرس ، وهم اكثر عددا واكثر مهارة في فن الحرب ، والذين تبرسوا بثورات عسكرية كبيرة ، سادة لهذه البلاد قبل العصر المسيحي بنحو ستة قرون ، ونهبت المدن الرئيسية ، وتركت نهبا للفران ، وسقطت أسر الملوك في السبي ، وغربت لو بمرت العوليات وصروح الأدب ، وعيشا بحلول المصريين ان يخلصوا من سيطرة بشعة ، لكن مجهوداتهم الطويلة هذه قد رادتهم شقاء على شقاء .

وفي نفس هذا الوقت ، كانت روما تزد ثور عظمتها ، وتنهبا للسيطرة على العالم ، كفت قد استعمرت دينها وتلقدها من الإثوريين والأفريق ، وقد دافع الأخيرون دفاعا مجيدا عن استقلالهم ضد جيوش لا تعد ولا تحصى ، وكانت لهم عندئذ سلطات عديدة مع مصر ، وراي العديد من نكساتهم هذه البلاد ، وان لم يشرعوا فيها الا تحليما متقوصا ، لأن الدين والقوانين والعلم قد خربت ربما بشكل تام .

ومنذ هذا الغزو الأخير ، ظلت مصر تحتلى على الدوام من السيطرة الأجنبية ، فدانت على التوالي للوك الفرس ، والبطالة ، والظلماء الأول لافسحس ، ثم لاباطرة بينظطة ، والظلماء (المسلمين) الأول ثم لظلماء القاهرة ولسلاطين المماليك ولسلاطين العثمانيين . وهكذا نجد تاريخ مصر ، بدءا من الفرس وحتى الحملة الفرنسية ينقسم الى ثلثي فترات ، طول كل واحدة منها يبلغ نحو ثلاثة قرون .

وبعد ان استطاعت اليونان الحرة ان تمسك محاولات الفرس ، نادى الاسكندر بعض محاربيه لفتح آسيا ، وتمهد الاسكندر ، وهو الذى لم تكن مواهبه السياسية اقل شهرة من نجاحاته العسكرية ان يقدم امتيازات للامم البعيدة (فى امبراطوريته المترامية) وان يؤسس مدنا حتى اقصى العالم . ويمكننا القول بأنه قد اكتشف المحيط الهندى ، وادرك ما للملاحة والتجارة من أهمية ، كما اختار الاسكندرية لتكون مركزا للاتصالات التى اراد لها ان تقوم بين القسوم .

وبعد موت هذا الرجل العظيم ، ظلت مصر خلفسعة لثلاثين ، وظلت مواطنها تظن ان منتهى الجزيرة العربية والهند واكثرها غلوا ، كما امتدت سلاسلها الى اسواق افريقيا ، وامت ، عن طريق تجارة بالغة الاتساع ، ثراء بانخا للوكها ، وجاءت المتاحف الهولندية لتزين العاصمة الجديدة ، وظهرت الفنون من جديد فى وطنها القديم ، وان كانت تعد على نحو ما علما حديثا ، ذلك انه لم يعد يأتيا من المذهب المصرى (فى الفن) الا ذكرى باهنة ، ومع ذلك فقد بقيت الحفلات والاصحبات ، كما ظل استخدام العسكسريا ، وان كان استخداما ناقصا ، لكن الجهل والخرافات المنفرة كانت قد انحلت بنوع الفلسفة المصرية ، ويكاد يثمر المرء منها على بعض آثار منسية فى سرانيب المصايد ، لقد انطلقت الى الأبد سلسلة العلوم والفنون .

ولم يكن بمقدور مصر ان تفلت من المرامي الطموح لروما ، وهكذا عانى آخر سلالة البطالمة من نفس التفسر المفسرك الذى كتب على كثير من الملوك ، ولقد اثيرت هذه البلاد بحكمة ، ووقفت الى الامم تغزات مؤمنة كل من الزراعة والملاحة والصناعة . كان كل شيء يساهم فى دعم مكانة هذا الاقليم الحديد (من انظمة الامبراطورية الرومانية) ، خصوصية ارغها ، وتجارة الهند ، وبقايا الازدهار القديم ، والعلاقات مع الجزيرة العربية والحشة ، وظل الناس ينظرون الى الاسكندرية لوقت طويل باعتبارها العاصمة الثانية للامبراطورية .

ومن بين كل فنون الاغريق ، كانت العمارة هى اكثر الفنون ملامة لسيادة العالم (الجدد) ، ولقد استثمرها الرومان فى الافراض المتصلة

بالمصالح العلم ، وكذلك لتخليد ذكرى انتصاراتهم ، ولكي يضاعفوا في انتظار الأمم من الشهادات (المصوبة) الدائمة التي تذكر بالقوة التي اخضعتهم . أما المسرح المصري فقد سما بلفكرهم ، وحملهم على ان يعمدوا منشآت أكثر ربحية ، وحين استوحوا هذه الطرز القديمة ، فقد حرصوا على ان يجمعوا الى نبل التصميمات ورحلتها ، تلك القرعة التي كانت تميز الأعمال الأهرقية .

وكنى لالفاء الوثنية الزره الهائل في مصر ، فحرمت الأنسجيات ، وهجرت المعبد أو حطمت ، وأوشك أن يحو خيط الروحانيات والأساطير الوائدة لذكرى البدا المقدس ، فلم تبق منه سوى ظلال باعثة جاءت سلطة الإباطرة في محوها مع كل مناصر الديانة القديمة . وبئذ أصبح هذا البلد انطيا رومانيا ، أخذ يفقد عددا هائلا من المنشآت المتحونة ، فنقلت الى أوربا قبائل وأهجار منقوشة ، ومسلات تينة نحتت من حجر واحد كانت تنسبها الى مدن طيبة وميليس والأكندرية ، ولرغمت في جدران روما والقسطنطينية مسلات كان المزارعة فيها يخفى قد انقلبوا تبيدا لأهلهم ، وأعمال كهذه ، فريدة وغير قابلة للتقليد ، لجديرة حقا بأن تزين مواسم الصالح .

ثم انتقلت مصر ، التي لم يعرف الإبطرة الروم لا ان يسوسوها ولا ان يدافعوا عنها ، الى سيطرة المسلمين ، قبل ذلك كانت السلطة الرومية (✱) قد أخذت تلفظ أنفاسها وكل مكان ، وهكذا كانت قد تهافت بالفعل تلك الأساليب التي جعلت بالضرورة بقاءهم هذه الإمبراطورية ، وهكذا يمكن لبعض من القبائل العربية نصف المتحضرة ان تسولى على أجمل أقاليم الشرقي .

ومع ذلك فإن الانتصارات السريعة للمسلمين الأول لا ينبغي لها أن تعانر مطلقا بالحملة العسكرية والسياسية لروما ، كما أنها تخطف من الفزوات المتتالية بين الأمم الشمالية . ان الرومان لم ينتصروا فقط بفعل

(✱) استخدمت كلمة رومي ورومية ترجمة لكلمة Romain, Romaine عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، واستخدمت ترجمة للنفس الكلمة روماني ورومانية عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية بشكائها القديم . (المرفج) .

قوة السلاح ، إذ هم يدينون بجزء كبير من نجاحاتهم لمبادئ في الحكم كانوا يشعرونها بثبات جدير بالاعجاب ، أنهم لم يكتفوا بالخضاع الشعوب ، فقد يمنحونهم الإدارة العامة ، كما كانوا يجمعون هذه الشعوب — على نحو ما — ترضى أصولها بفعل التعبير المتأخر للدين والمبادئ واللغة والقوانين .

أما البرابرة الذين دمروا أوربا ، تاركين لوطاتهم اللطيفة معيا وراء أجواء أكثر لطفاً ، ومدن قرية زاهرة ، فقد تعاقبوا دون نظام ، ويدون غرض آخر سوى سلب المحبوبين ، وحيث لم يكن لدى هؤلاء على الإطلاق مؤسسات راسخة ، فذهبهم لم يحتفظوا إلا ببعض عاداتهم واتبعوا سلوكهم ، وانتهى بهم الأمر أن تمثلوا الثقافة والتقاليد واللغتين التي وجدوها مستقرة في مناطق أقاليمهم الحديثة ، وعلى العكس من ذلك كانت للحرب عادات وأفكار أكثر رسوخاً ، وكانت معهم رواسخ مشوشة مختلطة وغرامية من ديانات الشرق القديمة ، وحيث أنهم كانوا على اقتناع تام بأن ما يعرفونه هو الصحيح والنافع ، فقد لفظوا في البداية عادات وعقائد الشعوب المغلوبة ، ولم تكن لدى محمد لا النية في تأسيس إمبراطورية ولا المرامي السياسية التي نسبها إليه كتاب كثيرون (١) ، ولأنه لم يحدد مطلقاً تلك الاتصالات الهائلة التي سيحوها خلفاؤه فإنه لم يترك لهم أي شكل أو أي مذهب للحكم (كذا !) ، وكان شغله في كل جهاده أن يتصدر قبيلته (١) وأن يعلن من شأنها فوق شأن القبائل المنافسة لها (١١) ، وحين أكسبته نجاحاته الأولى شجاعة فقد بدأ يثرى رجاله بسلب القرى المجاورة ، لم تكن له مطلقاً معرفة الأمم المنخفضة ، وكان ينظر إليها بامتنعها أمسا من المشركين أو المحدثين ، ولقد ربط بين مواطنيه من طريق تفكيرهم بمعتقدات كانت مقدسة فيما مضى ، ثم مضى من الحملة إلى الحواشي (١٢) ، ومع ذلك فقد استخدم كتابه (القرآن ١) ، وهو يضم مدداً من المبادئ النافعة ومدداً أكبر بكثير من أفكار تستعصى على الفهم (كذا !) وعلمية من أي معنى (١١) وتفتقد

(١) بدءاً من هنا نجد الكاتب يعبر بوضوح عن أفكار لا تستحق التناضح مطلقاً ، فهي ليست سوى أصداً الروح للروح التي تنف وراءها والتي بدرت منه في بداية مقالته والتي لفتنا إليها للنظر في حينها . (المترجم) .

(٢) هذه ترجمة مخفلة للفظ المستعمل ، ولم نجد من اللائق بتقديم الترجمة الصحيحة للفظ ، وواضح للقارئ مدى جمل الكتب بالإسلام ومدى تحامله كذلك أيضاً عن غير معرفة عميقة أو حتى كتابية . (المترجم) .

الى الترابط فيما بينها (١) ، استخدمه قاعدة يتجمع حولها اتباعه ٢ ومنحهم بذلك اسما ، وهذا وصالحا بمشتركين .

وحيث لم تعد تدم السلطة الرومانية لا بلس القوة ولا حكمة المستعمرين ولا بفضل الجود ولا ثبات العادات لو ثبتت السياسة والدين ، فقد كثر من الميسور ان تنزو كل اقليةها مشقة شبه بقو حشة ، لو شكت منذ قرون عديدة ان تستكمل عند حدود الامبراطورية ، وجاء العرب الذين يمكن ان نطلق عليهم اسم *Les Scythes* (٢) القادمين من الجنوب ، جاءوا للاستيلاء في اقتسام هذه الغنية الواسعة ، ولقد فعل هؤلاء الرجال الجهلاء ، وان كانوا يقاتلون لولي بأس ، ومترسبين على مواجهة الصليب ، والذين هم كذلك لقراء نهمون للاسب ، فطوا ما كان يمكن ان يقطعوا الجربان لو كانوا في نفس موضعهم بل ولربما على نحو اسرع من ذلك (٣) . ولم يكن اقل من ذلك سهولة على هؤلاء العرب ، ان يتوغلوا في بلدان آسييا الاخرى ، ذلك ان الفرس ، الذين زعمتهم انشقاقاتهم الخامسة ، وهروبهم الخارجية لم يعد بمقدورهم ان يدافعوا عن اتساعهم ضد اشد اعدائهم ضلما (٤) . ومع ذلك علم هذا الكتاب المقدس نفسه (القرآن) ، على مر الزمن ، هو الذي سيحدث من ازدهار عيوتهم (١) في حين كان هو السبب الاول في اتحادهم ومن ثم نجاحهم . ولو ان كان لدى العرب ، مثليا كان

(٢) من الشعوب البربرية القديمة ، وكثفوا في محظهم رعاة اعدوا من شمال اوربا وآسيا .

(٣) يشير المؤلف هنا الى ثلاثة من الشعوب الجرمانية هي على الترتيب اللوط *Goths* وقد احتل فريق منهم جنوب شرق اوربا لما الجزء الذي بقى منهم في غرب اوربا فقد غزوا الامبراطورية الرومانية عام ٤١٠ ، ثم الى *Gépides* وكثفوا مستقرين في دالماتيا حيث استسلمهم اللومبارديون في القرن السادس ، ثم اللومبارديون *Lombards* ، وكثفوا بقبولهم فيما بين الالب ونهر الودر ، ثم غزوا ايطاليا في القرن السادس واستولوا عليها دولة قوية انتصر آخر ملوكها *Diofer* على فرلان عام ١٧٧٤ . (المخرج) .

(٤) سوف يظل المؤلف يقوم من المشاطات التاريخية ما يستحق حقا بالمعقول ، فانصر الذي احزته العرب ، ثم المسلمون بعد ذلك ليمل الحروب الصليبية ، يعود الى صليبيت في صفوف الخصم وليس الى ايجليبيت فيهم ، ولكن حتى هذه الفكرة المخلوطة نفسها لا تثبت ان تقع في تناقضات من صنع المؤلف (المخرج) .

لشعوب أوروبا ، تلك الميزة التي لا تقدر بثمن ، ميزة الحصول على حياة محبذة للمدون وللبحار الفلاسفة (كذا) (١) لكنوا قد انزوا وطوروا كل مروج الفلسفة ، ولقد ظهروا في البداية حائزين مهذبين ، وقفلوا قفزات واسعة في مجالات الشعر والمعمورة والطب والهندسة والطبعميت والفلك ، ولقد احتفظوا ونقلوا اليها عددا كبيرا من المؤلفات الحادثة كلن من شأنها ان تجلب اضاءة المعرفة الى أوروبا ، لكن الديانة الاسلامية لا تهيب مطلقا بمثل هذا التطور الروحي والعقلي (١) . وهكذا أصبح محتسا على العرب اما ان ينكسوا من دينهم واما ان يمعنوا الى جهالة اجدادهم (كذا) وركل وضوح (١) فهم يجهلون بشكل خلس من الحكم ، وكل ما يستخدم في تأسيس ودعم الامبراطوريات ، فعلى البربر الذين احتلوا معهم وماتوا من سوء استخدامهم للسلطة لم يستطيعوا بعد اعتنائهم الاسلام الا ان يزدروا هم ايضا الفنون والعلوم والصناعة وكل اختراعات الغرب (١) .

لقد فحمت مصر المسيحية ندمها بنفسها . بعد ان كانت قد مزقتها الانتفاضات الدينية لوقت طويل ، لتعطل تحت سطوة الخلفاء الاول ، واقدست بذلك نفس المصير الذي جرى على كل الولايات الاسلامية . هكذا تخلى الاكباط من الروم حين استدموا الفارزى ، لتكهم سقطوا بعد ذلك في الهوان والاذلال ، وتناقصت اعدادهم الى حد كبير ، ولقد حدث في بداية هذا التطور ان دمرت حملة المسلمين القدر المشئول من الثروات الادبية الذي كان لا يزال باقيا بالاستكدرية ، فالكذب التي كل البطالة قد جمعوها في هذه المدينة او جلبوها من كتب ملوك برجام Bergame (١) كانت قد هلكت في الجزء الاكبر منها لثناء حملات قيصر وخلفائه ، كما ان هروب المنفى من كل صنف والتي كانت تتجدد طيلة مسحة قرون ، وسط هروب مستمرة او اضطرابات يغضى اليها الجسدل الثيوقراطى ، كان كل ذلك قد اتى على مستودعات معارف العصور القديمة ، ومستودعات اطفالها كذلك (١) .

(١) مدينة في آسيا الصغرى وكانت بها مكتبة شهيرة .

(١) مينا في الجزء الثالث من الترجمة العربية ، في الدراسة الخاصة بمدينة الاسكدرية كيف ان الكثير من الاوربيين لتقسم لايقرون فكرة هرق العرب لمكتبة الاسكدرية (المترجم) .

ولقد استشرعت مصر اثر الأساليب التي تقسم ابراطورية العرب منذ
 نفاستها ، فلم تتردد مطلقا في ان تصبح ولاية مستقلة . وليسى الخلفاء
 المسلمون بالمسلمين عاصمة لهم في مدينة القاهرة التي كانوا قد بنوها وزيروها
 ببعض المنشآت المحلية ، لكن دولتهم قد دالت على يد صلاح الدين الشهير
 الذي كانت أعماله الباهرة بمثابة نذير لأوروبا ، والذي حكم مصر وسوريا
 لمدة طويلة ، وقد تسبب هذا التطور في حدوث حركات تبرد وفي انتقابات ،
 وظهت تغيرات هائلة في الممارست الدينية وفي نظم الحكم ، لكن قيام دولة
 المماليك وضع نهاية لهذه الأسرة الحاكمة (الأيوبيين) ، منذ وقت طويل
 كان الخلفاء والحكام يجهنون بهمة للدفاع عن دولهم ، وبهمة حماية
 انفسهم الى رجال وجنود اغراب ، تنحى اسولهم الى غرب آسيا ، ولقد
 اساء رؤساء هذه الفرق العسكرية ، الذين دفعوا بلا روية لاحتلال المراكز
 العليا في الدولة ، وتحت تعلات مختلفة ، ليمتدلم سلطة سادتهم ، واصبحوا
 (في النهاية) مستقلين ، ان لحدانا من هذا النوع هي التي اسبعت احد
 الملاحم الهزلة لتاريخ الشعوب الاسيوية ، كما ان التمرد الذي اودى بحياة
 آخر خلفاء صلاح الدين كان له حويع في أوروبا ، لقد كمن الامراء الصليبيون
 شهودا عليه ، ومع ذلك فقد كانت هناك ، في مصر ، الحداث مفاطة طيلة
 اربعة قرون خلت ، وظلت هذه البلاد الجميلة ، بعد انتهاء الأيوبيين ،
 خلفسة لعبيد عسكريين ، ولدوا لعيا بين بحر قزوين والبحر الأسود .
 ويكفنا القول بأن حكومة الامراء المماليك لم تكن لا وراثية ولا انتخابية ،
 لعى بعض الأحيان ، كان المولد يضع انسلقا با في مركز الصدارة ، ومع ذلك
 فقد كان قائل الأمير هو في معظم الأحيان خليفة ، وكان هناك عسك من
 الثورات او لحداث التمرد تماثل عدد اليهود (التي تعاقبت على مصر) ،
 وكان هناك كثيرون يتصارمون على السلطة ، في نفس الوقت ويهدمونها
 لانفسهم في سوريا وفي القاهرة أو في الصعيد ، ولقد حكم بعض رؤساء هذه
 الفوضى بتألق ، وحين استولوا على سوريا نزلوا كبرياء المخول ، وقصروا
 (الأيوبيين) ، وحملوا اسلحتهم للظفرة الى اليمن وجزيرة قبرص وأرجينيا ،
 لكننا لا نلحظ في كل هذه الاحداث سوى ملامح الجراة ، والرغبة في الثار ،
 والمخاطلة والجهالة والطموح القوي ، ومع ذلك غلبت باستقامتها ان نمكر
 ان الدين الاسلامي ، ان لم يكن قد خلف بن الآم وحقان هذه الأيام ، لقد
 ولد في نفوسهم الفسيفة بعض المشاعر الانسانية ، ولوحي لكل من الحكام
 والرحية بأعمال مشرمة .

ومن بين كل الأساليب التي عكزت صفو فلسطين ومصر ، لا نجد سبيها أكثر تأثيراً من حملات الأوربيين ضد هذه البلاد ، ومع ذلك فإن هذه الحملات ذاتمة الصمت ، والتي هزت طوال قرنين كل أيم الغرب ، لم تحقق أيأ من النتائج التي كلفت هذه الأمم فرغب فيها ، ولقد سببت الكثير من الاضطرابات التي استمرت لزمن طويل ، وأن كلفت في نفس الوقت قد شجعت مغرية التجارة ، ووسعت أفاق الرؤية وشاملت من عمليات الصناعة والملاحة ، وأدت في دول معيدة إلى سقوط النظم والحكومات الانتاعية حين دعمت من سلطة الملك ومن الحريات المدنية ، في نفس الوقت الذي أعلنت فيه من المكثفة السياسية لروبا إلى درجة لم تستطع أن تتوازن عندها .

ولقد حدث أن استولى ملكة النمسا مارس - دون جدوى - على صباط ، وعندئذ وأصلوا زحفهم في وقت غير جوات ، لقد حصرهم المسلمون بين ترع رائدة من النيل ، وحيث قد اضطروا للتسليم لقد تغلوا من انتصارهم ، وبعد ثلاثين عاماً من ذلك أدت نفس الأخطاء إلى نفس النتائج بسببة آلاما أكبر ، فلقد قاد لويس التاسع ، شرف مصره ، والذي مارس على رعاه ، بل وعلى أعدائه ، السلطة الطبيعية التي تمنحها الفضائل الكبرى ، قاد مستين ألف مقاتل إلى شفاف النيل . كان قد اجتاح المتوسط مع ١٨٠٠ سفينة ، وكان تحت إمرته سفوة أبناء فرنسا ، وبعد أن استولى على صباط بوقت طويل ، بدأ يتوغل إلى أمبق الدلفا ، فحاصره بالمبايك في معسكره حيث انتشرت الأمراض المهلكة ، وقطعوا اتصالاته مع السواحل ، وعندها بعد الملك كل أمل لقد أبر بالاتسحاب ، لكنه لم يستطع تنفيذ ، وكان بقية الفرنسيين على وشك أن يهلكوا والسلاح في أيديهم ، حين أعلن أحد الأبطال وسط المخبئة ، أما من طغاه نفسه ، وأما لأنه قد تلقى أمراً بذلك ، أنه لم يعد بالإمكان انقاد حياة الملك إلا بالاستسلام للناسر ، ثم سقط في الأمر الملك نفسه ، وهو الذي لم يشأ مطلقاً أن يدع مؤخرة جيشه فرسة في يد أعدائه ، ويعرف الجميع بأية عظمة عسكرية شرف هذا الملك أسره (١) ، وبعد ذلك انقضى رجاله ، وقسم ديباط مدية لنفسه ثم أهر إلى عكا بفلسطين .

في هذه الأوقات كانت الأمم الأوربية تصلوى بالكاد مع الأمم الآسيوية ولم تكن قد اكتسبت بعد مطلقاً هذا الطوق في القوة الذي يميزها اليوم ، والذي نتج من تقدم كل الفنون ، أما عادات وسلوكات الحرب فكانت تكون هي نفسها ، وهي منا وهناك غير تلة ، وهكذا كفت الشعوب التي وهبتها

الطبيعة شجاعة تمز على الخضاع ، والتي كفت تتمتع بميزة الحياة في ظل
 نظلم المفضل ، تافرة بالضرورة ان تزود من نفسها بنتاج موق لرهسا
 هي (١) ، ولذلك ابغوا جيوشا لا حصر لها ، وان كانت مضطربة ، كان
 للغرب يبعدها بلا انقطاع على الرغم من عقده ملايين عديدة من ابنائه ، لكن
 الاحوال الخاصة بالامم قد تغيرت منذ القرن السادس عشر ، تطور البعض
 منها نظم الحكم المدني ، والتكتيك العسكري ، وتعدبوا في من استخدام
 الخسفية وتكوين وصيافة وقيادة الجيوش ، لكن الشرعيين ، على العكس من
 ذلك ، قد اهلوا كل الاختراعات التي تسهم في نجاح الحروب او هي لم تتقدم
 في هذا الفصل الا لدى بلاء الضيق : هكذا كانت سطوة المعارف ونفوذ
 وقوة العادات العسكرية والفنون ، لحد ان نفس هذه البلدان التي صحت
 شعوبها لمدة قرنين من الزمان جهود كل اوربا مجتمة ، لم يعد بمقدورها
 اليوم ان يدافع حكامها الحاليين ضد جيش واحد من جيوشنا ، ولحد ان
 ممتلكات هؤلاء الحكام في هذه البلدان نفسها لم يعد لها من ضمان سوى
 المعاهدات وسوى التلغيمات القلبية والمخيلة بين امم الغرب الكبرى .

لم يعد يحكم مصر منذ بداية القرن السادس عشر ملوك مستقلون ،
 فقد استولى عليها المماليك بعد أربعة وستين عاما من استيلائهم على
 القسطنطينية .

كان سليم الأول ، والد السلطان ذائع الصيت سليمان الثاني ، قد
 امضى العرش بواسطة الانكليزيين ، كان قهردهم هو الذي منحه العرش ،
 وحافظ عليه بقتله لوالده ، وبعد ذلك لبر باعدام اخوته قبل ان يتصدي
 لفسادهم الواسعة في آسيا ، ولم يتردد مطلقا في تهديد مارس ومصر
 وسوريا ، وسرعان ما استولى على القطرين الآخرين الذين كانوا خاضعين
 لحكم سلاطين المماليك ، ولم يكن هؤلاء يتمتعون الا بسلطة غير اكيدة ، كما
 كانوا بالكاد يستطعون الدفاع عن انفسهم ضد هجمات سفلى سبلهم .
 خاض سليم معهم معركةين لولاها في حلب ، حيث عقد السلطان قنصوة
 النوري حياته ، اما في المعركة القلبية فكان خليفته طومان باي هو الذي عقد
 حياته على مسافة قريبة من القاهرة . لم تكن القوات العثمانية كثيرة العدد
 لحد كبير ، وكذلك لم يكن المماليك قد تجهزوا بعد استخدام البنادق وسلم آخر
 سلاطينهم الى القنارى وشنت تحت احد ابواب المدينة . وجميع عدد كبيرين
 من المماليك وقبحوا او اتى بهم في القنار ، ولم تلبث الاسكندرية ان استسلمت ،

وإبتلات الشعوب المجاورة رعباً ، وجاء شريف مكة ليقيم الهدايا الى سليم الذى أعلن نفسه حليفاً ورئيساً وراثياً للإسلام ، مؤكداً بذلك أرائقه فى أن يجمع الى القوة العسكرية السلطة الدينية ، كما أرسل الشتاء اسماعيل الصفوى الى القاهرة سفارة بلذخة مسمياً وراء السلام .

لكن موت سليم أوقف مسار انتصاراته ، وساهم سليمان ، ابنه ، كثيراً ، سواء بحروبه أو سياساته ، فى ازدياد نفوذ المماليك ، فخصص سنوات عديدة لتنظيم الحكم الداخلى فى ولاياته ، ولجأ لأوامر صخرة منه ، وضعت الأنظمة الخاصة بمصر والتي لا تزال حتى اليوم تستخدم فى الإدارة الكلية لهذه الدلد . ومع ذلك فإن هذه الأنظمة تسبب فى بعض الأحيان الى سليم ، الذى يصح القول بأنه لم يساهم فيها على الإطلاق ، ذلك ان سليمان قد اتفق وقتاً قصيراً فى مصر خصمه كله للحرب هناك ، وعندما عاد الى القسطنطينية لم تكن تشغله الا استعداداته ضد فارس ووسط أوروبا ، كان يفكر فى تدمير بغداد ، ولم يتوقف مطلقاً عند وضع الأنظمة وتنظيم الجرى فى مصر ، ولقد نشرت وثيقة التسليم الذى أبرمها المماليك معه ، لكن قصاصة الورق هذه لا يمكن أن تعوز أى قدر من الثقة ، لكل ما هو جدير بالملاحظة فى سلوكه السياسى هو تفوضه مع شريف مكة ، وكذا الحرص الذى أبداه فى أن يصحب معه الى القسطنطينية خليفة المماليك .

ان سليم الذى حصل على الاسم اللاتى بكل من هو يشع لفظ ، والذي أرسل وزراءه الى التواك لأنهم لم يخدموا الى أية جهة من العالم ينبئ عليه أن يبحث ببجوشه ، والذي ظل يأمر طيلة سنوات عهده ، بإعدام استحقاقه وأعدائه دون تمييز ، والذي كان قاتلاً لوالده وأخوته ولشقيقته من أبناء أخوته ، كان يربط الروحانيات بالقسوة ، فليس هناك أى إمبراطور مثله آخر قد ذهب به للحقد ضد الأديان الأجنبية الى المدى الذى ذهب هو اليه ، كان على وشك أن يرفع رعاياه المسيحيين على اعتناق الإسلام ، لكن إمبراطورية التقليد سرعان ما عادت من جديد الى التسامح مع الديانات الأخرى ، وهو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الدول الإسلامية والذي لولاه لرهبنا ما كنا قد تكونت أطلاقاً . وقد أعطى سليم مصر ، كما أعطى لكل الولايات التي هزمتها حاكمية تنهض على دعائم من حليفت تركية ، لكن المسكر بدلوا يقرعون ، ويطلبون بزيادة رواتبهم ، ويذبحون رؤسائهم ، وسعى البلاطات الى الحصول على استقلال تام ، أما المماليك ، فعلى

الرغم من أنهم قد بقوا بأعداد شئيلة ، فقد حصلوا على ميزة كبرى استحوذوا من نكرى سلطتهم وسلطتهم ومن صلاتهم بالعربان وبالتوى المحلية . هذا هو أصل حالة القوصى التى تكونت عقب الحزو ، ولقد استمرت هذه الحالة حتى انصهرت شجامة البكوات وجرائهم على الإنكشاريين الذين اغضبتهم رشاوة الجنود ، ودعة حراس القلاع القاعدين .

وفى الوقت الذى كانت مصر وسوريا تخضعان ليه لسيادة جند ، كانت الحالة السيلسية ، وكانت تجارة النول تعرض لفلائل ولأسعة وغير متوقعة ، ولهست هناك فترة أخرى من التاريخ ذاخرة لهذا الحد بالأحداث الكبرى . كانت القوة العثمانية تنشر الفرع فى أوروبا وآسيا ، وكف الكثير من الدول الأوروبية من الاعتراف بسلطة الخير الأعظم فى روما ، وكان الإسلام يستشعر حاجة الى ثورة مبالغة ، وكلى هناك مذهب جديد ، رغب به الصوفيون ، يثقى البلدان الإسلامية ، وكانت فرنسا تستعجب الفنون الجميلة التى أضابت سماه ايطاليا ، وكانت فسماء فرانسوا الأول وسليمان وشارل نيل المصالح أجمع . وطورت أوروبا ، ممارسة لى النهاية مبريرها الخامسة ، انظمتها الفنية ، وجمعت ممالكها قوية من طريق اقامة جيوش ثلثة ، وقطع عن الطباعة وكذا المعارف البحرية والمعدات العسكرية لشواطئ البحر علىية من التقدم ، وتملقت كل العقول بالعجلات التى قام بها كولومبوس ولسكو دى جاما ولقد دهش البرتغاليون والأسبان عندما تلاقوا عند الطرف الأقصى لآسيا بعد أن كانوا قد خرجوا من موافيقهم متبعين اتجاهين متضادين . كانت الرغبة فى الاستيلاء على تجارة الشرق هى التى بعثت على هذه الاكتشافات ، وفى الواقع فقد كانت منتجات الهند الثمينة تتبع حتى ذلك الوقت طريقا حسيما معروفا . ولسخت مصر ، وهى التى كانت تتجمع فيها هذه المنتجات لم تنقلها الى معظم بلدان أوروبا وأفريقيا ، ذلك المميزات التى آلت اليها من مؤسس الاستكشافية ، كما اضرت حملات البرتغاليين بالبعث على وحسه الخصوص ، أولئك الذين لم يستطع مطلقا خلف قوى من لهم عبيدة أن يحطمهم ، والذين كانوا موحدين منذ كل مخلد الفتنرة ، لقد وجد هؤلاء منظمهم تضبط وقترى دونها رجعة ، ولخيرا فسرعان ما تقطعت الممرات التى كانت تربط ما بين عند بحر من الدول والمدن .

وفى الوقت نفسه كانت البحرية الطقة والطبوح للأوربيين تؤسس علاقات جديدة بين أشد مناطق العالم تباعدا ، واستخدموا — وهم جد

مشغولون باستعمال أدوات قوتهم البدنية - البرصلة للتوجه فوق أرض محبولة كما استخدموا الأسلحة القلرية لترويض شعوب هذه الأراضي ، وعثروا في مناجم أمريكا على المعادن النفيسة التي كانت لازمة لمعاملة المبادلات التجارية مع الشرق ، كما جلبوا من أمريكا سككا لزراعة الممتلكات الجديدة .

أما البنادقة ، فقد ظلوا - متحالفين في ذلك أولا مع المماليك ، وبعد ذلك مع الحكام العثمانيين . جهودا بالغة لتدمير المنشآت البرتغالية في البحر الشرقية ، وشرع الأولون في نيل الاحتشاد من دلتشيا إلى ضفاف النيل ، ثم من هناك إلى السويس لبناء أسطول ، وفي البداية أمكنهم أن يحصلوا على بعض الفوائد من جراء استخدام ضروب القوة هذه ، لكن هبأت السلاطين القوي وسليم وسليمان لم تتمكن من ابتلاع تقدم غزاة الهند ، وإذا ما اتفقا بالآ لآ جاء بتقارير بعض الرحالة ، فقد كانت مصر نفسها في هذه الفترة مهددة متطور أكثر تمارا بحيث لا يمكن أن يتلوه تطور آخر ، إذ يؤكد هؤلاء الرحالة أن حكم الحبشة المتحالفين مع بلاط لشبونة ، قد هزموا على تحويل مجرى النيل نحو البحر الأحمر ليجعلوا قاطعة إلى الأبد تلك الأراضي التي يغطيها النيل كل عام بفيضه السنوي . لقد كان في الواقع أمرا لا جدوى من وراءه أن يلجأ فاتح جوا وملقا وهرمز إلى هذا المشروع الخيالي ، فلقد خدم بلاده بطريقة أفضل عندما حطم كل الأساطيل المعادية . ولقد توغلت سفن الملك إسماعيل تحت قيادة البوكرك وخلفائه في البحر الأحمر حتى طرف الخليج ، بحيث لم تصد هناك نقطة واحدة على شواطئه المحيط الآسيوي الواسعة لا تعترف بالسيطرة البرتغالية .

ولقد اقتضى الأمر أن يكون ظهور هذه القوة المتعظمة لفترة قصيرة ، ومع ذلك فقد كان لظهورها هذا اثره الهائل على اقدار الغرب . وفي واقع الأمر ، فقد كان متحور العثمانيين - وقد أصبحوا سادة لمصر - أن يستحوطوا على ثروات الهند . وكان بوسع هذه التجارة أن تمنحهم أسطولا بحريا مثالا بالاضافة إلى كل المصادر التي تتطلبها سيطرة الجيوش الجديدة ، وفي ذلك الوقت ، كان يحكمهم حكم طموحون ، مقاتلون وسهيوون ، كانت أوروبا المنقسمة على نفسها تواجههم بمقلوبة غير مؤكدة ، ولو أن اكتشافات دى جاما لم تكن قد حرمتهم من مصادر زيادة القوة هذه ، لربما كقوا قد غزو الجزء الأكبر من الأتطلر المسيحية ، ولكنت هذه الدول ، بالغة الأزدهل

وبالغة القدس ، تش اليوم تحت سطوة أجنبية مهادية للمعارف الثلاثة ،
وللفنون الجبيلة على حد سواء .

وهكذا غاب بداية القرن السادس عشر تحدد بداية فترة مشنومة في
تاريخ مصر ، فلم تعد هذه الملائد - بعد أن هزمت ونهبت وعزلت عن سوريا ،
تشكل دولة مستقلة ، لقد تركت لشع الباشوات الطموح ثم سقطت بعد
ذلك في أنفاس أنواع الفوضى . كان يساهم في مهام الحكم هناك مجلس
أعلى يتكون من أهم رؤساء الفرق العسكرية ويرأسه نائب الملك (الباشا) ،
وعهد بإدارة وحكم الإقليم إلى كثير من النكوات المملوكية التبعية لهذا
المجلس (الديوان) والذين لم يكن يحق لهم أن يمارسوا سوى سلطة
محدودة . وقد حبلت توبلت المعصيان والغرور التي قام بها باشوات
مدهنون ، ديوان القسطنطينية على تحبيد نفوذ رؤساء الفرق العسكرية ،
وكان هؤلاء الاخيريون يكونون يهونهم من العبيد الأجانب ، الذين يعنون منذ
شبابهم الباكر على استعمال السلاح ، والذين كفوا في معظم الاحمال
يرتقون سلم الوظائف بالعة الاهمية . . وعند نحو منتصف القرن الأخير
(الثامن عشر) ، دفع ابراهيم ورشوان رئيسا الإنكشارية والعزب عددا
كبيرا من ممالئكمها إلى وظائف الصدارة ، وبعد أن وهذا بمصالحهما ،
استوليا على الحكم ، ولم يدم الباشا الا سلطة شكلية ، لكهما في واقع
الامر قد سلباه ممارسة السلطة الفعلية .

ومارس على بك ، الذي خرج من بيت ابراهيم ، سلطة السيادة باسم
حاكم العاصمة ، وبعد أن عمل على قتل أعدائه ومنافسيه ، وبعد أن دعم
قوته بالصعيد ، ميل على احتلال مدينة مكة ، ونصب عليها من جديد شريفا
السابق عبد الله ، وبس (على بك) لكي يحصل على اعتراف منه بأنه
سلطان مصر ، وشرع في أن يقيم في ميناء هذه المدينة منشأة ثلثة تتولى
تجارة الهند ، وبسببت مشروعات على بك ، تلك الحرب التي كان على
الهاب العالي أن يخوضها ضد الروسيا ، بالإضافة إلى التمرد الذي قسم
به الشيخ شاهر الذي كان معه حزب كبير في فلسطين ، فأرسل على بك
قوات إلى سوريا ، وأرغمت قواته بعد أن تحالفت مع قوات الشيخ شاهر
باشوات الاكوية المجبورة على الفرار . ولكن سرعان ما أدت نصائح اسماعيل
بك والغرائب الباب العالي إلى تزيق حزب على بك ففتش عليه محتوفا
محمد بك (أبو الذهب) الذي كان قائدا لجيشه في سوريا ، واستدار إلى

القاهرة ، وبعد أن مفاه سيده لبعض الوقت ، لمكن له (لمحمد بك) أن يكون لنفسه حزباً توتياً ، فمتنذ ترك السيد ليستقر بالعاصمة ، وانسحب على بك إلى حليفه الشيخ ضاهر ، والتمس التجديد من روسيا ، لكنه فقد توته قبل أن تنتهى المفاوضات ، فقد أسرع بالعودة إلى مصر بعد أن خلفته وأسلته الخيانات المحيطة به ، وخرج في إحدى المعارك التي خاضها في الصحابة ضد عبيد القذافي ، ثم مات بالقاهرة مثلاً بجروحه .

بدأ محمد بك أكثر خضوعاً لأوامر الباب العالي ، فحصل الفرائب ، وبعد أن حصل على لقب ملكاً زحف على سوريا ضد ذلك العربي ، الشيخ ضاهر العمر ، وأمكنه الاستيلاء على يافا ، ثم قاد جيوشه الظاهرة إلى عكا ، لكنه مات ميتة شبه فجائية من أثر أصبته بمرض معد ، وحلته في السلطان اثنين من مملوكيه هما إبراهيم ومراد . فظنوا سلوكه على بك (تجاه تركيا) ، واستثير ضدهما بعض الأعداء اسماعيل ... وهو الذي سبق له أن خان على بك - فكون مسببة قوية كفت كليلة لأرغام قريبه على ترك العاصمة . وبعد أن لجأ إلى الصعيد ، توصل إلى عقد صلح مع الكثيرين من بكوات الحزب المنتصر ، ولم يتوانوا بعد ذلك في تجريد اسماعيل من السلطة ، وعندئذ ارتكبوا من المظالم المتضاعفة ما جعلها أكثر بغضا من ذي قبل ، وتلبسا بكافة الوسائل المكيكة من الرضوخ لسلطة السلطان . فمتنذ كلف حسن ، قبطان يافا ، من قتل بلاط السلطان بمطابقة المتبردين ، فوصل إلى القاهرة مع قوات قليلة الصعيد ، وأقمى إبراهيم ومراد ، وأرسل إلى القسطنطينية جزءاً من الأسلاب التي حصل عليها إما من اتباع الأميرين الفارين وإما من الإقتارات التي ارتكبها ، وحين استمدته الحرب التي نشبت من جديد مع روسيا ، أنهى حملته بأن وهب التكوين جزءاً كبيراً من الصعيد ، لها حكومة القاهرة فقد تركها في يد اسماعيل بك ، لكن الأخير مات بالطاعون في عام ١٧٩١ ، حيث حصد الوباء في ربيع هذا العام تلك سكان القاهرة ، ونفى بتأثير هذا المرض معه على نصف المماليك المرتبطون باسماعيل ، وفقدت المدينة أكثر من ستين ألفاً من أبنائها في الفترة الواقعة ما بين السادس والتاسع من أبريل من نفس العام .

وهكذا استمد إبراهيم ومراد من جديد سلطتهما بالعاصمة ، على الرغم مما كلفت تفرق بينهما من حزنات قديمة ، فقد ربط بينهما الأسس بمصلحتهما المشتركة ، وانقسموا بعد ذلك في أعمال عنف جموح ، مزدريين

لوازم السلطان ، فترغبين شرائب جديدة من غير روية لو بصيرة ، وبهون
مبالاة بان ذلك على التجارة والزراعة والصناعة ، منتزعين الجيوب الثلاثة
لأقوات الفلاحين الذين هلك منهم عدد كبير بدون أن يتفقوا مونا من احد .

لم يكن التجار الأجانب مطلقا بمنأى عن هذه المظالم ، وتصرف
الفرنسيون بصفة خاصة لمظالم ومغارم ظلت طويلا بلا مدب ، وبدأ أن
البكوات قد ظنوا أن الحالة السياسية التي كفت تمر بها فرنسا عندئذ هي
مبسر لهذه الإهانات ، كما كانوا - لبياسيودوس - على ثقة بأن حكومتها الجديدة
أن تكون في وضع يسمح لها بأن تحصل على لبة ترضية من هذه الإهانات ،
وفي واقع الامر ، على الومسود التي أرسلت في هذا المسدد أني بلاط
الاستطيطية كفت مذهبة الجدوى ، فهذه الثقة (تركيا) لم تبذل أى جهد
لعقاب طغاة مصر أو لبيع ملوكهم العنيف الممادى لحلقها ، وتجددت
الإهانات والإهزات بما جلب الخراب ليهوتنا التجارية .

لم يكن من المستطاع مطلقا أن ندع هؤلاء ، بدون أن نسلم ثلاثة
المناسبة لنا (إنجلترا) مميزات كفت لها في معاهدات بالعة القدم ، وبدون
أن نقدم مثالا على ضعف (من حاسنا) قد يندو لثلا بالنسبة لكل المؤسسات
الفرنسية . لقد كان الامر في يقتضى منا اما أن نرضى عن طوبى خاطر أن
نستبعد من تجارة الشرق ، ونصلح في المظالم التي تلحق بنا ، وأما أن
نجد أمنا في مفرسة قوتنا الذاتية .

كفت هذه هي الظروف التي دعت الفرنسيين الى المجيء الى مصر ،
وهكذا أصبحت هذه البلاد مسرحا لواحدة من أهم الأحداث الكبرى في التاريخ
الحديث . ونضاف الى الدوافع التي انتهينا من فكرها ، تلك المزايا التي يعد
بتحقيقها قيلم مؤسسة ثبنة لنا في المشرق ، مع الأمل في توافق يتم مع
الباب العالي ما أن نبرمه بمصالحه الحقيقية ، مع تقديم كل الضمانات
التي يمكن له أن يطلبها .

وفي الواقع ، فقد كان يمكن لاسهام عمون لوريا ، بالإضافة الى قيلم
حكومة منظمة في مصر أن يغير على وجه السرعة من الاوضاع هناك .
كلن يمكن للزراعة اذا ما رعتها ادارة مستقيمة أن تحرز هناك ، في وقت
تصور ، ثمرات هائلة ، فمن المعروفة أن خصوبة ارض مصر ، تتجدد من
لقاء ذاتها بفعل الفيضانات السنوية ، في حين تشغل أعمال الزراعة

بصفة أساسية على نوبت الري ، لكن توزيع المياه اليوم غير منظم وغير تلم ، فقد شفت الترع التي تجلب هذه المياه دون تبصر أو حق ، وهكذا تصل المياه في مناطق بعضها بوفرة تزد من الحاجة في الوقت الذي تظل فيه مناطق أخرى تتعرض لجفاف طويل ، وفي مناطق ثالثة يؤدي حفر روافد انشئت من غير نرو الى اضعاف مقاومة مياه النيل من مصبه عند جيهه النهر ، ويكون من أثر ذلك ان تتحول مجاة الى مصلحت رملية لا نفع فيها اراض شينة كانت توفر حتى ذلك الوقت لفعل الحاصلات ، ولا يتم رفع مياه الري هناك الا بواسطة بعض المكينات الخسنة ، واثر هذه بالغ الفسالة بالغ التواضع ، ومن طريق تعرض الحيوان او بالاهرى الانسان ذاته لصعوبات ومتاعب متزايدة . وحيث ان المقاطعات المختلفة ، وسط ظروف الاضطرابات السياسية ، لم تكن تخضع لادارة موحدة ، لقد كان يحدث في معظم الاحيان ان يتصرف القوم في المياه بدون رؤية ، وهكذا كانت تحول مجرى المياه ، وتختلف الترع وتفتح الجسور بدون مسند من أي حق ، وهكذا إما لم يستطع القوم ان ينفذوا ما حبثهم به الطبيعة ، واستخدموا كل حذقهم ليهكول عليها كل منهم لصالحه ، بالتبادل ، كان يمكن تحاشي هذه الفوضى من طريق توزيع للمياه اكثر انظما ، وهو الأمر الذي كان سيؤدي في وقت ما بمصلحة الأرض القابلة للزراعة ، وكذا خصوبتها . وقد يكون من الميسر ان نروي الأمكن الأكثر ارتفاعا بوضع نظام انفسل لعمل الحيوان ، بل ربما بدون اللجوء لميلها على الإطلاق ، وذلك اما بأن نرصد (الترع والقنوات) من المياه المقلية ولما باللجوء الى القوى الميكانيكية التي تنج من الرياح أو من مجرى النهر ذاته .

وبخلاف القمح والأرز ، ويختلف نباتات المحاصيل والفواكه من كل نوع ، والتي تنجحها مصر بوفرة ، فمن الممكن الحصول على فوائد أكبر من ذلك بكثير من طريق زراعة قصب السكر والكتان والفيلة ، كما يمكن لهذه البلاد ان تمد أوروبا بالنطرون الذي يتكون من تلقاء نفسه فوق منطح أرضها ، وكذلك بأجمل مواد الصباغة والمطارة والمطور ببالغ ضخمة ، وبالبن والطور القادمة من الجزيرة العربية ، وبالتبر (تراب الذهب) والمعادن وكل المواد التجارية الأخرى الواردة من أفريقيا . أما النباتات الوطنية ، بمعنى الكلمة فهي قليلة العدد ، وإن كانت هذه الأرض الضخيمة والتي تتسدرج حرارتها اللطيفة بشكل متدرج بدءا من البحر حتى حدود القوية يمكن ان

تدخل في عداد البسفين النسيجة القادرة على أن تستوعب وإن تحفظ
أمن ملتجأت العالم .

ذلك هي المزايا الطبيعية التي لمصر والتي لم يكن من المستطاع انفصالها
ولو بغسل سطوة خويلة لإدارة بلغة السود ، فلا يزال النفس هنالك
يستمتعون حتى اليوم بفروات الزراعة والصناعة والتجارة ، كما أن القاهرة ،
من جوانب كثيرة ، تعد مدينة ثرية ، ويبلغ عدد سكناها أكثر من ٢٥٠ ألف
نسمة ، كما تحتفظ بعلاقات متزايدة مع الجزيرة العربية وكل وسط أفريقيا ،
وكذلك مع تركيا وفرنسا والهند وأهم بلدان أوروبا . لقد حولت الاكتشافات
البرقائية طريق التجارة من الاسكندرية ، ومع ذلك فقد ظلت الاتصالات
مع الهند مستمرة إما عن طريق البحر الشرقية وإما عن طريق البر ، وهكذا
احتفظت مصر بكل عنصر مصلحتها القديمة ، كما ظلت هذه بطورا تعد بفردعها
جديد ، سوف ينمو بشكل سريع لو أن قد خصبتها بحفيرة أوروبا وحسن
إدارة حكومة عاقلة وقادرة .

أما من خواص الطقس ، فقد لا يكون بالإمكان أن نعرف بها إلا من
طريق عرض بمفصل لا يتفق مطلقا مع طبيعة هذه الخدمة ، لكننا نكتفي هنا
بالقول بأن ملامحة هذه البلاد (للصحة) لا يمكن أن نوسع موضع ارتياب ،
ويحاطق مع هذه النتيجة كل تاريخ مصر ، وكذا التجربة الحاضرة للجيش
الفرنسي (هناك) ، كما تتفق مع الوضع الراهن لعدد السكان . حيث
يعيش نحو مليونين وثلاثمائة ألف شخص ، منتشرين على مساحة ١٨٠٠
مربع مرسخ .

وكان من بين أعظم المنجزات التي يمكن لاحتلال مصر أن يحققها هو
ما يمثل في ربط الخليج العربي (البحر الأحمر) بالبحر الأبيض المتوسط
من طريق قناة ملاحية ، وهو مشروع نال شهرة واسعة منذ زمن طويل ،
وكان يمكن له اليوم أن يتحقق بالتقدير . وفي الواقع ، مهما يكن المستوى
المتبادل للمسئوب للبحرين ، ومهما تكن النتائج التي تم التوصل إليها من
طريق ما سبق القيام به من أعمال لتصل بنفس هذا المشروع ، فمثل من
المسور على المهتمين الأوروبيين أن يقيموا مثل هذا الاتصال ولن يحافظوا
عليه ، ويمكن القول بأن هذا الاتصال سوف يقرب الأقطار الشرقية بصفة
التي تقع على ضفاف البحر المتوسط ، ويعون أن تخير كلية من طرق التجارة

العالية ، فإن هذا الاتصال سوف يؤثر على علاقات أوروبا بالهند والجزيرة العربية وأفريقيا ، ويمكن لنا أن نقول هذه النتائج (النتيجة) بتلك التعميمات التي ثبتت ، في اتجاه مضاد ، بعد الحملات البحرية للبرتغاليين .

ومن جهة أخرى ، فإن مصر ، التي تتجمع فيها كما لو كان من تلقاء نفسها ثروات الزراعة وثروات التجارة ، مزايا أخرى لا يمكن أن تتوفر مطلقا في أية مستعمرة أخرى بعيدة ، إذ لا يصلها من فرنسا سوى بحر قليل الاتساع ، تبدو الملاحة فيه كما لو كانت حكرًا لهذه القوة ولحلفائها الطبيعيين ، كما أن مصر تدخل ضمن نطاق نظم الدفاع المشترك من الجزر المجاورة لإيطاليا ولترك التي تقع بالبحر الأبيض المتوسط والأرض ، بالإضافة إلى أنها لا تتعرض مطلقا لغزو غير متوقع ، ولا يمكن أن تهاجمها القوات هائلة بحيث أنه لو لم تكن تلك القوة الأوروبية (فرنسا) التي احتلت مصر منذ وقت طويل ، أن تنزل على علاقة صعبة بالباب العالي ، وأن تحصن هذه المنشأة (المستعمرة) لكان يحدوها الاحتفاظ بها . وبالإضافة إلى كل هذا ، فإن هذه البلاد توفر للفرنسيين ميزة بظفة الأهمية في حصولهم على موقع متوسط ، فعين يجد الفرنسيون أنفسهم على أبواب آسيا عسيفو بإمكانهم من هناك أن يمدحوا على الدول ثروفت وممتلكات أمة معادية (إنجلترا) ، وأن يقتلوا القلائل ، بل والحروب ، إلى نفس مصادر ثرائها .

وسوف تحقق العلاقات التي سرعان ما ستقشأ بين مصر (مستعمرة فرنسية) وبين المؤسسات الثابتة في الجزيرة العربية وفرنسا والهندستان وأفريقيا مزيدا من المبادلات التجارية مما يعود بأكثر الفوائد على فرنسا والشعوب التي تترس الملاحة في البحر المتوسط ، وبذلك نستطيع أن نحرف تلك المهنة الراحة التي يدين لها البنادقة بثرواتهم والتي منحهم لوقت طويل قوات بحرية تفوق القوى البحرية لمعظم دول الجنوب ، في حين تولد كل ذلك على الفور حين تغيرت مقادير مصر .

وفي الواقع فقد كانت تجارة الهند مع الدول الأخرى تتم مباشرة بالمعادن النفيسة ، وهذه صلات مستمرة منذ وقت لا تحصى الذاكرة ، ولقد كُنْ على كل الدول الثرية أن تدفع هذه الضريبة عندما كانت تدفع ثمنًا لمنتجات الشرق كمية هائلة من الذهب وبخاصة الفضة ، التي كانت تتكسب هناك دون سبيل لاستعادتها . ومع ذلك فقد استطاع البنادقة - عينا يبدو - أن يقيموا مع

هذه البلدان ملاقات من طبيعة مختلفة ، وكانت مصر ، وقد أصبحت بالنسبة لهم المستودع الرئيسي لثروات العالم أجمع ، تحصل ، بالإضافة الى الاختلاف والمعادن النافعة ، على أشياء من منتجات مصانع هذه البلاد نفسها ، وكان البنادقة يستجلبون منها السلع الثمينة التي تنتجها الهند والجزيرة العربية وسوريا وفارس ، ثم يوزعونها على كل أنحاء أوروبا .

وهكذا لم تعد مصر بعيدة بما تملكه تلك ، بل هي نافعة بما يتلقونها كذلك . ومن المؤكد أن بوسعنا أن نصنع في هذه المستعمرة الأثمنة النفيسة ، والأجوانح العامة والخمور بالإضافة الى منتجات صناعية متنوعة ، وقد ننقل إليها الحديد والصلب ، وعلى وجه الخصوص الخشب الحاصل بالشام المسكن وبناء السفن . ونستطيع بشكل جزئي من طريق هذه المبادلات أن نحصل على الفن مطع الهند ، ونفتقود بها ، كذلك ، عن طريق الاتصالات مباشرة ، ويخالف المواني التي منفتح أو ستشأ على شواطئ البحر الأحمر ، فقد نرى تيلم منشآت أخرى في مخطف مناطق هذا الطريق التجاري المؤدى للهند ، تجعل الملاحة أكثر يسرا وأكثر لمتا ، حيث تضاد هذه المنشآت الدعم بها بينها .

ولسوف نستطيع كذلك (لو تحقق كل ذلك) أن نسو الى اعتبارات أكثر عمومية وشيولا ، ولي نحسب النفوذ الذي قد تمارسه مستعمرة مرسية لها مثل هذا الموقع المناسب على ظروف وأحوال البلدان المجاورة ، وستكون الجزيرة العربية وسوريا من أوائل البلدان التي ستفيد من المزايا التي ستحقق من وراء ذلك ، وسوف تلتحق التجارة هناك ومنذ البداية بأش ظل مجهولا حتى هذه اللحظة ، وسوف تعرف الزراعة والصناعة ازدهارا جديدا ، وقد نستطيع عند تحالفت بعيدة ودائمة مع فارس وممالك آسيا الأخرى ، وسوف نتوغل من كل حقب الى داخل قارة افريقيا الواسعة ، وسوف نكتشف الأنهر التي تجري داخلها وكذا الجبال ومناجم الحديد والذهب التي تحتويها بوفرة ، وفي النهاية فسوف يكون بمقدورنا أن نأمل في أن حكومة مصر ستعمل جاهدة على أن يسود الأمن والنظام على سواحل افريقيا الشمالية ، وذلك بجعلها السكان هناك يخضعون لإدارة أكثر اتساقية وأكثر حكمة ، متفقد سوف يكون البحر المتوسط ، للأبد ، وقد أصبح محرا مرسيا ، في هي من غارات القراصنة .

من كل ذلك نرى كيف يختلف انشاء هذه المستعمرة الجديدة على طرف
بحر شيق ومجاور ، وعلى واحدة من أحمل بقاع العالم ، من هذه المغامرات
البعيدة التي تسمى لخلق منشآت ماهرة التكاليف ، معرفة لكل الاحتمالات
والشكوك التي تجلبها الحرب ، والتي لا يمكن الاحتفاظ بها حتى في وقت
السلام دون أن نخاف من ضحايا المناخ غير الصحي (هناك) ، ولن نكون
بحاجة على الإطلاق لن ننتقل الى هناك (الى مصر اذا أصبحت بمستعمرة
فرنسية) مزارعين اجانب باعتبارهم عبيدا ، بل اننا لا بعيدا عن ممارسة
أي حنف ضد الأهالي هناك ، قد نعيد كل ما سلبه أيام حكومتهم رعايا
ومستبدة .

وعلى هذا فقد كان المشروع الذي نعرض له الآن يستحق في ولتسع
الامر التأمل من جانب رجل دولة ، يلبس في هذا المشروع إلا ما هو ناسع
ومجيد ، كما أنه يتناسب لطفنا ، ويضمن للشعوب المجاورة بمقايير أفضل ،
وسيهود بين اللوائد السياسية التي ستحقق لوطننا والمصالح الحقيقية
للأمم الأخرى ، وهو امر لا يقدر بثمن .

لكن الأحوال في أوروبا لم تسمح لمصر مطلقا بأن تحصل على المعطيات
التي قضت اليها ، ومع ذلك فإن ذكرى الحملة الفرنسية لم تضي مطلقا دون
أن تؤتي ثمارها ، وسوف تعرف حكومة القمطنطينية كل المزايا التي كان
يمتدورها أن تحصل عليها لو أنها أعطت لهذا الإقليم إدارة أفضل ، كما
ستبين بكل سهولة أية مرام لو نوايا كانت ترمى اليها تلك القوى الأوروبية
التي سعت لإعادة تثبيت سلطة المالك ، فلا يمكن أن تكون هناك وسيلة
أكثر شيئا لحرمان مصر من الميزات الخاصة بها إلا بإعادتها الى طياتها الأولى ،
أولئك الذين يتسولوا عدائهم للمصالح الملم بعداوتهم للسلطة الشرعية ،
وأخيرا فإن البلاط العثماني سوف يفترق نصائح بعيدة من السفر الذي نشره
اليوم ، وسيكون بمتصوره أن يلجأ الى غنون الغرب ، وأن يستخلص من هذه
الموسوعة نفسها القدر الأكبر من النتائج التي تؤكد له ما قدمته جيوشنا من
إسهامات ، وأن يضع موضع التطبيق تلك النوايا الطيبة التي كتبت فرنسا
قد كونتها .

وإذا سمعنا الآن الى تمييز الوسائل التي يمتلكها أكثر من غيرها أن
تسهم في نجاح هذه الأهداف ، فليسوف ندرك كم مهما أن نمهد السبل

لتدعيم العلوم والفنون ، ألا يمكن في واقع الأمر أن تكون هناك ظروف أخرى أكثر إلحاحاً من تلك لتطبيق العلوم والفنون ، كان من الضروري أن نثرى الزراعة وأن نتوسع فيها ولن يدرس مجرى النهر وأن تقطع الزرعة لحطة شاملة ، وأن تعمل على اتصال البحريين ولن تؤم الملاحه في الخليج العربي ، ولن تنشأ الترسّلات البحرية والمواني . . . كان ينبغي أن ترتب طقساً يكاد يكون مجهولاً (بالنسبة لما في أوروبا) وأن تمتد بحضارتنا في مجال التاريخ الطبيعي والجغرافيا لتشمل البلدان المجاورة وأن نحير اللججرة ، ونطوّر المنسوجات والصباغة وطرق استغلال النطرون وتصنيع السكر وبلح النوشادر والنيلة ، وبالمختصر لن نخلق صناعة جديدة وأن نضع في خدمتها كل اكتشافات أوروبا .

وهكذا لقد أثارت الفكرة التي فيهاها بأن نصحب من جديد إلى وادي النيل العلوم التي نبيت بعيداً عنه لوقت طويل ، عروفاً علماً وعالمياً ، كانت هذه الفكرة تستوحى الإبداع القديسة لطيفة ومفلس واستقرار كهات اللين والعلم والأدب الإغريقية في عاصمة خلفاء الإسكندر ، كما عرفت بشكل أفضل مادة ومدى نطاق المشروع الذي كما على وشك تحقيقه . وبعبارة من أن نقبل في العلوم تمييزاً لا يتفق مطلقاً مع تسلسل المهارات بل أن أولئك الذين يستمتعون بها للإسهام في انقصاراتهم لن ينظروا إليها (العلوم) إلا باعتبارها تنتمي جميعاً إلى نفس العائلة . لقد أراد القاعد أن نستدرج في وقت واحد كل مروع الآداب والفلسفة ولجأ إلى العلوم الرياضية التي تشكل مبادئ دقيقة في كل المجالات بالعلم الأهمية ، كما لجأ إلى العلوم الفيزيائية التي تهدف إلى دراسة ووصف الطبيعة ، كما التجأ إلى الفنون ذات الفوائد المباشرة والمقصوسة ، وكذلك إلى تلك التي لا تقل عن تلك قيمة والتي تساهم في تألق الحكومات وتعدا مثلما هاج الأرواح والمثول ، وكان يمكن لمصر في وقت تصير بفضل هذه الإدارة الحكيمة ، لا أن تصبح مستعمرة فرنسية فقط ، بل بشكل ما أقليماً فرنسياً ولن تقدم لسكانها الجدد صورة من وطنهم هم .

لقد كانت تلك هي الاعتبارات التي أوحى بمشروع لعلمة هيئة علمية في عاصمة البلاد التي ذهبت جيوشنا لأخضاعها . ولقد أنشئنا للفن من طكر مختلف عصور تاريخ مصر بالاضافة إلى الوقائع التي سمعت الحيلة الفرنسية كما استعرضنا المرامي والأهداف التي تمهدها بقتضائها هذه الحيلة وأمرناها ،

ويؤمّننى الآن إن اتحم الى القاريء الظروف الاساسية لهذا الحدث الكبير .

كان الفرنسيون الذين وجب عليهم أن يسهموا فى هذه الحملة قد حشدوا فى نقاط مختلفة على سواحل البحر المتوسط ، لكنهم كانوا مجهولون الهدف الذى سيقانون من اجل تحقيقه ، وانذروا فى هذا الحموس تحديات بالغة التعارض . لكن الموقف العسكري وحماية الشبلي ، بالاضافة الى عدم اليقين ، كانت تجعل القلوب تخفق بشدة ، وان كان ظهور ملتح ايطاليا قد أوحى بقلعة نامية وعالية ، كان اسمه وحده كفيلا بأن يثبت الأملى كثنها بالمثل قد تحققت .

وبعد أن خرج الأسطول الفرنسى من خليج طولون ، وانضم الى العرقى التى تشكلت فى موانئ ايطاليا ، موتف ثور رؤيته للحملة التى كانت حكومتها قد أعلنت نفسها منذ وقت طويل فى حالة عداء معنا ، لكن هذه الجزيرة التى هوجمت بشدة لم تد الا بقولمة ضمنية لا طائل من ورائها ، وسرعان ما أذعنّت واقفيت بها حابية فرنسية . وكانت ثمانية أيام بالكاد قد انقضت منذ ظهرت سفننا أبلم مالملة ، ثم تقدم هذا الأسطول الضخم سريعا نحو مصر . وهين وصلنا الى ساحل الاسكندرية ، كان البحر يضطرب بقوة وعنف مما جعل نفولنا أمرا عسيرا وخطرا ، ومع ذلك فقد كان لئلى تأخير يمكن أن يصبح كلفة مينة ، وسرعان ما تم الانزال ، وزحلت لركة من القنات الفرنسية على الاسكندرية قبل انتهاء الليل ، وكان القائد العلم نفسه على رأس الصفوف ، وأبدى السكان مقاومة حلبية وعنيدة ، ولم نستطع عندئذ اتقاعهم بأن هذه الحرب موجهة فقط ضد المالك وليس ضد رعايا السلطان المخلصين ، لكن أية عتبة لم تكن لتوقف حبة عواضا ، فاخترق جنوبنا المدينة واستولوا عليها فومنفذ مارس المنتصر سلطة وصبة ، وقدم الى الأهلى السلام والأمن ، واستقبل بفرح رسل القبائل البدوية ، أو الـ Scénites الذين يسكنون الصحراوات المجاورة .

وفى هذه الاثناء كان هناك أسطول محاد يحبر مختلف مناطق البحر المتوسط ، وظهر أمام ميناء طولون بعد أن كنا قد غادرناها ثم ظهر فى مالملة بعد رحيلنا وبعد ذلك ظهر فى الاسكندرية قبل مجيئنا ، ثم ابتعد ليمسح الخليج فى نفس الوقت الذى كان الجيش الفرنسى فيه يفتقر الصحراء متقدما نحو العاصمة .

لقد جذبت الأحداث العسكرية التي أصبحت هذه البلاد عتقذ مسرحا لها ، انتباه العالم أجمع ، فقد انتشر خبرها على الفور في الشرق وأفريقيا ، وتملكت كل النفوس في أوروبا حالة من الترقب ، وأخذ الناس يرتبسون الأقمشة الملونة - ولقد لاذت إمارات الشجاعة والصبر المتضاعفة والتي مهزت هذه الحملات ، وكذا المحلطات التي كان الجيش الفرنسي يتعرض لها بدون انقطاع ، والمتاعيب التي لا سبيل إلى شرحها والتي ظل يواجهها ، وكفاءة القواد وتضحياتهم - لكل كل ذلك في فرنسا أعجبا ورفقا عابدين ، ولم يكن هناك شخص واحد لم تهزه جدة وحدائقة الظروف القوية المخيلة على إيجوانا أو هذا الأسهم غير المحط من حلق أحداث الحرب الباهرة في الاكتشافات الحائلة ، وبصفة خاصة هذه الأوضاع العسكرية والدينية والسياسية الكثيرة التي عرضت على القائد العالم مهمة أن يفرض وأن يحكم في نفس الوقت .

لا تسمح لنا طبيعة هذه المقدمة إلا بالإشارة إلى تسلسل هذه الأحداث ، ومن شأن التاريخ وحده أن يقصدي لها ، وهذه معروفة بكل لغار وأعتزان في مراسلات وروايات حيلتي مصر وسوريا ، ولكن وأوسع هذه الدراسات الخلاق ، وهو الذي كان أمينا بصفة مباشرة على أنكار وراسي القائد العام ، يتودد كل التحركات ويحدث كل الحفلات ، ويسهم بفخار ومظنة في كل النجاحات ، وهكذا اكتسبت سروح الشرف الفرنسي ، التي تولى بنفسه نقلها إلى الأجيال المقبلة ، مزيدا من الصدق والأصالة ومزيدا من التعلق في وقت واحد .

وما إن تم إخضاع الاسكندرية حتى توغل جيشنا في أمبيق مصر ، وأصبحت رشيد في حوزتنا ، وأخذت سفننا المسلحة تصعد النهر ، ويقدم تاريخ هذه الحملة سلسلة متوالية من التقدم السريع والمهرك والتجملات ، ولم يستطع أن يهبطه من الاندفاع الجصور لقواتنا لا لهيب الصحراء ولا نقص الدماء للمياه وللبؤن في منطقة قاطلة ومحمولة بالنسبة لنا ، لقد قضت العربات ، وخسر المملوك محركين نظاميتين ، وأصل مكان اللثة العمياء التي كانت لفيهم كل من الفزع والميلس . فتركوا القاهرة ، وهكذا كانت عشرة أيام كافيية كي تجسم قدر مصر ، لها مراد وإبراهيم فقد انفصل كل منهما من الآخر ، كما قد عددا سلطتهما لكن عداهما لنا قد استمر ، ولاذ أولهما ، وهو أكثر ميلا للقتال من زميله ، بالصعيد ، أما الثاني فقد اندفع

في مجالة نحو صحراوات سوريا ، وكان آخر عمل من أعمال القوة فلم به هو انتهائه لاحدى القوالب ، وجد الفرنسيون في اثره ، وأمكن للتقدم العلم نفسه ، مع بعض رجال من طلائع جيشه ، أن يلحق بماليك هذا البك الهارب ، لهاجمهم وشتت شملهم وارغمهم على الإسراع بالتقهقر بعيدا عن حدود شزة ، مندئذ علينا أن نسطولنا الذي كانت الأوامر قد صدرت اليه أما بغول ميناء الاسكندرية أو الانسحاب الى مشيق كبرفو ، وان كان قد نفذ الأوامر على نحو مخالف للفيلة ، قد هوجم للتو ، وتعلم بشكل شبيه في خليج أبي قير . واوحى هذه الانتكاسة غير المتوقعة ، والتي لم تزل من عزلة وشجاعة الفرنسيين ، لوحى لهم بعدم انكار ثباتنا وبمصرار شسبه أجماعى .

وفي الوقت الذى كان الفتح يبه مشغولا بأمر اصلاح الحكومة المدنية بالقاهرة ، تدجرت روح الصبيان في هذه المدينة ، لتسلح مسدد كبير من الناس ، ولقى كثير من الفرنسيين الذين غلبتهم الأحداث وهم في داخل بيوتهم أو في للهادين العامة ، حلقهم برصاص المتشددين ، لكن قوة السلاح أصليت استقرار النظام ، ولقى بعض الزعماء عقبا داسيا ، وتم العفو عن الألوف الجاهلة . ككت مصرحتى ذلك الوقت لم تعرف حقيقة سادتها الجدد. ثم أصبت في هذه المناسبة بتفوق قوتهم ، كما أدركت المدرس الذى لابد لها أن تستخلصه من تسلمهم ورائتهم ، وهكذا أضلت هذه الاضطرابات الدائمة مكافها لأمن دائم .

فجعت ثوائفا تعطل الساحل الشمالى ، وكل الأقاليم الداخلية ، وقد أمكن لبن ولصناعة حائتين أن يخلقا ، ربما بشكل بياض ، أمالا ومنتجلا خاصة بالذخايع العسكرية من البلاد . ككت هذه الانشغالات التى تتناسب مع نوع الحرب التى قدر علينا أن نخوضها تهدف الى التصدى للمشايخ الأولى للعدو ، وإلى توفير كافة المؤن والمواد التموينية التى تتطلبها تحركات الجيش .

بدأت مصر ، في النهاية ، وبعد أن تخلصت من طغاتها ، تتجشع بنعمة القوانين ، ومارست هذه القوانين هناك تحت رعاية الجيوش الفرنسية مسطوة لم تكن لها في المادة ، ودمى القادة الوطنيين لتولى الوظائف المدنية ، وعادوا للعلوم — بعد نفى طال أبده — لتزور مسقط رأسها وأخذت أهميتها

لتطوير وتجميل وطنها الأم ، وتوسعت الجغرافيا بتحقاقها لتشمل الموانئ والبحرات والسواحل ، وحدثت بنفحة مولع كل الامكن الهبة ، وقلبت مقاييسها على اساس الملاحظات الفلكية ، ودرست الانبياء حواس الطقس ، ومجرى النهر . ونظلم الرى ، وطبيعة التربة ، والحيوانات والمخدن والنباتات . اما الفنون الجميلة فقد عثرت على نتائجها القديمة ، وتاهبت للقل الى اوربا - بلاتة - هذه الانلر الحالدة لسبقية مصر . كمن لمة قائد لامع يطلع على كل هذه الامور بريق مجده الشففى ، وكل يشجع بحضوره كل الاكتشافات ، بل كان بالآخرى يحضى عليها ، واستوعبت عقلية الواسمة ، فى وقت مما ، وبسهولة لا تكاد تصفق ، مشاكل الحرب والسلمية وشئون القوانين والعلوم .

ولقد شرعنا تحت رعايته فى اجراء الابحث التى ننشر اليوم نتائجها ، وقد عاون فى هذه الابحث جميعا القادة والمهندسون والقباط الفرنسيون ، لقد ثبت فى بعض الاحيان تحت اشرافهم ، وكان الكثيرون منهم بقصصون لصلالح تقدم العلوم كل وقت الفراغ الذى امكن ان تتركه لهم الصلليات العسكرية . ولقد نشرت بالفعل دراسات بالفة الاهمية عن الجغرافيا الطبيعية للندلا ومن الوضع السلفى لمخطف طبقات السكان ، وكذلك من مجرى النيل وطبيعة التربة ، ووصف المصور القديمة . ولقد افندا من كل التسهيلات التى امكنا ان تعرض لنا كى مجنز وملاحظ البلاد التى احتلتها جيوشنا ، ولمكن لمة عملية اسططلاع عسكرية لقم الا ويسارع مضو او عدة اعضاء من الشعب الطمية المخطلة فى الانضمام اليها بعية التيلام ببعض كشوف مفيدة ، وكل العرفان المهلوعون يقرون من كل مكان تاركين المسرح الذى امتد على ما يلقونه به من دمار ، وكتوا بذلك بظون المكان لظك الجراة التى تستمضى على الهزيمة لواحد من المم قادة جيش الشرق ، قدر له ان يسهم بلخار ومحد فى الاتصلارات التى تمت فى سوريا والى غير (الجنرال مينو) ، والدى جعلت يده الرامية ، والحاضرة على الخوام ، الجزء الغربى من مصر ، يحظى بلبل لم يكن محتدا عليه . . كذلك أصبحت عمليات التفتيش على السواحل او الصحراوات الملوورة ، وكذا الحملات التى تنضى الى امكن معيدة ، وعمليات الزحف التى تتوم مها سرايانا ، والملاووعات او حتى المعارك التى تخوضها مع هذه للقلل الهامة ، او الاعمال الادارية . . أصبح ذلك كله مناسمة . بل واحيلا غلة ، للقيام ببحث حديد .

كما قد أحضرنا معنا من أوروبا كل الأدوات اللازمة للطباعة ، وجبعت هذه في القاهرة في منى كبير كفت تسهر على إدارته حملة نشطة متتوية ، وكان هذا الفن ، الذي كاد أن يكون مجهولا كلية من جانب الشرقيين ، يثير اهتمام كل المصريين ، وقد ساعد على مضاعفة عمليات الاتصال ، سواء فيما بين الفرنسيين أنفسهم ، أو بيننا وبين السكان ، كما سهل في نفس الوقت من نجاح الحملة ولتقدم العلوم .

ولقد وضعت الأنظمة بصفة الدقة في كل أجزاء الحكومة الداخلية ، وهكذا لم يقتصر الأمر على أن السكان لم يتعرضوا قط لعمليات الإهانة والإذلال التي تميز التجملات العسكرية في الشرق عادة ، بل لقد أهتمت بتأليفهم الدينية والمدنية . وعولبت ألفة أهلة أو سبب (وجه اليهم من جانب جنودنا) بتسوة مدوية ، وحل نظم محتفل للضرائب ، وزعها بعدالة بين طوائف السكان ، محل الإبتزازات والمظالم التي كفت تسرع من جانب ساداتهم القدامى . أما الدين والفرسية فكانا موضع تهجيل وتدنيس من جانب النصارى ، وهنئيت حينئذهما بنقله ، وتحقق لهم ما يريدون من قبل أن ينصحو عنه ، أما حق الملكية ، الذي كان يخرق أو ينكر على الدوام . فلم يمسسه سوء ، وسادت العدالة واستتب النظم في المدينة فلبنت المعاملات التجارية ، ولتحت الحكومة كل مصادر الإزدهار الزراعى ، وضمت بالخدمة الواجبة صيغة الترع التي تنقل مياه النهر والجسور التي توقف مجراها ، وافتتحت خطوط اتصال جديدة ، وعهد بإدارة هذه المشروعات الكبرى ، والتي سددت تكاليفها بكل زراعة ، إلى اثنين من خيرة كفاءتنا ، ونشرت الأسلحة الفرنسية الرائدة فقط لأعداء مصر ، الرعب والفزع بين مصابات لصوص الصحراوات ، وعقدت العدالة مع القوة حلما دائما .

لقد كان كل واحد من الفخريات السابقة التي مرت بها هذه البلاد مؤثرا لاهتمام نظم جديد من القهر ، ولم يكن الناس ، وهم الذين قد اعتادوا الأبرياء في سلطة المحكم الإحقه المطلق في السلب والإيذاء ، يستطيعون أن يتقبلوا أو يحفلوا أن مصر يمكن أن تعقبه مسعادة عامة ، وأن تكون له أغراض يمثل هذا التبل ، وتفتحت القلوب في النهاية للمعرفة ، وظهرت مشاعر جديدة لم يوح بها من قبل أى حكم من حكمهم ، ربطتهم بالحكومة الجديدة ، وإلى الآن ، لا يزال لاسم غرنسا سطوته في هذه البلاد ، وإن يكون في وسع أية أحداث أن تمحوه .

كان القائد العام يزنو ببصره منذ وقت طويل الى ريبط البحرين ، فلهذه الى السويس على طرف الخليج العربي ، واكتشف مع توجهه نحو الشمال ، ولغت نظره مراقبته الى آثار ترممة قديمة نفذها الملوك القدماء بهدف ريبط النيل بالبحر الأحمر ، وتبين آثارها لوقت طويل ، وبعد ذلك ببليل قليلة ، احرف ، وكان قد اقترب من الأرفس التي ترويهما مياه النيل ، على الطرف الآخر لهذه الترممة ، الى الشرق من بويطة القديمة (ب) ، فامر على الفور بتأخذ كافة الاجراءات الضرورية لتنفيذ المشروع الضخم الذي كان ينم عنه المنظر ، وعهد بالمهمة الى رجال ، كان بقدر جدارتهم الفيليا وحيلتهم ، ربطوا محارهم النظرية بكل محطات للتجربة وخبراتها .

كان لنفس هذه الرحلة كذاك ، على الرغم من قصر مديتها ، فحرص آخر ، بعد ام القائد العام بالمعروف بقعة على ميناء الخليج وسواحه وظروف الملاحة فيه . لقد كان يتفكر أمور الدفاع عن السويس ، وعمل الرسوم المتزايدة التي كانت مفروضة على التجارة ، وبذلك جعل تجارة البضائع أكثر ميسورة وأوفر أمنا ، كما أنشأ ملاقات ود ومصلحة مع عرب القبايل المجاورة .

ولم يتوان الجزء الإداري من مصر مطلقا ان يحرص من رتبة المليك ، كان مراد قد ألحجا الى هناك ، وتحالف مع نفس المليك الذين سبق له ان طردهم بالقتال والذين يوحد بينهم الآن وبينه خطر مشترك يهدد أقدارهم جميعها ، واستدعى مراد لتجنحه بن الشاطيء المقابل للبحر الأحمر مقابل من أبناء مكة وينبع ، وكذلك ذكرى سلطته لا تزال تخضع له أبناء الريف وسكان الصحراوات المجاورة ، جمع مراد كل هؤلاء ، وجهز الإمدادات ، وجبى من كل مكان ضرائب الحرب ، وبذلك ، لسواء كان هو الذي بدأ هجومه أو كان الفرنسيون هم الذين بدأوه ، فقد هزم وشرع في الفرار ، محتفظا على الدوام بجزء من قوته ، وحيث لا توجد بالصحراوات الأثرة طرق مجهولة بالنسبة له ، فصرعان ما ظهر من جديد ، على رأس قوات جديدة ، ولقد تغلب الضباط القادة الذين أوكلت إليهم ليجر هذه القضية الصعبة (اي هزيمة مراد) على كل المحاولات التي كانت تواجههم بكفاءة غير مختلة ، واستمروا

على نحو ما نفى وسائل عدوهم وعادته في مواجهة شئون المعيشة ،
ومرمان ما توقعوا على هذا النحو بسبب من جسرتهم وهتهم . بل وكذلك
بفصل معرفتهم بطبوغرافية مسرح القتال . وأخيرا اتقى المسالك من
الصيد ، ودفع البعض منهم ثلاث مراكب متواليات الى ما وراء شلال أسوان ،
وانسحب بعض آخر منهم الى الواحات التي تلتصقها غراغات شاسعة
وتحلقه من وادي النيل ، اما العربان فقد تحطموا أو تشتتوا ، ومسحت
الحدالة والسباحة تلقى الشعب وذعره ، وأثبت عمل النصر .

لما الحزول الذي عهد اليه منذ البداية بهمة احتلال الصعيد (ع) ،
ولن يدور هناك سلطة الماليك ، فقد خفف من ويلات الحروب بليارات
مقتضاه من الحكمة ومسو الروح ، كان يعيش من أجل أمل الوطن وشره ،
ومرمان ما وجب عليه أن يهرع الى سهول إيطاليا ، وأن يسمم بكنااته
وشهامته ، بل وبالتضحية بحياته نفسها ، في حدث خلقد ، كان له بالغ الأثر
على الموقف في أوروبا ، وحين انتهى بمحنة ومجد ، غوى ساحة المعركة ،
سجله المخوف ، فقد وجد في انفسار جيوشنا المكثفة على جهود المظلية ،
واضططت باتين انفسه الأخيرة مسجحت النصر ، وكان قد بث في جيش
الشرقي ، وفي قلوب سكان مصر شعورا عابا بالتملق والاعجاب به ، ولم تكن
لذكره أقل من حياته تبجيلا بفعل من يشامر الحزن المؤثرة من جانب أولئك
الذين كان قد حكمهم (في مصر) لو بفعل الآلام الجبلية التي سرت بين
الفرسيين .

هذه هي وثائق الحملة التي لمحت لنا بحراب مصر ، وفي خلالها اكتشفنا
هناك ذلك المجد الرائع في تقرييس القديمة ، كما اكتشفنا أكثر طيبة الجديرة
حقا بأشمار هوميروس ، بالانفساة الى بيوت الفراعنة ، الحكمة بمعنى
الكلمة ، ولقد توغلنا الى ما وراء الفتتين ، وفي هذه الجزيرة المقدسة ، التي
يعدو في حد ذاتها وكنتها مبنى قلام بذاته ، صرح شهيد المصريون على شرف
آلهة الفنون الجميلة . ولقد أخذ الجنود الفرنسيون الذين استخدمتهم الحرب
الى شلف النيل اعجابا بهذا العمل الرائع ، وتوقعوا كما لو كانت قد
شدهم الدفعة والاحترام ، وكان شاهدا على هذه الأحداث التي لن يلقى

بها تاريخ الفنون الجميلة مطلقا الى زوايا التجميل ، رجل ذوقا لا يمكن ان يقدرها الا واحد من نوعه ، وسنظل اعياله التي قدمت لاوروبا لأول مرة فكرة ثاية وصحيحة من آثار مصر تلت في كل المعصور انتباهها قويا ، لذ ان لها جمالها الذي لا يشع الا منها ، كما انها تتجاوز بكثير ما يمكن للمرء ان يتصوره من جهد ومقدرة رجل بمفرده (١) .

ولقد أحرز تطبيق النظريات الميكانيكية والكيميائية في القاهرة تقدما كبيرا ، وكذا قد جيمنا داخل نفس سور المني الكبير الذي خصص للعلوم كل العناصر والادوات التي يمكنها ان تساعد في تطور الصناعة ، وكان يدير هذه المؤسسة رئيس يدعم الاحترام ، فقدمته العلوم والوطن منذ عدة سنوات ، والذي جمع الى هياكله المتزعة من كل هدى كفاءة فحافة معطاء كانت فتتح له آمنا لم تكن مرغوة ، وكان بالفعل قد اثنى فرنسا بالكثير من الاختراعات ، وسر من ما منح مصر بعضا من فنون لوريا بظمة الاهمية ، فتمثلت بآليات هيدروليكية ، وصنع الصلب والاسلحة والاجواخ والادوات الرياضية والبصرية ، وقد قلبت هذه المصانع الكبيرة خلال فترة الحملة بتهينة الوب الانبياء التي كل من شاتها ان تسهم في نجاح الحرب وفي مباحج السلام ، ولم يتوان اهل البلاد مطلقا عن الاكفدة من المزايا التي حققتها هذه المنشآت فبدأوا ينتقلون الى مصانعهم ويطورون الوسائل التي كانوا محتادين على استخدامها ، كانوا يتعلمون باهتمام شديد منتجات المصانع الفرنسية ثم يذابون على تقليدها ، واعترافا منهم بصنوف التفوق المخطلة التي وجدها في الشكوى لقد خضعوا بيزيد من الثقة لسلطة الحكومة الجديدة الرامية ، وكان صنع البارود من عمل شعبة خاصة ، وحقق الشخص الذي مهد اليه بدارتها ، بتقييمه خفيكت بظمة الخطر - كل الآمال التي اتركها بممارله وكل خبرته الطويلة ، كان مجيع القاهرة يدير الأبحاث وكان الأشخاص المكونون له يضعون نصب اعينهم على الدوام مصالح الجيش والعرض على تقدم العلوم والفنون ، وكان يشجعهم في عملهم صداقة يفتلة ومعونة حقة من ضابط يتحلى باقبال واعظم الصناعات ، كانت تنتظره في ميلين سوريا مينة

مجسدة اثرات الاكسجين والاسي (H₂O) . كان نموذجا يكاد يستعصى على التطبيق في الزراعة والمخابرة والفصيلة ، كان كائنا ولد من اجل كل الفضائل والمواطف الكريمة ، وكان يسمى ذو تحصن الآلهة الخالصة ليحضر بقوة بالأم الآخرين ، ولم يبد أحد على الإطلاق مثلما أبداه هو من نوايا طيبة من اجل سمادة الوطن وتقدم العقل والفنون ، وقد أسهم في كل الإبداعات الطبية التي شرعنا نراها في تلك الوقت ، وقد شاء وغاء التاريخ لن ترتبط ذكره بالإنجازات التي كتبت ثمرة لهذه الإبداعات .

ومن بين الأمور الجديرة بأن تلتفت انتماء أوروبا — العلم بأننا تمكنا من أن نحدد بدقة الواحات الجغرافية ، ولقد أمطينا لهذا الإنجاز الكبير كل عناية منبهة ، كما لجأنا لكل الوسائل والطرق التي فطنت فتنه ، كما تأسس ذلك في جزء منه على ملاحظات فلكية تحدد موضع المدن والأماكن بالغة الأهمية ، ولقد شرعنا في هذه الأعمال ، التي ندين بها لوأهب متروسة بذلت أقصى ما في طاقاتها من حيلة مبرجوة وسط تمتعة العرب وفي داخل أقاليم مباداة لم نخضع لنا إلا منذ عهد جد قريب ، وكان خضوعها مألوفة على ذلك غير مؤكد ، وكنا نسطر في مرات كثيرة أن نستعمل الأسلحة بالادوات الحسابية ، وعلى نحو ما ، أن نصارع وأن نخضع الأرض التي جعلنا لمقياسها .

كانت مصر قد تخلصت من السسلطة التي كتبت بغيرها ، وكنا قد انتمصنا من الإهانات التي وجهت الى الأمة الفرنسية ، وكان لنا أن نأمل أن هذه الأحداث أن تشمل مطلقا الحرب بيننا وبين الإمبراطورية العثمانية ، وفي الواقع ، لمقد كانت هذه الولاية الجبيلة منذ وقت طويل مريسة مستخفة لبعض مبيد (مهايك) ينشعرون الاستقلال ، وكانوا يزعمون ، عن طريق أهانت مستمرة ، صاحب الجلالة السلطان ، بالاضافة الى ازدهارهم لجلال الشريعة والدين ، وكان اليقضا ، المفترض أنه مطاع من جنتهم — أسيرا لهم ، وشاهدا لا حول له على مخطاياتهم التي كتبت ثمر دوما دون عقاب ، ولما تمت السسلطة التي لا يتوان يتألمون عليها هي المكشاة التقليدية للجريمة والفساد ، وحين يتوصل واحد منهم ، أما بفعل السم وأما عن طريق الحديد والنار ، إلى تحرير كل لصاحب القيد عليه وكل منافسيه ، فإن يكون هذا النجاح

سوى اشارة على حصيان موجه ضد الباب العالي . كان اكثر هؤلاء خضوعا ينسارع في تمديد الضريبة الضئيلة التي تروها الباب (على مصر) . أما الآخرون غير مضمون سدادها بشكل صريح ، ولقد ارهقوا ببلقازاتهم ، الفجسرة الداخلية وتجارة اوربا والجزيرة العربية وأفريقيا ، كما ارهقوا الزراعة وكل الحرف الناعمة ، كما كفوا يمارسون على الشعب سلطة منفرة جامحة .

وقد يكون من الأوفق أن نقول أن الأسلحة الفرنسية قد خلصت مصر ، لا أنها قد هزمتها ، ولسوف تضي هذه الأرض الباقية ، والتي ظلت حتى ذلك الوقت خصيبة دون جدوى ، نحو حالة من الأزدحام السريع ، كما أن مال هذا التطور الذي لا يمكن أن تنزع منه سوى قوة أوربية واحدة (١) لم يكن لينعارض مطلقا مع مصالح الإمبراطورية العثمانية ، بل كان يمكن لهذه ، على العكس من ذلك ، أن تريد من مولدها ولت تدمر سلطتها في أفليين هابين (من أفليين) وكان المستظر من بلاط القسطنطينية أن يهدل أنهم حينئذ على رحابا له لكنهم عصاة متبرتون ، لم يكن سيفقد مصر وسوريا ، بل كان سيسترجعها على نحو ما كان ينبغي على هذا البلاط أن يرى في قيام مؤسسة (مستعمرة) تحت رعاية وحماية جيش قوى ، تعلمونه كل غنون أوربا ، أبرأ يمد كلا الدولتين بمزايا وأسماء ، ويوسعه أن يدمر سطوة الاسم العثماني في آسيا وأفريقيا ، لكن هذه الامتيازات لم تكن محل تقدير على الإطلاق ، كأن ضباط الإمبراطورية ، العاصرون على أدراك واستيعاب هذه الدوائع معزولين أو منفيين ، ولقد لعد الانتصار البحري الذي أحرز في أبي قير ، لدى هذه الحكومة ، الرأي الذي كلى لا يزال غير مؤكد ، فلامنت لنصالح اعداء فرنسا الذين لوحوا اليها بمحاليرهم الخاصة ، وسرعان ما انسلخت إلى حروبواي تحالف مضادين لنا .

كان قائد الحملة الفرنسية قد بذل أكبر الجهود ليقضي هذه القضية ، كان يدير أسلحته فقط ضد اعداء السلطان ، وعمل على توكيد الاحترام لاسم السلطان باعتباره الحاكم الشرعي (لمصر) ، كما رامى بكل منية المحبات والتقاليد الدينية والمسيحية ، كان جيشه يسلك في مصر باعتباره جيشا

معاونوا للباب ، ولم يسبق لهذه الولاية ان كانت محكومة بشكل امضيل ، ولا تتمتع بممارسة عباداتها على نحو ايسر ، ولم تكن من قبل مطلقا قد خضعت لحكم أكثر استعدادا للاعتراف بسلطة القسطنطينية ، لكنه بذلك بصره كان يسارع وحده ضد كل الحقيقت ، ولم تساعد السبلت في فرنسا نفسها الا بفروع في التفاوض متأخر وغير كاف ، وحس في هذه الظروف ان الأمر مرمون ما يحتم عليه ان يدافع عن بصر ضد قوات هائلة ، لذا لمقد قرحه على مشروع يتميز بجرأة غير مألوفة ، هو ان يتولى الهجوم المتوقع بان يتقل الحرب الى قلب سوريا نفسها .

كانت هذه البلاد تخضع في جزء منها لمسيطرة رجل كانت قساوته وغروره وخيالاته قد جعلت اسمه شهرا في كل الشرق ، لقد كان أحمد الجزار لوقت طويل عبدا في القاهرة ، حيث موبت كثيرا من حراء سرفاته المزلية ، بل لقد كلى يتميز بين الممالك انفسهم بخلافة وشراسة غير مألوفتين ، وكان قد خان على التوالي كلا من على بك والحروز والعرب وبلاد القسطنطينية ، كان منحن حكيم مسيدا ، وكان يقيم في عكا وهي بوليفيس القديسة Ptolemais . بدأ الجزار في الظاهر محتقا قسبة بكونت مصر ، وتقدم مخفيا في الحقيقة لموجات اكبر ، ليتقود الحملة التي كانت تدبر ضد الجيش الفرنسي ، وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الاستعدادات تهر كل آسيا الصغرى وسوريا ، عمل هذا الباشا منذ البداية على أن تحتل طلائع قواته مناطق الحدود ، لم يكن ليتفول مطلقا أن عليه ان يخوض هو نفسه حربا دفاعية ، وكان كل شيء ينبىء بان مصر توشك ان تتعرض لهجوم من طريق البحر ، في الوقت الذي تصبح فيه عمليات الانزال مكنت ، وكانت الخطوة تكفي في نفس الوقت بتسيير القوات التي تجمعت في سوريا ، وتلك التي يمكن أن يكون البكوات قد احتفظوا بها في الصعيد ، وحين بين للعقد العام ، وهو الذي سبق له ان اخترق مشروعات الطفاه ، انه ينبىء أن تضى مدة اشهر قبل ان يكون باستطاعة أعدائه الفيالبياني انزال للجنود ، قرر ان يحبل على وجه السرعة ، مع اثني عشر الفا من الرجال على سوريا وان يشتت القوات التي تجمعت هناك ، ثم يعود على الفور لىواجه الحملة التي كانت تتهدد السواحل . مثل هذا المشروع لم يكن ليتحقق الا على يد جيش مقدم ، متمرس على كل للتفصيل العسكرية ، وفي الواقع كان التاريخ الفصل لهذه الحملة يستطوع أن يقدم الكثير من الملاح التي لم يسبق لأحد ان تمنع بطلها

من الشرف والقيم الفرنسية . كان علينا ان نتوغل تحت سماء بلقبة الى ما وراء صحراء الشسعة ومجھولة ، وان نغزو بقعة بلدا اجنبيا تنود عنه قوتات متقوفة . كان ثمة لسطول انجليزى فى البحر ، وكان سكان المدن وكذا العربان الجوابون مسلحين شحنا ، لم يكن بهذه الأرض المغنية الا كل ما يناسبنا الصدا ، ولم يكن جنودنا يتقدمون على ان يخطوا فيها خطوة واحدة دون ان يلقوا مصاعب جديدة ، لكن ثمة لا تحولى كلفت تسمى بهم فوق كل المخاطر ، فاضخوا يتقدمون بسرعة فى الصحراء الشسعة التى تفصلهم عن سوريا ، واستسلم حصن الحريق ، ثم استسلمت غزة ، واستولينا بالقوة العنيفة على يافا لو Joppé القديمة ، واستقرنا فى ميناء حيفا ، وحلرنا فى هذه المناطق ، وفى مناطق اخرى متفرقة ، على ذخائر ، ومعدات قتال ، ويخازن حائلة ، ومؤنا من كل نوع .

كانت اول معركة من الجيش المعادى ، بطوفا المالك ، قد تكلست بالنيل الى هذا الجزء من سوريا ، ولغلت هذه القوات فى محسكراتها على غزة ، وظلت تتراجع متفحمة على الدوام ذركة فى ميلين القتال كل ما لديها من مدافع وكل معدات القتال التى كانت تطلبها حيلة مدبرة شد بصر . وفى النهاية شرع قادة الفرق التركية الذين لديهم الكثير من الفرسان فى الهجوم قواتهم الى قوتات حلفائهم ولى ان يحلوا على الفرنسيين وهم يهاجمون مدينة عسكا التى كان قد انسحب اليها ولاذ بها لصد الجزر ، لكن القائد للمسلم توفاهم كذلك ، ورأى ان من الضروري ان يلتقى معهم فى معركة حاسمة تسمى يندع بهم نحو دمشق ، وحين هوجم هؤلاء فى نفس الوقت فى مناطق بالفة البعد ، لم يستطيعوا مقاومة هذه الحركات الجسورة بل المتبورة وغرو المتوقمة ، ووجهوا أنفسهم ، قد انفصلوا عن محسكراتهم ، محرومين من كل مؤونتهم وشبه محاسرين من كل جانب ، وسقط الكثيرون منهم اسياء فى لردبولون او فى المعارك السابقة ، لبا الآخرون غدا لالوا بالقرار بالتمسك الأمان من طريق تقهر متصرع ذى جلبة ، كان الفرنسيون قد استولوا منذ البداية على كل الأماكن التى قد يلوذ بها العدو ، كما استعملنا من قلة عددهم بخفهم فى التحرك وسرعهم فى الزحف ، بحيث كان يبدو ان ليس ثمة نقطة فى الميدان الا وهم يتجمعون فيها ، وكانت النهاية للتظفرة (١) لهذه المعارك قد حطمت آخر آمل المظفين ومالت بالرعب قلوب الاتوام الذين يجالطوا معهم غمادت تلبس الأرمن بقايا هذه الفرق العسكرية (المحففة) ،

بشكل بالغ الاضطرار ، حيلة معها الفرع الى داخل مناطق شديدة البعد .

وفي الوقت الذي كان فيه جزء من قواتنا يتأطل على ارض فلسطين بشكل جيد ، كتبت قواتنا التي بقيت بمصر تكمل احتلال بقية البلاد ابتداء من أسوان حتى البحر (المتوسط) ، وقلم الانجليز بمحاولة لا تأكل من ورائها ضد السويس ، ومع ذلك فقد تم صد عرب مكة وتم الاستيلاء على كل الصعيد ، وتحت حركات الحصان التي تدخلت في الانقسام الشمالية * وكان يسهر على الدفاع عن الاسكندرية والسواحل فطنة حاذقة ، وبعد نظر لوهية .

وفي نفس الوقت فان بلقا عكا قد تخلف في ملاذ الأخير ، وجاءه العون من البحر ضد الفرنسيين الذين كانت تنقصهم الملقن والمخيمية اللازمة للحصار ، وأمكن لهذا البلقا ان يحسن دفاعاته بحيث تستطيع ان تصمد لوقت أبعد من الوقت الذي يمكن لجيشنا ان يبقى فيه في سوريا . كان الخرس الحقيقي من وراء هذه العرب قد تحقق ، فلقد أحدثنا الارتباك في مشروعات العدو ، واستولينا على مخازنه ومعداته الحربية وقمرنا حصونه والمينا جيبا كبيرا كان يستعد لغزو مصر ، وكانت قوات الانزال المخصصة للهجوم على الاسكندرية قد حولت من غرضها واستخدمت في دعم جسر تال ، كان استيلائنا على عكا يفسد لنا عتاق لحد الميثاق المسلمين الذي كان يستحق الاهدام بسبب ما اقترنه طيلة حياته والذي لا يمكن لأي فرد له ان يوحى الا بالفرع ، لكن هذا الحصار — في نفس الوقت — كان يغطي منا مزيدا من الوقت ، ولم يكن من شأن النصر ان يقدم لنا الا بزايا هزيلة لا يمكن لها مطلقا ان تكون عوضا عن اخطار البقاء هناك مدة اطول من ذلك ، وفي ذلك الوقت كثفت الأمراض المصحبة تنشر رعبا عاليا ، وكثت تنتشر في كل انحاء سوريا بمرحلتها ، وتزداد بشايتها أكثر فأكثر ، وأخيرا فلقد اقترب ذلك الوقت الذي يمكن ان تهاجم فيه مصر نفسها من البحر . وفي الحقيقة فان هذه الحيلة لم يمد بتقورها ان تحصل على دعم من الجيش للمضي في سوريا ، الذي اشتد لئلا ، وان كثرت تدبوت للمسحوخ مع ذلك قوات حائلة .

لقد جعلت هذه الظروف من عودتنا ليرا 9 مناس منه ، وتفر للبلاد العام قوائمه بان الدفاع من سواحل مصر مسهرش عليها جهودا جديدة .

وهبرت هذه القوات للمرة الثانية تلك الصحراء التي تتصل مصر من سوريا ،
وقبل ابتعادنا من القطر الأخير علبنا بقصوة تلك التبادل التي نكست عن
ومودها وخلفت موافقها مع الفرنسيين ، ثم فبرنا المؤن العربية وكل المصادر
التي يمكنها أن تسهل تجهيز حملة معافية بعد ذلك . م

وسرعان ما استقبلت عاصمة مصر هذا الجيش الذي واجه الكثير من
المخاطر وغرب الإنطة على كل التفاصيل ، وتوجه وجهاء المدينة لاستقباله ،
وتجتمعت حشود حائلة كانت تحي توافنا بالهتافات والتهليل والأعصاب ، وفي
النهلية ، ذاق الفرنسيون بهجة الانتقاء برفاء السلاح ، أما الاستقبال المؤثر
الذي قدمته هذه الحشود . فلن ينمى أبدا من الذاكرة ، لأن فقد بدأ الرتيق
يتحدثون مما من المخاطر التي عليهم أن يواجهوها بجزائريهم وآمالهم ، وبدأ
أن مصر قد أصبحت بالنسبة لهم وطنا جديدا ، وأنهم لم يعودوا يشكلون
الا أسرة واحدة .

بعد وقت قصير تعرف القائد العام على حركات متفرقة كانت قد ثبت
بالداخل . وكان مشروع الغزو المرتقب يوشك أن يفرها . وفي الواقع فإن
المبايك قد هبطوا إلى سفلى النهر ، وتجمع عربان الغرب ليلحقوا ببراد
بالقرب من وادي بحيرات النطرون في نفس الوقت الذي ظهر فيه أسطول
إبي قير ، كنا قد ارتقينا هذه الظروف ، وهوجم المدو في وقت واحد في كل
مكان ظهر فيه ، وتحرك طهور تحت العربان ، أما المبايك من حزب
إبراهيم ، الذين هوجنوا داخل معسكرهم فقد ولوا الأكلار على الفور نحو
الصحراء تاركين ابتعتهم ، أما مراد ، وهو أكثر فطنة وأكثر حذرا ، فقد
أسرع يلتقي مصر العليا ، وكان القائد العام نفسه يعد في ليرة ، حين بلغه
ظهور الأسطول الحادي ، فاجته على الفور نحو الإسكندرية ، وفي أثناء
هذه المسيرة أرسل أوامر بالغة السرمة إلى مختلف فرق الجيش التي خرجت
كلها في التحرك في وقت واحد ، وعمل على مراقبة وأهتواء المبايك
والعربان ، واتخذ وغما يتكفه من تقديم العون إلى رشيد أو إلى الإسكندرية
(إذا هوجبت أي منهما) .

كانت قوات متباعدة قد برلت فوق شمه جزيرة إبي قير واستقرت
هناك بعد أن انتزعت الحصن بعد استسلامه ، وفر رأى القائد العام على
أن يهاجم هذه القوات على الفور وهي وراء حصونها ، وكللت كل الهجمات
(م ٢٢ - وصف مصر)

التي تمت على كل المواقع بنجاح سريع ، ولم تستطع خطوط العدو ان تصمد امام الهجمات الجسورة والثورة من جانب الفرنسيين ، اما المشايون غدا دفعهم اليأس الى استخدام السلاح الابيض ورفضوا رفضا شديدا اجماعى ان يلقوا في الاسر ، وعندما احيط بهم من كل جانب سقطوا سرعى او هرعوا الى البحر محاولين - دون جدوى- الوصول الى السفن التي جاءت بهم ، وهلك منهم عدد كبير في ميدان المعركة ، ومات معظمهم بين الأمواج بفعل نيران مدافعنا ، واستولينا على نفاق وخيام وتضارير حربية ، اما النكسا الذي كان يقود الحملة فقد وقع هو نفسه في قبضتنا وتحصن ابن هذا الجنرال سيء العظ داخل الحصن مع من تبقى من قواته ، وشرع يفوض دينا بالبحر العناد . وفي النهاية ، وحين رأى آخر من تبقى من جنود هذا الجيش اسطولهم يدير بفعل المدافع الفرنسية ، وعندما راوا انفسهم ينفلون من الجوع او العطش او الارهاق ، ألقوا بأسلحتهم واستسلموا المنتصر ، وكان الحصن قد أصبح كومة من الأنقاض تغطيها أحساد القتلى والجرحى واجساد أولئك الذين نفقوا أثناء الحصار .

في الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث في سوريا ومصر ، وفي حين كان جيش الشرق يدامع بشت وأصرار عن الأرض الشهيرة التي فتحها ، كانت فرنسا قد انعمت في تشيقات وخلاعات مدنية ، وكثرت جناتها (في اوربا) مهددة . لقد أصبحت هذه الأوقات العصية جد بعيدة عنا ، ويحول شعور الألفة السائد اليوم دون ان ننقب فيها ، لقد أبلغ القائد العام بحقيقة الأوضاع في اوربا وبالكوارث التي تهيئ بفرنسا ، وأوجت له معرفته بهذه الأحداث بالرغبة في معاودة الظهور بين حيواتنا ، فقرر بعد ذلك النجاح احدى احرزه في ابي قبر بان ينفذ هذا المشروع الذي كانت عواقبه وخيبة على أعدائنا . وكانت مصر قد ألزمت الهدوء ولم يكن بالإمكان ، لوقت طويل ، ان تكون عرضة لهجمات جديدة ، وكان الماليك قد غرأ اما الى داخل فلسطين او الى حدود النوبة ، وكان العربى يحدون سعيها في الحصول على تحالف معا ، و ذل الصغر الأعظم جهودا لا جدوى منها كي يجمع قواته فيها وراء دمشق ، فقد كانت الحملة الفرنسية على الشام قد دمرت كل المصائر التي يحتلها أي تمييز لمسيرة جيش ، وكثرت الشواطيء (المصرية) ابتداء من الاسكندرية حتى دحيلا قد وضعت في حالة دفاع ، وكثرت الحصون مزودة بالمرز ودخائر الحرب ، وكثرت مخبئة القاهرة منذ وقت طويل تجنى ثمار

وجود إدارة راعية فظهرت بظهور المعارف بالجبل ، وخمسى القناد العالم كل اللحظات التي سبقت رحيله في تصحين وتطوير المنشآت . العسكرية والإدارات المدنية ، جاهداً فإن يجعل وجوده بنفسه اتل ضرورة بتسير الامكان ، وفي نفس الوقت كان يعلم ان المراكب المحلية قد اضطرت للنظر من القيام بمهمات المراقبة البحرية ، عندئذ رحل الى الاسكندرية ، وبعد ذلك بتليل خالد قسوطى مصر ، لقد دعاه الواجب وابن فرنسا ، لقد اتعد وكشف عن مكتون سره لذلك الرجل الذى عمل في خدمة بشروماته الاولى ، والقضاء الحظ عن اسفليل الأعداء ، ورد البحر ، الذى كان مخلصا للمرة الثانية ، الى ارض الوطن ذلك الرجل الخالد على التصدى لأعدائه الخطرين .

ولم يكن القناد العالم طيلة مدة حرب مصر وسوريا لهك مطلباً من رعية مصالح العلوم ، فقد كان هذا المشروع الكبير حائراً على الدوام في ذهنه سواء قبل انتصاره أو بعده ، وسواء كان يقود للمهمات العسكرية أو كان يفكر في موضوع ادارية أو اجتماعية جديدة ، فكان يمدد ، وهو بين المعسكرات الى معبرة المنون الجبلية ان تعد ذكرى المعارك التي اضاءت سموات فلسطين واليوم والصعيد . وفي الأيام الأخيرة التي سبقت رحيله كان لا يزال مشغولاً بالعنب على الأبحاث الطبية وذلك بأن قدم للكاديهبة التي كان قد كونها الوسائل اللازمة لاجتياز ومبور المناطق الادارية من مصر والملاحلة املاجيبيا بامان ، ولصبحت هذه الرحلة التي ستزود الفنون والاداب بالكثير من النتائج موضوعها بمقاراً لعنايته وتقديره ، فقد وضع بنفسه خط سيرها ، وهيا لها كل الظروف المواتية مع حيلة وبقطة بالفتن .

كان في ذلك الفصل من العالم ، الذى تسهل به ريلعه القوة الملاحية في النيل ، عندئذ كان بمسوراً علينا ان نصدق في وقت قصير الى جزيرة الفنتين ، وفي نفس الوقت ، علينا على ان نبلغ كل الامكان التي تقع بها الآثار بغية التعرف أولاً على الاهتمام التي ينبغي لنا ان نصفها ، ولان نضع ، عن طريق هذا الحصر الاولى ، نظماً لكثرة في لبعثنا . وحين وصلنا الى الحدود التي تفصل مصر عن القوة ، الى الجنوب من الشلال الاول ، هبطنا مجرى النيل ابتداء من اسوان حتى القاهرة ، ووضحنا كل اثر مرة أخرى تحت فحص بالغ الدقة ، فما ان كلفت النفس ظميس الشطيرة ، حتى كنا نخرج انجتنز من كل جانب تلك الاسوار أو الأبنية التي يمكن ان نجد بها بعض بقايا

لمشآت قديمة . واقفنا خرائط طبوغرافية ، ورسنا مناظر طبيعية مع كثير من مشاهد تصويرية لكل مبنى ، كما قسنا الأبعاد المعمارية بالاضلفة الى التلسيل التي لا جد لها للزينات ، وللحدا بأمانة اللوحات المرسومة او المحورة مع كل الحروف الهيروغليفية التي تغطيها ، وفي الوقت نفسه كنا نلاحظ الحالة الراهنة للاطلال ، واساليب البناء ، وطبيعة المواد التي بنيت بها المنشآت ، ودونا للكتابات العادية او التاريخية او تلك التي تخص بالثبور والمناسبت الدينية الأخرى ، والتي تذكر بكثير من الأسماء اللامعة . وقام آخرون منا بقياس سرعة المياه وكيفية ترسيب التربة وارتفاعات الأرض، وحدد تريق ذلك الواح الجنزانية من طريق ملاحظات فلكية . لقد اكبنا على فحص طبيعى للمنطقة ، كما جمعنا مجموعات ثينة من الحسوانات والمعادن والنباتات وكل العناصر التي من شأن دراستها لنا أن نطلعنا على الثروات الزرامية وكذلك بالقاهرة والمعادن والتقاليد والوضع الاجتماعى للسكان .

وكان من الضرورى أن تلحق بفراصة الخواص الفيزيكية للعنصر ، دراسة من الأثر الذى تحدثه هذه القواص على حياة وصحة الإنسان ، واننا لندين بهذه الأبحاث لأتلس وهبوا أنفسهم بحكم مهنتهم لمختلف أنواع من الملاج (الطب) ، وقد رسم خطة هذه الأبحاث كثر أطباء جيش الشرق () ، وقدم بتجميعها ونشرها ، كما أننا مدينون لكبير جراحى هذا الجيش () بعمل من نفس النوع يضم مددا كبيرا من الملاحظات ولقد حصلنا ، بخلاف الزايا الأندية التي يضيفها عليهما نشر هذه الأبحاث ، كما حصل زملاؤهما على مزايا أخرى كتدوع من المرمم الملم ، وسوف يظل يلكر تاريخ هذه الحملة لكل هؤلاء كل الخفيات التي أتوها ، وينابيع الحلق والحسارة التي تلونها عليهم كتابهم سواء عندما كانوا يحملون المراساة والأمل الى ميلدين الممارك بين أشد أهوال الحروب ولكثرها الأثرة للفرع ، أو عندما كانوا يواجهون بروج هائلة الدمار المروع الذى كانت تحدثه الأوبئة والفرع القاتل الذى كانت تسببه هذه الأمراض فيعصف بفنوس الآلاف .

(*) ديجينوت Deagintae

(**) البارون لارى Lamy

وقبل أن نخرج في الرحلة التي نغرت من قبل إليها ، كان مديد من الأشخاص المتحمسين لتقديم العلوم قد توجهوا بقلوبهم إلى الصيد أو إلى الغيوم ، وفي خلال الإقامة الطويلة التي كانت لهم هناك ، كانوا قد عكفوا على وصف دقيق للأثار وعلى إحصاء حلبة حول مجرى النيل ، والطبيعة الفيزيائية للأرض ، وزراعة وتجارة وجغرافية البلاد القديمة ، ودرسوا يمشون إلى المؤلف لتمام كل التفصيل التي سبق أن حصلوا عليها .

وقد أتجرت مختلف أجزاء هذا العمل الضخم في نفس الوقت ، كان كل منا قد انغمس بشكل خاص بموضوع دراسته المعتاد ، وكان ينقل إلى الآخرين أفكاره وجهات نظره ، ولقد سهل هذا التناول المتبادل ، وهو الذي لا يوجد بسهل له على الإطلاق في تزيخ الرحلات الطبية ، القسم بكل الاكتشافات ، وجعل منها اكتشافات أسيلة وسافرة أن صبح الضعيف ، لقد كان الصالح العلم للفنون والعلوم والآداب يؤلف بسهولة ما بين المتكلمين بقلها في الوقت ذاته على تنوع الآراء واكتلافها ، وسيزل التقدير المتبادل هو أكثر البراهين وثوقا على تألف وتكامل وجهات النظر ، وكانت تربط بين هؤلاء لميلا من ذلك — صداقة قديمة ، الأمر الذي جعل المصاعب أكثر يسرا كما جعل المسرات أكثر بهجة ، كما كان يعطى جرعت متعددة من القوة عند مواجهة المخاطر المشتركة ، ومن الصلابة كلما التفتت بشفتي البعد من الوطن .

لم يسبق لأي بلد آخر أن خضع لأبحاث يمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وبغلا من ذلك لميسر هناك بلاد أخرى جديدة بأن تكون موضوعا لأبحاث كهذه ، لمعرفة مصر أمر يهيم للحقيقة كل الأمم المتحضرة ، سواء لأن هذه البلاد هي مهد الفنون والنظم الدينية لو لأن بليكتها حتى اليوم ، أن تصح مركزا للطلانت العولبة ولتجارة الإمبراطوريات ، ولقد ترك الشعب الذي كان يستقها آثارا تدمو للامعجاب بعظمته وقوتها ونفوذها ، كما أن الفنون لم تبذل على الإطلاق في مكان آخر . مثل هذا الجهد كي نسمو إلى هذا الطابع الذي لا يحول والذي يمثل في ذلك أعمال الطبيعة ذاتها .

وفي هذه الأثناء كان الأطباء قد حاولوا دون جدوى أن يستولوا على ميناء القصير ، وبعد ذلك بوقت قصير استعاضت حامية ديميل الضميمة عن عددها الضئيل بالجرافة والجسيرة وسرعة الحركة ، تدمرت فرقة قوامها

أربعة آلاف من جنود الانتكشارية أنزلوا من طريق البحر وبدأوا يتخذون مواقعهم على الساحل . ومع ذلك فإن الفرنسيين المولكين بالدفاع من مصر كانوا يجهلون الأحداث السياسية التي أعادت الأمن إلى وطنهم وحطبت للأبد الأمل الطموح للقوى الحادية ، كقوا لا يعرفون بعد إلا أن وطنهم يعيش في الآلام والقساه ، لذلك فقد كان الوطن موضوع قلقهم وأسئلتهم ، ووجدت (ب) تلك المناوشات التي كانت تهدف إلى التوافق مع الباب العالي ، وعلى حين غرة ، اتخذت هذه المناوشات وجهة مضطربة وغير متوقعة ، ولهذا أعد وأجرم على وجه السرعة اتفاق العريش العسكري تم الاتفاق فيه على أن تعود الطرق العسكرية إلى موانئها (فرنسا) ، بعد أن توافق على تسليم مصر إلى سلطة الباب العالي ، على مراكب مملوكة للقوى المتحالفة .

وعلى الفور بدأت تتم الالتزامات المتبادلة ، ونظمت إلى مصر ، بحرية تامة ، قوات كبيرة ، نظامية وغير نظامية للوزير (الصدر الأعظم) والبكوات وقدمت حتى بلغت أبواب القاهرة ، وبدأ كل شيء ينظر بأن هذه البلاد الجميلة ستعود من جديد لتقع في برائن سلاقتها القديمة ، لكن سببين مختلفين أسهما في تفرج مفاجئ لما تهيأت له اللندوس ، كان أولهما هو الإعلان من ثورة حدثت في الحكومة المحلية لفرنسا .

استسلم الجيش للمشاعر الجديدة التي أوجت بها إليه هذه الأحداث حين رفض الطرف الآخر تنفيذ الشروط التي كان قد قبلها ، ويعود السبب في ذلك إلى القوى المتحالفة التي ساهمت بأكبر نصيب في إبرام هذا الاتفاق الذي اقترح ووقع عليه باسمها ، فلقد وضع عند التنفيذ عبء غير متوقعة حين وجه إلى القوات الفرنسية اشترطا مهينا بأن تبقى أسيرة في مصر ، كان الطرف الثاني ، بهذا الإصرار ، يجد في هذا الفكر لوعوده ، للحصول على امتياز لم يكن ليتوقع الوصول إليه بقوة السلاح . وفي هذا الوقت كانت القوات العثمانية قد استحوذت على الصعيد ، وعلى كل المناطق ابتداء من موانئ البحر الأحمر حتى ميساط ، وكما قد سمعنا مخففتنا من قلعة القاهرة ،

(ب) يستخدم المؤلف التعبير on وهو غير نكرة لا يحدد نقطة شخص الفاعل وبذلك يروغ هنا وفي كل السياق لهذه الدراسة من تحديد مسئولية الأطراف المختلفة .

وكان من المفترض أن نسلم المعصية نفسها بعد ذلك بيومين ، كما كانت
 المأمن والضحائر بالفعل قد نقلت إلى الاسكندرية ، وأصبح الجيش الذي
 كانت في حوزته قبل ذلك بيومين أنقاص عديدة ثرية وخصمية ، بهروبا من
 وسائل مواصلة الحرب ولم يعد يمتلك من أرض مصر الا تلك التي يصطف
 عليها - ومع ذلك على ظروف غير مادية كذلك ، كانت قد رغمت من مبنوياته ،
 لم تكن لجيشنا الا غلبة واحدة او هدف واحد ، وكان الشخص الذي يتوده
 قد بث في كل الطوب سقطا كان يثريه هو ، وتعرف اوربا سلسلة المعارك
 الخالدة التي تلت هذه القطيعة ، ثم جاء النصر ، وهو اكثر وماء من كل
 المعاهدات ، ليسط حياته على اولئك الذين لم يتركهم مكان بلوتون به
 سوى الصحراء ، وشئت ولفني الجيش العظيم الذي جلبه الفرنسيون
 بالقرب من خرائب هليوبوليس ، واجتاز الصدر الاعظم بمجه وحيد خلال
 هروبه المتعجل ، نفس البلاد التي سبق له أن توغل فيها وبمه توات هائلة ،
 وفقد ثلاثة معسكرات بالانفاة الى مدغمته ومؤنه العسكرية ، كما استمدنا
 الحصون التي كانت قد سلمت اليه ، وتبعت حركات القدر التي كان قد
 اضلها في كل المدن في وقت واحد ، وطردت قواته من السميد ومن صباط .

اما المعصية نفسها فقد جلبها المالك والاكتساريون ، وتحولت
 على الفور الى ميدان قتال صريح ، تنهض احوال الحرب والفرار ، وبعد أن
 شاهدت المدينة جزءا من مباتها فسطح فيها النيران وتحول الى اتقاص ،
 في الوقت الذي تطرح فيه قادة متقسين تنرق بينهم مصالحهم الخاصة ،
 وحين ازمعها ما حدث لمدينة مجاورة ، نالت من قبل عقبا مسلحا وقاسيا ،
 استسلمت مستعملة الفخرى ، اما الفرق التي سبق أن تجبعت فيها والتي
 كانت قبل ذلك بوقت قصير تتقدم مدفا حين كان البحر موصدا املنا ،
 خارقة بذلك اكثر المعاهدات توليها ، فقد التمس جنودها للتسليم والاعلان
 وملذا تم لها ذلك ميرت معسكرنا في امان ، وتطوق الفرنسيون النضر
 الاولى للنمر ، وتشبهوا بالبنود والقرارات الثابتة التي تلبها عليهم المصالح
 الحقيقية لوطنهم ، ونجاة وقع حادث يوسف اغرق الفرنسيين في الرعب
 والوجوم ، لقد تأمر احوال الاكتشافية الذين لجأوا الى سوريا ضد حياة
 العقاد الفرنسي ، واغروا واحدا من ابناء حلب تبلى عليه تيقته كل حركاته ،
 ان يضحى بحياته في مقابل هذه الجريمة الكبرى ، ووصل هذا الشغب
 المخبول ، الذي كان من السهل تحويله بفعل مسنه ، بطريقة سرية الى

القاهرة ، وبعد أن قضى ثلاثين يوما في الصلاة بالمساجد ، ارتكب جريمة البشعة . كان تكبير أعزل من السلاح - بعيدا عن حراسه ، وطعن مرات عديدة بالخنجر ولنظ أنفاسه بعد ذلك بلحظت ، وبمجرد أن انتشر خبر هذا الاغتيال الجديد في كل أقاليم مصر هبر جيش الشرق عن مشاعر حزن تلم وحسامي ، وروى بالمجموع مقبرة قائد لامح ، بسج لتسوه بالانصر مهات المفاوضات ثم سقط صريعا وسط معائم انتصاراته ، في حين كان الوطن يصده واحدا من كثر من دافعوا عنه فداء وتفسيحية ، وتجمع القادة العسكريون منبذ لللحظت الأولى التي أمعت ونلته ، وعلى الفور وجهه الشخص الذي كفت ترشحه القوانين العسكرية لقادة الجيش من الأوامر ما تحته خطورة الظروف ، وأخذت القوت العسكرية تظهر على التوالي أمام الناس ، وأطلقت المدافع ، ووضعت الاعلام الفرنسية على مآكن المساجد . كفت هذه الاحتياطات ضرورية للثانية ، إذ كان من المعتاد ، في بلاد الشرق هذه ، خلال الثورات وحركات التمرد التي تهزها وتشيع فيها الطلق ، أن يطل الحجة المنوعة لمريم ما دمار حزبه وتشتت جنوده ، كان قد التي اللبس على القاتل سليمان ، ولم يشارك في جريمته أي واحد من المصريين ، واكتشف ثلاثة مواطنين كان قد اتهمهم على سره ، وكثوا مثله من أصل سوري ، وحكم عليهم جميعا بالمقويات التي ينبغي أن يحكم عليهم بها تبعا للشريعة الإسلامية ، وفي خلال المدة الطويلة التي استغرقها اعدام سليمان كان يقرأ بعض آيات من القرآن ، كما كان ينص على المسلمين أنهم لم يقدموا له العون .

واسم سكان العاصمة في انشاء طلع المهلبة على جنازة قائد الجيش الفرنسي ، وسرعان ما رأوا خليفته يضي قدما في تنفيذ المشروعات النافعة التي كفت قد أثرت عقب الفتح ، وألتم القائد العام (الجديد) ، مستفيدا من المزايا التي حققتها نجلهاتنا الأخيرة ، بدم سطوة القوانين ، ويتعصن إدارة الضرائب ، وتهجير السبل أمام تقدم وتطويع الزراعة والصناعة والتجارة ، ولكب في الوقت نفسه على تصريف شئون جيشه الذي وجد فيه (أي في قيده) مثالا للفضيحة والخلافة ، ونبذت الزراع الذين انحدر بهم الشح الأرض لسانتهم القدامى إلى حالة من التفتن والمهانة ، تبعوا وبحرية كائلة بشر أميالهم ، وعقدت تحالفات جديدة مع العربان ووهبت بعض القبائل أراضي غير آهلة ، كفت الشكائات المدنية قد حرمتها من

الزراعة ، وقيم على أسس محددة نظم علم الري ، ومنذت كافة الجهود لتوصي كل المستوى المرتبطة بوضع المياه المضرب لو بلساة استخدامها ، وقررت مكافآت عالية لسكن الريد الذين يضاعون من عدد الأسجل التهمة ، وتجمعت داخل منشأة واسعة تلك النباتات والشجيرات الأجنبية التي روى من المناسب نشر زراعتها : كتت غنون لوريا قد بدلت في صمغ التقدم على أرض مصر ، وانتعشت الصناعة في كل مكان .

ومع انشغالهم جديد للمالية ، عهنت بإدارتها المالية إلى إداري حكيم ونزيه ، ككن قد حاز منذ وقت طويل تقدير الجيش وسحة الأهالي ، وكان قد محص بعناية كبيرة المصادر المتوقعة للدخول المالية ، وكان يدرك كل المزايا التي ينبغي أن تتوقع الحصول عليها لية حكومة عاقلة مستتيرة من امتلاكها لصر ، وقد قام بتكوين جدول ليعتقدتها مدخلا لاسباب الميزانية العامة ، هي التي قدمها عن إدارته للمالية طوال مدة الحملة (١٩١٤) . ولقد استخلصنا نحن من هذا المؤلف ، الذي أرجوه نشره ، الدراسة التي ضمنت هذه الموسوعة ، وهي تحتوي على عدد كبير من النتائج التي ما كان ليحصل الحصول عليها دون ظروف مولثة لهذا الحد ، وينبغي أن ننظر إليها باعتبارها عناصر ثمينة في تاريخ مصر الحديث .

ومن جهة أخرى فقد وضعت لوائح نزيهة وعاقلة أدت إلى تبسيط التجارة الخارجية التي لو شكت حكومة المالك أن تقضي عليها . إلى هذا الحد بلغ تأثير الإجراءات التي اتخذناها ، والتي أمكنها ، على الرغم من العقبات الكثيرة التي دجيت من حالة الحرب ، أن تقيم من جديد علاقة نافعة مع الأرخبيل وسواحل الجزيرة العربية وبلاد أواسط إفريقيا ، كما ساهمت أعمال جديدة عالية في تجهيل المعصنة والإسكندرية وتحصين الحالة الصحية بهما ، وشيئا فشيئا كف المواطنون من أن يظنوا أنفسهم فرياء من الامة الفرنسية ، كما كتت اللغة المتبايلة تعزز كل يوم تقديما بلبوسا ، ولقد أدرك هذا الإرتياح من جانب كل النفوس كافة الذين تعهقوا الحلاتت

(١٩١٤) يشير المؤلف إلى دراسة التكونت استيف Estève من مالية

مصر ، وهي الدراسة التي تكون مع غيرها المجلد الضخم من التوجسة العربية المكاملة لوصف مصر - (المقترجم) .

الودية مع شعب مصر ، وقد أدرك هذا بصفة خاصة مؤلف هذه الدراسة ، وهو الذى كل يسهم فى الحكومة المدنية بتولية ادارة العدل . وهكذا كلن الزمن وحده كفيلا بان يؤكد ويدعم هذه الأنظمة الجديدة وان يجعل النفس يشعرون بها (ويجفوها) لكن الحرب قلبتها بفتنة ، ولم تبقى على اى اثر منها . وقد بشر نجاح الحملة الفرنسية ، الذى كلن يعد كل الأمم الأوروبية بخطوط الصالات هامة . القلق والفرح فى انجلترا ، وهزمت هذه القوة على القيام مجهود غير اعتيادية ، وشارك البلاط العثمانى ، حين انسحق وراء اعتبارات روحانية ، فى وجهات نظر وآراء طفلكه الجدد ، فلتكررت مهاجمة سواحل البحر الابيض المتوسط بجيش انجليزى . كما تكرر ان تدعم هذه الحملة بفرقة من الاكتشافية والالمان اوكلت قيادتها الى قبطن باشا ، وتلقت هذه القوات الاوامر بان تتوغل فى الخليج العربى وان تنزل الى مصر عن طريق مينائى السويس والقصر ، وفى النهاية اقتضى الامر ان يتقدم الوزير (الصدر الأعظم) الى العاصمة على رأس جيش عثماني قادم من سوريا . كانت كل عناصر خطة الفزو قد أعدت ووزعت بمنفلة ، ووضعت كلها موضع التنفيذ فى وقت واحد ، ولقد تجلى فى حركة القوات قدر من الوثوق والاصرار على النحو الذى تسمح به المسافة الفقية للامكان وعناد المسلمين الذى لا سبيل الى تهرة ، كان ابراهيم ومماليكه يزحفون مع الوزير . اما القبائل العربية التى اثارنها نصائح وتحريضات النبى الجديده مولاي محمد (ا) فلم تكن تنتظر سوى الإشارة الى تتجهج ، واخيرا فقد كان حزب مراد ، حاكم الصعيد ، قد ارسل سرا بالانجليز .

كانت المعارك السابقة قد اشغلت الجيش الفرنسى الذى لم يعد ثلثة قانرا على ان يستخدم فى حرب الاقاليم ، كانت الجروح الخطيرة والكثيرة تغطى اجسام هؤلاء الجنود الأسفيا (اللدائين) الذين كانت تعظم على البذل قية أكثر منهم اصرارا وانفعاها نحو الاخطار الجسم ، وكانت هذه الجروح تجعلهم ملجزين من اية مشاركة ايجابية فى الوقت الذى كانت قواثلنا فيه تحتل بلدانا شاسعة تبعد كل بقعة فيها وكلها تعظم وجودها ، فكانت تحرس حدود مصر مع سوريا والتى يتهدها الصحر الأعظم . كما كانت تحرس القاهرة والجيزة وبولاق والسويس وجزءا من مصر العليا ، كما كانت تستخدم فى الاقاليم كى تحمى جبلية الضرائب ، ولكى تلمن الملاحه فى النهر ، ولكى تصد المماليك وتحتوى القبائل العربية . لبا الاكثلى الذى كانت

لوائع عديدة إلى أبرله مع مراد فلم يكن ليوهى بآية قوة . لقد ضامف تحالفه مع الفرنسيين من نفوذه وحساف قوته ، لكنه ما كان ليفيد من كل هذه المزاي الا لكي يطن وقوفه ضدهم ، وكان علينا أن نحشاه حلقنا والا نابل الا لى مون جد فشيل من جانب لو أنه قد كل مخلصا . وهكذا كل موقف الفرنسيين عنفا ظهرت السن المعادية أمام الاسكندرية .

يمكن الجيش الإنجليزي من القلم بميليات التزال على سواحل ابي قير ، ثم تقدم بعد ذلك داخل شبه الجزيرة ليقف موقعا مواتيا للضاربة يتح بين البحر وبين بحيرة المدية . وحين هاجمته بعض القوات الفرنسية دافع من نفسه بنجاح لى أرض شيقة يدعمها خط من الحصون وتعيمها زوارق المدية من جفئى البحر والبحيرة . وقد جرح فى هذه العملية قائد الحملة الإنجليزية ومات بعد ذلك بإليم قليلة متأكرا بجروحه فتركنا ذكرى بشرمة بحق . وبعد أن تلقى الطفاه دعيا قاعلا قرروا احتلال رشيد ثم بذلوا التقدم صوب شطلى النيل لى نفس الوقت الذى كل أسطولهم فيه يصعد النهر ، واستسلم حصن الرحمانية وامتلك الحليقيون دجلط ، ولم تثبت العاصمة من هوصرت .

كل الصدر الأعظم قد ضم جيشه الى الجيش الإنجليزي وجيش قبطان باشا ، وكان يحصل كل يوم على قوات دهم جديدة من داخل مصر وسوريا ، وكانت صلاته مع العريان والمماليك والقوات العسكرية القديمة وسكان الريف تتدعم لى كل مكان حيث كل يسهل من ذلك تلك النجاحات الأولى التى أحرزها جيش الحملة ، وكانت قوات الهند قد وصلت ، لى القاهرة والإسكندرية فكتنا فريستين لوباد بشع وقائل ، ولم نفس الوقت انضم الى انضباقيين مماليك ابراهيم ومماليك مراد بالإضافة الى فرسان كثيرين من العريان . هكذا كان وضع القوات المتحالفة حين تقدمت ، لى يتم لها استرداد القاهرة والإسكندرية ، ببنود انتحرات لا تحفظ كثيرا ما جاء بمساعدة العريش ، لم يكن شمة ميلية عسكرية واحدة لم تكن توافقا فيها أفنى مددا بكثير ، فحتم تلكتنا من معرفة نوايا العدو كان قد لرغم القائد العلم أن يوزع على جهات عديدة القوت التى يكتها أن تصدى للعدو ، وينبش أن نشيف بانهم — اى الطو — لم يكتوا بطيلة هذه الحروب عن أن يهرسوا على الفرنسيين العودة الى وطنهم بنفس الشروط التى سبق لهم أن قبلوها قبل ذلك بوقت طويل والتى سبق للطفاه كذلك الالتزام بها .

ومعنا المبلغ الجفرال ميتو بل بلبل المفلوطلت قد غنغح مى 'وربا .
وبالمحلولات المتكررة التى يتقوم بها اسطولنا كى يجلب اليه المساعدات .
اشدد مزمه على ان يستمر فى الغنغح من الاسكندرية لأطول وقت ممكن .
وظل متشبها فى موتمه لآخر اللوط . ومند نهليه الجصار كلن بمسلف
الفرنسيين مرفى بالمستشفيات ، أما اولئك الذين لم يكن قد مسحهم شرور
الايوة بعد فكانت قد أنصنتهم الأعمال التى لا منتهى واستخدام المياه المالحه
وتناول الأطعمة الضارة لفترة طويلة بل وكذلك نقص الاطعمه . كانت الامثلة
التي قدمها قلدتهم تقوى من مرائهم ، وفى النهاية لم يبق لديهم الا شجاعهم
وكان الزم يراهم مهدين منهكين لا يتقدرون الا المكاد ان يتحلوا بل سلاحهم .
وكانوا لا يستمدون قواهم الا حينما كان الواجب يدعوهم الى المعركة .
هكذا انيط بهم ان يضعوا بجهودهم الأخيرة نهاية مشرفة لمسده الحملة
الضالدة .

وفى الوقت الذى كان جيشنا يستعد فيه لمعاردة بواتى مصر ، وحل
النس فيه فى أوروبا يجهلون المبلتات الأخيرة للحلفاء ، وقعت فى باريس
ولندن تلك المعاهدة التى تعيد هذه البلاد الى البلبل المملقى ، هكذا قدر
عليها ان تعود من جديد لهجمة السلاح التى كانت جيوش فرنسا قد حاصتها
منها ، وهذه هى اليوم فريسة لابزازات نواب الملك ولصوصية العربان
والفرق العسكرية غير النظامية ، أو لعنف بعض البكوات الذين ظلوا على
قيد الحياة . لقد استمد هؤلاء الأعراب ، على الرغم من تقلصهم الى عدد
ضئيل ، وطنا الى هوزتهم ، وخلق عبيد مراد وإبراهيم مهليهم ، لقد
أصبحت هذه الحكومة المجرية على الأقل لمدة ثلاثينسوات بسبب وجود
الفرسيين ، فلقد هزم الفرنسيون المماليك ونفوخهم كما تمصوا العربان
وأبادوا ثلاثة جيوش عشائية فى فلسطين وأبى قبر وعلى ابواب العاصمة ،
وليس أقل جدارة بالفكر من ذلك انهم لم يملرسوا الا سلطة حماية فى البلاد
التي خضعت لهم ، وبدأ كل واحد من هؤلاء الفرنسيين مرتفعا لمستوى
أكبر الأعداء التى جعلتها نشرق فى هذا القرو ، ولقد واجه الفرنسيون
طيلة سنوات ثلاث مخاطر لا تتقطع ، كانوا كانت تتوالد من جديد ، وقاسوا
بعمزية ثلجة ، وفتحت سماء ملتية وغربية عليهم مقاعب مصعب التحبير عنها،
ولقد تكفوتوا فى هذه المهمة الشاقة رغبة منهم فى أن يهبوا أنفسهم لجد
ومصلحة وطنهم . وانه لشحور نبيل ونافع يسمو بالإنسان ليتفوق على

نفسه ، يوحى بكل التضحيات ويظل في نفس الوقت هو الدافع وهو
الجراء ، ولقد جاءت هودتهم في الفصل الظروف ملاسة ، فكانت أوروبا مائدة
وكانت قرنسا بعد أن ثارت لنفسها وانقضت تركن الراحة في ظل قوانين
أشد لطفاً من الهزات التي سببتها الحروب الحارحية .

ومن جانب آخر ، كانت الهيئة الطبية التي تشكلت في جامعة مصر ،
تحت حماية الأسلحة الفرنسية ، قد اتخذت لنفسها نفس اللوائح التي تنظم
أعمال أكاديميات أوروبا ، كانت مهتمة أن تزيد وأن تحسن كل المعارف
النظرية ، وأن تضاعف من تطبيقاتها . كانت أسهلت العلوم والفنون
قادرة على أن تدعم وأن تحبل منشآت الفرنسيين في الوقت الذي تؤثر فيه
في الأحوال المدنية للأهالي ، لكنها لم تكن لتبلغ هذا الهدف المرجو للصيانة
دون أن تكون قد اكتسبت معرفة عميقة بمصر . ولم يكن الوصف التاريخي
والفيزيقي لهذه البلاد في الحقيقة إلا جزءاً من خطة عامة كما قد وضعناها
لدراسة العلوم ولتهيئة تقديمها ، لكن الوصف مع ذلك كان عنصراً ضرورياً ،
وكان واحداً من تلك الموضوعات التي يهتما أن ننظفها إلى أوروبا ،
وكان هذا هو الغرض من هذه الموسوعة التي ننشرها اليوم ، والتي تشكلت
على نتائج الأبحاث الرئيسية التي قمنا بها خلال مدة بناء العجلة الفرنسية
والتي تستطيع أن تقدم معرفة متكاملة بمصر . أما هذا المؤلف الضخم فيكون
من النص ومن مجموعات اللوحات ، ويتكون النص من الدراسات والأوصاف ،
أما الأطلس فيحتوي على ١ - رسوم من مصر القديمة . ٢ - رسوم
تتعلق بمصر الحديثة . ٣ - لوحات الحيوان والنبات والمعادن . ٤ - الخريطة
الجغرافية . إذن مجموعة هذه اللوحات تبذل الأضياف الموجودة والتي يمكن
ملاحظتها ووصلها بدقة ، والتي لا بد أن نعتبرها ، لهذا السبب ، عناصر
موضوعية لدراسة مصر . وكما كذلك نهدف في الدراسات والأوصاف إلى
عرض هذه الأمور على نحو أكمل وأكثر شأماً ، وإن نبين بدقة ما قد لا يستطيع
من الرسم أن يعرض به ، وأن نقارن الواقع ونقاربه ما بين النتائج وأن
نخلص ما يمكن لنا أن نستخلصه من ذلك كله .

تتكون الخريطة الجغرافية من ضمين لوحة خاصة ، تقدم كل التفاصيل
التي يمكن لنا أن نرغب فيها . وليست هناك منطقة في أوروبا يمكن لها أن تكون
قد وصفت على هذه الدرجة من الكمال ، ويشمل هذا العمل الكبير ، الذي
يقوم في جزء منه على ملاحظات فلكية كل البلاد الواقعة ما بين شمال
أسولن والسحر ، وابتداء من آخر مجني يقع إلى الغرب من الاسكتلندية حتى

خرائب صور القديمة Tyre ، واضلنا الى تلك خرائط خاصة بالمس
وبالوانى ، وخرائط ومذكرات عن الجغرافيا القديمة ، وحصر بالاسماء
العربية لكل المخلوق الالهة ، مع ملاحظات عن السكان والزراعة وامتداد
الاراضى الخصبة ، والملاحة والصناعة والمنشآت العالية وبقيت المس القديمة .

وقد لاحظنا بكثير من الصلابة الحالة الجغرافية لوادى النيل ،
والصخور التى تقوم بمثابة حدود له ، وامتدت الابحاث التمهيدية الى مناطق
صحراوية وجبلية بعيدة عن النهر ، كما اشتملت هذه البحوث كذلك على
فحص المنحدر التى استغلها المصريون القدماء ، وعلى تصنيف دقيق للوادر
التي استُخدمت فى بناء الآثار ، وقمنا برحلات كثيرة كي نجسم من الصحراوات
المجاورة لمر ، وفى الصيد والغذاء ، وعلى ضفاف النيل والفرع ، النباتات
الخاصة بمر ، وتلك التى أمكن للطعم ان يؤكلها . هناك ، كذلك كان هذا
العمل يهدف الى الاكثار من الثروات الزراعية للبلاد وان نزود التجار
والصناعة بعناصر جديدة . وقد اعطينا لدراسة الحيوان منية مثمرة فانكسما
على تحييص التفلج التى سبقت معرفتها وعلى اتبام الاوصاف الناقصة
والاستعاضة عن الملاحظات التى لم يكن الطبيعيون قد قاموا بها من قبل
مطلقا أثناء رحلاتهم السابقة ، وقد اسر فحص الموادر الطبيعية بمر من
اهمية بالغة خاصة وقد سبق لها ان شغلت من قبل ، ولوقت طويل المشرمين
الاولى فى هذه البلاد ، وفى بعض الأحيان كانت معرفتنا بهذه الموادر تلتى
سوقا كاشفا ، وغير متوقع على نقاط هامة فى عقائد المصريين (القدماء) ،
كما تتميز اللوحات التى تمثل هذه الاشياء بالغة بالغة فى النقل والتقليد ،
فلها طابع الحقيقة وملح الدقة اللذين يشهدان فى الوقت نفسه بعناية
الفنان واهتمامه ، ويضطر التقدم الذى احرزها هذا الفرع من فن الرسم ،
وحتى الآن ، لم يسبق ان تمت جهود أكثر نجاحا وتوفيقا من ذلك كى تنوب
عن حضور الطبيعة ذاتها (أى كى ينوب الرسم عن الأصل نفسه) .

اما بخصوص الصروح التى خلفت مصر وحالات دون غنائها ، فلم تكن
لدينا عنها الا معرفة شائعة قبل الحملة الفرنسية . بل لقد كانت هذه
الآثار محبولة لما تشكل تلم ، وسوف يقدم هذا المؤلف وصفا دقيقا لها ،
ولقد تعرفنا على الموقع الجغرافى لكل مبنى وبنائه على الخريطة ، ثم اتينا
بعد ذلك الخرائط الطبوغرافية التى تعرفنا بالمواقع الخاصة بمنشآت نفس
المدنة او بقومها بالنسبة للنيل او للجبال المجاورة ، وقد ضاعفنا من المناظر

المرسومة لهذه الخرائب الجبلية : أما الفنانون الذين ندين لهم بهذه الرسوم فقد أخذتهم روعة الموضوعات وما يشع منها من حلال هو جدير بها حتى أنهم لم يستطيعوا أى تكوين ولو كان اعتباطيا أو تصفيا ، أنهم إذن لم يلتزموا إلا بحقيقة النقل والتقليد بغية أن ينقلوا بإخلاص ولبقة نفس الأثر الذى أحدثته فيهم رؤية مصر ، وليس هناك بين كل منجزات البشر على الإطلاق ما قدم لعبقرية الرسم موضوعا أكثر سموا ورقة .

وقد قام هؤلاء عدة مرات ، وبالعناية المعلقة الفقة ، بقياس أطوال المباني ولطوال الأجزاء الرئيسية أو الانشائية التى يتكون منها ، وقد رسمت لكل هذه المباني تصنيفات وواجهات وقطوعات أخذت من جوانب عدة ومن منظورات خاصة ، ولقد حققت الرسوم والدراسات التى قسم نتائج عمليات القياس هذه كل ما نطبع إليه لدراسة العمارة المصرية ، ونستطيع نحن أن نستخلصها لاتشاء بيان تشبه تمام الشبه تلك التى وصفناها ، ولا بد لنا أن نلاحظ أن هذا العمل (من جانبنا) لم يكن تفسيرا تط على معنى الإطلال المعمارية التى أفلتت من فعل الزمن ، وإنما اشتمل على المباني الرئيسية لأمة متطورة ندين لها أغلبية الأمم الأخرى بنظمتها ومؤسستها . ولما واقع الأمر علينا لم نلاحظ فى مصر الحضرية وجود هذه الأسباب المتضاربة ، والتى ترمى ، على الدوام ، فى الأحواء الأخرى الى تصميم المنشآت ، وإلى مجدها ، إلى بعض الأحيان حتى آخر اثر لها ، ومع ذلك فإن هذه الأعمال تؤكد عن نفسها بنفسها مكنيتها الخاصة كذلك ضد جهود البشر ، وهكذا أمكننا اليوم أن نقدم لوحة لعمارة المصريين والتين قلنا قد سمعناها أجمل منشآتهم .

ومن الموضح أن هذه منشآتهم التى لا تزال باقية فى طيبة وابلولينوبوليس وفى أثينوسى ولاتومبوليس (١) هى نفس القصور التى سكنها الملوك (القدما) أو هى أكثر مملكت (المصريين القدماء) أهمية ، أنها كذلك هى نفس المباني التى وصفها كل من هيكاتب Hecate وديودور Diodor وسيراينون Strabon ، ولا يمكننا أن نعد ما هو أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الفن إلا معرفة هذه التماذج الضخمة التى تارت أعجاب الإغريق وطورت عبرتهم .

(١) وهذه المدن الأربع هى الآن على التوالي : الكرك ، وادغو ، ومنطقة خرائب بالقرب من العرابية الحديثة والخربة ، ولسنا . (الترجم)

وبالإضافة الى ذلك فقد اكتبنا على مثل وتقليد دقيقين لأمم النحت والحفر التي تزدل بها هذه الصروح ، لها الرسوم البارزة فتصغر الأشياء بالغة النوع ، كما أنها تخلق أضواء جديدة على علوم المصور القديمة ، وهي تتصل بتقاليد الحرب ، والحملات الدينية ، والظواهر الفلكية ، ونظاسم الحكم ، والتقاليد العامة ، والمعدات الأسرية ، وبالزراعة والملاحة وكلية الصناعات الخفية ، وقد حرصنا عند رسم عدد كبير من هذه المباني على أن ننقل بدقة كافة الرسوم والحروف الهيروغليفية ، ولم نحتفظ لها بأشكالها المردة لمصم ، بل بالنتظم والوضوح الخاص بآثارها كذلك ، وقد جمعنا الكتابات والنقوش القديمة التي تهم العلوم والتاريخ - وقلدنا بعناية الألوان التي لا تزال تحلى الصديد من المباني والتي تبدو وكأنها لم تفقد شيئا من بريقها الأول .

وبعد ذلك التحقنا بالخرائط الطبوغرافية ، وبالأشكال المرسومة ، وباللوحة المعمارية وبالرسوم البارزة وصفا موسعا ، جمعنا فيه كل الملاحظات التي لا يستطيع الرسم أن ينقلها ، وتحتل هذه الأوصاف على نتائج فحص مستفيض ، أصول وموثق ، ملون فيه على الدوام كثير من الشهود ، وكثرت هذه الأوصاف تهدف الى أن تعرفنا بشكل كاف على الحالة الزاخرة للمباني وعلى التدهور الذي حدث فيها بفعل الزمن ، وكذلك على نوع المواد التي استخدمت وعلى أمور كثيرة أثارت اهتمامنا ، ونجد في هذه الأوصاف ملاحظات متنوعة عن العمارة وحول أساليب البناء ، والألوان ، واستخدامات الأشياء المرسومة ، كما نجد ملاحظات حول طبيعة الأرض ، والتنبيهات التي نحدثها للبيئات الموسمية ، وحول موضوعات أخرى لم تكن واسعة بالقدر الذي يمكن لى تعالج في دراسات منفصلة .

وينتس هذه المنية ، تمنا بوصف المقابر الرائعة التي ملوك طيبة القديمة ، والكهوف الصخرية التي يحاهد عن طريقها الورع المجهود لأن يخذ نكرى واجساد الأجداد ، كما وصفنا الدلائل الخطية الأخرى التي كانت مخصصة فيها بيدو للحملات أو لمارسات غلمسة .

وتقدم أهرام ممفيس الشهيرة دائمة الصيت ، القليل من الأهمية لبا يتصل بالفنون الجميلة ، وإن كان ثمة دوافع أخرى ينبغي أن توضع لأبحاث بالمة الأهمية هذه المباني الضخام التي كانت موضوعا للملاحظات

تتخلصها اللغة ، وقد حددنا نحن من جانبنا موقعها الجغرافي واتجاهات جوانبها بالنسبة لخط الزوال ، وكذا الأبعاد الخارجية ، وأبعاد كل الغرف التي يمكن لنا أن نتوغل إليها ، وأخيرا فقد وصفنا كافة المباني الجانبية .

وقد افردنا اشكالا خاصة ، رسمت فيها كل من المسلات والمنازل والبول والتمنايل الشفطام والفتاوييت ومسلات مخططة أخرى ، ولم يكن من المستطاع نقل هذه الزينات الثمينة للصروح والأمكن المقدسة الى أوروبا دون بذل جهود هائلة لم تسمح الظروف مطلقا بنقلها على الإطلاق ، وان كانت توجد منها الوف لآل حضا جميعها بعض الأشخاص واحتفظوا بها لو أودعت اليوم في المتاحف العامة . وقد جلبنا معنا من مصر أحجارا منقوشة وتمنايل بأكملها أو محدودة وقطعا من البرنز وشظايا من الخزف أو الجورسلين ، وأحجارا مقطوعة ومثمنة تحمل نقوشا ورسوما غنية أخرى تتصل بالديانة القديمة وبطوط وبمادات أهل البلاد ، كما تتحصنا بأحجار عددًا هائلًا من مومياءات البشر ومن مومياءات المهرول من ذوات الأربع وكذا الزواحف والطيور واحتفظنا بالكثير منها ، وقد عثرنا في الصناديق والأكنية الفخارية التي تضم هذه الأحساد الجافة على تمثشة من نسيج نين . وعلى مذهبات وعقود وشام وحلق ، وعلى أعداد هائلة من الشظايا ، كما استخرجنا من هذه الصناديق مخطوطات عديدة من البرديات مغطاة بنقوش هيرغليفية أو بحروف هعائية ، وقد اكتشفنا هذه الأشياء وسط خرائب المدن القديمة ودخلت الحفريات الكثيرة التي اقتضى القيام بها الفحص الذي أجريناه للبقايا ، وكذلك في داخل المقابر المنيبة أو المكينة ، وفي بعض الأحياء أيضا في داخل البيوت العادية ، وقد جمعت كل هذه خلال أحداث الحملة الفرنسية ، وبينما إن من الضروري أن نضمن رسومها المجلد العام .

أما اللوحات الخاصة بمرحلة الحديثة فنمثل : ١ - المساجد ، والمقصور ، وبوابة المدن ، والبابين ، والمحاكم ، ومحاري العروس ، والمقابر ، والأحواش ، والوكالات المخصصة للتجارة ، والنقوش ، والميدانيات وقطع النقود . ٢ - الحدائق ، والحدائق ، والمدارس ، وفتوات الحرف ، والأسلحة ، ومقابر العائلات ، وبيوت الخاصة ، ومشتات المسكن ، والمكتبات ، والورش ، وفتوات المهن المخططة . ٣ - الاحتفالات السنوية ، المواكب ، الاحتفالات العامة ، التجمعات والأعياد الدينية ، الفريست العسكرية ، العادات الخاصة بالجنترات والزواج وبقراء السيد وعلمهم (م ٢٢ - وصف مصر)

وبالبلاد ١ - وأخيرا الشخصيات الهامة من مختلف طبقات السكان
أو من الأجناس الأجنبية والملابس والأسلحة التي تميزهم .

وقد سعينا ، في الدراسات التي تشكل جزءا من هذه الموسوعة ،
الى أن نكمل وصف مصر ونحقيق دراستها لها عن طريق مقارنة القواهر
ومناقشتها . ولم تكن نهدي مطلقا ، من هذا المنظور الثاني ، لأن نشرع في
بحث يقتصر على حدود محددة ، فالمرء لا يستطيع في واقع الأمر أن يلمح
أبعاده حول مصر مطلقا (منذ حد محدد) ، فليس ثمة موضوع في الدراسات
الاستقصائية أكثر من ذلك خصوصية أو أكبر أصاها ، فإذا ما ظنننا أننا قد
استوفينا مجالا ما في هذه الدراسات لما كنا نكون في واقع الأمر قد استوفينا
به ، ولكننا اقتصرنا على وضع نظام يكتل لنا أن نعالج كافة المسائل الرئيسية،
ولهذا السبب فإن مؤلفي الدراسات قد ركزوا بحوثهم على ما يأتي :

١ - المؤسسات والنظم ، العادات والتقاليد ، الآداب والعلوم
والفنون ، نظم التعليم والصناعة عند قدماء المصريين .

٢ - الجغرافيا القديمة والحديثة ، تاريخ مصر . الحكومة الحالية
لهذه البلاد ، الدين ، التقاليد ، العادات العامة والأسرية ، حالة الفنون
والآداب والعلوم ، الزراعة والصناعة والموارد العامة ، الملاحة والتجارة .

٣ - طبيعة وخواص التربة والهواء والمياه من الناحية الفيزيائية ،
الحيوان والنبات والمعادن ، جيولوجية مصر .

ويشكل كل واحد من هذه الموضوعات دراسة مستقلة ، وقد رأينا في
هذا الجزء من الموسوعة الذي يشتمل على الدراسات ، نفس القواعد التي
تراعى في الموسوعات الأكاديمية ، وعندما قام كاتب شهير بحق بنشر نتائج
رحلاته الى مصر وإلى سوريا فانه قد اثرى بالفعل الأدب الفرنسي بوصف
دقيق وبلغ عادات وحكومات هذه البلدان . وقد أسنا كيف تتطابق ملاحظاته
مع الأبحاث التي قمنا بها خلال الحملة .

ونتمنى الأبحاث التي دارت حول الجبال الفلكية التي اكتشفت في
السميد الى الجزء الأول من هذا المؤلف ، وإن كان نشره هو الذي تأخر .

ومع معظم الاحيان نسبت في المتألات المعيدة والمتسرة التي لوجدها هذا الموضوع الشهير بالفعل الى ككتب هذه الدراسة آراء تختلف عن تلك التي انتوى أن يؤسسها . ان النتائج التي تستخلص من الدراسة المتينة للنظم ان تسمح مطلقا بفهم تاريخ مصر داخل الطر تاريخ ضيق لم يستمر متابعه مطلقا في القرون الأولى للمسيحية ، كما ان هذه النتائج ليست اقل تعارضا مما يستخلصه أولئك الذين يؤسسون على افتراضات (احوال) المصور القديمة المعلة من ثلى الامة المصرية ، ثم لا يميزون مطلقا الفترات التاريخية ، والتي تصحق بالفعل مثل هذا الوصف ، من تلك الحسابات والأرقام التي تستخدمى عيلفت التكوين .

ويوضح لنا السرد السابق ، تلك الخطة التي اتبعناها في وصف مصر ، لقد التزم المؤلفون بملاحظة أعمال الطبيعة وأعمال الإنسان التي يمكن أن يليد بعضها في دراسة هذه البلاد ، وقد مثلت هذه الأشياء بالرسوم أو المناظر الرسومة أو بالخرائط أو التسمييفت كلها كان الأمر ممكنا لذلك ، لكن هناك عددا كبيرا من الظواهر لا يستطيع أن يقتنى اثرها سوى الحديث (أى البحث) لمبناها في الدراسات والأوصاف التي تشكل النص ، ولم لعل شيئا وجدناه لازما كي يكون الجانب الوصفى من هذه الموسوعة كاملا ، ولقد سهل وجود الاسلحة الرئيسية بالاقسلة الى ترحيب الحارات واسهام العديد من المراتبين والشهود ودقة الأدوات في القيام بهذه الأبحاث ومع ذلك تكثرا ما تطعت هذه الأبحاث بفعل أحداث وظروف بشومة ، وعديد من بين هؤلاء الذين قادمى الى مصر فتوقم للفنون الصيلة ، والذين جلبت لهم أعمالهم الصيلة اتعالا شديدا قد سقطوا حرمى بصيب اضطرابات كتفت تتجدد دون انقطاع لو فى مخطر شبه مؤكدة فتنهم اليها حيلة بلنبة ، وحلك آخرون دفعهم الى هناك شغفهم فى خدمة الطوم ولهم فى تشريف عائلاتهم ، واخصموا وطنهم بثائر دراساتهم ، حك هؤلاء فى شلب بعض فوق هذه الأرض الغريبة عليهم ضحايا للتردد والمصيان والاونة المملكة . ووسط هذا الخضم من أحداث الحرب ، توقفت الأبحاث العلمية فى بعض الأحيان بسبب مراقل لا يمكن السيطرة عليها فى حقيقة الأمر ، هكذا يمكننا ان نؤكد ان ثمة بعض أمور قد انفصلها ، لكن هذه الأمور ليست بالهيلة على الاطلاق ، ولعلك مان المؤلف الذى نشرنا الجزء الأول منه سيدم معرفة

مركزة ونقيطة من الحالة الفيزيكية لمصر ، وعن الصناعات الحالية للسكان ، وعن المنشآت التي أنشأها أجدادهم - وربما لم يكن هناك ، باعتداد كل القول المتحضرة ، أي بلد آخر قد خضع لفحص أكثر تفصيلا أو أكثر دقة .

وبخلاف هذا الوصف الطبيعي والتاريخي لمصر ، لقد كان بيلغور اقلية الفرنسيين في هذه البلاد أن تقدم المزيد من الفوائد والمزايا المرجوة ، بل لقد كان بيلغور الفنون أن تكون ، في الوقت الحاضر نفسه ، قد طورت وجمعت شملها النيل ، كما كان بيلغور الناس هناك ، بعد أن تخلصوا من إدارة عبثة وغير اتسائية ، أن يعكفوا بآمان على زراعة أرضهم وأن يبنوا من ثمار حرمهم ، وكان يمكن للمخترعات الميكانيكية أن تحل محل قوة الإنسان وتجعل أعماله أكثر يسرا ولوفر انتاجها ، وكان بالإمكان أن تتوطن بعض القبائل العربية في أرض أصبحت خصيبة وأن يدفع الآخرون إلى أعمال الصحراوات ، وأن تهرى هذه الأرض القصية بالنباتات والمحاصيل الأجنبية التي يمكن أن تجلب اليها أو تزداد كمية ما يزرع منها ، بل لقد كان بوسع الفرنسيين أن يقيموا هناك الكثير من المصانع الشينة ، كما كان من المستطاع إقامة ملاقات طيبة مع فارس والهند والجزيرة العربية ، وعبور ووصف هذه المناطق ، بل كان سيصبح في مقدور رحالة كثيرين أن يراقبوا (وأن يدرسوا) المجرى الأعلى قليل وأن يتحصوا المنشآت القديمة القائمة جنوب أسوان وفي الفيوم ، وأن يتوغل آخرون مع القوافل إلى الواحات وإلى بلدان أرياب الداخلية ، وأن نحصل على معلومات أكثر دقة حول الأنهار والحال ومناجم الحديد والذهب وكل المنتجات الطبيعية ، والحق ، وخاصة مناصر تجارة هذه القارة الشاسعة ، ولكن من الممكن كذلك أن يتم مشروع القناة التي من شأنها أن تربط بين البحرين وبذلك يبدأ جزء من تجارة الشرق يتبع طريقا مالح ليس طالما رغب العالم في وجوده .. كان يمكن أن يكون ذلك هو حال مصر اليوم لو أن قادرا محاكسا لم يعد بها إلى طفانها القديم ، ونستطيع هنا أن نؤكد أن ليس ثمة أية مبالغة في هذه اللوحة التي رسمناها للآخر ، فلقد كانت السنوات الثماني التي انقضت (منذ خروجنا من مصر) كافية لكي تزود هذه البلاد (لو أننا مكثنا فيها) بالكثير من الاكتشافات والمؤسسات النافعة ، فأي شيء هذا الذي لا نستطيع أن نتوقعه من نفسنا طويلا يمكن له أن ينتج عن الارتباط بفرنسا وعن التقدم المستقر لأغواء الممارف والفنون ؟

وعلى الرغم من أن العلوم قد شاعت - ربما - بدءا لظهور جزء من الأبل الذي كانت في ذلك الوقت جلى به ، إلا أنها قد خسرت الرابا الهائلة التى كانت توفرها لها الحلة الفرنسية . وتقدم لنا الموسوعة التى بدأنا اليوم نشرها جديدا رعبا للأبحاث الأدبية والطبية وسوف توفر لقراء جديدة من أسهل كل الفنون ، وليس لدى أولئك الذين أسهموا فى وضعها ما يضيفونه إلى مطلبه موضوعها .

كان حملهم يستلزم منهم نمسا مغفرا ، كما أن الحقوق التى يمكن أن تترتب لهذا العمل على الراى العام تتج من طبيعة موضوعه ذاتها لو من الظروف التى صاحبت تكوين مناسره ، فلذا ما نظرنا إليه من وجهة النظر هذه ، فإن هذه الموسوعة سوف تشكل صرحا هائلا للتاريخ والفنون ، كما أن هذا العمل العظيم يسهم فى مجد وطننا ، ونحن مدينون به لجهود مقاتلينا ، كما أنه يستمد أصالته من توجد العلم بالسلاح فهو شهادة وقرة اعنقتهما ، أنه تذكر منهم لوجود الفرنسيين فى واحد من أشهر بلدان العالم ، ولكل ما فعلوه هناك من تكريم للنصر باتخاذ طريق الحبل والشاح ، مظهرين حقوق المنتصر إلى مجرد ممارسة سلطة وصاية ، ويمكن لهذه الموسوعة أن توحى لبلاد البسطينية بشروعات تدعم مودة سلطانها إلى مصر وتعلم فيها حكومة أكثر انبعا لقواعد الحكم والإدارة ، وستظل تنقل إلى هذه البلاد أفكار وأبلى استقاء الفنون الجميلة وكل الذين يتعلمون بالشاح ونجهد إلى تقدم الحرف النافعة .

ولسوف يجد الناس فى هذا المؤلف الأساس ، مع ليهت الكتب التى ردمت اسم اليونان وإيطاليا ، لوحة لبنة للأثر المصرية ، وسبجد الناس فى متناول أيديهم أعظم ما أنتجه عبقرية الفنون واكفراها تلمبا ، ونحن يدارن النفس هذه التسلج فلابد أن يفكروا أنها هى كل ثمن النصر ، هكذا تعلم برنسا تمصبتها الفكرية من أسس منجزات المصور للتدنية رابطة على هذا النحو فكرى انتصاراتها بكل عصور المجد التى مررتها الفنون الجميلة .

أن مصر التى كفت تطيح لأن تعمل من مؤسستها ومنشآت الأشياء تعلم الفناء ، والتى تركت بها كل الفنون بصمت لا سبيل لمحوها ، ستمثل لوقت طويل تدفع بتلك المهابة العسكرية بل التى تعز يد روعتها ، والتى تجس من تقدم نماذج (الفن التى مررها البشر) خفة وطيش الطفل البشرى وعدم

استكراره . لقد شيدت هذه الصروح من قبل أن تنشأ مدن الأفريق بقرون عديدة ، ولقد رأت هذه الأثار نقشة ولزدهار صور Tyz وقرطاجنة وإفينا ، وكانت تحبل بالفعل اسم « العصور المصرية القديمة » في زمن أفلاطون ، وسيظل يعجب بها أحفادنا في وقت لن يبقى فيه في أى مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية أثر واحد لمنشآت شاخة اليوم .

وبالانسكة الى ذلك على البقاء الطويل لهذه الصروح لا يرجع لمقط الى خواص الطقس . بل هو ناتج بشكل خاص عن جهود هؤلاء الذين شيدوها ، ذلك أننا نكاد لا نستطيع أن نمطر ، على سفك النيل ، على اثر المنشآت روستية ، ان المصريين الأوائل لم يكونوا يعتبرون جبلا وجديرا بالاعجاب بهذا المعنى ، الا ما هو قابل للبقاء ويبقى على فكرة المنفعة العلية ، كن الفهم المبلى من وراء أعظم منجزاتهم هو جعل الأرض أكثر ملائمة لصحة الإنسان ، وأكثر خصوبة وأعظم انصاما ، فوصلوا الى تجنب المستقعات والبحيرات والى انتزاع كلالهم بكملها من الصحراوات اللبية (وهولوا الى أرض زراعية) ، كما فعلوا أخطر عدم ثبت منسوب الفيضانات باعتباطات نشطة تنسم يحد النظر وتضعف كل اعجاب الفنون ، فأسسوا منهم فوق اربعة ثمانية ، حولين مجرى النهر حسبما يترادى لهم او مقسمينه الى رواد وقنوات كثيرة ، وراوا الأرض نفسها تطل من ثلب المياه () ، فخلتوا — بمعنى كلمة الخلق — بأنفسهم سهول الدلتا الجميلة التى سرعان ما اصبحت بلغة الفراء ، ولقد ساهم ثبت الطقس وانتظام الظواهر الطبيعية فى طبع هؤلاء القوم بهذا الطبع المبقى من الوقت والخبرة والإصرار وهى الملاح التى تميز انظمتهم ، ولم يكتف هؤلاء القوم بان يزينوا شواطئ النيل بالكتير من الصروح الخالدة بل شرعوا فى اقامة أعمال بالغة فى ثلب الصخور التى تغلظ أراضيهم ، وهذه « المصر التحية او الدينية » تحلل فى منطلبتها عظيمة اولئك الذين كانوا يقطنونها ، وهى تلك العظيمة التى اثرتها كل الفنون .

وكان المصريون يعتبرون على نحو ما خالدا كل ما كانت له صلة بديانهم وحكومتهم ، فكثروا يعمدون على الدوام هذه الفكرة بقتلتهم

الصروح الكبرى والتي تظل على الدوام هي هي ، والتي تبدو وكأنها لا تضعف مطلقاً لفعل الزمن ، ولقد أدرك مشرعوهم أن هذا التأثير الروحي قد يسهم في دعم نظمهم ، وفي نفس هذا الاتجاه ، نقش هذا الشعب فوق قصوره ، ومعابده ومعابره ، صور آلهته وملوكه ، وملاحظاته للنجوم ، ومبادئه وحكمه المقدسة ، ومشاهد من عبادته وأعياده المدنية ، وهذه هي أقدم اثر يمكن أن يكون الإنسان قد تركه على ظهر الأرض ، وهي تنمى الى حضارة آسبا الحضارية التقدم والتي سمحت كل العصور التاريخية لليونان ، ولد أوفتتنا هذه الآثار على ما كانت عليه في ذلك الوقت معلول الاسم وتقليدها .

ولن يكون بمقدورنا مطلقاً أن نعجب بأكثر مصر وبخزائنها ، ولا أن نتذكر ما كانت مصر عليه في عصور مجدها ، دون أن نولي اعتباراً للآلام ونوبت الشقاء التي سببها مقددها لاستقلالها ولقوانينها ولحرفها . وسنظل نقدر على نحو أفضل مظهراتها ، وسنظل نتظر إليها اعتباراً منبهاً روحياً للأردم لم يكن أقل ضرورة ، في هذه البلاد ، من النهر الذي يرويها ، وسنظل على الدوام ، وعلى وجه الخصوص ، نفكر هذه الحالة المحزنة التي تردت إليها ، على الرغم من الثراء الذي يمكن أن تجلبه إليها ، في سنوات قليلة ، إدارة أكثر حكمة .

وهكذا فإن دراسة مصر ، الخمسية لهذا الحد بالذكريات العظيمة . نظل نفرنا بأن تطور العقل وتطور الصناعة إنما يرتبطان باستتباب النظم ، كما تظل توضح لنا ، وعلى نحو أفضل ، ما تسويه القوانين ، وما تسويه حكومة مستقرة مستقرة ، وسنظل نوحى لنا بدوام جديدة كي نحسب ذلك . ومثل هذه الدراسة لا يمكنها إلا أن توحى بالتفكير عقلية ومصلحية ، والا أن تنفض الطرف عن البحث في البهرج الثالث ، والا أن نقولنا نحو وحدة وبساطة الآراء ووحدة النظر . ولسوف نجعلنا هذه الدراسة ندرك على نحو أفضل أن التسمية الراسخة والعليلة للبقاء هي ذات مثابة لا تشبع من سواها ، وأنه ، اذا كانت الأتاحة الحافزة للأشكال والمتجزأت تسهم في التطور ، فإن فكرة الجبال الحق تحوى بالضرورة فكرة الرسوم والعظمة ، وسنظل توضح لنا هذا المبدأ بكل جلالته ، ولابد أن تكون لهذه الفكرة سطوتها الخلاقة إلى ذوق وإنجازات العصر .

الملاحظات

جنبنا في هذه الملاحظات كل الملاحظات المخطئة التي تتصل بمسألة هذا المؤلف أو التي يمكن لها أن ترشد القارئ عند استخدامه للأطالس ، وقد سمعت لذلك نبذة تاريخية تناولت الإجراءات التي اتخذت عند تجميع محتويات هذا المؤلف وكذلك عند نشرها .

بعد عودة جيش المشرق مباشرة ، أمرت الحكومة بأن تجمع كل الدراسات والفرائط والرسوم وكافة الملاحظات التي تتصل بالمعالم والفنون والتي جمعت أثناء الحملة في مؤلف عام ينشر على نفقة الخزينة المالية ، ودمى الأشخاص الذين سبق لهم أن ساهبوا في هذه الأبحاث كي يفتحوا الكتابات أو الرسوم التي ينفي لهذا المؤلف أن يكون منها ، وفي نفس الوقت عهد بإدارة هذا العمل إلى لجنة مكونة من ثمانية أشخاص عدهم وزير الداخلية بأعضائهم ممثلين لكل جماعة المؤلفين ، واختارت هذه الجماعة بنفسها بعد ذلك ومن طريق الاقتراع ذلك الشخص من بين أعضائها الذي يناط به كتابة المقدمة التمهيدية ، وقد عين السادة برتولة ، كوتيه ، كوستار ، ديجينيت ، موريه ، جيرار ، لاكويه ، مونج أعضاء في اللجنة التي تبارس الاشراف العام على مختلف أقسام هذا المؤلف بالإسنادة إلى تنظيم نقادته واقتراحها بموافقة الوزير ، وقد حل محل السيدين كوتيه ولاكويه على التوالي السيدان جوملر وجولوا (ج) ، أما السيدان ديبل ودينييه فقد ضما إلى هذه اللجنة في بداية عام ١٨١٠ .

وكان من الضروري أن يعين توميسير - سي يولى تنظيم ومباشرة تفاصيل التنفيذ ومراعاة المصاريف ، والتقسيم بين كل أجزاء العمل ، بالأسئلة التي ترتبها المادة وفقا للنظم الذي اتفق عليه ، وعليه أن يختار الحفارين وأن يستلم منجزاتهم وأن يضعها تحت عهص اللجنة وأن يقدم

(ج) اكتفيت بإيراد الأسماء هنا بالحروف العربية حيث سبق ورود كل أسماء علماء الحملة بالحروف اللاتينية في مذكرة المسيو بالقوك . (المترجم) .

كشفا بالمساريف وبقا بالتقدم المضطرب في العمل ، وفي النهاية لم يغير مختلف نواحي العمل في حذر وطبامة اللوحات ، وقد عين الوزير ، لم يشغل هذا العمل ، المسيو كوتيه ، الذي أحدثت وفاته لسفيا بالغا ، هو الرجل الذي قدم لوطنه وللمطوم خدمتلا تنسى وهو الأمر الذي وجدنا أن الواجب يلتصق منا أن نذكره في مقدمتنا التاريخية . وقد خلفه المسيو ميشلاتج لانكريه ، مهندس الطرق والكبرى ، في مهلة عام ١٨٠٥ ، وكان قد لمت إليه الانتظار منذ وقت طويل بمحاربه للتنازلة للنسبة في مجال الهندسة وفي كل مروع الفلسفة الطبيعية ، لكنه سقط صريع مرض مزمن ومؤلم عند نحو مهلة عام ١٨٠٧ بعد أن قدم إمارات لا حصر لها على حيلة قل أن يجد لها نظرا ، وحل محله المسيو جومار مهندس المساحة السابق والمشرق على المخازن العسكرية والذي خصص لهذا العمل منذ وفاة المسيو كوتيه منلقته المتدبرة . وقد اخترت اللجنة المكلفة بإدارة النشر ، من بين أعضائها ، يوسفانة وزير الداخلية سكرتيرا موكلا بالمراسلات المحلية ، يقوم بتدوين المدلولات ، وبالمرافقة المباشرة في طبع المراسلات ، وبالمساهمة مع القوميسير الخالص في جمع وتصويب اللوحات ، ومهد بهذه المهمة على التوالي إلى السيدين لانكريه وجومار ، ويشغلها اليوم المسيو جولوا مهندس الطرق والكبرى ، ويشرف المؤلفون المقيمون ببريس على حفر رسومهم بالتصديق مع قوميسير الوزير .

كان الهدف الذي توخناه عند وضع هذه الموسوعة أن نقدم بالتتسليم المتسلسل التي تتصل بحصور مصر القديمة ، وبالحضارة المرائنة والتاريخ الطبيعي ، وجغرافية مصر ، أي بتجميع المتاعفم الرئيسية لدراسة هذه البلاد . وقد وزع هذا العمل الكبير بين عدد كبير من الذين اسهموا فيه ، وقد كونا عن طريق تجميع أصنامهم ، الوصف الكامل الذي كنا قد توخناه ، وقد وجدنا من الضروري أن يتم فحص هذا الجزء من هذه الموسوعة من طريق المؤلفين مجتمعين ، وليست هناك دراسة واحدة لم تعرض بشكل مفصل أمام الجمعية المحلية حيث خضعت هناك لمدلولات دقيقة . وكان المفروض من هذه المناقشات المحلية ضمان دقة الوثائق ، واستبعاد أو تصويب الأعمال المجرمة أو غير الدقيقة : وأضمت هذه المناقشات لأولئك الذين قبلت أصنامهم نوعا من الأسئلة أو التوفيق تلك أنه لم يسمح بنشر لأي من هؤلاء إلا بعد أن نالوا الموافقة في اقتراح ، وبثقلية الأصوات . لكن هذا الفحص

لم يكن ليقتد مطلقا كى يتناول الأفكار التى تبناها مؤلفو الدراسات أو الى الفنتيج التى استخلصوها من أبحاثهم ، ومع ذلك فلا ينبغي أن نرتب على ذلك أن جماعة المشاركين كفت تشاطر على الدوام هذه الآراء ، أو حتى كفت تشاطر هذه الآراء تلك اللجنة التى كفت تتولى نشر الأملال .

ولسوف نقسم الجزء الأخير من وصف مصر قائمة بأسماء كل الذين سيسهمون فى هذه الموسومة ، وعندئذ فقط يمكن لنا القول بأننا قدبنا قائمة عالية وحقيقية ، وستحل هذه القائمة الشاملة محل تلك اللوائم الجزئية التى ستبقى بكل جزء ، وسوف نشيف كذلك أسماء المشاركين الذين أوقف الموت أعمالهم أما بعد رجوع جيش الشرق وأما خلال الحملة .

ولقد سهل من إنجاز هذه المهمة الكبيرة تلك الرعاية المستمرة من جانب الحكومة ، ولقد قدمت هذه الرعاية الكثير من التشجيع الى الفنانين المصريين حين سمعت الى أسهم منظم ومواظب لعدد كبير من الفنانين ، كما أمنت هذه الرعاية فى النهاية الى اشواط جديدة فى تقدم هذا النوع من الرسم ، وقد اكتسب علم الخرائط الطبوغرافية ولوحات التاريخ الطيهي ، ويشكل خامس لوحات العبارة ، درجة من الانكشاف لافعة للنظر ، وسيجد الناس فى هذا الانكشاف نماذج كثيرة من العمل بالغة النقاء وبالفه التعلم ، وعند التدرب على كيفية التعبير عن الطابع العظيم الذى للبقا المصرية ، تكون لفاتون شبلى ، تهلوا بالفعل بمواهب نادرة .

وقد استخدمنا كذلك اساليب جديدة منذ طباعة اللوحات ، وقد طورنا من صناعة الورق القديم ، واقتضى الأمر أن ننشئ مكتبس ذات شغلية لم تكن مستخدمة من قبل ، وفى الواقع فإن حجم الإنتاج المصرية التى التزينا بنقلها جميعا بنفس النسبة (نسبة حجم الرسم الى الأصل) كان يتطلب من الورق المخصص لطبع اللوحات أمجلا غير عادية . وقد قمنا بجهود ناجحة لتطوير هذا النوع من فروع الصناعة الفرنسية ، وتضارع المنتجات التى حصلنا عليها بمنتجات المستع الاجنبية بل تتفوق عليها . ومن بين كل التنقيح الجديدة التى أتمجها هذا العمل ، والتى لم تكن المنون فى فرنسا قد مرتت تطبيقا لها ، قمنا ندمن بالكثير هذه المنجزات نفعا لكفاءة المسيو كونتيه الخلافة وموهبة الاختراع لديه ، ولم يكن من المستطاع التعبير عن صفو أسماء مصر الا بواسطة ألوان بالغة الانبساط تخضع لدرجة من التفسول أو التدرج

مستوية ، كما كان يلزم لرسم المساحات المساء والمسيحة التي تستخدم
أرضية المرسوم البارزة المصرية أن تستخدم صنفات مقلوبة يمكن لها أن
تنتج عند النظر إليها من مسافة قريبة نفس الذكر الذي للتصوير الخلفي ،
وقد توصلنا إلى حفر السموات والأرضيات بمسونة يمكن استعمالها بها من
عمل طويل وبماض التكاليف . وقد تنوع جبال الأتجار على كل ما كنا لمنتظره
من غلى مقمرس ، وهكذا رويدنا استخدم هذه الأداة ، التي كانت كذلك مونا
كبيرا لذا على أنجار لوحات العمارة ، نتائج خلفه التمام ، كما امت إلى تومير
هائل في نفقات الحفر وفي الوقت كذلك .

وبالإضافة إلى الخرائط الجغرافية التي أنتجناها الآن كلها وإن كان
نشرها قد نأخر فإن الأطلس وصف مصر يحتوي على أكثر من ثمانمائة لوحة ،
لم تمثل فيها على الإطلاق ، وبشكل مستقل ، أمور ضئيلة الأهمية ، بل على
العكس من ذلك فقد جمعا على نفس الورقة أكبر عدد ممكن من الرسوم
وزعت عليها بانتظام وسيمرية ، وقد نجحنا في أن نملأ شكلا موحدا
وبمقاسا إلى كل يتألف من ألوان الأجزاء ، كما أسهم فيه عدد كبير من
الأشخاص .

ولهذا فإن هذه الموسوعة ينبغي أن تعد عملا مخصصا لدراسة
وليست عملا من أعمال الترف ، كما أن نمط الجبال الذي كان يتناسبها كان
يكن في التنفيذ الدقيق والصحيح ، وفي الواقع فإن هذا هو الطابع الخاص
الذي نؤرخنا أن نمطه له ، بالإضافة إلى أننا لم نستبعد شيئا يمكن له أن
يسهم في دقته ، ثم أن حرصنا على أن نجعل دون اضطراب كل الأشياء التي
من نفس النوع قد قلل بفرجة هائلة من التفتت ومن عدد اللوحات ، كما
سمح لنا بأن نفسن هذا الأطلس أكثر من ثلاثة آلاف رسم خالص .

كما نعتبر ملة لوحة على مدار العام ، وقد تطلبت غالبية الأعمال من
نفس النوع والتي نشرت حتى اليوم فترة أطول من الزمن ، على الرغم من
أننا لا نستطيع أن نضمها موضع المخلوطة مع جبلنا الحالي سواء من حيث
حجم أو عدد الموضوعات التي تكون اللوحات ، وأننا لندين بشكل أساسي
بهذه النتائج العظيمة ، والتي ما كنا متأخرين على الوصول إليها دون دعم
ظروف غير اعتيادية إلى السلطة الحالية التي ترحم اليوم وتساعد على تقدم
الفنون الجميلة والتي تبث الهمة والنشاط في كل إدارات الحكومة الفرنسية .

التصميم المرفق

يتكون وصف مصر من ثلاثة أقسام اشترنا إليها بالاسماء الآتية :

- ١ - العصور القديمة .
- ٢ - الحالة الحديثة (او الدولة الحديثة) .
- ٣ - التاريخ الطبيعى .

واتبعنا فى القسمين الأولين نفس ترتيب الأملكن ذاهبين من الجنوب الى الشمال بدءا من جزيرة فيلة حتى البحر المتوسط ، ومن الشرق الى الغرب بدءا من بيلور (بالوطة) حتى الاسكندرية ، كذلك فى التاريخ الطبيعى ، فلقنا بالمال قد رقبنا المملدن من الجنوب الى الشمال ، أما بقية الأقسام فقد وضعت فى شكل ملاحظات . وتشتمل المصور القديمة على كل الآثار السابقة على دخول العرب الى مصر . أما ما هو لاحق بذلك فيشكل الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة (لمصر) .

ولكل واحد من هذه التقسيمات الثلاثة عدة مجلدات للوحات ، وعدة مجلدات كذلك للنصوص التى تتعللها .

من اللوحات مكونات المجموعات

يشتمل المجلد الأول من اللوحات بخلاف جزيرة فيلة كل البلدان الواقعة فيما بين الشلال الأخير ومدينة طيبة . فيضم أسوان والشلالات ، الفاتنين ، كوم ليهو والسلسلة ، ادفو الكلب (وهى Ethyle القديمة) ، أسنا ، أرمنت ، ويتكون المجلدان الثانى والثالث من المصور القديمة لطيبة وحدها ، ويشتملان على المردفات والرسوم والأشياء الأخرى التى وجدت فى المقابر . أما الرابع والخامس فيشتملان على المباني الأثرية الواقعة الى الشمال من طيبة ، شاملة : فندرة ، أبيدوس ، أنتهوبوليس ، هريوبوليس ملجنا ، أنتهوى ، الفيوم ، الأهرام ، ممفيس الكهوف ، آثار هيتا نوميدي ، مصر السفلى ، هليوبوليس ، ككوب ، الاسكندرية ، نابويزيريس (١١١) .

(١١٢) وهذه المدن والأملكن هى حلقيا : فندرة ، العراية المدفونة ، قلو الكبير (مركز طهملها) ، والأسمونين (مركز ملوى) ، خرائب بالقرب من نولة للشيخ عبادة ، الفيوم ، الأهرام ، ميت رحينة ، الكهوف ، بنى حسن ، لالوكة البحرى ، مين شمس ، أبو قير ، الاسكندرية ، لكن دلويزيريس انفشرت وكانت تقع الى الغرب من الاسكندرية . (الترجمة) .

وضمننا اليها المجموعات الهيروغليفية والنقوش والنقود والفخاريات والتمائم
والعقديات الأخرى .

ويشتمل المجلد الأول من الحفلة الحديثة على مصر العليا ومصر
الوسطى والقاهرة ومصر السفلى وأخيرا برزخ السويس وسواحيه .
ويشتمل المجلد الثاني على الإسكندرية ، ومجموعات الحرف والفنون ،
ومجموعات الملابس والوجوه (للشخصيات) ، ومجموعة الفخاريات
والأكلائات والاموات ، وأخيرا مجموعة النقوش والنقود والميداليات .

وتتكون مجلدات التاريخ الطبيعي من الثدييات والطيور والزواحف
والأسماك النيلية ، وأسماك البحر الأحمر ، وأسماك البحر الأبيض ،
والعشرات في كل من مصر وسوريا ، والرحويات والديدان ، والمرجانيات
والنباتات ، وأخيرا سفور وحفريات مصر وشبه جزيرة سيناء .

أما عن الأطلس الجغرافي لمصر ولبنان فإنه يشكل في هذا المؤلف
تسما خالصا . وقد توزعت اللوحات بالنسبة للأمكنة ، تبعاً لترتيب التالى
والذى راعيناه بشكل استثنى بخصوص العصور القديمة :

- ١ — خرائط عامة وطبوغرافية .
- ٢ — مشاهد الجبال في حالتها الراهنة .
- ٣ — خرائط خاصة بالمباني ، قطوع طولية وعرضية .
- ٤ — تفاصيل مصيرية .
- ٥ — نقوش بارزة ، رسوم ، تماثيل مزيّنة ، الخ .

وقد رأينا في بعض الأحيان أن من الضروري أن نضيف منظورات
مرمجة .

ويخالف أعمال الحفر التى تمت ، فقد وضعنا في اللوحات تفاصيل
محفورة في شكل خطوط ، لها لونها تسمى في بعض الحالات ، وأما لكي تحتفظ
لها بأكبر قدر من الدقة الممكنة ، وهو لم يكن بالغ الأهمية بالنسبة للنقوش
الهيروغليفية ، وقد نشرنا أيضا ، في شكل خطوط ، لوحات المباني الفلكية ،
منفصلة من أعمال الحفر التى تمت .

عن الفيلسوف وعن المؤلف التي توجد فوق اللوحات

تحمل كل لوحة في الزاوية العليا الى اليسار واحدة من ثلاث علامات :
A ، E.M ، H.N (⌘) ، يليها رقم المجلد مكتوبا بالأرقام
الرومانية .

وفي الزاوية العليا الى اليمين نجد رقم اللوحة مكتوبا بالأرقام العربية .
وفي الجزئين الأولين من المؤلف : اللذين قسمنا تبعا للأماكن ، يوجد
في الرأس ، وعند منتصف اللوحة اسم المكان . وهذا الاسم مزوج ليسا
يختص بالمصور القديمة ، الاسم الأول هو الاسم الحالي للبلد والثاني هو
اسمه اللاتيني ، أما إذا كان البلد يحمل اسما استعده من لغتنا فكنا نكتب
بهذا الاسم وحده ، وقد أخذنا الأسماء اللاتينية من كتاب مصر القديمة
d'Anville AE gyptus Antique من تأليف دانتول

أما في ذلك الجزء من هذين القسمين من المؤلف والذي لم يرتب وفقا
لترتيب الأماكن وإنما تبعا للمجموعات ، فقد وضعنا في موضع أسم المكان
عنوانا يدل على نوع هذه المجموعة ، وقد جمعت اللوحات التي تنتمي الى
هذه المجموعات نفسها في شكل سلسلات متتالية ، وقد توضح الترتيب
بالأرقام الرومانية أو بحروف .

أما العنوان المكتوب في أسفل كل لوحة فيدل بشكل مختصر على الآثار
أو الأشياء المرسومة ، ولكن ندرج بالتفصيل على موضوع ومختلف أجزاء
العمل ، فلابد ان نلجأ الى شرح اللوحات .

وعندما تتكون لوحة ما من عدة اشكال ، فإن كل شكل يحمل رقما يحيل
الى شرح اللوحات .

وقد بينا في المشاهد المرسومة أو المنظورات كل واحدة من النقاط الهامة
بواسطة نفس الرقم المكت على الجفتين المتحورين من اللوحة عند الطرفين
الأعلى والراسي ، اللذين يبران بهذه النقطة .

(⌘) اي على التوالي : العصور القديمة Antiquités ، الدولة
الحديثة Etat Moderne ، التاريخ الطبيعي Histoire Naturelle

عن مقاييس الرسم المستعمدة في اللوحات

نجد على معظم اللوحات مقاييس للرسم : أحدها على اليمين مقسما حسب نظامنا المترى ، والآخر على اليسار حيللا المقاييس الفرنسية القديمة .

واستخدمنا في رسوم البقى الأثرية مقاييس رسم مشتركة حتى تكون المقارنة بسهولة بين كل الأحجام ، وقد اخترنا بالنسبة للجزئين الأولين من المؤلف المقاييس الآتية وهي التي اتبعناها بالنسبة لكل الباقى .

كان المقاييس المستخدم في التصميمات هو : $\frac{1}{2}$ م لكل متر أى (١ : ١٠٠) ، أما مقاييس القطوع الطولية أو العرضية فهو ١ م لكل متر (أى ١ : ١٠٠) ، أما بخصوص تفاصيل الصلابة والتعت فقد تبيننا بمقاييس أكبر تناسب مع نوع ومساحة الأجزاء الرسومة .

وكان من الضروري في الخرائط العلمية أو الطبوغرافية ان نستخدم مقاييس رسم مختلفة تتفق كلها مع النظام المترى الفرنسى .

وبخصوص أعمال الحفر التى تناولت البرقيات وقطع النقود فقد أخذنا لها بنفس أحجامها الأصلية ، ونفس الأمر بصفة عامة بالمسحة لوضوعات التاريخ الطبى .

وعندما يوضع مقاييس الرسم في أسفل اللوحة ، وفي هذه اللوحة نفسها نقط دون ان يحمل تمديدا لأى شكل فإن هذا المقاييس يختص باللوحة كلها ، أما حين يوضع مقاييس الرسم أسفل شكل ما ، فإنه لا يختص إلا بهذا الشكل ، وعندنا نجد بعض اختلاف بين جدول المقاييس وبين المقاييس التى أخذت من الرسم فلا بد لنا ان نحدد على الأولى ، لمن المخطوم ان انكماش الورقة منذ الطبع يقلل المقاييس بنسبة ١ : ١٠٠ .

عن القطع (Cote) أو عن المقاييس

ميرنا عن المقاييس التى حفرت على اللوحات بالمتر وبأجزاء من المتر ، وتدل المسلة أو النقطة على مشربك المتر .

ولكى نحدد طرق المسافة التى قوسمت ، عملنا خطوط اتصال بالغة

(Cote) القطع هو رقم يوضع على رسم ما ليبدل على مساحة أو على فرق الارتفاع بين نقطتين .

الدقة كتبنا فيها بينما القطع (الرقم الدال على المساحة أو غلق الارتفاع) ،
 وحين يكون الفراغ واسما بعض الشيء ، كما نقتطج جزءا من الخط الرقم
 ويوضع القطع بين المسافة التي يعبر هذا القطع عن أطوالها .

أما في القطوع الطولية والعرضية ، لقد وضعنا أنقطع الألقى في بعض
 الأحيان بحاقب المرافقت التي يدل على قياسها ، ولكي يبين قطر أحد الأعمدة
 كما نكتب diam ولكن نبين المحيط كما نكتب Circ .

ولتصديق اتجاهات الخرائط الطبوغرافية أو تصنيفات المسكن ،
 استخدمنا خط الزوال المقتطبي ، وتقسى الدرجات الموضحة الى التقسيم
 السدس .

أما مجسات الموائى وجداول المسح (أو التفتيش) لقد عبرنا عنها
 أما بالأقدام وأما بالأمتر تبعاً لنوع المقاييس المستخدمة عند القيام بهذه
 العملية أو تلك .

بيلفت أخرى

في الكلمات المكتوبة على الخرائط العامة استخدمنا الحروف الكبيرة
 Capitales لتبين أسماء المدن والضواحي والبنى الأثرية والأسماء
 الدينية ، واستخدمنا الحروف الرومانية (الصغيرة) للقرى والغرائب والمباني
 المتنوعة ومخططات الصور الفنية ، والحروف المائلة Italiques
 والمعادية المرسمة Cursives لبيان اختلافات الارتفاعات كالجبال
 والطرقات والريال والانتقال الخ .

وفي هذه الخرائط العامة ننسها ، وفي اللوحات الخاصة بالمعملة ،
 تدل الحروف الكبيرة المتباعدة على المباني الأثرية الرئيسية صادة وعلى النقاط
 التي أخذت منها المشاهد الرسومية والمنظورات ، واستخدمت هذه الحروف
 كذلك في لوحات المعملة عند تحديد خطوط القطع ، وتبين الحروف الرومانية
 والمائلة مكان تيجان أو قمم الأعمدة والنقوش البسائرة ومخطط التفصيل
 المعمارية . ونجد دلالات هذه الحروف والأرقام المتباعدة في شرح اللوحات
 Explication des Planches

ولم نستخدم في خريطة الأثر المصرية إلا طعاماً واحداً ذا لون بالغ الخفة
 لكي نبين الأجزاء المنخفضة مثل الجدران التي بين الأعمدة ، واستخدمنا
 طمحين بلون شاحب للأشيرة الى الأجزاء التي رمت بأكملها ، وبين طمحين

لكثر كتلية تلك الأجزاء التي تهدمت والتي لا زلنا نرى أسسها ، وأخيرا
فإن اللون الأسود المظلم يفسر إلى الأجزاء التي لا تزال قائمة . وقد رسمت
المنشآت والمباني الجرانيتية في الخرائط بواسطة تطوع خطيء بالنقطة .

وقد صنعت أوراق لوحات هذا المؤلف بثلاثة أشكال (موريت) خلاصة
ذات أطوال مختلفة وإن كانت ذات عرض متساو ، بحيث تتفق هذه الأشكال
المختلفة على اختلاف أطوالها في عرض يبلغ ٢٦ بوصة أو ٧٠.٤ متر من المتر .

أما الشكل الأول وهو أكثرها شيوعا ويتفق مع نفس أطوال الأطلس
الكبير ، فيبلغ أطواله ٢٠ على ٢٦ بوصة أو ٥١.١٨ من المتر على ٧٠.٤ متره .
أما الثاني فيبلغ أطواله ٤٠ بوصة على ٢٦ أو ١٠.٨٢ مترا على ٧٠.٤ من
المتر . ويبلغ أطوال الثالث ، بوصة على ٢٦ أو ١٢.٥٤ مترا على ٧٠.٤ من
المتر . وزيادة على ذلك يوجد حجم غير مادي تبلغ أطواله ٤٢ بوصة على
٢٠ بوصة أي ١٣.٧ مترا على ٨.١٢ متر . من المتر .

وفي أسفل كل لوحة ، أو كل شكل ، إلى اليسار ، حفر اسم المؤلف
الذي قام بالرسم ، أما اسم الحفر فيوجد دائما على اليمين أو في الوسط .

٢٢٢٢٢

يشتمل النص على دراسات ووصف وكذلك على شروح منفصلة
للوحات وللأطلس . والنشر من شرح اللوحات هو تسهيل استخدام
الأطلس ودراسة ما رسم فيه ، وتحتوي هذه الشروح على تفاصيل لم يستطيع
الحفر أن يعبر عنها ، وقد ميزنا فيها أجزاء الزينة التي رسمت في رسوم
العمارة ، كما بينا فوائدها هذا الترميم ، وينبغي اللجوء إلى اللوحات التفصيلية
لدراسة النقوش الهيروغليفية التي جُمعها من أماكنها ، وقد ضياعها وطبعها
بحروف صغيرة ملاحظة تصوب أخطاء الحفر أو ما استبعد هذا الحفر .
وفي بعض الأحيان اضطررنا في شروح اللوحات لملاحظة لم يفسر أن نجد لها
مكتبا في الأوصاف .

Descriptions

ويحمل القسم الأول من النص عنوان « لوصف »
وهو يتبع ترتيب الأمكن على نفس طريقة مجلدات اللوحات ، أما القسم
الثاني فيحمل اسم دراسات (أو مذكرات) Mémoires ، ويشكل مجلدات
منفصلة .

وتشكل توصف المدن ويبقى الأثر عدداً من الفصول لبيان عدد الأماكن الموصولة والرسومة ، والفرس من هذه الأوصاف هو التعريف بالحالتين القديمة والراهنة للأماكن ، وقد صحت هذا الوصف بملاحظات تاريخية وجغرافية ،

أما الدراسات أو المخبرات فهي عبارة عن البحوث والمقالات التي كتبها من مؤسسون علمية أو خالصة ، مثل : الحالة التاريخية لمصر ، تاريخ وجغرافية البلاد ، التشريعية والتقاليد ، الديانة واللغة والفلك ، الفنون أي الحرف والزراعة ... الخ . عند المصريين القدماء والمحدثين ، وقد ضمت هذه الدراسات إلى بعضها البعض دون أن تتبع في ذلك ترتيباً محدداً كما يحدث في الموسوعات الأكاديمية ، فقد فصلنا الفاعلة التي تعود علينا من أعداد جدول للمواد بشكل أسهل من تلك التي تعود علينا من جراء التقسيم المنهجي لهذه المواد .

وقد قسمت الدراسات والأوصاف ، مثلها مثل اللوحات إلى ثلاثة أقسام ، تتفق مع ليس تقسيم اللوحات ، وبهزت بالحروف A (المصور القديمة) ، و EM (الحالة الحديثة لمصر) و H.N (للتاريخ الطبيعي) . وقد وضعت هذه الحروف ليعمل الصفحات على يسار الوجه الأول لكل ورقة ، واضفنا إلى ذلك الحرف D للدلالة على الأوصاف ، بخلاف A.D تعني « العصور القديمة - أوصاف » .

من القسم الأمثل المتبع بالنسبة للكلمات العربية (ج)

خضعت عملية نقل الكلمات العربية إلى كتابتها بحروف فرنسية لمصوبات لم نستطع التغلب عليها بشكل نهائي ، لأنها ناتجة من اختلافات أساسية في الفتيات الخاصة بكلا اللغتين ، ومع ذلك فقد أمكننا أن نبر

(ج) على الرغم من أنه قد لا يكون في ترجمة ذلك ما يفيد الفاريء العربي إلا أننا نقدم هنا المترجماً منا بلنص الأصلي الكامل من جهة ، وللقوف على بعض المشاكل التي واجهت علماء الحملة وكيف حاولوا التغلب عليها من جهة أخرى (المترجم) .

بقية كلبية بمعنى الشيء عن النطق الصحيح للكلمات العربية ، مع أننا لم نستخدم إلا وسائل بسيطة للكتابة ، ودون أن نلجأ إلى استخدام علامات لم تكن تستخدم من قبل ، وقد أجبنا مطلباً موحداً للإملاء ، الغرض الرئيسى منه أن تزود الرحالة بوسيلة مؤكدة يجعلهم يتعلمون على الكلمات عند سماعها تنطق في البلاد .

وقد قررنا فيما بيننا ألا نستخدم سوى حروف هجائنا ، واحتفظنا في كل كلمة بالحروف الساكنة الأصلية ، وتلدبنا استخدامها لا جدوى منه للحروف المتحركة (بشدة فوق المعين) وهذه تغير على نحو طفيف من النطق ، ولم نستخدم إلا حرفاً واحداً لكل الأنواع المختلفة من حروف :

d, h, s, r, t, z

وهي أصناف من الحروف لا تختلف في مصر إلا بفخمية أو رفة نطقها (أى أن حرف d يمكن أن ينطق دالاً أو ضاداً ، و h يمكن أن يلفظ هام أو خاء وهكذا) ، وقد استخدمنا فقط توكيفين (أى حرفين من اللمسة الفرنسية مقابل حرف واحد من العربية) هما الـ dh مقابل الـ f اللينة (أى النين) والـ kh التي تشبه نغمتها ch في الألمانية أو () في الإسبانية (وهى الخاء العربية) كما استخدمنا علامة (أحرف ن) apostrophs موضوعة على يمين حرف متحرك للتعبير من النغمة الحلقية للحرف q مكتوباً وحده للإشارة على الـ k المنخفضة (الفاء العربية) والتي اعتاد المصريون أن يلفظوها على شكل فجوة لفظية بين حرفين متحركين (أى يلفظونها كالفجوة) ، ولم نتكهن من الاستقراء من اللجوء إلى علامات متفق عليها للتعبير من هذه الحروف الأربعة الساكنة والتي هى غريبة تماماً على لساننا ، وقد تبيننا هذه العلامات لأنها جاءتنا منذ زمان بعيد عن طريق أمس متخصصين في اللغات الشرقية ، أما الحروف الأخرى ، سواء كانت ساكنة أو متحركة أو مضممة أو مشكلة فنبهني أن نلفظ كما في حروف هجائنا ، وعلى سبيل المثال كان sy وهى تسمى تسمى حرف الألف (المكسورة) بالعربية أو تسمى الهزة مضمومة بـياء (أى) نلفظ عندنا نفس نغمة s كما في التركيبات . hey, day ، وفي أسماء أماكن أخرى معروفة في فرنسا ، ونلفظ كلمة السويس كما لو كانت Soue نكتبها نحن Soueyo وأحياناً Soue حسب الاستخدام الشائع .

ويجب أن نلاحظ أن كل الحروف سواء كتبت هي الحروف الأولى أو الوسطى أو الأخيرة تلفظ بطريقة ثابتة بحرف السين Ch تلفظ على الدوام شيئا كما في كلمة *branche* ، وتلفظ السين دائما شيئا كما في كلمة *sage* وتلفظ الهاء h بنفس الطريقة في بداية الكلمة أو وسطها ، لكنها لا تكاد تلفظ مطلقا إذا كتبت في نهايتها ، وينبغي أن نلاحظ كذلك أن حرف الحميم يلفظ (غير معطش) في مصر كما تلفظنا نحن في كلمة *gain* وأن كان الفرنسي يلفظونها معطشة كما تلفظ نحن في لغتنا *di* وعلى سبيل المثال فإن كلمة جدة تلفظ في مصر كما نقول نحن *gueddah* وتلفظ في الجزيرة العربية كما نقول نحن *djeddah* .

وعندما تكون أداة التعريف الـ متبوعة باسم أو بوصف يبدأ بأحد الحروف التي يطلق عليها تسمية وهي : ش ، د ، ن ، ر ، س ، ت ، ر ، ملابد عند النطق أن تلفظ هذا الحرف الساكن (حَسَدًا) عوضا من الـ الموجودة في أداة التعريف مثال ذلك : الـ سمك ، الـ شيخ الخ فلفظان اسمك (مع شدة على السين) واشيخ (مع شدة على السين) .

أما بخصوص الأسماء التي كان استعمالها قد شاع من قبل في فرنسا منذ وجدنا أن من الأفضل بالنسبة لنا أن نحفظ لها بشكلها المألوف لنا من أن نكتبها بالشكل التي تكتب به في العربية : وهكذا لم نكتب مطلقا في النواحيات (أو حتى في النص) أسماء مثل الطينة ، اسكندرية ، بيت رهينة ، جزيرة اسوان ، رشيد .. الخ ولكننا كتبنا :

Pakusa, Alexandrie, Memphis, Elephantine Rosette etc

أما في كلمات ميلوك Mamlouk ، شيخ Cheykh ، ولير Vistr سلطان Sultan ، وكلمت أخرى متشابهة نقاد حرصنا على وضع الـ S المثلثة في نهايتها تعبيرا عن الجمع ، أما بخصوص الأسماء الوصفية الأخرى مثل ملاح *folah* ولاترم *moûtazim* الخ فحسب كتبنا في الجمع بدون أن نضع هذه الـ S المثلثة .

الحروف الفرنسية مقابلة بالحروف العربية

| | | | |
|------|---|---------|-------|
| d | د | a, é, i | (أ) ا |
| f | ف | b | ب |
| x | خ | t | ت |
| g | ج | l | ل |
| s, ç | س | l | ل |
| ch | ش | g | ج |
| i | ي | h | ح |
| gh | غ | h | هـ |
| j | ي | kh | ك |
| q | ق | d | د |
| k | ك | d, z | ذ |
| l | ل | d | د |
| m | م | o | (و) و |
| n | ن | y | (ي) ي |

وعلى العموم نجد مبرنا من الفتحة بالحرف * (كذا) والكرة بالحرف * ثو ا فيما للنطق القصاع ، وعندما تنبعسه الياء ' ya ملقنا لم نعب من ذلك ، كذلك ، ملقنا لم نلق بالالفدة اى العلامة الدالة على تضامف الحرف بالنسبة لحروف الشين oh والذين oh والهاء kh والواو ou والهاء ya كما اتنا لم نعب عن التغيرات الأخرى الخاصة بالحروف البهائية العربية الا اذا كانت محسوسة من الآن في النطق الشائع أو المسمى .

(لنتمتع بكون الله)

- (١) عندما تكون الالف في البداية ملقنا لم نعب منه تنكس هذه الحروف بدون وضع العلامات ' , a .
- (٢) يتحول هذا الحرف نفسه عندما نطق به الف الى oh كما في كلمة ادنوا (كذا) Edno
- (٣) يعب من الياء البهائية بوضع تكتلين فوق حرف * : الالف المتصورة (كما في كلمات بال كبرى ولدى .

الفهرس

٣ مقدمة الطبعة الثانية

الكتاب الأول : دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر

٥ المحدثين تكليف شابرول

٧ تقديم : (مقدمة الطبعة الأولى)

الفصل الأول : لمحة عامة عن الطقس ومن السكك ومن

١٣ عادات وتقاليد المصريين :

من الطقس ١٥ ، من السكان وطبائعهم المختلفة ١٨ ،

من الأديان المختلفة ٢٢ ، من الألباط بشكل خاص

٢٤ ، من الممران على وجه الخصوص ٢١ ، من

المباليك ومن الأجانب الذين استوطنوا مصر ٣٥ ،

من العادات والتقاليد بشكل عام ٣٧ ، من الأمراض

الرئيسية ٤٧ .

الفصل الثاني : من الإنسان المصري في سنوات عمره

الأولى ، الطفولة والقرية ، الفنون والعلوم

٥١ والآداب :

من خصوبة المرأة ونظام الرضاعة ٥١ ، الختان ٦٤ ،

التعليم الأولى ٦٣ ، العلوم والفنون ٦٧ ، الأدب

والشعر ٧٠ .

الفصل الثالث : من الإنسان المصري في طور الرجولة ،

٧٧ العادات المنجية والأسرية :

من الزواج ٧٩ ، الانفصال والطلاق ٨٥ ، الطعام

٩٢ ، اللبسي ٩٧ ، التقاليد والعادات العامة ١٠٥ ،

الطباع ١١٥ ، من المنجية والحبول وكثرة دواب

الحبل ١١٨ ، تقاليد مرمز البحيرة ١٢٢ ، العيالات

العامة ١٢٤ ، الغاهي ١٣٨ ، الريفيسية والألماني

١٤١ ، الأعياد الدينية ، المياديد الرئيسية للعقيدة

الإسلامية ١٤٥ .

الفصل الرابع : الإنسان المصري في طور الشيخوخة ،

١٤٦ الموت والجنائزات

من احترام الشيخوخة ١٥١ ، الجنائزات ١٥٥ ،

المعابر ١٦٠ ، الحداد والتدابير ١٦٥ .

الفصل الخامس : النظم والمؤسسات ١٦٦ — ٢٢٨
رجال الشريعة والقضاء ١٧١ ، الأملاك الدينية ،
المبادئ الرئيسية للمقيدة الإسلامية ١٧٦ ،
الحكومة ١٨٦ ، القضاء ١٩٢ ، من الحقوق المدنية
الملكية ٢٠٢ ، من الرق ومن العلق ٢٠٨ ، الوصاية
المركبة — الشهود ٢١٢ ، من الدين ومن الإكراه
بالربا ٢١٦ ، من الزنا ومن الإغتصاب ٢١٩ ، من
السرقه والقتل وعن الفصل ٢٢١ .

الفصل السادس : من التجارة والصناعة والزراعة ٢٢٩ — ٢٦٦
تجارة مصر منذ المصور القديمة وحتى اليوم ٢٣١ ،
من حالة الصناعة ٢٥١ ، من الزراعة ومن
الفلانين ٢٥٦ ، من الحرف ٢٦١ .

الأصل : نبذة من الجيل الذي ينتمي عند مولد الأبطال
٢٦٦ . جيل المصريين واللوبيين بخصوص رسم
المصور الإنسانية ٢٧٠ ، من الأماشي لو مسخرة
التمارين ٢٧١ .

تكتيب الثاني : دراسات تكميلية ٢٨٥
مذكرات المسير ناكوك بخصوص امثلة طبع وصف
مصر وليس الرسوم الملكتي المسافر من لويس ٢٨٥
بمذا الخصوص ٢٧٧ — ٢٨٢ .

الدراسة الأولى : دراسة موجزة حول البنية الجسمية
٢٨٥ — ٢٩٢ . للمصريين تكلم الهليون لاري

الدراسة الثانية : مصر والحياة الفرنسية . بتعبه
٢٩٥ — ٣٧٢ . تاريخية بقلم المسير لوريه

كتب أخرى للمترجم

أولاً -

في مجال الأدب :

- ١ - المطاردون. (مجموعة قصص قصيرة). القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.
- ٢ - حكايات من عالم الحيوان ملحق خاص من مجلة الثقافة الأسبوعية لعام ١٩٧٤.
- ٣ - المصيلة. (مجموعة قصص قصيرة). روايات الهلال، ١٩٧٤.
- ٤ - موتى بلا قبور، تأليف جان بول سارتر. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.
- ٥ - السماء تمطر ماء جافاً القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩.
- (كتاب أكتوبر - رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها)

ثانياً -

في مجال التاريخ :

- ٦ - تطور مصر من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٠، تأليف مارسيل كولومب. ط ٢. القاهرة، مديبولي، ١٩٨٥.
- ٧ - فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العشوائية، تأليف أندريه زينون. ط ٢. القاهرة، مديبولي، ١٩٨٥.
- الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر.
- ٨ - المصريون المحلثون، تأليف علماء الحملة الفرنسية ط ٢. القاهرة، مديبولي، ١٩٨٥. مج ١.
- ٩ - الحرب في ريف مصر وصحراواتها، تأليف علماء الحملة الفرنسية. ط ٢. القاهرة، مديبولي، ١٩٨٥، مج ٢.
- ١٠ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، تأليف علماء الحملة

- الفرنسية. ط ٢. مديبولي، ١٩٨٥، مج ٣.
- ١١ - موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر،
 ح-١: الزراعة، الصناعات والحرف، التجارة، تأليف ب.
 من. جبرار. ط ٢. القاهرة، مديبولي، ١٩٨٥، مج ٤.
- ١٢ - الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، ح-٢:
 النظام المالي والإداري في مصر العثمانية، تأليف علماء
 الحملة الفرنسية. ط ٢. القاهرة. مديبولي، ١٩٨٥، مج ٥.
- ١٣ - الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، ح-٣:
 المولدين والنقود، تأليف صامويل برنار. ط ٢. القاهرة،
 مديبولي، ١٩٨٥، مج ٦.
- ١٤ - الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين، تأليف علماء
 الحملة الفرنسية. ط ٢. القاهرة. مديبولي، ١٩٨٥، مج ٧.
- ١٥ - الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين، تأليف فيوتو.
 ط ٢. القاهرة، مديبولي، ١٩٨٥، مج ٨.
- ١٦ - الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين،
 تأليف علماء الحملة الفرنسية. القاهرة، مديبولي، ١٩٨٦.
 مج ٩.
- ١٧ - المجلد الأول والثاني للوحات الدولة الحديثة من موسوعة
 وصف مصر.

رابعاً - تحت الطبع :

- بقية مجلدات لوحات موسوعة وصف مصر.

- موسوعة مدينة القاهرة :

مدينة القاهرة وقلعتها.

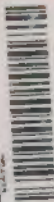
مقاييس الروضة.

الدولة المملوكية.

جامع أحمد بن طولون.

النقوش العربية على مباني القاهرة.

Abdoulleux Alesadibina



0333923

BOUDDI

مکتبہ اسلامیہ

Page 30, 7/1/13

۹ میدان طلعت حسرت، کراچی ۷۴۱۱۱